تفسير القاسمي

المسمى

محاسن التأويل

تأليف

الإمام العلامة محمد جمال الدين القاسمي
المتوفى سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م

ضبطه وصححه وخرج آياته وأحاديثه
محمد باسل عيون السود

المحتوى

من أول سورة الروم - إلى آخر سورة الحجرات

الجزء الثامن

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الثانية
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

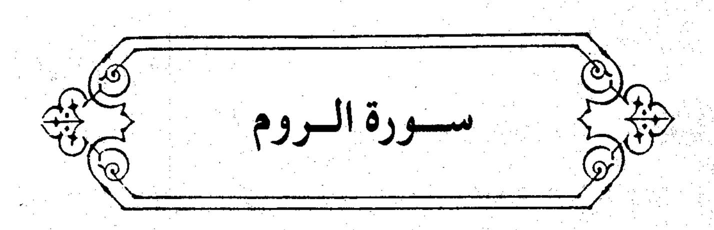
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-0551-5
90000>
9782745105516

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم



ســـورة الـــروم

قال المهايميّ: سميت بها لاشتمال قصتها على معجزة تفيد للمؤمنين فرحاً عظيماً، بعد ترح يسير. فتبطل شماتة أعدائهم. وتدل على أن عاقبة الأمر لهم. وهذا من أعظم مقاصد القرآن.

وهي مكية. وآيها ستون آية.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑤ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ⑥﴾

﴿آلٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أدنى الأرضِ وَهُم مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على أن ملك فارس كان غزا بلاد الشام وفتح دمشق وبيت المقدس، الأولى سنة ٦١٣، والثانية سنة ٦١٤. أي قبل الهجرة النبوية بسبع سنين - فحدث أن بلغ الخبر مكة. ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين، وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب. ونحن وفارس وثنيون. وقد ظهر إخواننا على إخوانكم. ولنظهرنّ عليكم. فنزلت الآية، فتليت على المشركين. فأحال وقوع ذلك بعضُهم. وتراهن مع الصديق رضي اللّه عنه على مائة قلوص، إن وقع مصداقها. فلم يمض من البضع - وهو ما بين الثلاث إلى التسع - سبع سنين إلا وقد نظم هرقل جنود الروم وغزا بهم بلاد فارس سنة ٦٢١. أي قبل الهجرة بسنة. فدوّخها، واضطر ملكها للهرب. وعاد هرقل بالغنائم الوافرة. ولا ريب أن ذلك أعظم معجزات القرآن. أعني إخباره عن غيب وقع مصداقه، واستبان للجاحدين من نوره إشراقه. وفي ضمنه، أن سائر غيوبه كذلك من ظهور الإسلام على الدين كله، وزهوق الباطل، وعلوّ الحق، وجعل المستضعفين أئمة، وإيراثهم أرض عدوّهم، إلى غير ذلك. وما ألطف ما قال الزبير الكلائيّ: رأيت غلبة فارس الرومَ. ثم رأيت غلبة الرومْ فارسَ. ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم. كل ذلك في خمس عشرة سنة - من أواخر غلبة فارس إلى أوائل غلبة المسلمين - والأرض (كما قال الزمخشريّ) أرض العرب. لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم. والمعنى: غلبوا في أدنى أرض العرب أي أقربها منهم، وهي أطراف الشام **﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾** أي من قبل غلبة فارس

على الروم ﴿وَمِن بَعْدُ﴾ أي من بعد غلبة الروم على فارس. ويقال: لله العلم والقدرة والمشيئة من قبل إبداء الخلق، ومن بعد إفناء الخلق. والمعنى: أن كلاً من كونهم مغلوبين أولاً، وغالبين آخراً، ليس إلا بأمره وقضائه، وعلمه ومشيئته. كما قال تعالى ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ يغلب الروم على فارس، ويحل ما وعده الله تعالى من غلبتهم ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ أي تغليبه من له كتاب، على من لا كتاب له. وغيظ من شمت بهم من كفار مكة. ويقال: نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين ﴿يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ أي من عباده على عدوّه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي القاهر الغالب على أمره، لا يعجزه من شاء نصره ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي من نصره وتغليبه من يشاء ﴿وَعْدَ اللَّهِ، لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي بحكمته تعالى، في كونه وأفعاله المحكمة، الجارية على وفق العدل، لجهلهم وعدم تفكرهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو ما يوافق شهواتهم وأهواءهم ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ﴾ أي التي هي المطلب الأعلى ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ أي لا يُخْطِرونها ببالهم. فهم جاهلون بها تاركون لعملها.

لطائف:

قال الزمخشريّ: قوله تعالى ﴿يعلمون﴾ بدل من قوله (لا يعلمون) وفي هذا الإبدال من النكتة، أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه، ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا. وقوله ﴿ظَاهِراً﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً. فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها. وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة. انتهى.

وناقش الكرخيّ في إبدال ﴿يَعْلَمُونَ﴾ قال: إن الصناعة لا تساعد عليه. لأن بدل فعل مثبت، من فعل منفيّ لا يصح. واستظهر قول الحرفيّ؛ أن ﴿يَعْلَمُونَ﴾ استئناف في المعنى.

وأشار الناصر إلى جوابه بأن في تنكير ﴿ظَاهِراً﴾ تقليلاً لمعلومهم. وتقليله يقربه من النفي. فيطابق المبدل منه.

أقول: التقليل هو الوحدة المشار لها بقول الزمخشريّ (وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً، من جملة الظواهر).

أما قول أبي السعود: وتنكير ﴿ظَاهِراً﴾ للتحقير والتخسيس دون الوحدة كما توهم، فغفلة عن مشاركتها للتعليل الذي به يطابق البدل المبدل منه. فافهم.

ثم أنكر عليهم قصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا، مع الغفلة عن الآخرة بقوله ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي يحدثوا التفكر في أنفسهم، الفارغة من الفكر والتفكر. فالمجرور ظرف للتفكر، ذكره لزيادة التصوير. إذ الفكر لا يكون إلا في النفس. والتفكر لا متعلق له، لتنزيله منزلة اللازم. وجوز كون المجرور مفعول (يتفكروا) لأنه يتعدى بـ (في) أي: أو لم يتفكروا في أمر أنفسهم. فالمعنى حثهم على النظر في ذواتهم وما اشتملت عليه من بديع الصنع، وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّه السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ متعلق بقولٍ أو علمٍ، يدل عليه السياق. أي: ألم يتفكروا فيقولوا أو فيعلموا. وقال السمين: (ما) نافية. وفي هذه الجملة وجهان: أحدهما – أنها مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها. والثاني – أنها معلقة للتفكر. فيكون في محل نصب على إسقاط الخافض. انتهى. والباء في قوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ للملابسة. أي ما خلقها باطلاً ولا عبثاً بغير حكمة بالغة، ولا لتبقى خالدة. وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحق ﴿وَأَجَلٍ مُسَمّىً﴾ أي وبتقدير أجل مسمى، لا بدّ لها من أن تنتهي إليه. وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب. ولذا عطف عليه قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ

قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأَرْضَ﴾ أي قلبوها للزراعة واستخراج المعادن وغيرهما، مما كانوا أرقى فيه من أهل مكة **﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾** أي بالأبنية المشيدة.

والصناعات الفريدة، ووفرة العَدد والعُدد، وتنظيم الجيوش والتزيّن بزخارف أعجبوا بها، واستطالوا بأبهتها. ففسدت ملكاتهم، وطغت شهواتهم، حتى اقتضت حكمته تعالى إنذارهم بأنبيائهم، كما قال: **﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾** أي الآيات الواضحات على حقيقة ما يدعونهم إليه **﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾** أي فكذبوهم فأهلكهم. فما كان الله ليهلكهم من غير جرم منهم **﴿وَلَكِن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُواْ﴾** أي عملوا السيئات **﴿السُّوأَى﴾** أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة، وهي جهنم. و **﴿السُّوأَى﴾** تانيث (الأسوأ)، وهو الأقبح. كما أن (الحسنى) تانيث (الأحسن) ثم علل سوء عاقبتهم بقوله تعالى **﴿أَن﴾** أي لأن **﴿كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ﴾** أي ينشئهم **﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾** أي بعد الموت بالبعث **﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** أي إلى موقف الحساب والجزاء **﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾** أي يسكتون متحيرين يائسين. يقال (أبلس) إذا سكت وانقطعت حجته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

﴿وَلَمْ يَكُن لَهُمْ مِن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُاْ﴾ أي يجيرونهم من عذاب الله كما كانوا يزعمون **﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾** أي بإلهيتهم وشركتهم لله تعالى، حيث وقفوا على كنه أمرهم **﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾** أي يتميز المؤمنون والكافرون في المحالّ والأحوال **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾** أي يسرّون **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾** أي لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم **﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾** لما ذكر الوعد والوعيد، تاثره بما هو

وسيلة للفوز والنجاة، من تنزيهه تعالى عما لا يليق به، والثناء عليه بصفاته الجميلة، وأداء حق العبودية، و (الفاء) للتفريع فكأنه قيل: إذا صحّ واتضح عاقبة المطيعين والعاصين، فقولوا: نسبح سبحان الخ. والمعنى فسبحوه تسبيحاً دائماً. (وسبحان) خبر في معنى الأمر بتنزيه اللّه تعالى وحمده. أي الثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته، وتتجدد فيها نعمته. وقوله تعالى ﴿وَعَشِيّاً﴾ معطوف على ﴿حِينَ﴾ وتقديمه على ﴿حِينَ تُظْهِرُونَ﴾ لمراعاة الفواصل. وقوله ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ معترض بينهما. والمراد بثبوت حمده فيهما، استحقاقه الحمد ممن له تمييز من أهلهما. قال أبو السعود: والإخبار بثبوت الحمد له ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض، في معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده. وتوسيطه بين أوقات التسبيح، للاعتناء بشأنه، والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما. كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨]، وقد روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما؛ أن الآية جامعة للصلوات الخمس: (تمسون) صلاة المغرب والعشاء. و (تصبحون) صلاة الفجر. و (عشياً) صلاة العصر و (تظهرون) صلاة الظهر. فإن قيل: لم غيَّر الأسلوب في (عشياً)؟ أجيب (كما قال أبو السعود) بأن تغير الأسلوب لما أنه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول في العشيّ. كالمساء والصباح والظهيرة. ولعل السرّ في ذلك أنه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوال الناس، وتتغير تغيراً ظاهراً مصححاً لوصفهم بالخروج عما قبلها، والدخول فيها، كالأوقات المذكورة. فإن كلاً منها وقت تتغير فيه الأحوال تغيراً ظاهراً. أما في المساء والصباح فظاهر. وأما في الظهيرة فلأنها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة. كما مرّ في سورة النور. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي كالإنسان من النطفة، والطائر من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كالنطفة والبيضة من الحيوان ﴿وَيُحْيِ الْأَرْضَ﴾ أي بالنبات

﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يبسها ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ أي من قبوركم.

وقال المهايميّ: أي: بالصلاة عن موت القلب إلى حياته، ومن حياة النفس إلى موتها. ويحيي أرضها بنبات الهيئات الفاضلة، بعد موتها بالهيئات الرديئة. وبالعكس بتركها. وآثر هذا المعنى، على بعده، مراعاة لسياق الآية، من طريق الإشارة ﴿وَمِنْ ءايَاتِه﴾ أي الباهرة الدالة على قدرته على البعث ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِن تُرابٍ﴾ أي يعني أصلكم آدم عليه السلام. أو النطفة والمادة. أو على تقدير مضاف. أي ولا مناسبة بين التراب وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُم بَشَرٌ تنتَشِرُونَ﴾ أي في الأرض انتشاراً ملأ البسيطة وشمل الكرة. فأخذتم في بناء المدائن والحصون، والسفر في أقطار الأقاليم، وركوب متن البحار، والدوران حول كرة الأرض، وكسب الأموال وجمعها، مع فكرة ودهاء، ومكر وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة. كل بحسبه. فسبحان من خلقهم وسيّرهم، وصرّفهم في فنون المعايش وفاوت بينهم في العلوم والمعارف، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة ﴿وَمِنْ ءايَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي جنسكم ﴿أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا﴾ أي تأنسوا بها. فإن المجانسة من دواعي التضامّ والتعارف ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي توادّاً وتراحماً بعصمة الزواج، بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ﴾ أي في بدائع هذه الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

﴿وَمِنْ ءايَاتِه خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ أي أولي العلم كما قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]،

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي لاستراحة القوى وردّ ما فقدته ﴿ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي بالسعي في الأسباب، والأخذ في فضل الاكتساب ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي سماع تفهم واستبصار ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً ﴾ أي من الصاعقة ﴿ وَطَمَعاً ﴾ أي في الغيث والرحمة. أو لتخافوا من قهر سلطانه، وتطمعوا في عظيم إحسانه ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ ﴾ أي بالنبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي يبسها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ أي إرادته لقيامهما. قال أبو السعود: والتعبير عنها بالأمر، للدلالة على كمال القدرة، والغنى عن المبادئ والأسباب. وليس المراد بإقامتهما إنشاؤهما. لأنه قد بيّن حاله بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الروم: ٢٢]، ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس، كما قيل. فإن ذلك من تتمات إنشائهما، وإن لم يصرح به. تعويلاً على ما ذكر في غير موضع من قوله تعالى ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان: ١٠] الآية. بل قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه، إلى أجلهما الذي نطق به قوله تعالى فيما قبل ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الروم: ٨]، وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة، متصلة بالبعث في الوجود، أخرت عنهن وجعلت متصلة به في الذكر أيضاً، فقيل: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ فإنه كلام مسوق للإخبار بوقوع البعث ووجوده، بعد انقضاء أجل قيامهما، مترتب على تعداد آياته الدالة عليه، غير منتظم في سلكها كما قيل. كأنه قيل: ومن آياته قيام السموات والأرض على هيآتهما بأمره تعالى، إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما. ثم إذا دعاكم. أي بعد انقضاء الأجل من الأرض وأنتم في قبوركم، دعوة واحدة، بأن قال: أيها الموتى! اخرجوا، فاجأتم الخروج منها، وذلك قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ﴾ [طه: ١٠٨]، انتهى.

لطائف:

الأولى – الدعاء. إما على حقيقته، أو الكلام تمثيل. شبّه سرعة ترقب حصول ذلك، على تعلق إرادته بلا توقف، واحتياج إلى تجشم عمل، بسرعة ترقب إجابة الداعي المطاع على دعائه. أو هو مكنية وتخييلية، بتشبيه الموتى بقوم يريدون الذهاب إلى محل ملك عظيم يتهيؤون لذلك، وإثبات الدعوة لهم قرينتها.

الثانية – قوله تعالى ﴿ مِنَ الأَرْضِ ﴾ متعلق بـ (دعا) كقوله: دعوته من أسفل

الوادي فطلع إليّ، لا بـ(تخرجون) لأن ما بعد (إذا) لا يعمل فيما قبله.

الثالثة – قال الكرخيّ: قال هنا ﴿ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ وقال في خلق الإنسان ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُون ﴾ [الروم: ٢٠]، لأنه هناك يكون خلق وتقدير وتدريج، حتى يصير التراب قابلاً للحياة، فنفخ فيه الروح، فإذا هو بشر. وأما في الإعادة فلا يكون تدريج بل يكون بدء وخروج. فلم يقل هنا: (ثم). انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

﴿ **وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ أي خلقاً وملكاً وتصرفاً ﴿ **كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ** ﴾ أي منقادون لتصرفه، لا يتأبون عليه ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** ﴾ أي بعد موتهم. قال أبو السعود: وتكريره لزيادة التقرير، والتمهيد لما بعده من قوله تعالى ﴿ **وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** ﴾ أي من البدء. أي بالقياس إلى من يقتضيه معقول المخاطبين. لأن من أعاد منهم صنعة شيء، كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها. وإلا فهما عليه سبحانه سواء في السهولة.

لطائف:

الأولى – تذكير الضمير، مع رجوعه إلى الإعادة، لما أنها مؤولة بـ(أن يعيد).

الثانية – قال الزمخشريّ: فإن قلت: لِمَ أخرت الصلة في قوله ﴿ **وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** ﴾ وقدمت في قوله ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم:٩و١٢]؟ قلت: هناك قصد الاختصاص، وهو محزّه. فقيل ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾[مريم:٩و٢١]، وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين همّ وعاقر. وأما ههنا، فلا معنى للاختصاص كيف؟ والأمر مبنيّ على ما يعقلون، من أن الإعادة أسهل من الابتداء. فلو قدمت الصلة، لتغيّر المعنى.

قال الناصر: كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر، لا بالحبر. وإنما يلقى الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر.

الثالثة – قال الزمخشريّ: فإن قلت ما بال الإعادة استعظمت في قوله: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ [الروم:٢٥]، حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض بأمره، ثم

هونت بعد ذلك؟ قلت: الإعادة في نفسها عظيمة. لكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء. انتهى.

قال الناصر: إنما يلقي في السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بـ (ثم) إيذاناً بتغاير مرتبتها وعلوّ شأنها. وقوله (في الجواب): إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء، لا يخلص. فن الإعادة ذكرت ههنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره. وقيامهما ابتداء وإنشاء أعظم من الإعادة. فيلزم تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه من الإنشاء. ويعود الإشكال. والمخلص، والله أعلم، جعل (ثم) على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب. وإن سلم أنها لتراخي المراتب، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا، ومرتبة المعطوف هي الدنيا. وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب. فإن المعطوف حينئذ في أكثر المواضع، أرفع درجة من المعطوف عليه، والله أعلم. انتهى.

وفي حواشي القاضي: إن (ثم) إما لتراخي زمان المعطوف فتكون على حقيقتها. أو لعظم ما في المعطوف من إحياء الموتى، فتكون للتفاوت في الرتبة لا للتراخي الزمانيّ. والمراد عظمه في نفسه وبالنسبة إلى المعطوف عليه. فلا ينافي قوله ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وكونه أعظم من قيام السماء والأرض، لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء، وبه استقرار السعداء والأشقياء في الدرجات والدركات. وهو المقصود من خلق الأرض والسموات. فاندفع اعتراض الناصر بأنه، على تسليمه، مرتبةُ المعطوف عليه هنا هي العليا، مع أن كون المعطوف في مثله أرفع درجة، أكثريّ لا كليّ. كما صرح به الطيبيّ هنا. فلا امتناع فيما منعه. وهي فائدة نفيسة. ويجوز حمله على مطلق البعد الشامل للزمانيّ والرتبيّ كما في (شرح الكشاف) وقوله تعالى ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيهما. كالقدرة العامة والحكمة التامة. وذلك لأنه لما جعل ما ذكر أهون عليه على طريق التمثيل، عقبه بهذا. فكأنه قيل هذا، لتفهم العقول القاصرة أن صفاته عجيبة وقدرته عامة وحكمته تامة. فكل شيء بدءاً و إعادةً وإيجاداً وإعداماً، عنده على حد سواء، ولا مثل له ولا ند. وقال الزجاج: المراد بالمثل قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ فاللام فيه للعهد. فحمل المثل على ظاهره. وعلى ما ذكر أولاً، هو مجاز عن الوصف العجيب. فيشمل القول وغيره مما هو جار على ألسنة الدلائل ولسان كل قائل. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب على أمره، الذي لا يعجزه بدء ممكن وإعادته ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يجري أفعاله على سنن الحكمة والمصلحة.

القول في تأويل قوله تعالى:

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

﴿ضَرَبَ لَكُم مَثلاً﴾ أي يتبيّن به بطلان الشرك ﴿مِنْ أنفُسكُمْ﴾ أي منتزعاً من أحوالها. وهي أقرب الأمور إليكم وأظهر كشفاً ﴿هَل لَكُم مِن مَا مَلَكَتْ أَيمَانُكم﴾ أي من العبيد والإماء ﴿مِن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي من الأموال وغيرها ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي متساوون في التصرف فيما ذكر من غير مزية ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أي تهابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم. وهو خبر آخر لـ (أنتم) ﴿كَخِيفَتِكُمْ أنفُسَكُمْ﴾ أي كما يخاف بعضكم بعضاً من الأحرار المساهمين لكم فيما ذكر. والمعنى نفي مضمون ما فصّل من الجملة الاستفهامية. أي: لا ترضون بأن يشارككم فيما هو معار لكم مماليككم، وهم أمثالكم في البشرية، غير مخلوقين لكم، بل للّه تعالى. فكيف تشركون به سبحانه في المعبودية، التي هي من خصائصه الذاتية، مخلوقه بل مصنوع مخلوقه، حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه؟ أفاده أبو السعود ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أي مثل ذلك التفصيل الواضح، توضح الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي يقين وبرهان ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي سبب صرف اختياره إلى كسبه. أي: لا يقدر على هدايته أحد ﴿وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ﴾ أي ينصرونهم من اللّه، إذا أراد بهم عذاباً.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّين﴾ أي فقوّمه له، واجعله مستقيماً متوجهاً له. وفي النظم الكريم استعارة تمثيلية، بتشبيه المأمور بالتمسك بالدين ورعاية حقوقه وعدم مجاوزة حدوده والاهتمام بأموره، بمن أمر بالنظر إلى أمر، وعقد طرفه به، وتسديد

نظره وتوجيه وجهه له، لمراعاته والاهتمام بحفظه ﴿حَنِيفاً﴾ أي مائلاً عن كل ما سواه، إليه. قال المهايميّ: ولا يعسر الرجوع إليه لكونه ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي لأن عقل كل واحد يدل على أنه حادث يفتقر إلى محدث. ولا دلالة على الافتقار إلى متعدد أبداً. فالقول بتعدده تغيير للفطرة. لكن ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي لا تغيير لأمر العقل الذي خلقه اللّه للاستدلال ﴿ذَلِكَ﴾ أي الدين المأمور بإقامة الوجه له، أو الفطرة ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي المستقيم الذي لا عوج فيه. قال المهايميّ: وإن لم يقم عند المبدلين دليل على استحالة التعدد، فهذا هو مقتضى الفطرة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي أنه مقتضى الفطرة. وهي أقطع قاطع وأحسم حاسم لشغب المشاغب. لأنها من الأمور التي لا تدخل تحت الكسب والاختيار. وقوله تعالى ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إليه بالتوبة والإنابة ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وهو حال من فاعل (الزموا) المقدَّر ناصباً لـ (فطرة) أو من فاعل (أقم) على المعنى. إذ لم يرد به واحد بعينه. أو لأن الخطاب له ﷺ ولأمته. أو على أنه على حذف المعطوف عليه. أي: أقم أنت وأمتك. والحال من الجميع ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ أي جعلوه أدياناً مختلفة، لاختلاف أهوائهم ﴿وَكَانُواْ شِيَعاً﴾ أي فرقاً ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي كل حزب منهم فرح بمذهبه، مسرور، يحسب باطله حقاً.

قال القاشانيّ: يعني المفارقين الدين الحقيقيّ، المتفرقين شيعاً مختلفة، كل حزب عند تكدّر الفطرة، وتكاثف الحجاب، يفرح بما يقتضيه استعداده من الحجاب، لكونه مقتضى طبيعة حجابه. فيناسب حاله من الاستعداد العارضي، وإن لم يلائم الحقيقة بحسب الاستعداد. ولهذا يجب به التعذيب عند زوال العارض.

ثم احتج عليهم برجوعهم إليه عند الشدائد، مما يحمل أن يرجع إليه بعبادته دائماً، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي شدة ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إليه وحده دون شركائهم ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي خلاصاً من تلك الشدة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُون لِيَكْفُرُواْ بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ أي بالسبب الذي آتيناهم الرحمة من أجله، وهو الإنابة. واللام للعاقبة. وقيل: للأمر التهديديّ كقوله تعالى ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة تمتعكم ووباله ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً﴾ أي حجة واضحة قاهرة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أي تكلم دلالة. كما في قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٩]، ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أي بإشراكهم. وهذا استفهام إنكار. أي: لم يكن شيء من ذلك ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي نعمة من صحة وسعة ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ أي بطراً وفخراً، لا حمداً وشكراً ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُ﴾ أي شدة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي من المعاصي والآثام ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي ييأسون من روح الله. قال: هذا إنكار على الإنسان من حيث هو، إلاّ من عصمه الله تعالى ووفقه. فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود:١٠]، أي يفرح في نفسه، يفخر على غيره. وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل بعد ذلك خير بالكلية قال الله تعالى ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ [هود:١١]، أي: صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء. كما ثبت في الصحيح[1]: عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له. إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له. وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قال الزمخشريّ: أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض. فما لهم يقنطون من رحمته، وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها، حتى يعيد إليهم رحمته؟

ولما بيّن تعالى أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل، وما يجب أن يترك، بقوله:

(١) أخرجه مسلم في: الزهد والرقائق، حديث رقم ٦٤.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ أي من البر والصلة. واستدل به أبو حنيفة رحمه الله على وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب. لأن (آت) أمر للوجوب. والظاهر من (الحق) بقرينة ما قبله أنه ماليّ، وهو استدلال متين ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه. أو له شيء لا يقوم بكفايته ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي السائل فيه، والذي انقطع به. وحقهما هو نصيبهما من الصدقة والمواساة ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي النظر إليه يوم القيامة. وهو الغاية القصوى. أو يريدون ذاته بمعروفهم لا رياء ولا سمعة، ولا مكافأة يد. كما قال تعالى ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ [الليل: ١٨-٢٠]، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِن رِباً﴾ أي مال ترابون فيه ﴿لِيَرْبُواْ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ أي ليزيد في أموالهم، إذ تأخذون فيه أكثر منه ﴿فَلاَ يَرْبُواْ عِندَ اللَّهِ﴾ أي لا يزكو ولا ينمو ولا يبارك فيه. بل يمحقه محق ما لا عاقبة له عنده إلا الوبال والنكال. وذكر في تفسيرها معنى آخر، وهو أن يهب الرجل للرجل، أو يهدي له ليعوّضه أكثر مما وهب أو أهدى. فليست تلك الزيادة بحرام. وتسميتها ربا مجاز، لأنها سبب الزيادة.

قال ابن كثير: وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه. إلا أنه نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قال الضحاك، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦]، أي لا تعط العطاء، تريد أكثر منه. وقال ابن عباس: الربا رباءان، فربا لا يصح، يعني ربا البيع، وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل، يريد فضلها وإضعافها. انتهى.

وأقول: في ذلك كله نظر من وجوه:

الأول - أن هذه الآية شبيهة بآية ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وهي في ربا البيع الذي كان فاشياً في أهل مكة حتى صار ملكة راسخة فيهم، امتصوا بها ثروة كثير من البؤساء، مما خرج عن طور الرحمة والشفقة والكمال

البشريّ. فنعى عليهم حالهم، طلباً لتزكيتهم بتوبتهم منه. ثم أكّد ذلك في مثل هذه الآية. مبالغة في الزجر.

الثاني – أن الربا، على ما ذكر، مجاز. والأصل في الإطلاق الحقيقة، إلا لصارف يرشد إليه دليل الشرع، أو العقل. ولا واحد منهما هنا، إذ لا موجب له.

الثالث – دعوى أن الهبة المذكورة مباحة، لا بأس بها بعد كونها هي المرادة من الآية – بعيدة غاية البعد. لأن في أسلوبها من الترهيب والتحذير ما يجعلها في مصافّ المحرمات. ودلالة الأسلوب من أدلة التنزيل القوية، كما تقرر في موضعه.

الرابع – زعمُ أن المنهيّ عنه هو الحضرة النبوية خاصة، لا دليل عليه إلاّ ظاهر الخطاب. وليس قاطعاً.

لأن اختصاص الخطاب لا يوجب اختصاص الحكم على التحقيق. لا يقال الأصل وجوب حمل اللفظ على حقيقته، وحملُه على المجاز لا يكون إلا بدليل، وكذا ما يقال إن ثبوت الحكم في غير محل الخطاب يفتقر إلى دليل – لأنا نقول: الأصل في التشريعات العموم، إلا ما قام الدليل القاطع على التخصيص بالتنصيص، وليس منه شيء هنا. وقد عهد في التنزيل تخصيصٌ مرادٌ به التعميم إجماعاً. كآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وأمثالها.

الخامس – أن في هذا المنهيّ عنه من إصعاد المرء إلى ذروة المحسنين الأعفّاء، الذين لا يتبعون قلوبهم نفقتهم، ما يبيّن أنه شامل لسائرهم. لما فيه من تربية إرادتهم وتهذيب أخلاقهم. بل لو قيل إن الخطاب له صلوات اللّه عليه، والمراد غيره، كما قالوه في كثير من الآي – لم يبعد. لما تقرر من عصمته ونزاهته عن هذا الخلق، في سيرته الزكيّة. وحينئذ فالوجه في الآية هو الأول، وعليه المعوّل. واللّه أعلم ﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِن زَكَاةٍ﴾ أي مال تتزكون به من رجس الشح ودنس البخل ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي ذوو الأضعاف من الثواب. جمع (مضعف) اسم فاعل (من أضعف) إذا صار ذا ضعف، (بكسر فسكون) بأن يضاف له ثواب ما أعطاه. (كأقوى وأيسر) إذا صار ذا قوة ويسار. فهو لصيرورة الفاعل ذا أصله. أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة ما أنفقوا. على أنه من (أضعف) والهمزة للتعدية، ومفعوله محذوف، وهو ما ذكر.

القول في تأويل قوله تعالى:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال القاضي: أثبت له تعالى لوازم الألوهية، ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها. مؤكداً بالإنكار على ما دل عليه البرهان والعيان، ووقع عليه الوفاق. ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي كثرة المضار والمعاصي على وجه الأرض وعلى ظهر السفن في لجج البحر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي من الآثام والموبقات ففشا الفساد وانتشرت عدواه وتوارثه جيل عن جيل أينما حلوا وحيثما ساروا ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ اللام للعاقبة. أي ظهور الشرور بسببهم، مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم، إرادة الرجوع. وقيل اللام للعلة، على معنى أن ظهور الجدب والقحط والغرق بسبب شؤم معاصيهم، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا، قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة، لعلهم يرجعون عما هم عليه. كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُشْرِكِينَ﴾ أي فأذاقهم سبحانه سوء العاقبة، لشركهم المستتبع لكل إثم وعصيان ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي لا يقدر أحد على ردّه. وقوله ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ متعلق بـ (يأتي) أو بـ (مردّ) لأنه مصدر على معنى لا يرده تعالى، لتعلق إرادته بمجيئه. وفيه انتفاء رد غيره بطريق برهانيّ. وقيل عليه، لو كان كذلك لزم تنوينه لمشابهته للمضاف. وأجيب بأن الشبيه بالمضاف قد يحمل في ترك تنوينه. كما في الحديث (لا مانع لما أعطيت) ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي يتفرقون كالفَراش المبثوث، أو فريق في الجنة وفريق في السعير كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤].

القول في تأويل قوله تعالى:

مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

﴿**مَن كفرَ فعلَيْه كُفْرُهُ**﴾ أي وبال كفره. قال الزمخشريّ: كلمة جامعة، لما لا غاية وراءه من المضارّ. لأن من كان ضارّه كفره، فقد أحاطت به كل مضرة ﴿**وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأنفسهِمْ يَمْهَدُونَ**﴾ أي يسوّون منزلاً في الجنة. أي يوطئونه توطئة الفراش لمن يريد الراحة عليه ﴿**لِيجْزِيَ الّذين ءامَنُواْ وعَمِلُواْ الصَّالحاتِ من فضْله إنَّهُ لاَ يُحبُّ الكافِرين**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

﴿**ومَنْ ءاياته أن يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّرات**﴾ أي بالمطر ﴿**ولِيُذيقكُم من رَّحْمَته لتَجْريَ الفُلْكُ بأمْره**﴾ أي في البحر عند هبوبها ﴿**ولِتبْتغُواْ من فضْله**﴾ أي بتجارة البحر ﴿**ولَعلَّكُمْ تشْكُرُونَ**﴾ أي ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر ﴿**ولَقَدْ أَرْسَلْنا من قَبْلكَ رُسُلاً إلى قوْمهِمْ فجاءُوهُم بالْبيِّنات فانتقَمْنا من الّذينَ أجْرَمُواْ وكانَ حقّاً علَيْنا نصْرُ الْمُؤْمنين**﴾ هذه تسلية له ﷺ بمن قبله على وجه يتضمن الوعد له والوعيد لمن عصاه.

قال الزمخشريّ: في قوله تعالى: ﴿**وكَانَ حقّاً علَيْنا نصْرُ الْمُؤْمنين**﴾ تعظيم للمؤمنين. ورفع من شأنهم، وتأهيل لكرامة سنية، وإظهار لفضل سابقة ومزية. حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ إما سائراً وواقفاً، مطبقاً وغير مطبق، من جانب دون جانب، إلى غير ذلك **﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً﴾** أي قطعاً تارة أخرى **﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾** أي المطر **﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾** أي المطر **﴿مِن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾** أي لآيسين. قال الزمخشريّ: من قبله، من باب التكرير والتوكيد، كقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ [الحشر:١٧]، ومعنى التوكيد فيه، الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد، فاستحكم يأسهم وتمادى إبلاسهم. فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك. انتهى.

وعكسه ابن عطية رحمه الله فقال: إنه يدل على سرعة تقلب القلوب البشرية من الإبلاس إلى الاستبشار.

قال الشهاب: وما ذكره ابن عطية أقرب. لأن المتبادر من القبلية الاتصال. وتأكيده دال على شدة اتصاله **﴿فَانظُرْ إِلَى ءَاثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾** أي أثر الغيث من النبات والأشجار والحبوب والثمار **﴿كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ﴾** أي العظيم الشأن الذي ذكر بعض شؤونه **﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً﴾ على الزرع **﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً﴾** أي من تأثيرها فيه **﴿لَظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾** أي من بعد اصفراره يجحدون ما تقدم إليهم من النعم، أو يقنطون ولا يصبرون على بلائه. وفيه من ذمهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكرهم وسوء رأيهم - ما لا يخفى.

ثم أشار تعالى إلى أن من أنكر قدرته على إحياء الزرع بعد اصفراره، وقد رأى قدرته على إحياء الأرض بعد موتها، فهو ميت لا يمكن إسماعه خبر إحياء الموتى، بقوله سبحانه **﴿فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾** أي لما أن هؤلاء مثلهم، لا نسداد مشاعرهم عن الحق **﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾** قال أبو السعود: تقييد الحكم بما ذكر، لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتي السوء، نبوّ

أسماعهم عن الحق، وإعراضهم عن الإصغاء إليه. ولو كان فيهم إحداهما، لكفاهم ذلك. فكيف وقد جمعوهما؟ ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ﴾ أي ما تسمع ﴿إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي منقادون لما تأمرهم به من الحق.

تنبيه:

قال ابن كثير: وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ﴿فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾، على توهيم[١] عبد الله بن عمر في رواية مخاطبة النبيّ ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر، بعد ثلاثة أيام، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم. حتى قال له عمر: يا رسول الله! ما تخاطب من قوم قد جيّفوا؟ فقال: والذي نفسي بيده! ما أنتم بأسمع لما أقول، منهم. ولكن لا يجيبون. وتأولته عائشة على أنه قال: إنهم الآن يعلمون أن ما كنت أقول لهم حق.

وقال قتادة: أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته، تقريعاً وتوبيخاً ونقمة.

ثم قال ابن كثير: والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة. من أشهر ذلك، ما رواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً (ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه في الدنيا،فيسلّم عليه إلا ردّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام). انتهى.

وقال ابن الهمام: أكثر مشايخنا على أن الميت لا يسمع استدلالاً بهذه الآية ونحوها. ولذا لم يقولوا: بتلقين القبر. وقالوا: لو حلف لا يكلم فلاناً، فكلمه ميتاً لا يحنث. وأورد عليهم قوله ﷺ في أهل القليب (ما أنتم بأسمع منهم) وأجيب تارة بأنه روي عن عائشة رضي الله عنهما أنها أنكرته. وأخرى بأنه من خصوصياته ﷺ معجزة له. أو أنه تمثيل. كما روي عن علي كرم الله وجهه. وأورد عليه ما في مسلم[٢] من أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا. إلا أن يخص بأول الوضع في القبر، مقدمة للسؤال، جمعاً بينه وبين ما في القرآن. نقله الشهاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

---

(١) الحديثان أخرجهما البخاري في: الجنائز، ٨٧- باب ما جاء في عذاب القبر، حديث ٧٢٦و٧٢٧.
(٢) أخرجه مسلم في: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٧١.

﴿اللَّهُ الَّذي خَلَقَكُمْ من ضَعْف﴾ قرئ بفتح الضاد وضمها. أي من أصل ضعيف هو النطفة ﴿ثُمَّ جَعَلَ من بَعْد ضَعْف﴾ يعني حال الطفولة والنشء ﴿قُوَّةً﴾ يعني حال البلوغ والشبيبة إلى الاكتهال وبلوغ الأشُدّ ﴿ثُمَّ جعَلَ من بعد قُوَّة ضعْفاً وشَيْبَةً﴾ أي بالشيخوخة والهرم ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي من الأشياء. ومنها هذه الأطوار التي يتقلب بها الإنسان ﴿وهُوَ الْعَلِيمُ الْقَديرُ﴾ أي الواسع العلم والقدرة. كيف؟ وهذا الترديد في الأحوال المختلفة والتغيير من صفة إلى صفة، أظهر دليل على علم الصانع سبحانه وقدرته، المستتبع انفراده بالألوهية ﴿ويَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيرَ سَاعَة﴾ أي في الدنيا أو القبور. وإنما يقدرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له. أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون ﴿كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ أي مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق في الدنيا. وهكذا كانوا يبتون أمرهم على خلاف الحق. كذا في (الكشاف).

وقال ابن كثير: يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة. ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان. وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً. فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا. ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم. انتهى.

وقال الشهاب: المراد من قوله: ﴿كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾، تشابه حاليهم في الكذب وعدم الرجوع إلى مقتضى العلم. لأن مدار أمرهم على الجهل والباطل. والغرض من سوق الآية وصف المجرمين بالتمادي في الباطل، والكذب الذي ألِفُوه. انتهى.

وقيل: كان قسمهم استقلالاً لأجل الدنيا، لما عاينوا الآخرة، تأسفاً على ما أضاعوا في الدنيا.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

﴿وقَالَ الَّذينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ والإيمَانَ﴾ ردّاً لما حلفوا عليه، وإطلاعاً لهم على الحقيقة ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ في كِتَابِ اللَّه﴾ أي فيما كتبه الله وأوجبه بحكمته ﴿إلَى يَوْمِ

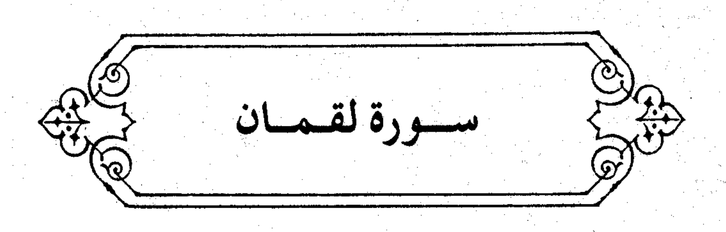
الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي أنه حق، لتفريطكم في طلب الحق واتباعه **﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ ينفعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** أي بالشرك، أو إنكار الربوبية، أو الرسالة، أو شيء لا يجب الإيمان به **﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾** أي بأنهم كفروا عن جهل. لأنه إنما كان عن تقصيرهم في إزالته، أو عن عناد **﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾** أي ولا يطلب منهم الإعتاب. أي إزالة العتب بالتوبة والطاعة. لأنهما، وإن كانتا ماحيتين للكفر والمعاصي، فإنما كان لهما ذلك في مدة الحياة الدنيا، لا غير.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي من كل وصف يوضح الحق ويزيل اللبس. أو من كل دليل على الأمور الأخروية. والحق يجري مجرى المثل في الظهور **﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾** أي مما اقترحوه أو غيرها **﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾** أي لا يؤمنون بها. ويعتقدون أنها سحر وباطل **﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** أي لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق. بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها. فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق، ويوجب تكذيب المحق. قاله أبو السعود **﴿فَاصْبِرْ﴾** أي على ما تشاهد منهم، من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة **﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾** أي في قوله **﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾** [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، **﴿وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾** أي لا يحملنك على الخفة والقلق **﴿الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾** أي بما تتلو عليهم من الآيات البينة، بتكذيبهم إياها ومكرهم فيها. فإنه تعالى منجز لك ما وعدك من نصرك عليهم وجعله العاقبة لك، ولمن اعتصم بما جئت به من المؤمنين.

بسم الله الرحمن الرحيم



سميت به لاشتمالها على قصته التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة اللّه تعالى وصفاته، وذم الشرك والأمر بالأخلاق والأفعال الحميدة. والنهي عن الذميمة. وهي معظمات مقاصد القرآن. قاله المهايميّ. وهي مكية. ويقال: إلا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ...﴾ [لقمان:٢٧-٢٨]، الآيتين. وآياتها أربع وثلاثون آية. وسيأتي الكلام على لقمان والخلاف فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

﴿**آلمٓ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ**﴾ أي ذي الحكمة الناطق بها ﴿**هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ بيان لإحسانهم، يعني ما عملوه من الحسنات. أو تخصيص لهذه الثلاثة من شعبه، لإظهار فضلها وإنافتها على غيرها. والمراد بالزكاة، على أنها مكية هي مطلق إخراج المال تقرباً بالتصدق منه، وتزكية للنفس بإيتائه، من وصمة البخل والشح المردي لها. لا أنصباؤها المعروفة. فإنها إنما بيّنت بالمدينة ﴿**أُولَٰئِكَ عَلَى هُدىً مِن رَبِّهِمْ وأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللّهِ**﴾ تعريض بالمشركين. وأنهم يستبدلون بهذا الكتاب المفيد الهدى والرحمة والحكمة، ما يُلهي من الحديث عن ذلك الكتاب العظيم. ليضلّوا أتباعهم عن الدين الحق. قال الزمخشريّ: و (اللهوُ) كل باطل ألهى عن الخير، وعما يعني. ولهو الحديث نحو السمر بالأساطير، والأحاديث التي لا أصل لها، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام. وما لا ينبغي، مما كانوا يؤفكون به عن استماع حكم التنزيل وأحكامه. ويؤثرونه على حديث الحق. وقوله تعالى ﴿**بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ أي بما هي الكمالات ومنافعها، والنقائص ومضارّها ﴿**وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً**﴾ الضمير للسبيل، وهو مما يذكر ويؤنث ﴿**أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾

﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى**﴾ أي أعرض عنها ﴿**مُسْتَكْبِراً كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وقْراً**﴾ أي ثقلاً مانعاً من السماع ﴿**فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وعملوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جنَّاتُ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقَّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها**﴾ الضمير للسموات. وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله ﴿**بِغَيْرِ عَمَدٍ**﴾ كما تقول لصاحبك: أنا بلا سيف ولا رمح تراني. والجملة لا محل لها لأنها مستأنفة. أو في محل الجر، صفة للعمد. أو بغير عمد مرئية.يعني أنه عمدها بعمد لا ترى وهي إمساكها، بقدرته. كذا في (الكشاف) ﴿**وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ**﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿**أَن تَمِيدَ بِكُمْ**﴾ أي تميل فتهلككم لما في جوفها من قوة الجيشان ﴿**وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ**﴾ أي من كل نوع من أنواعها ﴿**وَأَنزَلْنَا**﴾ أي لحفظكم وحفظ دوابّكم، وللرفق بكم وبدوابكم ﴿**مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ**﴾ أي صنف من الأغذية والأدوية ﴿**كَرِيمٍ**﴾ أي كثير المنافع.

القول في تأويل قوله تعالى:

هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

﴿**هَذَا**﴾ أي ما ذكر من السموات والأرض، وما تعلق بهما من الأمور المعدودة ﴿**خَلْقُ اللَّهِ**﴾ أي مخلوقه ﴿**فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ**﴾ أي مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه في العبادة ﴿**بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ إضراب عن تبكيتهم بما ذكر، إلى التسجيل عليهم بالضلال البيّن المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة، لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً، فيهتدوا به إلى العلم

ببطلان ما هم عليه. أو يتأثروا من الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه. ووضعُ الظاهر موضع ضميرهم، للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه. ومتعدون عن الحدود. وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد. أفاده أبو السعود.

ثم أشار تعالى إلى أن بطلان الشرك مقول على لسان ذوي الحكمة. كيف لا؟ والتوحيد أساس الحكمة، بقوله سبحانه ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ**﴾ يعني استكمال النفس بالعلوم النظرية، وملكة الأفعال الفاضلة بقدر الطاقة البشرية، آمرين له على لسان نبيّ أو بطريق الإلهام (على قول الجمهور أنه حكيم) أو الوحي (على قول عكرمة أنه نبيّ) ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ**﴾ أي على ما أعطاك من نعمه، من أوتيها فقد أوتيَ خيراً كثيراً. كذا قاله المهايميّ. والأظهر أن (أنْ) مفسرة. فإن إيتان الحكمة في معنى القول. والشكر كلمة تجمع ما تدور عليه سعادة الدنيا والآخرة. لأنه صرف العبد جميع ما أنعم اللّه عليه إلى ما خلق لأجله ﴿**وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ**﴾ لِعَوْدِ ثمرات شكره عليه ﴿**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ أي غنيّ عن كل شيْءٍ. فلا يحتاج إلى الشكر. وحقيق بالحمد. بل نطق بحمده كل موجود.

تنبيه:

قال ابن كثير: اختلف السلف في لقمان. هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة، على قولين: الأكثرون على الثاني. ويقال إنه كان قاضياً على بني إسرائيل، في زمن داود عليه السلام. وما روي من كونه عبداً مسّه الرق، وينافي كونه نبياً. لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها. ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، وإنما يُنقل كونه نبياً عن عكرمة، إن صح السند إليه. فإنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكَيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة. قال: كان لقمان نبياً. وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفيّ. وهو ضعيف. واللّه أعلم. انتهى.

وزعم بعضهم أن لقمان هو بلعام المذكور في التوراة، وكان حكيم شعب وثنيّ. وكان منبأ عن اللّه تعالى. وأغرب في تقريبه، بأن الفعل العربيّ وهو (لقم) معناه بالعبريّ بلع. واللّه أعلم.

وقد نظم السيوطيّ من اختلف في نبوته، فقال:

واختلفت في خضر أهل النقولْ   قيل نبيّ أوْ وليٌّ أو رسولْ

لقمان، ذي القرنين، حوا، مريم   والوقف في الجميع رأي المعظم

ثم قرن لقمان، بوصيته إياه بعبادة الله وحده، البرَّ بالوالدين، كما قال تعالى ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [الإسراء:٢٣]، وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن الكريم. وقال ههنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾

﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِه وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّه، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْه**﴾ أي بالإحسان إليهما، لا سيما الوالدة. لأنه ﴿**حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ**﴾ أي ضعفاً فوق ضعف إلى الولادة. و(وهناً) حال من (أمه) أي ذات وهن. أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال. أي: تهن وَهْناً. وقوله ﴿**عَلَى وَهْنٍ**﴾ صفة للمصدر. أي كائناً على وهن. أي تضعف ضعفاً فوق ضعف. فإنها لا تزال يتزايد ضعفها. لأن الحمل كلما عظم ازدادت ثقلاً وضعفاً ﴿**وَفِصَالُهُ**﴾ أي فطامه ﴿**فِي عَامَيْنِ**﴾ ثم فسَّر الوصية بقوله سبحانه ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَلِدَيْكَ**﴾ أي بأن تعرف نعمة الإحسان وتقدره قدره. قال في (البصائر): الشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور. وحبه له. واعترافه بنعمته. والثناء عليه بها. وأن لا يستعملها فيما يكره. هذه الخمسة هي أساس الشكر وبناؤه عليها. فإن عدم منها واحدة، اختلّت قاعدة من قواعد الشكر. وكل من تكلم في الشكر، فإن كلامه إليها يرجع وعليها يدور. انتهى.

وقوله تعالى ﴿**إِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾ تعليل لوجوب الامتثال. أي إليّ الرجوع، لا إلى غيري، فأجازيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر.

تنبيهات

الأول – قال الزمخشريّ: فإن قلت: قوله تعالى ﴿**حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ**﴾ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قلت: لما وصى بالوالدين، ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب في حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة، إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً، وتذكيراً بحقها العظيم مفرداً.

ومن ثم قال رسول الله ﷺ[1] (لمن قال له من أبرّ؟): أمك ثم أمك ثم أمك. ثم قال بعد ذلك: ثم أباك. وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في حدائه بنفسه.

أَحْمِلُ أُمِّي وَهِيَ الْحَمَّالَهْ تُرْضِعُنِي الدِّرَّةَ وَالْعُلاَلَهْ
وَلاَ يُجَازَى وَالِدٌ فَعَالَهْ

الثاني – قال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالى ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ كقوله ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]، ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة، أن أقل مدة الحمل ستة أشهر. لأنه قال في الآية الأخرى ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً﴾ [الأحقاف:١٥]، وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه. كما قال تعالى ﴿وَقُل رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء:٢٤].

الثالث – قال الزمخشريّ: فإن قلت: ما معنى توقيت الفصال بالعامين؟ قلت: المعنى في توقيته بهذه المدة، أنها الغاية التي لا تتجاوز. والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم، إن علمت أنه يقوى على الفطام، فلها أن تفطمه. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

﴿**وإن جاهَدَاكَ عَلَى أن تُشْرِكَ بي ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فلاَ تُطِعْهُمَا**﴾ أي في إشراك ما لا تعلمه مستحقاً للعبادة، تقليداً لهما.

وقال الزمخشريّ: أراد بنفي العلم به نفيه، أي لا تشرك بي ما ليس بشيء، يريد الأصنام.

---

(١) أخرجه البخاري في: الأدب، ٢– باب من أحق الناس بحسن الصحبة، حديث رقم ٢٣٠٩، عن أبي هريرة.

كقوله: ﴿ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [العنكبوت:٤٢].

قال في (الكشف): ليس هذا من قبيل نفي العلم لنفي وجوده. كما مر في القصص. وإلا لقال ما ليس بموجود. بل أراد أنه بولغ في نفيه حتى جعل كلاً شيء. ثم بولغ في سلك المجهول المطلق.

قال الشهاب: وهذا تقرير حسن، فيه مبالغة عظيمة ﴿**وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً**﴾ أي صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم.

قال السيوطيّ في (الإكليل): في الآية أن الوالد لا يطاع في الكفر. ومع ذلك يصحب معروفاً ﴿**وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ**﴾ أي بالتوحيد والإخلاص في الطاعات، وعمل الصالحات ﴿**ثُم إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ كناية عن الجزاء، كما تقدم نظائره.

قال القاضي: والآيتان، يعني ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ﴾ إلى قوله - ﴿تَعْمَلُونَ﴾ معترضتان في تضاعيف وصية لقمان، تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك. كأنه قال: وقد وصينا بمثل ما وصى به، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك. فإنهما، مع أنهما تلو الباريء تعالى في استحقاق التعظيم والطاعة، لا يجوز أن يطاعا في الإشراك. فما ظنك بغيرهما؟ انتهى.

ثم بين تعالى بقية وصايا لقمان، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾

﴿**يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ**﴾ أي إن الخصلة من الإساءة أو الإحسان، إن تك مثلاً في الصغر كحبة الخردل ﴿**فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ**﴾ أي فتكن مع كونها في أقصى غايات الصغر، في أخفى مكان وأحرزه، كجوف الصخرة. أو حيث كانت في العالم العلويّ أو السفليّ ﴿**يَأْتِ بِهَا اللَّهُ**﴾ أي يحضرها ويحاسب عليها ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ**﴾ أي ينفذ علمه وقدرته في كل شيء ﴿**خَبِيرٌ**﴾ أي يعلم كنه الأشياء، فلا يعسر عليه. والآية هذه كقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ

﴿الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ [الأنبياء: ٤٧] الآية، وقوله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ و٨].

لطيفة:

قوله تعالى ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ الآية، من البديع الذي يسمى التتميم. فإنه تمم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة. وهو من وادي قولها (كأنه علم في رأسه نار). ﴿يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ أي بحدودها وفروضها وأوقاتها، لتكميل نفسك بعبادة ربك ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ لتكميل غيرك ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ أي من المحن والبلايا. أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الداعي إلى الحق معرّض لإيصال الأذى إليه. وهو أظهر. ويطابقه آية ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر. أو إلى كل ما أمر به ﴿مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ أي مما عزمه الله من الأمور. أي قطعه قطع إيجاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تعرض بوجهك عنهم، إذا كلمتهم أو كلموك، احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم. ولكن ألِنْ جانبك، وابسط وجهك إليهم. كما جاء في الحديث[1] (ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط) ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ أي خيلاء متكبراً ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ أي معجب في نفسه ﴿فَخُورٍ﴾ أي على غيره ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي توسط بين الدبيب والإسراع ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي انقص من رفعه، وأقصر، فإنه يقبح بالرفع حتى ينكره الناس، إنكارهم على صوت الحمير. كما قال ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾

(١) أخرجه الترمذي في: البر والصلة، ٤٥- باب ما جاء في طلاقة الوجه وحسن البشر، ونصه: كل معروف صدقة. وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك، عن جابر بن عبد الله.

معللاً للأمر على أبلغ وجه وآكده و (أنكر) بمعنى أوحش. من قولك (شيء نكر) إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت، كما يقال في العرف للقبيح (وحش) وأصله ضد الأنس والألفة. فهو إما مجاز أو كناية.

قال الزمخشريّ: الحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه. ومن استفحاشهم لذكره مجرداً، وتفاديهم من اسمه، أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به. فيقولون (الطويل الأذنين) كما يكنى عن الأشياء المستقذرة. وقد عُدّ في مساوي الآداب، أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً، وإن بلغت منه الرحلة. فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه، وإخراجه مخرج الاستعارة، وأن جعلوا حميراً، وصوتهم نهاقاً - مبالغة شديدة في الذم والتهجين. وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه. وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان. انتهى.

تنبيه:

جاء ذكر لقمان في أحاديث مرفوعة. منها ما رواه الإمام أحمد[1] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه. وروى ابن أبي حاتم عن القاسم بن مخيمرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه: يا بنيّ إياك والتقنع، فإنه مخوفة بالليل، مذمة بالنهار.

ومن الآثار فيه ما رواه ابن أبي حاتم عن السريّ بن يحيى قال: قال لقمان لابنه: يا بنيّ إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك.

وعن عون بن عبد الله قال: قال لقمان لابنه: يا بنيّ! إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام (يعني السلام) ثم اجلس في ناحيتهم، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا. فإن أفاضوا في ذكر الله فأجِل سهمك معهم. وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم. نقله ابن كثير رحمه الله.

ثم نبه تعالى خلقه على نعمه الوافرة المستتبعة انفراده بالألوهية، فقال سبحانه:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢ / ٨٧.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾

﴿**أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ أي من النجوم والشمس والقمر، التي ينتفعون من ضيائها وما تؤثره في الحيوان والنبات والجماد بقدرته تعالى. وكذا من الأمطار والسحب والكوائن العلوية التي خلقها تعالى لنفع من سخرت له. وكذا ما أوجد في الأرض من قرار وأشجار وأنهار وزروع وثمار، ليستعملها من سخرت له فيما فيه حياته وراحته وسعادته ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ أي محسوسة ومعقولة. كإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإزاحة الشبه والعلل ﴿**وَمِنَ النَّاسِ**﴾ يعني الجاحدين نعمته تعالى ﴿**مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ**﴾ أي في توحيده وإرساله الرسل ﴿**بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ أي برهان قاطع مستفاد من عقل ﴿**وَلاَ هُدىً**﴾ أي دليل مأثور عن نبيّ ﴿**وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ**﴾ أي منزل من لدنه تعالى، بل لمجرد التقليد. و (المنير) بمعنى المنقذ من ظلمة الجهل والضلال ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**﴾ أي لمن يجادل. والجمع باعتبار المعنى ﴿**اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾ أي يدعو آباءهم إلى اعتقادات وأعمال، هي أسباب العذاب. كأنه يدعوهم إلى عين العذاب.

فهم متوجهون إليه حسب دعوته. ومن كان كذلك فأنّى يتبع.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي في أعماله ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب. وهو تمثيل لحال المؤمن المخلص المحسن، بحال من أراد رقيّ شاهق، فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلّي منه ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي من الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون أيضاً ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي شيئاً ما. فلذلك؛ لا يعملون بمقتضى اعترافهم ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي فلا يستحق العبادة فيهما غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي عن العالمين، وهم فقراء إليه جميعاً ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي المحمود فيما خلق وشرع، بلسان الحال والمقال ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ﴾ أي من بعد نفاده ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ أي التي أوجد بها الكائنات، وسيوجد بها ما لا غاية لحصره ومنتهاه. والسبعة، إنما ذكرت، على سبيل المبالغة لا الحصر. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي إلا كخلقها وبعثها في سهولته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي أمد قدره الله تعالى لجريهما، وهو يوم القيامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي لأن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق، والتدبير الفائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطاً بما يأتي ويذر.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارئ بها ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أي بسبب أنه الحق، وجوده وإلهيته ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾ أي بإحسانه في تهيئة أسبابه ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِنْ ءَايَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أي عظيم الصبر على البأساء والضراء ﴿ شَكُورٍ ﴾ أي كثير الشكر للنعم، بالقيام بحقها ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي علاهم وأحاط بهم ﴿ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ أي كالسحب والحجب ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي التجأوا إليه تعالى وحده، لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد، بما دهاهم من الضر ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ قال ابن كثير: قال مجاهد: أي كافر، كأنه فسر (المقتصد) ههنا بالجاحد كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقال ابن زيد: هو المتوسط في العمل. وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ [فاطر: ٣٢] الآية، فالمقتصد ههنا هو المتوسط في العمل. ويحتمل، أن يكون مراداً هنا أيضاً، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام، والآيات الباهرات في البحر. ثم من بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك، كان مقصراً والحالة هذه، والله أعلم. انتهى ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ أي غدّار، ناقض للعهد الفطريّ ولعقد العزيمة وقت الهول البحريّ ﴿ كَفُورٍ ﴾ أي مبالغ في كفران نعمه تعالى. لا يقضي حقوقها، ولا يستعملها في محابّه.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ أي ليس بمغن أحدهما عن الآخر شيئاً، لانقطاع الوُصَل في ذلك اليوم الرهيب. قال أبوالسعود: وتغيير النظم - في الثانية - للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى. وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة ﴿ إِنَّ

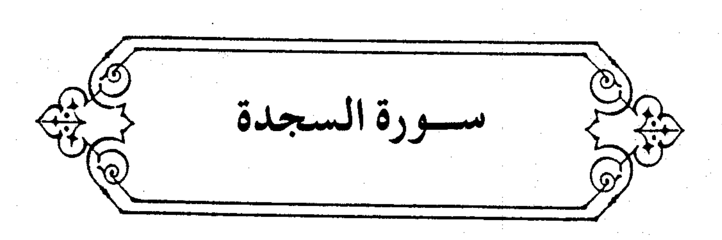
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي بالثواب والعقاب. لا يمكن إخلافه ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي الشيطان.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي علم وقت قيامها ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أي في وقته الذي قدره، وإلى محله الذي عينه في علمه ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ أي من ذكر أو أنثى، سعيد أو شقيّ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً﴾ أي من خير أو شر ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي في بلدها أو غيره. لاستئثار اللّه تعالى بعلم ذلك. وقد جاء الخبر تسمية هذه الخمس، مفاتح الغيب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي بما كان ويكون، وبظواهر الأشياء وبواطنها، لا إله إلا هو.

بسم الله الرحمن الرحيم



ســورة السجدة

سميت بها، لأن آية السجدة منها، تدل على أن آيات القرآن من العظمة بحيث تخرّ وجوه الكل، لسماع مواعظها، وتنزه منزلها عن أن يعارض في كلامه. وبشكره على كمال هدايته. وهذا أعظم مقاصد القرآن. أفاده المهايميّ. وهي مكية، وآيها ثلاثون.

روى البخاريّ(١) في (كتاب الجمعة) عن أبي هريرة قال: كان النبيّ ﷺ يقرأ في الفجر، يوم الجمعة آلمٓ تنزيل السجدة، وهل أتى على الإنسان.

ورواه مسلم(٢) أيضاً.

وروى الإمام أحمد عن جابر قال: كان النبيّ ﷺ لا ينام حتى يقرأ آلمٓ.تنزيل السجدة، وتبارك الذي بيده الملك.

قال ابن كثير: تفرد به أحمد رحمه اللّه تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في: الجمعة، ١٠- باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة، حديث ٥٢٢.

(٢) أخرجه في: الجمعة، حديث رقم ٦٥و٦٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

﴿**آلم**﴾ تقدم أن هذه الفواتح أسماء للسور ﴿**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ**﴾ أي في كونه منزلاً ﴿**من رَّبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه ﴿**بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتنذِرَ قَوْماً مَّا آتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُم يَهْتَدُونَ**﴾ أي يتبعون الحق. وذلك أن قريشاً لم يبعث إليهم رسول، قبله ﷺ. فلطف تعالى بهم وبعث فيهم رسولاً منهم ﷺ.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾ تقدم الكلام في ذلك ﴿**ما لَكُم مِّن دُونِهِ من وَلِي ولا شَفِيعٍ**﴾ أي ما لكم عنده ناصر ولا شفيع من الخلق ﴿**أَفلاَ تَتَذَكَّرُونَ**﴾ أي تتعظون بالقرآن فتؤمنوا ﴿**يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ**﴾ أي يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية، من الملائكة وغيرها، نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض ﴿**ثُمَّ يَعرجُ إِلَيْهِ**﴾ أي يصعد إليه، أي مع الملك للعرض عليه ﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾ أي مقدار صعوده على غير الملك، ألف سنة من سني الدنيا.

قال ابن كثير: أي يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرضين. كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾

[الطلاق : ١٢] الآية. وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق السماء. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

﴿ **ذلك** ﴾ أي المدبر ﴿ **عالِمُ الغَيْبِ** ﴾ أي ما غاب عن العباد وما يكون ﴿ **والشَّهادَةِ** ﴾ أي ما علمه العباد وما كان ﴿ **العَزيزُ** ﴾ أي الغالب على أمره ﴿ **الرَّحيمُ** ﴾ أي بالعباد في تدبره ﴿ **الَّذي أحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** ﴾ أي أحكم خلق كل شيء. لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة ﴿ **وبَدأَ خَلْقَ الإنسانِ** ﴾ يعني آدم ﴿ **مِنْ طِينٍ ثُمَّ جعَلَ نسْلَهُ** ﴾ أي ذريته ﴿ **مِنْ سُلالَةٍ** ﴾ أي من نطفة ﴿ **مِّن مَّاءٍ مَّهينٍ** ﴾ أي ضعيف ممتهن. والسلالة الخلاصة. وأصلها ما يسلّ ويخلص بالتصفية ﴿ **ثُمَّ سوّاهُ** ﴾ أي قوّمه في بطن أمه ﴿ **ونَفَخَ فيهِ من رُّوحه** ﴾ أي جعل الروح فيه، وأضافه إلى نفسه تشريفاً له ﴿ **وجَعَلَ لكُمُ السَّمْعَ والأبْصارَ والأفْئِدَةَ** ﴾ أي خلق لكم هذه المشاعر، لتدركوا بها الحق والهدى ﴿ **قليلاً ما تشكُرُونَ** ﴾ أي بأن تصرفوها إلى ما خلقت له.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

﴿ **وقالوا** ﴾ أي كفار مكة ﴿ **أءذا ضَلَلْنا في الأرْضِ** ﴾ أي صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض لا نتميز منه، أو غبنا فيها ﴿ **أءنَّا لفي خَلْقٍ جديد** ﴾ أي نجدد بعد الموت ﴿ **بَلْ هُمْ بلِقاءِ ربِّهِمْ** ﴾ أي بالبعث بعد الموت للجزاء والحساب ﴿ **كافِرُونَ** ﴾ أي جاحدون. قال أبوالسعود: إضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث، إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه، وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة، وما يلقونه فيها من الأحوال والأهوال جميعاً ﴿ **قُلْ** ﴾ أي بياناً للحق ورداً على زعمهم الباطل ﴿ **يتوفَّاكُمْ مَّلَكُ المَوْتِ الَّذي وُكِّلَ بكُمْ** ﴾ أي يقبض أرواحكم ﴿ **ثُمَّ إلى ربِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾ أي بالبعث للحساب والجزاء.

فائدة:

قال ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) في هذه الآية: مذهب جمهور أصحابنا أن الروح جسم لطيف بخاريّ يتكوّن من ألطف أجزاء الأغذية، ينفذ في العروق، حالّة فيها. وكذلك للقلب، وكذلك للكبد.

وعندهم أن لملك الموت أعواناً تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه. لولا ذلك لتعذر عليه وهو جسم أن يقبض روحين في وقت واحد في المشرق والمغرب، لأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين. في وقت واحد.

قال أصحابنا: ولايبعد أن يكون الحفظة الكاتبون هم القابضون للأرواح عند انقضاء الأجل.

قالوا: وكيفية القبض، ولوج الملَك من الفم إلى القلب، لأنه جسم لطيف هوائي، لا يتعذر عليه النفوذ في المخارق الضيقة، فيخالط الروح، التي هي كالشبيهة بها، لأنها بخاريّ. ثم يخرج من حيث دخل، وهي معه.

وإنما يكون ذلك في الوقت الذي يأذن اللّه تعالى له فيه وهو حضور الأجل.

فالزموا على ذلك أن يغوص الملَكُ في الماء مع الغريق ليقبض روحه تحت الماء.فالتزموا ذلك، وقالوا: ليس بمستحيل أن يتخلل الملَك الماء في مسامّ الماء، فإن فيه مسامّ ومنافذ وفي كل جسم. على قاعدتهم في إثبات المسامّ في الأجسام.

قالوا: ولو فرضنا أنه لا مسامّ فيه، لم يبعد أن يلجه الملَك فيوسع لنفسه مكاناً، كما يلجه الحجر والسمك، وغيرهما. وكالريح الشديدة التي تقرع ظاهر البحر فتقعره وتحفره. وقوة الملك أشدّ من قوة الريح. انتهى.

والأوْلى الوقوف، فيما لم تعلم كيفيته، عند متلوّه وعدم مجاوزته، أدباً عن التهجم على الغيب وتورعاً عن محاولة مالا يُبلغ كنهه، وأسوة بما مضى عليه من لم يخض فيه، وهم الخيرة والأسوة، واللّه أعلم.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ وهم القائلون تلك المقالة الشنعاء ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي مطأطئوها من الحياء والخزي، لما قدمت أيديهم ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون ربنا ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي علمنا ما لم نعلم، وأيقنا بما لم نكن به موقنين ﴿فَارْجِعْنَا﴾ أي إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي مقرّون بك وبكتابك ورسولك والجزاء.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿**وَلَوْ شِئْنَا لأتينا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاها**﴾ أي تقواها ﴿**وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنّي**﴾ أي في القضاء السابق ﴿**لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنَ الْجِنَّة وَالنَّاسِ أجْمَعين**﴾ أي سبق القول حيث قلت لإبليس، عند قوله ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤ - ٨٥]، أي فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم. بل منعناه من أتباع إبليس الذين هؤلاء من جملتهم حيث صرفوا اختيارهم إلى الغيّ والفساد. ومشيئته تعالى لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها. فلما لم يختاروا الهدى، واختاروا الضلالة، لم يشأ إعطاءه لهم. وإنما آتاه الذين اختاروه من النفوس البرّة، وهم المعنيّون بماسيأتي من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ [السجدة: ١٥] الآية. فيكون مناط عدم مشيئة إعطاء الهدى، في الحقيقة، سوء اختيارهم، لا تحقق القول. أفاده أبو السعود. ﴿**فَذُوقُوا بمَا نَسِيتُم لِقاءَ يوْمِكُمْ هذا**﴾ أي تركتم الإقرار به، والإيمان بصدق موعوده، وعاملتموه معاملة المنسيّ المهجور ﴿**إنَّا نَسِيناكُمْ**﴾ أي جازيناكم جزاء نسيانكم. أو تركناكم في العذاب ترك المنسيّ ﴿**وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ أي من الموبقات. والتكرير للتأكيد والتشديد. وتعيينُ الفعل المطويّ، للذوق.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿**إنَّمَا يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا الَّذِينَ إذَا ذُكِّرُوا بِهَا**﴾ أي وعظوا ﴿**خَرُّوا سُجَّداً**﴾ لسرعة قبولهم لها بصفاء فطرتهم، وذلك تواضعاً لله وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿**وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ أي عن الانقياد لها، كما يفعله

الجهلة من الكفرة الفجرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ**﴾ أي ترتفع وتتنحى عن الفرش ومواضع النوم. والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم، وهم المتهجدون بالليل ﴿**يَدْعُونَ رَبَّهُمْ**﴾ أي داعين له ﴿**خَوْفاً**﴾ من عذابه ﴿**وَطَمَعاً**﴾ في رحمته ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**﴾ أي من المال ﴿**يُنْفِقُونَ**﴾ أي في وجوه البرّ والحسنات.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

﴿**فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ**﴾ أي ما ذخر وأُعدّ أي لهؤلاء الذين عددت مناقبهم ﴿**مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ أي مما تقرّ به عينهم من طيبة النفس والثواب والكرامة في الجنة ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ أي في الدنيا من الأعمال الصالحة ﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً**﴾ أي كافراً جاحداً ﴿**لاَ يَسْتَوُونَ**﴾ أي في الآخرة بالثواب والكرامة. كما لم يستووا في الدنيا بالطاعة والعبادة. ثم فصّل مراتب الفريقين بقوله ﴿**أَمَّا الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً**﴾ أي ثواباً ﴿**بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا**﴾ وكقوله تعالى ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]، كناية عن دوام عذابهم واستمراره ﴿**وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾ أي يقال لهم ذلك، تشديداً عليهم وزيادة في غيظهم، وتقريعاً وتوبيخاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ**﴾ أي أهل مكة ﴿**مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى**﴾ أي عذاب الدنيا والجدب والقتل والأسر ﴿**دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ**﴾ يعني عذاب الآخرة ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ أي

يتوبون عن الكفر أي يرجعون إلى الله عند تصفية فطرتهم بشدة العذاب الأدنى، قبل الرين بكثافة الحجاب ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي جحدها وكفر بها ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أي بالعذاب، وإظهار المتقين عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ أي التوراة ﴿ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِقَائِهِ ﴾ أي لقاء الكتاب الذي هو القرآن. وعودُ الضمير إلى الكتاب المتقدم، والمراد غيره على طريق الاستخدام، أو إرادة العهد، أو تقدير مضاف، أي تلقي مثله، أي فلا تكن في مرية من كونه وحياً متلقى من لدنه تعالى. والمعنى: إنا آتينا موسى مثل ماآتيناك من الكتاب. ولقّيناه من الوحي مثل مالقيناك. فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله. ونهيُه ﷺ عن الشك، المقصود به نهي أمته. والتعريض بمن صدر منه مثله ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِّبَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴾ أي من الضلالة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي قادة بالخير يدعون الخلق إلى أمرنا وشرعنا ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ أي على العمل به والاعتصام بأوامره ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أي يصدقون أشد التصديق وأبلغه. والمعنى كذلك لنجعلن الكتاب الذي آتيناكه، هدى لأمتك، ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية. ويؤخذ من فحوى الآية، أن بني إسرائيل لما نبذوا الاعتصام بالكتاب، ونبذوا الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفقدوا الاستيقان بحقيّة الإيمان، فغيروا وبدلوا، سلبوا ذلك المقام، وأديل عليهم انتقاماً منهم. وتلك سنته تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[الرعد: ١١]، ففي طي هذا الترغيب، ترهيب وأي ترهيب.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ** ﴾ أي يقضي ﴿ **بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ أي فيميز الحق من الباطل، بتمييز المحق من المبطل ﴿ **أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ** ﴾ أي يتبين لكفار مكة ﴿ **كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ** ﴾ أي الماضية بعذاب الاستئصال ﴿ **يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ** ﴾ أي منازلهم. كمنازل قوم شعيب وهود وصالح ولوط عليهم السلام. فلا يرون فيها أحداً ممن كان يعمرها ويسكنها. ذهبوا كأن لم يَغْنَوْا فيها. كما قال ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل: ٥٢]، ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ** ﴾ أي فبما فعلنا بهم ﴿ **لَآيَاتٍ** ﴾ أي عبراً ومواعظ ودلائل متناظرة ﴿ **أَفَلاَ يَسْمَعُونَ** ﴾ أي أخبار من تقدم، كيف صار أمرهم بسبب تكذيبهم الرسل، وبغيهم الفساد في الأرض، فيحملهم ذلك على الإيمان ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ** ﴾ وهي التي جزر نباتها، أي قطع ﴿ **فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ** ﴾ يعني العشب والثمار والبقول ﴿ **أَفَلاَ يُبْصِرُونَ** ﴾ أي فيستدلون به على كمال قدرته ووجوب انفراده بالإلهية. وهذا كآية ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ﴾ [عبس: ٢٤- ٢٥] الآية.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾

﴿ **وَيَقُولُونَ** ﴾ أي كفار مكة ﴿ **مَتَى هَذَا الْفَتْحُ** ﴾ أي الانتصار علينا. استعجال لوقوع البأس الربانيّ عليهم، الذي وعدوا به، واستبعاد له ﴿ **إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ** ﴾ لحلول ما يغشي الأبصار ويعمي البصائر. وظهور منار الإيمان وزهوق الفريق الكافر.

قال ابن كثير: أي إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا والأخرى، لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون، كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ [غافر: ٨٣] الآيتين. ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة، فقد أبعد النجعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح، قد قبل رسول الله ﷺ إسلامَ الطلقاء وقد كانوا قريباً من ألفين. ولو كان المراد فتح مكة، لما قبل إسلامهم لقوله تعالى ﴿ **قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ** ﴾ وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل كقوله: ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ [الشعراء: ١١٨]، وكقوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾

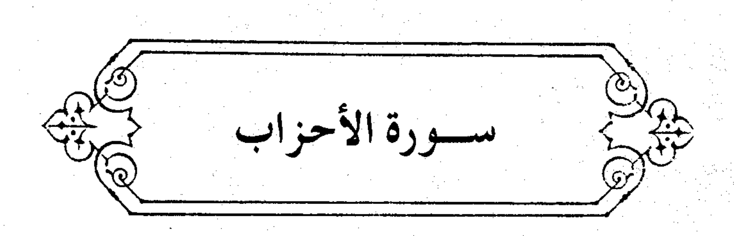
[سبأ: ٢٦] الآية، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩].

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**﴾ أي عن المشركين، ولا تبال بهم، وبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿**وَانْتَظِرْ**﴾ أي النصرة عليهم. فإن الله سينجز لك ما وعدك، إنه لا يخلف الميعاد ﴿**إِنَّهُمْ مُّنْتَظِرُونَ**﴾ أي ما في نفوسهم. كقوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ [التوبة: ٩٨]، أي وسيجدون مغبة انتظارهم من وبيل عقابه تعالى وأليم عذابه بهم.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الأحزاب

سميت بها، لأن قصتها معجزة لرسول اللّه ﷺ. متضمنة لنصره بالريح والملائكة. بحيث كفى اللّه المؤمنين القتال. وقد ميز بهم بين المؤمنين والمنافقين. وهذا من أعظم مقاصد القرآن. أفاده المهايميّ.

وهي مدنية. وآياتها ثلاث وسبعون آية. وروى الإمام أحمد عن أبيّ بن كعب قال: لقد رأيتها وإنها تعادل سورة البقرة. ولقد قرأنا فيها (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من اللّه واللّه عزيز حكيم).

وقال ابن كثير: وهو يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً. واللّه أعلم. انتهى.

قلت: كان يصح هذا الإقتضاء، لو كان هذا الأثر صحيحاً. أما ولم يخرجه أرباب الصحاح، فهو من الضعف بمكان.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ** ﴾ نودي صلوات اللّه عليه بوصفه دون اسمه، تعظيماً له. وباب المخاطبة يعدل فيها عن النداء بالاسم تكريماً للمخاطب. ولا كذلك باب الأخبار فقد يصرح فيها بالاسم، والتعظيم باق كآية ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩]، لتعليم الناس بأنه رسول اللّه وتلقينهم أن يسموه بذلك ويدعوه به. وأمره عليه السلام بالتقوى تفخيماً وتعظيماً للتقوى نفسها، حيث أمر بها مثله. فإن مراتبها لا تنتهي. مع أن المقصود الدوام والثبات عليها. ولم يجعل الأمر لأمته كما في نظائره، لأن سياق ما بعده لأمر يخصه. كقصة زيد رضي اللّه عنه ﴿ **وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ** ﴾ أي لا توافقهم على أمر. ولا تقبل لهم رأياً ولامشورة، وجانبهم واحترس منهم. فإنهم أعداء اللّه وأعداء المؤمنين. لا يريدون إلاالمضارّة والمضادّة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾ أي فهو أحق بأن تتبع أوامره ويطاع، لأنه العليم بعواقب الأمور وبالمصالح من المفاسد. والحكيم الذي لايفعل شيئا، ولا يأمر به، إلا بداعي الحكمة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾

﴿ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** ﴾ أي في ترك طاعة الكافرين والمنافقين وغير ذلك ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾ أي أسند أمرك

إليه، وكله إلى تدبيره. فكفى به حافظاً موكولاً إليه كل أمر ﴿**مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ**﴾ قال الزمخشريّ: أي ما جمع اللّه قلبين في جوف، ولا زوجية وأمومة في امرأة، ولا بنوّة ودعوة في رجل. والمعنى: إن اللّه سبحانه، كما لم ير في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين، لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب، فأحدهما فضلة غير محتاج إليها – وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك، فذلك يؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً، عالماً ظانّاً، موقناً شاكّاً، في حالة واحدة – لم ير أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أُمّاً لرجلٍ زوجاً له. لأن الأم مخدومة، مخفوض لها جناح الذل، والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره، كالمملوكة. وهما حالتان متنافيتان. وأن يكون الرجل الواحد دعيّاً لرجل، وابناً له. لأن البنوة أصالة النسب، وعراقة فيه، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لاغير. ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل. وهذا مثل ضربه اللّه في (زيد بن حارثة) وهو رجل من كَلْبٍ سبي صغيراً. وكانت العرب في جاهليتها يتغاورون ويتسابَون. فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة. فلما تزوجها رسول اللّه ﷺ وهبته له. وطلبه أبوه وعمه فَخُيِّرَ. فاختار رسولَ اللّه ﷺ فأعتقه. وكانوا يقولون (زيد بن محمد) فأنزل اللّه هذه الآية. وقوله ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

والتنكير في (رجل) وإدخال (من) الاستغراقية على (قلبين) تأكيدان لما قصد من المعنى كأنه قال: ماجعل اللّه لأمة الرجال. ولا لواحد منهم، قلبين البتة في جوفه.

وفائدة ذكر (الجوف) كالفائدة في قوله: ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصوّر والتجلّي للمدلول عليه. لأنه إذا سمع به، صوّر لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار. ومعنى (ظاهر من امرأته) قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي. وكان الظهار طلاقاً عند أهل الجاهلية. فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها، كما يتجنبون المطلقة. وهو في الإسلام يقتضي الطلاق والحرمة إلى أداء الكفارة.

قال الأزهريّ: وخصوا (الظَّهر)، لأنه محل الركوب. والمرأة تركب إذا غشيت، فهو كناية تلويحية، انتقل من الظهر إلى المركوب، ومنه إلى المغشيّ. والمعنى:

أنت محرمة عليَّ لاتركبين كما لا تركب الأم. كذا في (الكشف).

وقوله تعالى ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى كل ماذكر. أي من كونه ليس لأحد قلبان، وليست الأزواج أمهات، ولا الأدعياء أبناء. أو إلى الأخير فقط وهو الدعوة ﴿قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي لا حقيقة له فلا يقتضي دعواكم ذلك، أن يكون ابناً حقيقياً. فإنه مخلوق من صلب رجل آخر فلا يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون لبشر واحد قلبان ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي الثابت المحقق في نفس الأمر ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي سبيل الحق.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥)﴾

﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ﴾ أي انسبوهم إليهم. وهو إفراد للمقصود من أقواله تعالى الحقة ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي أعدل وأحكم.

قال ابن كثير: هذا الأمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام، من جواز ادعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء. فأمر تبارك وتعالى بردّ نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة. وأن هذا هو العدل والقسط والبر. روى البخاري[١] عن ابن عمر قال: «إن زيد بن حارثة رضي الله عنه، مولى رسول الله ﷺ، ماكنا ندعوه إلا (زيد بن محمد) حتى نزل القرآن ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾»، وأخرجه مسلم[٢] وغيره. وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، في الخلوة بالمحارم وغيرذلك. ولهذا قالت سهلة[٣] بنت سهيل، امرأة أبي حذيفة رضي الله عنها: «يارسول الله! إنا ندعوا سالماً ابناً. وإن الله قد أنزل ما أنزل. وإنه كان يدخل عليَّ. وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً. فقال ﷺ: أرضعيه تحرمي عليه..» الحديث. ولهذا لما نسخ هذا الحكم، أباح تبارك وتعالى زوجة الدعيّ. وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، مطلقة زيد بن حارثة رضي الله عنه. وقال عزّ وجلّ ﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ

---

(١) أخرجه في: التفسير، ٣٣- سورة الاحزاب، ٢- باب ﴿ادعوهم لآبائهم﴾، حديث ٢٠٣٠.

(٢) أخرجه في: فضائل الصحابة، حديث رقم ٦٢.

(٣) أخرجه مسلم في: الرضاع، حديث رقم ٢٦.

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وقال تبارك وتعالى في آية التحريم ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣]، احترازاً عن زوجة الدعيّ، فإنه ليس من الصلب.

فأما الابن من الرضاعة، فمنزل منزلة ابن الصلب شرعاً، بقوله ﷺ في الصحيحين[١]: «حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب».

فأما دعوة الغير ابناً، على سبيل التكريم والتحبيب، فليس مما نهى عنه في هذه الآية، بدليل مارواه الإمام أحمد وأهل السنن. إلا ـ الترمذيّ – عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢]: قال: «قدّمنا رسول الله ﷺ أغيلمة بني عبد المطلب على جمرات لنا من (جَمْع) فجعل يلطح أفخاذنا ويقول: أُبَيْنِيَّ! لاترموا الجمرة حتى تطلع الشمس».

قال أبو عبيدة وغيره (أُبَيْنِيَّ) تصغير (ابني) وهذا ظاهر الدلالة. فإن هذا في حجة الوداع سنة عشر.

وفي مسلم[٣] عن أنس قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يابنيّ». ورواه أبو داود والترمذيّ. انتهى كلام ابن كثير. وفي ذهابه إلى أن الأمر في الآية ناسخ – نظر، لأن الناسخ لابد أن يرفع خطاباً متقدماً. وأما ما لاخطاب فيه سابقاً، بل ورد حكماً مبتدأ رفع البراءة الأصلية، فلا يسمّى نسخاً اصطلاحاً. فاحفظه. فإنه مهم ومفيد في عدة مواضع.

ولما أمر تعالى بردّ أنساب الأدعياء إلى آبائهم، إن عرفوا، أشار إلى دعوتهم بالأخوّة والمولوية إن لم يعرفوا، بقوله سبحانه **﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا ءَابَاءَهُمْ ﴾** أي فتنسبوهم إليهم **﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾** أي فهم إخوانكم **﴿ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾** أي أولياؤكم فيه. أي فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي. وياأخي ويا مولاي **﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾**

---

(١) أخرجه البخاري في: الشهادات، ٧– باب الشهادة على الأنساب والرضاع، حديث رقم ١٢٨٥ عن عائشة.

وأخرجه مسلم في: الرضاع، حديث رقم ١.

(٢) أخرجه النسائي في: المناسك، ٢٢٢– باب النهي عن رمي جمرة العقبة قبل طلوع الشمس.

وأخرجه ابن ماجة في: المناسك، ٦٢– باب من تقدم من جمع إلى منى لرمي الجمار، حديث رقم ٣٠٢٥.

(٣) أخرجه في: الآداب حديث رقم ٣١.

أي إثم ﴿فيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ أي فيما فعلتموه من نسبة بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة، مخطئين بالسهو أو النسيان. أو سبق اللسان، لأن اللّه تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه ﴿وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ففيه الجناح، لأن من تعمد الباطل كان آثماً ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ أي لعفوه عن المخطئ.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي في كل شيء من أمور الدين والدنيا. فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقه آثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها. وأن يبذلوها دونه، ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب، ووقاءه إذا لقحت حرب. وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم، ولا ما تصرفهم عنه. ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول اللّه ﷺ وصرفهم عنه. لأن كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين. وما صرفهم عنه، فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار. أفاده الزمخشريّ.

وهذا كما قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥]، وفي الصحيح: والذي نفسي بيده! لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي في وجوب تعظيمهن واحترامهن، وتحريم نكاحهن. وفيما عدا ذلك كالأجنبيات، ولذا قال ابن كثير: ولكن لا تجوز الخلوة بهن. ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع. وإن سمى بعض العلماء بناتهن، أخوات المؤمنين. كما هو منصوص الشافعيّ رضي اللّه عنه في (المختصر) وهو من باب إطلاق العبارة، لا إثبات الحكم. وهل يقال لمعاوية وأمثاله، خال المؤمنين، فيه قولان: وعن الشافعيّ أنه يقال ذلك. وهل يقال له ﷺ: أبو المؤمنين، فيه قولان: فصح عن عائشة المنع، وهو أصح الوجهين للشافعية لقوله تعالى ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ وروي عن أبيّ بن كعب وابن عباس

رضي اللّه عنهما، أنهما قرآ: النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم. وروي نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن. واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود[1] عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد، أعلمكم. فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب بيمينه » . أفاده ابن كثير.

﴿ **وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ** ﴾ أي ذوو القرابات ﴿ **بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ﴾ أي فيما فرضه، أو فيما أوحاه إلى نبيّه عليه السلام ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ** ﴾ بيان لأولي الأرحام، أو صلة لـ (أَوْلَى) ﴿ **إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ** ﴾ أي إخوانكم المؤمنين والمهاجرين غير الرحم ﴿ **مَّعْرُوفاً** ﴾ أي من صدقة ومواساة وهدية ووصية. فإن بسط اليد في المعروف مما حث اللّه عباده عليه، ويشارك فيه مع ذوي القربى وغيرهم.

تنبيه:

قال في (الإكليل) : استدل بقوله تعالى ﴿ **وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ** ﴾ الآية، من ورّث ذوي الأرحام. انتهى.

وهو استدلال متين. وليس مع المخالف مايقاومه. بل فهم كثيرون أن المعنيّ بها، أن القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وأنها ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة، التي كانت بينهم. ذهاباً إلى ما روي عن الزبير وابن عباس: أن المهاجريّ كان يرث الأنصاريّ، دون قراباته وذوي رحمه. للأخوّة التي آخى بينهما رسول اللّه ﷺ. حتى أنزل اللّه الآية. فرجعنا إلى مواريثنا.

إلا أن الاستدلال بذلك هو من عموم الأولوية. لا أنها خاصة بالمدعي فيها، كما أسلفنا بيانه مراراً ﴿ **كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً** ﴾ أي في القرآن. أو في قضائه وحكمه وما كتبه وفرضه، مقرراً لا يعتريه تبديل ولا تغيير.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾

﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** ﴾

---

(١) أخرجه في: الطهارة، ٤– باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، حديث رقم ٨ .

أي أخذنا عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق والتعاون والتناصر والاتفاق وإقامة الدين وعدم التفرق فيه. كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ قال أبو السعود: وتخصيصهم بالذكر، يعني قوله ﴿ وَمِنكَ ﴾ الخ مع اندراجهم في النبيين، للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولي العزم. ،وتقديمُ نبينا عليهم، عليهم الصلاة والسلام، لإبانة خطره الجليل. انتهى.

وقال في (الانتصاف): وليس التقديم في الذكر بمقتض لذلك. ألا ترى إلى قوله:

بهاليل منهم جَعْفَرٌ وابنُ أُمِّهِ ... عليٌّ وَمنهم أحْمَدُ المُتَخَيَّرُ

فأخّر ذكر النبيّ ﷺ ليختم به تشريفاً له.

وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازمه التقديم، فيظهر، والله أعلم في سر تقديمه عليه الصلاة والسلام، على نوح ومن بعده في الذكر، أنه هو المخاطَب من بينهم، والمنزل عليه هذا المتلوّ، فكان تقديمه لذلك.

ثم لما قدم ذكره عليه الصلاة والسلام، جرى ذكر الأنبياء، صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم. والله أعلم. انتهى.

وقد صرح بأولي العزم هنا وفي آية ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]. قال ابن كثير: فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها. ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أي عهداً عظيم الشأن. وكيف لا؟ وقد يعترضه من الماكرين والمحادّين والمشاقّين، ما تزول منه الجبال، لولا الاعتصام بالصبر عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ أي فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء.

ووضع الصادقين موضع ضميرهم، للإيذان من أول الأمر، بأنهم صادقون فيما سئلوا عنه. وإنما السؤال لحكمة تقتضيه. أي ليسأل الأنبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوه لقومهم. أو عن تصديقهم إياهم تبكيتاً لهم. كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، أو المصدقين لهم عن تصديقهم. أفاده أبو السعود ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي لمن كفر من أممهم عذاباً موجعاً. ونحن – كما قال ابن كثير– نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم، وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجليّ، الذي لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء. وإنْ كذبهم من كذبهم من الجهة والمعاندين والمارقين والقاسطين. فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال. انتهى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي ما أنعم به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ وهم الأحزاب ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة. أو ما أتى من الريح من طيور الجوّ وجراثيمه، المشوشة للقارّ المقلقلة للهادئ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي من أعلى الوادي وأسفله، بقصد التحزب على أن يكونوا جملة واحدة على استئصال النبيّ ﷺ وصحبه ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ﴾ أي مالت عن سننها ومستوى نظرها، حيرة وشخوصاً ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحناجِرَ﴾ أي منتهى الحلقوم لأن بالفزع تنتفخ الرئة فترتفع، وبارتفاعها ترتفع القلوب. وذلك من شدة الغم. أو هو مثل في اضطراب القلوب. ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أي أنواع الظنون المختلفة ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي اختبروا ليتميز الثابت من المتزلزل، والمؤمن من المنافق ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ أي أزعجوا أشد

الإزعاج من شدة الخوف والفزع، أو من كثرة الأعداء.

فائدة:

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر (الظنونا) بإثبات ألف بعد النون، وبعد لام الرسول، في قوله ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ [الأحزاب: ٦٦]، ولام السبيل، في قوله ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وصلاً ووقفاً، موافقة للرسم. لأن هذه الثلاثة رسمت في المصحف، كذلك. وأيضاً فإن هذه الألف تشبه هاء السكت لبيان الحركة. وهاء السكت تثبت وقفاً للحاجة إليها. وقد ثبتت وصلاً إجراء للوصل مجرى الوقف، فكذلك هذه الألف. وقرأ أبو عمرو وحمزة بحذفها في الحالين. لأنها لا أصل لها. وقولهم (أجريت الفواصل مجرى القوافي) غير معتدّ به. لأن القوافي يلزم الوقف عليها غالباً. والفواصل لا يلزم ذلك فيها، فلا تشبه بها،. والباقون بإثباتها وقفاً، وحذفها وصلاً، إجراء للفواصل مجرى القوافي، في ثبوت ألف الإطلاق. ولأنها كهاء السكت. وهي تثبت وقفاً، وتحذف وصلاً، أفاده السمين.

ثم أشار تعالى إلى ما ظهر من المنافقين في تلك الشدة، بقوله سبحانه ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ**﴾ أي شبهة. تنفساً بما يجدونه من الوسواس في نفوسهم، وفرصة لانطلاق ألسنتهم، بما تكنّ صدورهم. لضعف إيمانهم وشدة ما هم فيه من ضيق الحال، وحصر العدّو لهم ﴿**مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ**﴾ أي من النصر ﴿**إِلاَّ غُرُوراً**﴾ أي باطلاً ﴿**وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ**﴾ أي المنافقين ﴿**يَا أَهْلَ يَثْرِبَ**﴾ وهي أرض المدينة ﴿**لاَ مُقَامَ لَكُمْ**﴾ بضم الميم وفتحها، قراءتان. أي لا إقامة لكم بعد اليوم بالمدينة أو نواحيها لغلبة الأعداء ﴿**فَارْجِعُوا**﴾ أي إلى منازلكم من المدينة هاربين. أو فارجعوا عن الإسلام كفاراً ليمكنكم المقام.

فائدة:

(يثرب) من أسماء المدينة. كما في الصحيح[١]: أريت في المنام دارَ هجرتكم. أرض بين حرتين. فذهب وَهَلى أنها هَجَر. فإذا هي يثربَ (وفي لفظ: المدينة).

قال ابن كثير: فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد[٢] عن البراء قال: قال

---

(١) أخرجه البخاري في: المناقب، ٢٥- باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم ١٧٠٣.
(٢) أخرجه في مسنده ٤/ ٢٨٥.

رسول الله ﷺ من سمى المدينة (يثرب) فليستغفر الله تعالى، إنما هي طابة هي طابة. تفرد به الإمام أحمد، وفي إسناده ضعف .انتهى : ﴿ وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾ أي في الرجوع ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أي غير حصينة يخشى عليها ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ ﴾ أي يثرب ﴿ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ أي بأن دخل عليهم العدّو من سائر جوانبها، وأخذ في النهب والسلب ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ ﴾ أي الرجعة إلى الكفر ﴿ لأَتَوهَا ﴾ أي لفعلوها ﴿ وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَا إِلاَّ يَسِيراً ﴾ أي وما توقفوا بإعطائها إلا ريثما يكون السؤال والجواب. أي فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به، مع أدنى خوف وفزع. وهذا منتهى الذم لهم. ثم ذكّرهم تعالى بما كانوا عاهدوه من قبل بقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا الخوف ﴿ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً ﴾ أي عن الوفاء به ﴿ قُل لَن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ أي لأنه لا يؤخر آجالهم ولا يطوّل أعمارهم. بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة انتقاماً منهم. ولهذا قال: ﴿ وَإِذاً ﴾ أي فررتم ﴿ لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي في الدنيا بعد فراركم . أو لأنهم فقدوا بذلك حظهم الأخرويّ. فمهما متعوا في الدنيا، فإنه قليل بجانب نعيم الآخرة للصابرين.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ﴾ أي يجيركم ﴿مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾ أي هلاكاً أو هزيمة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ أي مجيراً ولا مغيثاً يدفع عنهم الضر ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي المثبطين عن رسول الله ﷺ. وهم المنافقون. قال الشهاب: و (قد) للتحقيق، أو لتقليله باعتبار متعلقه، وبالنسبة لغير معلوماته. انتهى. ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي من ساكني المدينة ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي اقبلوا إلى ما نحن فيه من الضلال والثمار ﴿وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ أي القتال ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي إلا إتياناً قليلاً. لأنهم يتثبطون ما أمكن لهم ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي بخلاء بالمعونة والنفقة والمودة عليكم، أو أضنّاء بكم ظاهراً، إن لم يحضر خوف ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ أي في أحداقهم ﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي كنظره أو كدورانه ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي بالغوا فيكم بالكلام طعناً وذماً. فأحرقوكم وآذوكم. وأصل (السلق) بسط العضو ومدة للقهر. كان يداً أو لساناً. ويجوز أن يشبه اللسان بالسيف على طريق الاستعارة المكنية، ويثبت له السلق وهو الضرب تخييلاً ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي على فعله ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ أي لم ينهزموا بما أرسل عليهم من الريح والجنود. وأن لهم عودة إليهم لخورهم واضطرابهم ﴿وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ﴾ أي مرة أخرى ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ﴾ أي فلا يذهبون إلى قتالهم، ولا يستقرّون في المدينة، بل يتمنون أنهم خارجون إلى البدو بين الأعراب، وإن لحقهم عار جبنهم ﴿يَسْئَلُونَ﴾ أي القادمين ﴿عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أي عما جرى لكم. ثم أشار تعالى إلى أنه لا يضر خروجهم عن المدينة، لو أتى الأحزاب، بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم﴾ أي في حدوث واقعة ثانية ﴿مَا قَاتَلُواْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي رياء وخوفاً من التعيير ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي في أخلاقه وأفعاله قدوة حسنة، إذ كان منها ثباته في الشدائد وهو مطلوب. وصبره على البأساءَ والضراء وهو مكروب ومحروب. ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة، لا يخور في شديدة ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة. وقد لقي بمكة من قريش ما يشيب النواصي، ويهدّ الصياصي. وهو مع الضعف يصابر

صبر المستعلي ، ويثبت ثبات المستولي. ومن صبر على هذه الشدائد في الدعاء إلى الله تعالى، وهو الرفيع الشأن، كان غيره أجدر إن كان ممن يتبع بإحسان ﴿**لِمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ**﴾ أي رضوان الله ورحمته وثواب اليوم الآخر ونجاته. فإنه يؤثرهما على الحياة الدنيا، فلا يجبن. إذ لا يصح الجبن لمن صح اقتداؤه برسول الله ﷺ، لغاية قبحه ﴿**وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ أي وقرن بالرجاء ذكره تعالى بكثرة. أي ذكر أمره ونهيه ووعده ووعيده. فأدرك مواطن السّعادة ومهاوي الشقاوة. وعلم أن في الثبات على قتل العدوّ، تطهير الأرض من الفساد، وتزيينها بالحق والصلاح والسداد. مما جزاؤه سعادة الدارين، والفوز بالحسنيين. ثم بيّن تعالى ما كان من المؤمنين المخلصين في تلك الشدة، بعد بيان ما كان من غيرهم، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

﴿**وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُواْ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ**﴾ أي لأنه تعالى وعدهم أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه، في قوله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة:٢١٤]، وكذلك حدثهم الرسول صلوات الله عليه بالابتلاء والامتحان الذي يعقبه النصر والأمان ﴿**وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**﴾ أي ظهر صدقهما فيما وعدانا به ﴿**وَمَا زَادَهُمْ**﴾ أي هذا الخطب والبلاء، عند تزلزل المنافقين وبث أراجيفهم ﴿**إِلاَّ إِيمَاناً**﴾ أي بالله ورسوله ومواعيدهما ﴿**وَتَسْلِيماً**﴾ أي لأمر الله ومقاديره ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ في الصبر والثبات، والقيام بما كتب عليهم من القتال، لإعلاء كلمة الحق، ومن العمل بالصالحات، ومجانبة السيئات ﴿**فَمِنْهُم مَن قَضَى نَحْبَهُ**﴾ أي أدّى ما التزمه ووفى به، فقاتل مع الرسول ﷺ، صادقاً حتى قتل شهيداً.

قال الشهاب: أصل معنى (النحب) النذر. وقضاؤه الوفاء به. وقد كان رجال من الصحابة رضي الله عنهم نذروا أنهم إذا شهدوا معه ﷺ حرباً، قاتلوا حتى يستشهدوا. وقد استعير (قضاء النحب) للموت، لأنه لكونه لا بد منه، مشبّه بالنذر الذي يجب الوفاء به. فيجوز أن يكون هنا حقيقة، أو استعارة من المشاكلة فيه. انتهى.

﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَنتَظِرُ ﴾ أي ما وعد اللّه به من نصره والشهادة على ما مضى عليه أصحابه ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ أي ما غيروا شيئاً من العهد، ولا نقضوه كنقض المنافقين في توليهم ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ ﴾ [الأحزاب: ١٥] ففيه كناية تعريضية تفهم من تخصيصهم به. والتصريح بالمصدر لإفادة العموم.

القول في تأويل قوله تعالى:

لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ ﴾ أي في عهودهم ﴿ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ ﴾ أي كمال غضبهم بما أرسله من الريح والجنود، بفضله ورحمته ﴿ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً ﴾ أي نصراً لا غنيمة ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أي فلم يحوجهم إلى مبارزتهم ليجلوهم عن المدينة. بل تولى كفاية ذلك وحده. ولهذا كان رسول اللّه ﷺ يقول: لا إله إلا اللّه وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً ﴾ أي فلا يعارض قوته قوة شيء ﴿ عَزِيزاً ﴾ أي غالباً على أمره

(ذكر تفصيل نبأ الأحزاب المسمى بغزوة الخندق)

قال الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد): كانت غزوة الخندق في سنة خمس من الهجرة، في شوّال على أصح القولين. إذ لا خلاف أن أُحُداً كانت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول اللّه ﷺ في العام المقبل وهي سنة أربع. ثم أخلفوه لأجل جدب السنة، فرجعوا. فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه. هذا قول أهل السير والمغازي. وخالفهم موسى بن عقبة وقال: بل كانت سنة أربع. قال أبو محمد ابن حزم: وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه. واحتج عليه بحديث ابن عمر في الصحيحين[1] أنه عرض على النبيّ ﷺ يوم أُحُد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه. ثم عرض عليه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه. قال: وصحّ أنه لم يكن

---

(١) أخرجه البخاري في: المغازي، ٢٩- باب غزوة الخندق، حديث رقم ١٢٩٥
وأخرجه مسلم في: ٣٣- الإمارة، حديث رقم ٩١.

بينهما إلا سنة واحدة. وأجيب عن هذا بجوابين: أحدهما – أن ابن عمر أخبر أن النبيّ ﷺ ردّه لما استصغره عن القتال، وأجازه لما وصل إلى السن التي رآه فيها مطيقاً. وليس في هذا ما ينفي تجاوزها بسنة أو نحوها. والثاني – أنه لعله كان يوم أُحُد في أول الرابع عشرة. ويوم الخندق في آخر الخامس عشرة.

ثم قال ابن القيّم رحمه الله: وكان سبب غزوة الخندق، أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أُحُد، وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين، فخرج لذلك ثم رجع للعام المقبل، خرج أشرافهم كسلام بن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة. يحرّضونهم على غزو رسول الله ﷺ، ويوالونهم عليه. ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم. فأجابتهم قريش. ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم. ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك. فاستجاب لهم من استجاب. فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف. ووافاهم بنو سليم بمرّ الظهران. وخرجت بنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة. وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن. وكان قد وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف. فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه، استشار الصحابة، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق يحول بين العدوّ وبين المدينة. فأمر به رسول الله ﷺ فبادر إليه المسلمون. وعمل بنفسه فيه وبادروا. وهجم الكفار عليهم. وكان في حفره من آيات نبوّته وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به. وكان حفر الخندق أمام سلع. وسلع جبل خلف ظهور المسلمين. والخندق بينهم وبين الكفار. وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين. فتحصن بالجبل من خلفه وبالخندق أمامهم.

وقال ابن إسحاق: خرج في سبعمائة. (وهذا غلط من خروجه يوم أُحُد).

وأمر النبيّ ﷺ بالنساء والذراري فجعلوا في آطام المدينة. واستخلف عليها ابن أم مكتوم وانطلق حُيَيّ بن أخطب إلى بني قريظة. فدنا من حصنهم. فأبى كعب ابن أسد أن يفتح له. فلم يزل يكلمه حتى فتح له. فلما دخل عليه قال: لقد جئتكم بعزّ الدهر. جئتك بقريش وغطفان وأسد على قادتها، لحرب محمد. قال: قال كعب: جئتني، واللهَ! بذل الدهر وبجهام قد أراق ماءه. فهو رعد وبرق. فلم يزل به حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ. ودخل مع المشركين في محاربته، فسرّ بذلك المشركون. وشرط كعب على حييّ أنه، إن لم يظفروا بمحمد، أن يجيء

حتى يدخل معه في حصنه، فيصيبه ما أصابه. فأجابه إلى ذلك، ووفى له به. وبلغ رسول اللّه ﷺ خبر بني قريظة ونقضهم للعهد. فبعث إليهم السعدين وخَوَّات بن جبير وعبد اللّه بن رواحة ليعرفوه: هل هم على عهدهم أو قد نقضوه. فلما دنوا منهم فوجدوهم على أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول اللّه ﷺ. فانصرفوا عنهم، ولحنوا لرسول اللّه ﷺ لحناً يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا. فعظم ذلك على المسلمين. فقال رسول اللّه ﷺ عند ذلك: اللّه أكبر! أبشروا يا معشر المسلمين. واشتد البلاء وتجهر النفاق. واستأذن بعض بني حارثة رسول اللّه ﷺ في الذهاب إلى المدينة وقالوا: بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً. وهمَّ بنو سلمة بالفشل. ثم ثبّت اللّه الطائفتين. وأقام المشركون محاصرين رسول اللّه ﷺ شهراً. ولم يكن بينهم قتال. لأجل ما حال اللّه به من الخندق. بينهم وبين المسلمين. إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدودٍّ وجماعة معه، أقبلوا نحو الخندق. فلما وقفوا عليه قالوا: إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها. ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه. وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع. ودعوا إلى البراز. فانتدب لعمروٍ عليٌّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه. فبارزه فقتله اللّه على يديه. وكان من شجعان المشركين وأبطالهم. وانهزم الباقون إلى أصحابهم. وكان شعار المسلمين يومئذ (حم لا ينصرون) ولما طالت هذه الحال على المسلمين، أراد رسول اللّه ﷺ أن يصالح عُيَيْنة بن حصن والحارث بن عوف، رئيسيْ غطفان على ثلث ثمار المدينة، وينصرفا بقومهما. وجرت المراوضة على ذلك. فاستشار السعدين في ذلك فقالا: يا رسول اللّه! إن كان اللّه أمرك بهذا، فسمعاً وطاعة. وإن كان شيء تصنعه لنا، فلا حاجة لنا فيه. لقد كنا نحن هؤلاء القوم على الشرك باللّه وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرىً أو بيعاً. فحين أكرمنا اللّه بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا؟ واللّه! لا نعطيهم إلا السيف. فصوّب رأيهما وقال: إنما هو شيء أصنعه لكم، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة.

ثم إن اللّه عزَّ وجلَّ، وله الحمد، صنع أمراً من عنده. خذل به بين العدوّ وهزم جموعهم، وفَلَّ حَدّهم. فكان مما هيأ من ذلك، أن رجلاً من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر، رضي اللّه عنه، جاء إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه! إني قد أسلمت. فمرني بما شئت. فقال رسول اللّه ﷺ: إنما أنت رجل واحد. فخذّل عنا ما استطعت: فإن الحرب خدعة. فذهب من فوره ذلك إلى بني قريظة. وكان عشيراً

لهم في الجاهلية، فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه فقال: يا بني قريظة! إنكم قد حاربتم محمداً. وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا انشمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمداً، فانتقم منكم. قالوا: فما العمل؟ يا نعيم! قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأي. ثم مضى على وجهه إلى قريش. قال لهم: تعلمون ودّي لكم ونصحي لكم.قالوا: نعم قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه. وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم. فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم. ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك. فلما كان ليلة السبت من شوّال بعثوا إلى يهود: إنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكراع والخفّ. فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً فأرسل إليهم اليهود: إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه. ومع هذا، فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن. فلما جاءتهم رسلهم بذلك، قالت قريش صدقكم، والله! نعيم. فبعثوا إلى يهود: إنا، والله! لا نرسل إليكم أحداً. فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً. فقالت قريظة: صدقكم، والله! نعيم. فتخاذل الفريقان: وأرسل الله عزَّ وجلَّ على المشركين جنداً من الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد. فجعلت تقوّض خيامهم، ولا تدع لهم قِدْراً إلا كفأتها، ولا طُنُباً إلا قَلعته، ولا يقر لهم قرار. وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف. وأرسل رسولُ الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال وقد تهيأوا للرحيل. فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبرهم برحيل القوم. فأصبح رسول الله ﷺ وقد ردّ الله عدوّه بغيظه، لم ينالوا خيراً وكفى الله قتالهم. فصدق وعده. وأعز جنده ونصر عبده. وهزم الأحزاب وحده.

ثم لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً والمسلمون معه، ووضعوا السلاح، وكانت الظُّهر، أتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فقال: إنَّ اللّهَ عز وجل يأمرك بالمسير إلى بني قريظة - وهم قبيلة من يهود خيبر - فإني عامدٌ إليهم فمزلزلٌ بهم. فأمر رسول الله ﷺ مؤذنا فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلّين العصر إلا ببني قريظة. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم. وقدّم رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب، رضوان الله عليه، برايته إلى بني قريظة. وابتدرها الناس. فسار عليّ، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ. فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق. فقال: يا رسول الله! لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث. قال: لِمَ؟ أظنك سمعت منهم لي أذى. قال: نعم. يا رسول الله؟ قال: لو رأوني لم يقولوا

من ذلك شيئاً. وتلاحق به الناس، وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف اللّه في قلوبهم الرعب. ثم نزلوا على حكم رسول اللّه ﷺ، فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول اللّه! صلى اللّه عليك وسلم. إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلتَ في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت.

وقد كان رسول اللّه ﷺ، قبل بني قريظة، قد حاصر بني قينقاع وهم شعب من اليهود كانوا بالمدينة، وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد اللّه بن أُبيّ ابن سلول فوهبهم له.

فلما كلمته الأوس قال رسول اللّه ﷺ: ألا ترضون، يا معشر الأوس! أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال رسول اللّه ﷺ: فذاك إلى سعد بن معاذ.

وكان رسول اللّه ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رُفيدة في مسجده، كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين. وكان رسول اللّه ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب. فلما حكّمه رسول اللّه ﷺ في بني قريظة، أتاه قومه فحملوه على حمار.

وكان رجلاً جسيماً جميلاً. ثم أقبلوا معه إلى رسول اللّه ﷺ. فلما انتهى إلى رسول اللّه ﷺ والمسلمين، قال ﷺ: قوموا إلى سيدكم فقاموا إليه فأنزلوه.

قال ابن كثير: إعظاماً وإكراماً، واحتراماً له، في محل ولايته، ليكون أنفذ لحكمه فيهم.

فلما جلس، قال له رسول اللّه ﷺ: إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك. فاحكم فيهم بما شئت. وصارت تعرّض له الأوس أن يحسن إليهم، وتقول: يا أبا عمرو! إن رسول اللّه ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم.

فقال رضي اللّه عنه: عليكم عهد اللّه وميثاقه، أنّ الحكم فيهم لما حكمتُ. قالوا: نعم. قال: وعلى من ها هنا (في الناحية التي فيها رسول اللّه ﷺ. وهو معرض عن رسول اللّه ﷺ إجلالاً له) فقال رسول اللّه ﷺ: نعم. قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتُقسم الأموال، وتُسبى الذراريّ والنساء. فقال رسول اللّه ﷺ لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم اللّه من فوق سبعة أرقعة. وفي رواية: لقد حكمت بحكم الملك (أي لأن هذا جزاء الخائن الغادر) وكان سعد أصيب يوم الخندق. رماه رجل من قريش يقال له ابن العَرِقة. رماه في الأكحل.

فكواه رسول الله ﷺ في أكحله. وقال سعد: اللهم! إن كنتَ أبقيت من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها: فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهد، من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. اللهم! وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فاجعل لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة. فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم، طلباً من تلقاء أنفسهم.

ثم لما استنزلوا من حصونهم، حبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دارٍ. ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالاً، وفيهم عدو الله حُيَيّ بن أخطب وكعبُ ابن أسد رأسُ القوم. وهم ستمائة أو سبعمائة. وسُبي من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم، وهذا ما ذكره تعالى من أمر بني قريظة، إثر أمر الخندق بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾

﴿ **وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم** ﴾ أي عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب الرسول ﷺ ﴿ **مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾ يعني بني قريظة. وهم طائفة من اليهود، كان نزل آباؤهم الحجاز لما فرّوا من الاضطهاد وتشتتوا كل شتات في أطراف البلاد ﴿ **مِن صَيَاصِيهِمْ** ﴾ أي حصونهم وآطامهم التي كانوا فيها ﴿ **وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ** ﴾ أي الخوف، جزاء وفاقاً.

قال ابن كثير: لأنهم كانوا مالئوا المشركين على حرب النبيّ ﷺ - وليس من يعلم كمن لا يعلم - وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا في الدنيا. فانعكس عليهم الحال وانقلب إليهم القتال، لما انشمر المشركون وراحوا بصفقة المغبون. فكما راموا العز ذلوا. وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا. ولهذا قال تعالى: ﴿ **فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً** ﴾ يعني قتل الرجال المقاتلة، وسبي الذراري والنساء.

روى الإمام أحمد[1] عن عطية القرظيّ قال: عُرِضتُ على النبيّ ﷺ يوم قريظة

---

(١) أخرجه في المسند ٤ / ٣١٠.

فشكّوا فيّ. فامر بي النبيّ ﷺ أن ينظروا: هل أنبتُّ بعد؟ فنظروني فلم يجدوني أنبتُّ. فخلّى عني، والحقني بالسبي.

وكذا رواه أهل السنن كلهم: وقال الترمذي: حسن صحيح ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ﴾ حصونهم ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي نقودهم وأثاثهم ومواشيهم ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُهَا﴾ أي أرضاً لم تقبضوها بعد، يعني خيبر، وقيل مكة. رواه مالك عن زيد بن أسلم. وقيل: فارس والروم، وقال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً. قال الزمخشري: ومن بدع التفاسير أنه أراد نساءهم. وبتمام هذه الغزوة أراح اللّه المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة. ولم يبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها، وهم الذين كانوا السبب في إثارة الأحزاب. قال بعضهم: ياللّه! ما أسوأ عاقبة الطيش! فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح. فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم. وهذا ما حصل لليهود في الحجاز. فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر. ولكن اليهود لم يوفوا بتلك العهود حسداً منهم وبغياً. فَتَمَّ عَليهم ما تم. سنة الله في المفسدين. فإن اللّه لا يصلح أعمالهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ أي وقد شاهدتم بعض مقدوراته فاعتبروا بغيرها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي السعة والتنعم فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي زخارفها ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي أعطكن المتعة وأطلقكن. والمتعة ما يعطى للمرأة المطلّقة على حسب السعة والإقتار. من ثياب أو دراهم أو أثاث، تطوعاً لا وجوباً. وقوله تعالى: ﴿سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ أي طلاقاً من غير ضرار ولا بدعة. وقد روي أنهن سألن النبيّ ﷺ ثياب الزينة وزيادة النفقة مما ليس عنده. فنزلت الآية. ولما نزلت، بدأ ﷺ بعائشة رضي اللّه عنها. وكانت أحبهن إليه. فخيّرها وقرأ عليها القرآن، فاختارت اللّه ورسوله والدار الآخرة. ثم اختار جميعُهن اختيارها. قيل: وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي اللّه عنهن. ثم صفية بنت حُيَيّ النضرية وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضي اللّه عنهن.

لطيفة:

قال الرازي: وجه التعلق، وهو أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين: التعظيم لأمر اللّه، والشفقة على خلق اللّه. وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله: الصلاة وما

ملكت أيمانكم. ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة. وبدأ بالزوجات، فإنهن أولى الناس بالشفقة، ولذا قدمهن في النفقة. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أي تردن رسوله. قال أبو السعود: وذكر الله عزَّ وجلَّ، للإيذان بجلالة محله عليه السلام، عنده تعالى: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾** أي لا يقدر قدره. ولما خيّرهن النبيّ ﷺ، واخترن الله ورسوله، أدبهن الله وهددهن، للتوقي عما يسوء النبيّ ﷺ، ويقبح بهن من الفاحشة. وأوعدهن بتضعيف العذاب بقوله تعالى: **﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾** أي بيّن الشرع والعقل قبحها. إن قرئ بالفتح. أو مبيِّنة قبحها بنفسها من غير تأمل، إن قرئ بالكسر **﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾** أي ضعفي عذاب غيرهن. قال القاضي: لأن الذنب منهن أقبح. فإن زيادة قبحه تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه، ولذلك جعل حدّ الحرّ ضعفي حد العبد، وعوتب الأنبياء بما لا يعاتب به غيرهم **﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾** لعموم قدرته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ أي يدم مطيعاً **﴿مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** أي في إتيان الواجبات وترك

المحرمات والمكروهات ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي مرة على الطاعة والتقوى، وأخرى على طلبهن رضا رسول اللّه ﷺ، بحسن الخلق وطيب المعاشرة والقناعة ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا﴾ أي زيادة على أجرها المضاعف في الجنة، أو فيها وفي الدنيا ﴿رِزْقاً كَرِيماً﴾ أي حسناً مرضياً ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي عند مخاطبة الناس. أي فلا تُجبْنَ بقولكن لينا خنثا، مثل كلام المريبات والمومسات ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي ريبة وفجور ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ أي بعيداً من طمع المريب بجدّ وخشونة، من غير تخنيث. أو قولاً حسناً مع كونه خشناً ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي اسكنّ ولا تخرجن منها. من (وقر يقر وقاراً) إذا سكن. أو من (قرّ يقر من باب ضرب) حذفت الأولى من راءى (اقررن) ونقلت كسرتها إلى القاف، فاستغنى عن همزة الوصل. ويؤيده قراءة نافع وعاصم بالفتح. من (قررت أقر) من باب علم. وهي لغة قليلة ﴿وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ أي تبرج النساء أيام جاهلية الكفر الأولى. إذ لا دين يمنعهم ولا أدب يزعهم. والتبرج، فسّر بالتبختر والتكسّر في المشي. وبإظهار الزينة وما يستدعى به شهوة الرجل. وبلبس رقيق الثياب التي لا تواري جسدها. وبإبداء محاسن الجيد والقلائد والقرط. وكل ذلك مما يشمله النهي، لما فيه من المفسدة والتعرّض لكبيرة.

فائدة:

قيل ﴿الأُولَى﴾ بمعنى القديمة مطلقاً من غير تقييد بزمن. فيستدل بذلك لمن قال: إن الأول لا يستلزم ثانياً.

قال في (الإكليل): وهو الأصح عند العلماء. فلو قال: أول ولد تلدينه فأنت طالق، لم يحتج إلى أن تلد ثانياً. انتهى.

وقال الزمخشري: الأولى هي القديمة التي يقال لها الجاهلية الجهلاء. من الزمن الذي ولد فيه إبراهيم، أو ما قبله، إلى زمن عيسى. والجاهلية ما بين عيسى ومحمد صلوات اللّه عليهما. ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام. ويعضّده ما روي[1] أن رسول اللّه ﷺ قال لأبي ذرّ، لما عيّر رجلاً بأمه وكانت أعجمية: إنك امرؤ فيك جاهلية. والمعنى نهيهن عن إحداث جاهلية في الإسلام، تشبه جاهلية الكفر قبله ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَءَاتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي بموافقة أمرهما ونهيهما. ثم

---

(١) أخرجه البخاري في: الإيمان، ٢٢– باب المعاصي من أمر الجاهلية، حديث رقم ٢٨.

أشار إلى أن مخالفتهما رجس لا يناسب فضل أهل البيت بقوله: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تطهيراً**﴾ أي ما أمركنّ ونهاكنّ، ووعظكنّ، إلا خيفة مقارفة المآثم والحرص على التصوّن عنها بالتقوى. فالجملة تعليلية لأمرهنّ ونهيهن على سبيل الاستئناف.

قال الزمخشري: استعار للذنوب (الرجس) وللتقوى (الطهر). لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويتدنس كما يتلوّث بدنه بالأرجاس. وأما المحسنات فالعرض معها نقيّ مصون كالثوب الطاهر. وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولي الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه. ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به. و﴿**أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾ نصب على النداء أو على المدح. والمِراد بهم مَن حواهم بيت النبيّ ﷺ.

قال ابن كثير: وهذا نص في دخول أزواج النبيّ ﷺ في أهل البيت ههنا، لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً. إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح. وأما قول عكرمة، إنها نزلت في نساء النبيّ ﷺ خاصة، ومن شاء باهلته في ذلك، فإن كان المراد أنهن كنّ سبب النزول دون غيرهن، فصحيح. وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن، ففي هذا نظر. فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك. وأنه ﷺ[1] جمع عليّاً وفاطمة والحسن والحسين، ثم جللهم بكساء كان عليه. ثم قال: هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس. وقد ساق ابن كثير طرق هذا الحديث ومخرجيه. إلا أن الشيخين لم يصححاه، ولذا لم يخرجاه. وأما ما رواه مسلم[2] عن حصين بن سبرة، عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: أما بعد، أيها الناس! إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب. وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور. فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحثّ على كتاب الله عز وجل ورغّب فيه. ثم قال: وأهل بيتي. أذكّركم الله في أهل بيتي. قالها ثلاثاً. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته. ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: آل عليّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم – فإنما مراد زيد، آله الذين حرموا الصدقة. أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله.

---

(١) أخرجه الترمذي في: المناقب، ٦٠- باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ.

(٢) أخرجه في: فضائل الصحابة، حديث رقم ٣٦.

قال ابن كثير: وهذا الاحتمال أرجح، جمعا بين القرآن والأحاديث المتقدمة، إن صحتْ. فإن في بعض أسانيدها نظراً. انتهى.

وقال أبو السعود: وهذه كما ترى آية بينة، وحجة نيرة، على كون نساء النبيّ ﷺ من أهل بيته، قاضية ببطلان رأي الشيعة في تخصيصهم أهلية البيت بفاطمة وعليّ وابنيهما رضوان الله عليهم. وأما ما تمسكوا به من حديث الكساء وتلاوته ﷺ الآية بعده، فإنما يدل على كونهم من أهل البيت، لا على أن من عداهم ليسوا كذلك. ولو فرضت دلالته على ذلك لما اعتدّ بها، لكونها في مقابلة النص. انتهى.

بقي أن الشيعة، تمسكوا بالآية أيضاً على عصمة عليّ رضي الله عنه، وإمامته دون غيره.

قال ابن المطهر الحلي منهم: وفي هذه الآية دلالة على العصمة مع التأكيد بلفظ (إنما) وإدخال اللام في الخبر، والاختصاص في الخطاب بقوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ وغيرهم ليس بمعصوم الخ. وأجاب ابن تيمية رحمه الله في (منهاج السنة) بقوله: ليس في هذا دلالة على عصمتهم ولا إمامتهم. وتحقيق ذلك في مقامين: أحدهما – أن قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ كقوله ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦]، وكقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وكقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء:٢٦–٢٧]، فإن إرادة الله في هذه الآيات متضمنة لمحبة الله لذلك المراد ورضاه به، وأنه شرعه للمؤمنين وأمرهم به. ليس في ذلك أنه خلق هذا المراد، ولا أنه قضاه وقدّره، ولا أنه يكون لا محالة. والدليل على ذلك، أن النبيّ ﷺ بعد نزول هذه الآية قال (اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً) فطلب من الله لهم إذهاب الرجس والتطهير. فلو كانت الآية تتضمن إخبار الله بأنه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم، لم يحتج إلى الطلب والدعاء.

وهذا على قول القدرية أظهر. فإن إرادة الله عندهم لا تتضمن وجود المراد، بل قد يريد ما لا يكون ويكون ما لا يريد. فليس في كونه تعالى مريداً لذلك، ما يدل على وقوعه.

وهذا الرافضي وأمثاله قدرية، فكيف يحتجون بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ

عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ على وقوع المراد؟ وعندهم أن اللّه قد أراد إيمان مَن على وجه الأرض. فلم يقع مراده. وأما على قول أهل الإثبات، فالتحقيق في ذلك أن الإرادة في كتاب اللّه نوعان: إرادة شرعية دينية تتضمن محبته ورضاه. وإرادة كونية قدرية تتضمن خلقه وتقديره. الأولى مثل هؤلاء الآيات. والثانية مثل قوله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقول نوح ﴿وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤]، وكثير من المثبتة والقدرية يجعل الإرادة نوعاً واحداً، كما يجعلون الإرادة والمحبة شيئاً واحداً. ثم القدرية ينفون إراداته لما بيّن أنه مراد في الآيات التشريع. فإنه عندهم كل ما قيل إنه مراد. فلا يلزم أن يكون كائناً، واللّه قد أخبر أنه يريد أن يتوب على المؤمنين وأن يطهرهم . وفيهم من تاب وفيهم من لم يتب. وفيهم من تطهر وفيهم من لم يتطهر. وإذا كانت الآية دالة على وقوع أراده من التطهير وإذهاب الرجس، لم يلزم بمجرد الآية ثبوت ما ادعاه. ومما يبيّن ذلك، أزواج النبيّ ﷺ مذكورات في الآية. والكلام في الأمر بالتطهير بإيجابه ووعد الثواب على فعله والعقاب على تركه. قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ [الأحزاب:٣٠]، إلى قوله: ﴿**وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ ، فالخطاب كله لأزواج النبيّ ﷺ ومعهن الأمر والنهي والوعد والوعيد. لكن لما تبيّن ما في هذا من المنفعة التي تعمّهن وتعمّم غيرهن من أهل البيت، جاء التطهير بهذا الخطاب وغيره ليس مختصاً بأزواجه. بل هو متناول لأهل البيت كلهم. وعلي وفاطمة والحسن والحسين أخص من غيرهم بذلك. ولذلك خصهم النبيّ ﷺ بالدعاء لهم. وهذا كما أن قوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة:١٠٨]، نزلت بسبب (مسجد قباء) لكن الحكم يتناوله ويتناول ما هو أحق منه بذلك، وهو (مسجد المدينة) وهذا يوجه ما ثبت في الصحيح[١] عن النبيّ ﷺ أنه سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال: «هو مسجدي هذا». وثبت عنه في الصحيح[٢] أنه كان يأتي قباء

---

(١) أخرجه مسلم في: الحج، حديث رقم ٤١٥.

(٢) أخرجه البخاري في: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ٣- باب من أتى مسجد قباء كل سبت، حديث ٦٤٧، عن ابن عمر.
وأخرجه مسلم في: الحج، حديث رقم ٥١٥.

كل سبت ماشياً وراكباً. فكان يقوم في مسجده يوم الجمعة ويأتي قباء يوم السبت. وكلاهما مؤسس على التقوى. وهكذا أزواجه. وعليّ وفاطمة والحسن الحسين رضي الله عنهم أخص بذلك من أزواجه. ولهذا خصهم بالدعاء. وقد تنازع الناس في آل محمد من هم؟ فقيل: أمته. وهذا قول طائفة من أصحاب محمد ومالك وغيرهم. وقيل: المتقون من أمته. ورووا حديثاً (آل محمد كل مؤمن تقي) رواه الخلال، وتمام في (الفوائد) له. وقد احتج به طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم. وهو حديث موضوع. وبنى على ذلك طائفة من الصوفية. أن آل محمد هم خواص الأولياء. كما ذكر الحكيم الترمذيّ. والصحيح أن آل محمد هم أهل بيته. وهذا هو المنقول عن الشافعي وأحمد. وهو اختيار الشريف أبي جعفر وغيرهم. لكن هل أزواجه من أهل بيته؟ على قولين هما روايتان عن أحمد. أحدهما - أنهن لسن من أهل البيت. ويروى هذا عن زيد بن أرقم. والثاني - وهو الصحيح أن أزواجه من آله. فإنه قد ثبت في الصحيحين[1] عن النبيّ ﷺ أنه علمهم الصلاة عليه: «اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته». ولأن امرأة إبراهيم من آله وأهل بيته. وامرأة لوط من آله وأهل بيته. بدلالة القرآن. فكيف لا يكون أزواج محمد من آله وأهل بيته؟ ولأن هذه الآية تدل على أنهن من أهل بيته، وإلا لم يكن لذكر ذلك في الكلام معنى. وأما الأتقياء من أمته فهم أولياؤه. كما ثبت في الصحيح[2] أنه قال: «إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، وإنما وليّ الله وصالح المؤمنين». فبيّن أن أولياءه صالح المؤمنين. وكذلك في حديث آخر: «إن أوليائي المتقون حيث كانوا وأين كانوا». وقد قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤]، وفي الصحاح[3] عنه أنه قال: «وددت أني رأيت إخواني. قالوا: أولسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواني قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني». وإذا كان كذلك، فأولياؤه المتقون، بينه وبينهم قرابة الدين والإيمان والتقوى. وهذه القرابة الدينية أعظم من القرابة الطبيعية. والقرب بين القلوب والأرواح أعظم من القرب بين الأبدان.

---

(١) أخرجه البخاري في: الأنبياء، ١٠- باب حدثنا موسى بن إسماعيل، حديث ١٥٩٠، عن أبي حميد الساعدي.
ومسلم في: الصلاة، حديث رقم ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في: الأدب، ١٤- باب يبلّ الرحم ببلالها، حديث ٢٣١٥، عن عمرو بن العاص.
وأخرجه مسلم في الإيمان، حديث رقم ٣٦٦.

(٣) أخرجه مسلم في: الطهارة، حديث رقم ٣٩.

ولهذا كان أفضل الخلق أولياؤه المتقون. وأما أقاربه ففيهم المؤمن والكافر والبرّ والفاجر. فإن كان فاضل منهم، كعليّ رضي اللّه عنه وجعفر والحسن والحسين، ففضلهم بما فيهم من الإيمان والتقوى. وهم أولياؤه بهذا الاعتبار لا بمجرد النسب. فأولياؤه أعظم درجة من آله. وإن صلى على آله تبعاً، لم يقتض ذلك أن يكونوا أفضل من أوليائه. الذين لم يصلّ عليهم. فإن الأنبياء والمرسلين هم من أوليائه. وهم أفضل من أهل بيته. وإن لم يدخلوا في الصلاة معه تبعاً، فالمفضول قد يختص بأمر ولا يلزم أن يكون أفضل من الفاضل. ودليل ذلك أن أزواجه هم ممن يصلي عليه كما ثبت ذلك في الصحيحين. وقد ثبت باتفاق الناس كلهم أن الأنبياء. أفضل منهن كلهن. فإن قيل: فهب أن القرآن لا يدل على وقوع ما أريد من التطهير وإذهاب الرجس، لكن دعاء النبيّ ﷺ بذلك يدل على وقوعه. فإن دعاءه مستجاب. قيل: المقصود أن القرآن لا يدل على ما ادعاه بثبوت الطهارة وإذهاب الرجس. فضلاً عن أن يدل على العصمة والإمامة. وأما الاستدلال بالحديث فذاك مقام آخر. ثم نقول في المقام الثاني: هب أن القرآن دلّ على طهارتهم وعلى ذهاب رجسهم، كما أن الدعاء المستجاب لا بد أن يستحق معه طهارة المدعوّ لهم وإذهاب الرجس عنهم. لكن ليس في ذلك ما يدل على العصمة من الخطأ. والدليل عليه أن اللّه لم يرد بما أمر به أزواج النبيّ ﷺ أن لا يصدر من واحدة منهن خطأ. فإن الخطأ مغفور لهن ولغيرهن. وسياق الآية يقتضي أنه يريد ليذهب عنهم الرجس الذي هو الخبث. كالفواحش ويطهرهم تطهيراً من الفواحش وغيرها من الذنوب. والتطهير من الذنب على وجهين، كما في قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:٤]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:٨٢] و[النمل: ٥٦]، فإنه قال فيها ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣٠]، والتطهير من الذنب إما بأن لا يفعله العبد، وإما بأن يتوب منه كما في قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، ما أمر اللّه به من الطهارة ابتداء وإرادة. فإنه يتضمن نهيه عن الفاحشة، لا يتضمن الإذن فيها بحال. لكن هو سبحانه ينهى عنها، ويأمر من فعلها بأن يتوب منها. وفي الصحيح[1] عن النبيّ ﷺ أنه كان يقول: اللهم! باعد بيني وبين خطاياي، كما باعدت بين المشرق والمغرب. واغسلني بالثلج والبَرد والماء البارد. اللهم! نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس. وبالجملة، لفظ

---

(٦) أخرجه البخاري في: الأذان، ٨٩- باب ما يقول بعد التكبير، حديث ٤٥٤، عن أبي هريرة.
وأخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١٤٧.

(الرجس) أصله القذر. ويراد به الشرك. كقوله ﴿فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ [الحج:٣٠]، ويراد به الخبائث المحرّمة، كالمطعومات والمشروبات كقوله: ﴿قُل لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً﴾ [الأنعام:١٤٥]، وقوله ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة:٩٠]، وإذهاب ذلك إذهاب لكله. ونحن نعلم أن الله أذهب عن أولئك السادة الشرك والخبائث. ولفظ (الرجس) عامّ يقتضي أن الله يذهب جميع الرجس. فإن النبيّ ﷺ دعا بذلك. وأما قوله (وطهرهم تطهيراً) فهو سؤال مطلق بما يسمى طهارة. وبعض الناس يزعم أن هذا مطلق فيكتفي فيه بفرد من أفراد الطهارة. ويقول مثل ذلك في قوله ﴿فَاعْتَبِرُواْ يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢]، ونحو ذلك. والتحقيق أنه أمر بمسمى الاعتبار الذي يقال عند الإطلاق. كما إذا قيل: أكرم هذا، أي افعل معه ما يسمى عند الإطلاق إكراماً. وكذلك ما يسمى عند الإطلاق اعتباراً. والإنسان لا يسمى معتبراً إذا اعتبر في قصة، وترك ذلك في نظيرها. وكذلك لا يقال (هو طاهر) أو (متطهر) أو (مطهر) إذا كان متطهراً من شيء، متنجساً بنظيره. ولفظ (الطاهر) كلفظ (الطيب) قال تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور:٢٦]، كما قال ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ [النور:٢٦]، وقد روي أنه قال لعمّار: ائذنوا له. مرحباً بالطيب المطيب. وهذا أيضاً كلفظ (المتقي) و(المزكي) قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) [الشمس:٩-١٠]، وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، وقال ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ [الأعلى:١٤]، وقال: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:٢١]، وليس من شرط المتقين ونحوهم أن لا يقع منهم ذنب، ولا أن يكونوا معصومين من الخطأ والذنوب. فإن هذا، لو كان كذلك، لم يكن في الأمة متّق، بل من تاب من ذنوبه دخل في المتقين. كما قال ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء:٣١]، فدعاء النبيّ ﷺ بأن يطهرهم تطهيراً، كدعائه بأن يزكيهم ويطيبهم ويجعلهم متقين، ونحو ذلك ومعلوم أن من استقرّ أمره على ذلك، فهو داخل في هذا. لا تكون الطهارة التي دعا بها لهم بأعظم مما دعا به لنفسه. وقد قال[1]:

(١) أخرجه مسلم في: الصلاة، حديث ٢٠٤ عن عبد الله بن أبي أوفى.

«اللهم! طهرني من خطاياي بالثلج والبرَد والماء البارد». فمن وقع ذنبه مغفوراً أو مكفراً، فقط طهره الله منه تطهيراً. ولكن من مات متوسخاً بذنوبه، فإنه لم يطهر منها في حياته. وقد يكون من تمام تطهيرهم صيانتهم عن الصدقة التي هي أوساخ الناس.
والنبيُّ ﷺ، إذا دعا بدعاء، أجابه الله بحسب استعداد المحل. فإذا استغفر للمؤمنين والمؤمنات، لم يلزم أن لا يوجد مؤمن مذنب، فإن هذا، لو كان واقعاً، لما عُذِّبَ مؤمن، لا في الدنيا ولا في الآخرة. بل يغفر الله لهذا بالتوبة، ولهذا بالحسنات الماحية. ويغفر الله لهذا ذنوباً كثيرة، وإن واحدة بأخرى، وبالجملة، فالتطهير الذي أراده الله والذي دعا به النبيّ ﷺ، ليس هو العصمة بالاتفاق، فإن أهل السنة عندهم، لا معصوم إلا النبيّ ﷺ. والشيعةُ يقولون: لا معصوم غير النبيّ ﷺ والإمام. فقد وقع الاتفاق على انتفاء العصمة المختصة بالنبيّ ﷺ والإمام عن أزواجه وبناته وغيرهن من النساء، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون التطهير المدعوّ به للأربعة، متضمناً للعصمة التي يختص بها النبيّ ﷺ، والإمام عندهم. فلا يكون دعاء النبيّ ﷺ له بهذا، العصمة، لا لعليّ ولا لغيره. فإنه دعا لأربعة مشتركين، لم يختص بعضهم بدعوة، وأيضاً فالدعاء بالعصمة من الذنوب ممتنع على أصل القدرية. بل وبالتطهير أيضاً. فإن الأفعال الاختيارية التي هي فعل الواجبات وترك المحرمات عندهم غير مقدورة للرب. ولا يمكنه أن يجعل العبد مطيعاً ولا عاصياً. ولا متطهراً من الذنوب ولا غير متطهر. فامتنع على أصلهم أن يدعو لأحد بأن يجعله فاعلاً للواجبات تاركاً للمحرمات. وإنما المقدور عندهم قدرة تصلح للخير والشر. كالسيف الذي يصلح لقتل المسلم والكافر. والمال الذي يمكن إنفاقه في الطاعة والمعصية، ثم العبد يفعل باختياره، إما الخير وإما الشر بتلك القدرة. وهذا الأصل يبطل حجتهم، والحديث حجة عليهم في إبطال هذا الأصل، حيث دعا النبيّ ﷺ بالتطهير. فإن قالوا: المراد بذلك أنه يغفر لهم ولا يؤاخذهم، كان ذلك أدل على البطلان من دلالته على العصمة. فتبيَّن أن الحديث لا حجة لهم فيه بحالٍ على ثبوت العصمة. والعصمةُ مطلقاً التي هي فعل المأمور وترك المحظور، ليست مقدورة عندهم لله، ولا يمكنه أن يجعل أحداً فاعلاً لطاعةٍ، ولا تاركاً لمعصيةٍ. لا لنبيّ ولا لغيره. ويمتنع عندهم أن من يعلم أنه إذا عاش يطيعه باختيار نفسه، لا بإعانة الله وهدايته. وهذا مما يبين تناقض قولهم في مسائل العصمة. كما تقدم. ولو قدر ثبوت العصمة، فقد قدمنا أنه لا يشترط في الإمام العصمة، والإجماع على انتفاء العصمة في غيرهم. وحينئذ تبطل حجتهم بكل طريق. انتهى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ**﴾ أمر لهنّ بأن يذكرن ولا يُغفلن ما يقرأ في بيوتهن من آيات كتابه تعالى، وسنة نبيّه اللتين فيهما حياة الأنفس وسعادتها وقوام الآداب والأخلاق. وذكر ذلك مستوجب لتصوّر عظمته ومكانته وثمرة منفعته. وذلك يجرّ إلى العمل به. فمن تأوّل ﴿**اذْكُرْنَ**﴾ باعملن به، أراد ذلك تعبيراً عن المسبب باسم السبب. وجوّز أن يكون المعنى: اذكرن هذه النعمة حيث جعلتن أهل بيت النبوّة ومهبط الوحي، مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة، حثّاً على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه. قال أبو السعود: والتعرض للتلاوة في البيوت دون النزول فيها، مع كونه مهبط الوحي لعمومها لجميع الآيات ووقوعها في كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير. بخلاف النزول وعدم تعيين التالي لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبيّ ﷺ وتلاوتهن وتلاوة غيرهن، تعليماً وتعلماً ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً**﴾ أي يعلم ويدبر ما يصلح في الدين ولذلك أمر ونهي.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ أي المنقادين في الظاهر لحكم الله من الذكور والإناث ﴿**وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ أي المصدقين بما يجب أن يصدق به في القلب ﴿**وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ**﴾ أي بإدامة شغف الجوارح في الطاعات ﴿**وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ**﴾ في القول بمجانبة الكذب والعمل بتجريد الإخلاص لوجهه تعالى فلا يكون في طاعتهم رياء ﴿**وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ**﴾ أي على البأساء والضراء والنوائب، وعلى القيام بالعبادة والثبات عليها ﴿**وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ**﴾ أي المتواضعين لله

بقلوبهم وجوارحهم. و (الخشوع) السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف منه تعالى ومراقبته ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ أي بالإحسان إلى الفقراء والبؤساء الذين لا كسب لهم ولا كاسب. فيعطون من فضول أموالهم طاعة لله وإحساناً إلى خلقه وإتماماً للخشوع ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ أي الآتين بما طلب منهم من الصيام المورث للتقوى والرحمة على من يتضور جوعاً ويتصبر فقراً ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ أي عن إبدائها وإراءتها، حياءً وكفّاً عن مثار الشهوة المحرمة أو عن الحرام والفجور ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ أي بقلوبهم وألسنتهم ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ أي بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة غفراناً لما اقترفوا من الصغائر لأنها مكفرة بذلك ﴿وَأَجْراً عَظِيماً﴾ أي ثواباً وافراً في الجنة، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي ما صح لهما ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي قضى الله ورسوله في أنفسهم قضاء، أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما ويعصوهما، لما في ذلك من المآثم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فيما أمرا أو نهيا ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً﴾ أي جار عن قصد السبيل، وسلك غير الهدى والرشاد. وقد ذكر أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، حين خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة. فأبت لكونه مولى لا يماثلها في الشرف. فنزلت الآية فرضيت وتزوجها.

قال المهايمي: الظاهر أن الخطبة كانت بطريق الوجوب. ويحتمل أن تكون لا بطريق الوجوب، لكن اعتبار العار في مقابلة خطبة رسول الله ﷺ معصية، لما فيه من ترجيح قول أهل العرف على قول رسول الله ﷺ مع كونه قول الله بالحقيقة.

وقال بعضهم: إنما عدّ التنزيل إباءها عصياناً، وكأنه أرغمها على زواجه، لما أوقع الله من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك. وهو هدم تحريم زوجة المتبنَّى، الفاشي في الجاهلية. كما سيأتي سياقه.

وذكر أيضاً أنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط. وكانت أول من هاجر من النساء - بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبيّ ﷺ، فزوجها زيداً - أي بعد فراقه زينب - فسخطت، فنزلت الآية، فرضيت. وروى الإمام أحمد[١] عن أنس قال: خطب النبيّ ﷺ على جليبيب رضي اللّه عنه، امرأة من الأنصار إلى أبيها. فقال: حتى أستامر أمها. فقال النبيّ ﷺ: نعم إذاً. قال: فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر ذلك لها، فأبت أشد الإباء. فقالت الجارية: أتريدون أن تردّوا على رسول اللّه ﷺ أمره؟ إن كان قد رضيه لكم، فأنكحوه. قال: فكأنها جلت عن أبويها وقالا: صدقت. فذهب أبوها إلى رسول اللّه ﷺ فقال: إن كنتَ رضيتَه فقد رضيناه. قال ﷺ: فإني قد رضيته. قال: فزوجها. ثم ذهب مع النبيّ ﷺ في غزاة، فقتل. ورُئِيَ حوله ناس من المشركين قد قتلهم. قال أنس: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت في المدينة (وفي رواية: فما كان في الأنصار أيّم أنفق منها).

وذكر الحافظ ابن عبد البرّ في (الاستيعاب) أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردّون على رسول اللّه ﷺ أمره، نزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾.

ولا يخفى شمول الآية لما ذكر ولغيره، إلا أن تأثر هذه الآية بقصة زيد وزوجه، الآتية، يؤيد أنها نزلت في زوجه زينب، لتناسق نظام الآيات حينئذ وظهور هذه الآية كالطليعة لهذه القصة الجليلة.

وقد قدمنا مراراً أن معنى قولهم (نزلت الآية في كذا) أنها مما تشمله لعموم مساقها. ولذا سأل طاوس ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه. وقرأ له هذه الآية.

قال ابن كثير: هذه الآية عامة في جميع الأمور. وذلك أنه إذا حكم اللّه ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ها هنا، ولا رأي ولا قول. كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء:٦٥]، وفي الحديث: والذي نفسي بيده! لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به. ولهذا شدّد في خلاف ذلك فقال: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

---

(١) أخرجه في مسنده: ٣/١٣٦.

لطائف:

الأولى – قالوا على الروايات السالفة: إن ذكر اللّه في الآية، مع أن الآمر لهم الرسول ﷺ، للدلالة على أنه بمنزلة من اللّه، بحيث تعد أوامره أوامر اللّه تعالى.

أو أنه لما كان ما يفعله بأمره، لأنه لا ينطق عن الهوى، ذكرت الجلالة وقدمت للدلالة على ذلك. انتهى.

وهذا وقوف مع ماروي. وإلا فظاهر الآية يعم ما إذا قضى اللّه من كتابه، ورسوله في سنّته.

الثانية – ﴿الْخِيَرَةُ﴾ هنا مصدر، وذكروا أنه لم يجئ من المصادر على وزنه غير (طِيَرَة).

الثالثة – جمع الضمير الأول – وهو لهم – لعموم مؤمن ومؤمنة من حيث إنهما في سياق النفي. قال الشهاب: واعتبر عمومه، وإن كان سبب نزوله خاصاً، دفعاً لتوهم اختصاصه بسبب النزول. أو ليؤذن أنه كما لا يصح ما اختاروه مع الانفراد، لا يصح مع الجمع أيضاً كيلا يتوهم أن للجمعية قوة تصححه. انتهى.

وجمع الثاني – وهو ضمير من أمرهم – مع أنه للرسول ﷺ، أو له وللّه تعالى، للتعظيم. هذا ما أشار له القاضي وغيره. مع أنه لا يظهر امتناع عوده على ما عاد عليه الأول، مع ترجيحه بعدم التفكيك فيه، على أن يكون المعنى: ناشئةً من أمرهم. والمعنى دواعيهم السابقة إلى اختيار خلاف ما أمر اللّه ورسوله ﷺ. أو المعنى الاختيار في شيء من أمرهم، أي دواعيهم. وردّ هذا، بأنه قليل الجدوى، ضرورةَ أن الخيرة ناشئة من دواعيهم.. أو واقعة في أمورهم. وهو بيّن مستغن عن البيان. بخلاف ما إذا كان المعنى بدل أمره الذي قضاه ﷺ. أو متجاوزين عن آمره لتأكيده وتقريره للنفي. فهذا هو المانع من عوده إلى ما عاد عليه الأول.

قال الشهاب: وهو كلام حسن. ثم أشار تعالى إلى ما منّ به على المسلمين من هدم تحريم زوجة الدعيّ والمتبنَّى الذي كان فاشياً في الجاهلية، بما جرى بين زيد متبنَّى النبيّ ﷺ وزوجه من الفراق. ثم تزويجه تعالى لنبيه ﷺ إياها، رفعاً للحرج فيه. فقال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)﴾

﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ**﴾ أي بالإسلام ومتابعة النبيّ ﷺ، وهو زيد بن حارثة ﴿**وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ**﴾ أي بالعتق والحرية والاصطفاء بالولاية والمحبة، وتزويجه بنت عمتك زينب بنت جحش.

قال ابن كثير: كان سيداً كبير الشأن جليل القدر، حبيباً إلى النبيّ ﷺ يقال له (الحب) ويقال لابنه أسامة (الحب ابن الحب) قالت عائشة رضي الله عنها: ما بعثه رسولَ الله ﷺ في سرية إلا أمّره عليهم. ولو عاش بعده لاستخلفه. رواه الإمام أحمد(١). ﴿**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**﴾ أي لا تطلقها ﴿**وَاتَّقِ اللَّهَ**﴾ أي اخشه في أمرها فإن الطلاق يشينها وقد يؤذي قلبها وارعَ حق الله في نفسك أيضاً. فربما لا تجد بعدها خيراً منها. وكانت تتعظم عليه بشرفها، وتؤذيه بلسانها. فرام تطليقها متعللاً بتكبرها وأذاها فوعظه ﷺ وأرشده إلى الصبر والتقوى ﴿**وَتُخْفِي**﴾ أي تضمر ﴿**فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ**﴾ أي من الحكم الذي شرعه. أي تقول ذلك، وأنت تعلم أن الطلاق لا بد منه، وأن لا منتدح عن امتثال أمر الله بنفسك، لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتي بعدك. وإنما غلبك في ذلك الحياء وخشية أن يقولوا تزوج محمد مطلقة متبناه. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**وَتَخْشَى النَّاسَ**﴾ أي قالتهم وتعييرهم الجاهليّ ﴿**وَاللَّهُ**﴾ أي الذي ألهمك ذلك وأمرك به ﴿**أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**﴾ أي فكان عليك أن تمضي في الأمر من أول وهلة تعجيلاً بتنفيذ كلمته وتقدير شرعه، ثم زاده بياناً بقوله ﴿**فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً**﴾ أي حاجة بالزواج ﴿**زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ**﴾ أي ضيق من العار في نكاح زوجات أدعيائهم ﴿**إِذَا قَضَوْا**

---

(١) أخرجه في المسند: ٦ / ٢٢٧.

﴿مِنْهُنَّ وَطَراً﴾ أي بموت أو طلاق أو فسخ نكاح. **﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾** أي قضاؤه واقعاً، ومنه تزويجك زينب **﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾** أي مأثم وضيق **﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾** أي كتبه له من التزوج وأباحه له وسن شريعة مُثْلى في وقوعه **﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾** أي الرسل عليهم السلام. وهو أن لا حرج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره. فإنه كان لهم الحرائر والسراري وتناول المباحات والطيبات وبهداهم القدوة **﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾** أي قضاء مقضيّاً. أي لا حرج على أحد فيما أحل له. ثم وصف شأنهم بقوله **﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ﴾** أي أحكامه وأوامره ونواهيه ويصدعون بها **﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ﴾** أي لا يخافون قالة الناس ولائمتهم ولا يبالون بها في تشريعه ولا ريب أن سيّد الناس في هذا المقام، بل وفي كل مقام، حضرة نبينا ﷺ. كما علم من قيامه بالتبليغ بالقوة والفعل أبلغ قيام **﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾** أي حافظاً لأعمال خلقه. وكافياً للمخاوف.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

﴿مَّا كان مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ﴾ هذا دفعٌ لتعيير من جهل، فقال: تزوج محمد زوج ابنه زيد. فدفعه تعالى بأنه إنما يتصور لو كان ﷺ وسلم أباً لزيد على الحقيقة، لكنه ليس أباً لأحد من أصحابه، حتى يثبت بينه وبينه، ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح، وزيدٌ واحد منهم، الذين ليسوا بأولاده حقيقة. فكان حكمه حكمهم. والادعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لاغير **﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾** أي ولكن كان رسول اللّه مبلغاً رسالاته **﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾** بفتح التاء وكسرها، قراءتان. أي فهذا نعته وهذه صفته. فليس هو في حكم الأب الحقيقيّ، وإنما ختمت النبوة به، لأنه شرع له من الشرائع ما ينطبق على مصالح الناس في كل زمان وكل مكان. لأن القرآن الكريم لم يدع أُمّاً من أمهات المصالح إلا جلاّها، ولا مكرمة من أصول الفضائل إلا أحياها. فتمت الرسالات برسالته إلى الناس أجمعين، وظهر مصداق ذلك بخيبة كل من ادعى النبوة بعده، إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين **﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾** أي فلا يقضي إلا بما سبق به علمه، ونفذت فيه مشيئته، واقتضته حكمته.

تنبيهان في لطائف هذه القصة وفوائدها الباهرات:

الأول – لم تختلف الروايات أنه نزلت في قصة زيد بن حارثة وزوجه زينب بنت جحش. ورواه البخاري[1] عن أنس في التفسير. ورواه عنه في التوحيد قال: جاء زيد بن حارثة يشكو. فجعل النبيّ ﷺ يقول: اتق اللّه وأمسك عليك زوجك. وأخرجه أحمد بلفظ أتى رسول اللّه ﷺ منزل زيد بن حارثة. فجاءه زيد يشكوها إليه. فقال له: أمسك زوجك واتق اللّه. فنزلت.

وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السّدي. فساقها سياقاً حسناً واضحاً ولفظه: بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول اللّه ﷺ وكان رسول اللّه ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول اللّه ﷺ، فزوجها إياه، ثم أعلم اللّه عزَّ وجلَّ نبيّه ﷺ بعدُ، أنها من أزواجه. فكان يستحي أن يأمره بطلاقها، وكان لايزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول اللّه ﷺ أن يمسك عليه زوجه، وأن يتقي اللّه. وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه. وكان قد تبنى زيداً.

وعنده، من طريق علي زيد بن جدعان عن علي بن الحسين بن عليّ، قال: أعلم اللّه نبيه ﷺ؛ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها إليه، وقال له: اتق اللّه وأمسك عليك زوجك. قال اللّه تعالى: (قَدْ أَخْبَرْتُكَ أنِّي مُزَوِّجْكَهَا)، ﴿وتخفي في نفسك ما اللّه مبديه﴾ [الأحزاب:٣٧].

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) بعد نقل ما تقدم: ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبريّ، ونقلها كثير من المفسرين، لا ينبغي التشاغل بها، والذي أوردته منها هو المعتمد. انتهى.

وقال الحافظ ابن كثير: ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا أثاراً، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً، لعدم صحتها، فلا نوردها. انتهى.

الثاني – قال القاضي عياض رحمه اللّه في (الشفا) في بحث أقواله صلّى اللّه

---

(١) أخرجه في: التفسير، ٣٣– سورة الأحزاب، ٦– باب قوله ﴿وتخفي في نفسك ما اللّه مبديه﴾، حديث رقم ٢٠٣٢.
وأخرجه في: التوحيد، ٢٢– باب: ﴿وكان عرشه على الماء﴾، حديث رقم ٢٠٣٢.
أخرجه ٣ / ١٥٠.

عليه وسلم الدنيوية: ولا يجوز عليه ﷺ أن يأمر أحداً بشيء أو ينهى أحداً عن شيء، وهو يبطن خلافه وقد قال عليه السلام[1]: «ما كان لنبيّ أن تكون له خائنة الأعين، فكيف أن تكون له خائنة قلب؟». فإن قلت: فما معنى قوله في قصة زيد ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ الآية. فاعلم أكرمك الله ولا تسترب في تنزيه النبيّ عليه السلام عن هذا الظاهر، وأن يأمر زيداً بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها، ذكر عن جماعة من المفسرين. وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن عليّ بن حسين. أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه. فلما شكاها إليه زيد، قال له النبيّ ﷺ: أمسك عليك زوجك واتق الله، وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها.

وروى نحوه عمر بن قائد عن الزهري قال: نزل جبريل عليه السلام على النبيّ ﷺ يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش. فذلك الذي أخفى في نفسه، ويصحح هذا قول المفسرين في قوله بعد هذا ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ أي لا بد لك أن تتزوجها. ويوضح هذا أن الله تعالى لم يبد من أمره معها غير زواجه لها. فدل أنه الذي أخفاه عليه السلام، مما كان أعلمه به تعالى، وقوله تعالى في القصة ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ دل على أنه لم يكن عليه حرج في الأمر. ولو كان على ما قيل من وقوعها في قلبه، ومحبة طلاق زيد لها، لكان فيه أعظم الحرج. وكيف يقال: رآها فأعجبته وهي بنت عمته. ولم يزل يراها منذ ولدت. ولا كان النساء يحتجبن منه عليه السلام، وهو زوّجها لزيد، وإنما جعل الله طلاق زيد لها وتزويج النبيّ ﷺ إياها، لإزالة حرمة التبنيّ وإبطال سببه. كما قال ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ**﴾، وقال: ﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ قال ابن فورك: وليس معنى الخشية هنا الخوف. وإنما معناه الاستحياء. أي يستحي منهم أن يقولوا تزوج زوجة ابنه. وأن خشيته عليه السلام من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود، وتشغيبهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء، كما كان. فعتبه الله تعالى على هذا، أو نزهه عن الالتفات إليهم فيما أحلّه له. كما عتبه على مراعاة رضا أزواجه في سورة التحريم بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، الآية. كذلك قوله ههنا. انتهى ملخصاً.

الثالث – قال الإمام ابن حزم في (الفِصَل) يرّد على من استدل بمثل هذه الآية

(١) أخرجه أبو داود في: الحدود، ١– باب الحكم فيمن ارتد، حديث ٤٣٥٩.

على جواز وقوع الصغائر من الأنبياء، ما مثاله: وأما قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ الآية فقد أنفنا من ذلك. إذ لم يكن فيه معصية أصلاً ولا خلاف فيما أمره اللّه تعالى به وأن ما كان أراده زواج. مباح له فعله ومباح له تركه ومباح له طيه ومباح له إظهاره. وإنما خشي النبيّ ﷺ الناس في ذلك خوف أن يقولوا ويظنوا ظناً، فيهلكوا. كما قال عليه السلام[1] للأنصاريين: إنها صفية. فاستعظما ذلك، فأخبرهما النبيّ ﷺ أنه إنما يخشى أن يلقي الشيطان في قلوبهما شيئاً. وهذا الذي خشيه عليه السلام على الناس من هلاك أديانهم، بظن يظنونه به عليه السلام، هو الذي يحققه هؤلاء المخذولون المخالفون لنا في هذا الباب. وكان مراد اللّه عزَّ وجلَّ أن يبدي ما في نفسه، لما كان سلف في علمه من السعادة لأمنا زينب رضي اللّه عنها، انتهى.

الرابع - للإمام مفتي مصر رحمه اللّه مقالة على هذه الآية. رأيت نقلها هنا تعزيزاً لما سلف، وإيقافاً من أسرار الآية على نخب ما وصف.

قال رحمه اللّه: نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش. وهي بنت عمته ﷺ أميمة بنت عبد المطلب. وقد خطبها الرسول على مولاه زيد بن حارثة. فأبت وأبى أخوها عبد اللّه بن جحش فنزلت آية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ [الأحزاب:٣٦]، الخ، فلما نزلت الآية قالا: رضينا يارسول اللّه. فأنكحها إياه. وساق عنه إليها مهرها ستين درهماً وخماراً وملحفة ودرعاً وإزاراً وخمسين مُداً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر. كذا يروى.

فنحن من جهة، نرى أن زينب كانت بنت عمة النبيّ ﷺ، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت مع والدها لأول الأمر. حتى أنه اختارها لمولاه زوجة. مع إبائها وإباء أخيها. وعدّ إباءها هذا عصياناً. ولازالت كذلك حتى نزل في شانها قرآن. فكأنه أرغمها على زواجه، لما ألهمه اللّه من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك. ولو كان للجمال سلطان على قلبه ﷺ، لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر في روائه، ونضرة جدته، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب. ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة. ولكنه لم يرغبها لنفسه، ورغبها لمولاه،

(١) أخرجه البخاري في: الأحكام، ٢١- باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء، حديث رقم ١٠٣١.

فكيف يمتد نظره إليها، ويصيب قلبه سهم حبها، بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم عليه بالعتق والحرية؟ لم يُعْرَف فيما يغلب على مألوف البشر، أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب، إلى أن تبلغ حد العشق،خصوصاً إذا كان عشيره منذ صغره. بل المألوف زهادة الأقرباء بعضهم في بعض. متى تعوّد بعضهم النظر إلى بعض، من بداية السن إلى أن يبلغ حداً منه يجول فيه نظر الشهوة. فكيف يظن أو يتوهم أن النبيّ الذي يقول اللّه له ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه:١٣١]، يخالف مألوف العادة، ثم يخالف أمر اللّه في ذلك؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم اللّه قلبه عن كل دنيئة، يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده؟ ومن جهة أخرى ترى أن النبيّ ﷺ، وهو الرؤوف الرحيم، لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد، وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شؤون المعيشة. فما كان له – وهو سيد المصلحين – أن يرغم امرأة على الاقتران برجل وهي لا ترضاه، مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين. لا ريب أننا نجد من ذلك هادياً إلى وجه الحق في فهم الآية التي نحن بصدد تفسيرها. ذلك أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها، كان أمراً تدين به العرب وتعدّه أصلاً يرجع إليه في الشرف والحسب. وكانوا يعطون الدعي جميع حقوق الابن، ويجرون له وعليه جميع الأحكام التي يعتبرونها للابن، حتى في الميراث وحرمة النسب وهي عقيدة جاهلية رديئة. أراد اللّه محوها بالإسلام، حتى لا يعرف من النسب إلا الصريح ولا يجري من أحكامه إلا ماله-أساس صحيح. لهذا أنزل اللّه ﴿وَمَاجَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، ثم قال: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، الخ فهذا العدل الإلهي، أن لا ينال حقَّ الابن إلا من يكون ابناً. أما المتبنَّى واللصيق فلا يكون له إلا حق المولى والأخ في الدين. فحرّم اللّه على المسلمين أن ينسبوا الدعيّ لمن تبناه. وحظر عليهم أن يقتطعوا له شيئاً من حقوق الابن لا قليلاً ولا كثيراً. وشدّد الأمر حتى قال ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الأحزاب:٥]، فهو يعفو عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر: هذا ابني. أو ينادي شخص آخر بمثل ذلك. لا عن قصد التبنّي. ولكنه لا يعفو عن العمد من ذلك، الذي يقصد منه الإلصاق بتلك اللحمة، كما كان معروفاً من قبل. مضت سنة اللّه في خلقه، أن ما رسخ في النفس بحكم العادة،

لايسهل عليها التفصيّ منه، ولا يقدر على ذلك إلا من رفعه اللّه فوق العادات، وأعتقه من رق الشهوات، وجعل همته فوق المألوفات. فلا يُطْبيه (أي يستميله) إلا الحق. ولا يحكم عليه إلف، ولا يغلبه عرف. ذلك هو النبيّ ﷺ، ومن يختصه اللّه بالتأسي به. لهذا، كان الأمر، إذا نهى اللّه عن مكروه كانت الجاهلية عليه، أو أحل شيئاً كانت الجاهلية تحرّمه، بَادَرَ النبيّ ﷺ إلى امتثال النهي بالكف عن المنهيّ عنه، والإتيان بضده. وسارع إلى تنفيذ الأمر بإتيان المأمور به، حتى يكون قدوة حسنة، ومثالاً صالحاً تحاكيه النفوس، وتحتذيه الهمم، وحتى يخفّ وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة. نادى ﷺ[1] في حجة الوداع بحرمة الربا. وأول ربا وضعه ربا عمه العباس. حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس إليه وأكرمهم عليه، فيسهل عليهم ترك مالهم، وتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم، على هذا السنن الإلهي كان عمل النبيّ ﷺ في أمر زينب، كبر على العرب أن يفصلوا عن أهلهم من ألصقوه بأنسابهم من أدعيائهم كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ الخ فعمد النبيّ ﷺ، على سنته، إلى خرق العادة بنفسه. وما كان ينبغي له، ولا من مقتضى الحكمة، أن يكلف أحد الأدعياء الأباعد عنه، أن يتزوج ثم يأمره بالطلاق ثم يأمر من كان قد تبناه أن يتزوج مطلقته. ففي ذلك من المشقة مع تحكم العادة وتمكن الاشمئزاز من النفوس، ما لا يخفى على أحد. فألهمه اللّه أن يتولى الأمر بنفسه في أحد عتقائه، لتسقط العادة بالفعل. كما ألغى حكمها بالقول الفصل. لهذا أرغم النبيّ ﷺ زينب أن تتزوج بزيد، وهو مولاه وصفيّه. والنبيّ يجد في نفسه أن هذا الزواج مقدمة لتقرير شرع، وتنفيذ حكم إلهيّ. وبعد أن صارت زينب إلى زيد لم يَلِنْ إباؤها الأول، ولم يسلس قيادها، بل شمخت بأنفها وذهبت تؤذي زوجها وتفخر عليه بنسبها، وبأنها أكرم منه عرْقاً وأصرح منه حرية. لأنه لم يجر عليها رقّ كما جرى عليه فاشتكى منها إلى رسول اللّه ﷺ المرة بعد المرة. وهو عليه السلام مع علوّ مقامه يغلبه الحياء فيتئد ويتمكّث في تنفيذ حكم اللّه ولا يعجل، فكان يقول لزيد ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، إلى أن غلب أمر اللّه على أمر الأنفة، وسمح لزيد بطلاقها بعد أن مضّه العيش معها. ثم تزوجها بعد ذلك رسول اللّه ﷺ ليمزّق حجاب تلك العادة، ويكسر ذلك الباب الذي كان مغلقاً دون مخالفتها كما قال: ﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا

---

(١) أخرجه مسلم في: الحج، حديث ١٤٧.

قَضَوا مِنهُنَّ وَطَراً وكَانَ أَمْرُ اللّه مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وأكّد ذلك بالتصريح في نفي الشبهة بقوله ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ الآية. هذه هي الرواية الصحيحة والقولة الراجحة.

ثم قال: وأما ما رووه من أن النبيّ مَرَّ ببيت زيد وهو غائب، فرأى زينب، فوقع منها في قلبه شيء، فقال: سبحان مقلب القلوب! فسمعت التسبيحة فنقلتها إلى زيد، فوقع في قلبه أن يطلقها الخ، ما حكوه – فقد قال الإمام أبو بكر بن العربيّ إنه لا يصح. وإن الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم في فهم الآية، لم يقدروا مقام النبوّة حق قدره، ولم تصب عقولهم من معنى العصمة كنهها. وأطال في ذلك، وأذكر من كلامه ما يؤيد ما ذكرنا في شأن هذه الروايات.

قال، بعد الكلام في عصمة النبيّ ﷺ وطهارته من العيب في زمن الجاهلية.

وبعد أن جاء الإسلام: وقد مهّدنا لك روايات كلها ساقطة الأسانيد. وإنما الصحيح[1] منها ماروي عن عائشة أنها قالت: لو كان النبيّ صلى اللّه عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ فاعتقته ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ إلى قوله ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّه مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وأن رسول اللّه لما تزوجها قالوا: تزوج حليلة ابنه، فانزل اللّه ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، الآية. وكان رسول اللّه ﷺ تبناه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلاً، يقال له (زيد ابن محمد). فأنزل اللّه ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّه﴾ [الأحزاب: ٥]، يعني أنه أعدل عند اللّه قال القاضي: وما وراء هذه الآية غير معتبر. فأما قولهم إن النبيّ ﷺ رآها، فوقعت في قلبه، فباطل. فإنه كان معها في كل وقت وموضع. ولم يكن حينئذ حجاب. فكيف تنشأمعه وينشأ معها، ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في قلبه، إلا إذا كان لها زوج؟ وقد وهبته نفسها وكرهت غيره. فلم يخطر بباله. فكيف يتجدد هوى لم يكن! حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، والنساء أفتن الزهرات، وأنشر الرياحين، فيخالف هذا في المطلّقات. فكيف في المنكوحات المحبوسات؟؟.

ثم ساق الكلام في نفس الآية على حسب ما صح في الواقعة. ولولا خوف

(١) أخرجه البخاري في: التوحيد، ٢٢– باب ﴿وكان عرشه على الماء﴾، حديث ٢٠٣٢، عن أنس.

التطويل لنقلت كلامه بحروفه. سبحان الله! كيف ساغ لقوم مسلمين أن يعتقدوا بمثل هذه الروايات، وقدعلموا أنه الله لم يدع لنبيّه أن يعرض عن ابن أم مكتوم، ويتصدى لصناديد قريش طمعاً في إسلامهم، حتى عاتبه على ذلك في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]، إلى آخر الآيات، مع أن لم ينصرف عن الأعمى إلا لاشتغاله بما كان يعدّه في نفسه خيراً للدين، ولم يكن رغبة في جاه، ولا شرهاً إلى مال، ولا طموحاً إلى لذة. فلو صحّت الرواية التي زعموها في شأن زينب، لكان العتاب على تلك التسبيحة، بمسمع من زينب، ثم على الزواج بعد الطلاق، كما أشار إليه في قصة داود عليه السلام. وما كان محمد ﷺ في علوّ مقامه ورفعة منزلته من النبوّة، لتطمح نفسه إلى التلذذ ببنت عمته وزوجة مولاه، ولا أن يُسمعها ما يدل على شغفه بها، ولا أن تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها. وما كان رب محمد يعللّ شهوته، ويرفّه من هواه فيما يخالف أمره، وهو الذي نهاه أن يمد عينيه إلى ما متع به الناس من زهرة الحياة الدنيا، ومن زهرتها النساء. تسامى قدر محمد عن ذلك، وتعالى شأن ربه عن هذا علوّاً كبيراً. أما والله! لولا ما أدخل الضعفاء أو المدلّسون من مثل هذه الرواية، ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شيء مما يرمون إليه. فإن نص الآية ظاهر جليّ لا يحتمل معناه التأويل، ولا يذهب إلى النفس منه إلا أن العتاب كان على التمهل في الأمر، والتريث به. وأن الذي كان يخفيه في نفسه هو ذلك الأمر الإلهيّ الصادر إليه، بأن يهدم تلك العادة المتأصلة في نفوس العرب، وأن يتناول المعْوَل لهدمها بنفسه. كما قدر له أن يهدم أصنامهم بيده لأول مرة عند فتح مكة. وكَما هو شأنه في جميع مانهى عنه من عاداتهم. وهذا الذي كان يخفيه في نفسه كان الله مبديه بأمره الذي أوحاه إليه في كتابه، وبتزويجه زوجة من كانوا يدعونه ابناً له، كما تقدم بيانه. ولم يكن يمنعه عن إبداء ما أبدى الله، إلا حياءُ الكريم، وتؤدة الحكيم، مع العلم بأنه سيفعل لا محالة، لكن مع معاونة الزمان.

ثم قال الإمام رحمه الله: أذكر لطيفة لبعض الأذكياء جرت بمحضر مني لدي أحد الأساتذة الأميركانيين، فجاء في الحديث ذكر قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، فقال الأميركي: حتى زينب زوجة زيد بن حارثة. يشير بقوله هذا إلى تلك الحادثة، ويعرض بعشقه ﷺ لزينب على ما زعموا، فقال له صاحبي: سبحان الله! إنكم تشتغلون بعلوم السموات والأرض، ولا تستعملون عقولكم في أقرب الأشياء إليكم. مع أنكم، في المشهور عنكم، من أشدّ الناس ولعاً بالبحث في الأديان. إن الله أمر نبيه أن يتزوج زوجة من دعاه ابناً له، ليبيّن للناس

بالفعل أنه ليس كل من لقب بالابن يكون على الحقيقة ابناً، فإن كان المسيح قد دُعِي في لسان الإنجيل بـ (الابن) فليس هذا على الحقيقة، وإنما (الابن) الحقيقي من ولد من أبيه ولادة صحيحة، إن في ذلك لذكرى للعالمين. واللّه أعلم. انتهى كلامه رحمه اللّه تعالى.

الخامس – روى الإمام أحمد[١] ومسلم[٢] والنسائيّ عن أنس قال: لما انقضت عدّة زينب رضي اللّه عنها قال رسول اللّه ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها عليّ. فانطلق حتى أتاها وهي تخمّر عجينها. قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول اللّه ﷺ ذكرها. فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت: يا زينب! أبشري. أرسلني رسول اللّه ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي عزَّ وجلَّ. فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن. وجاء رسول اللّه ﷺ فدخل عليها بغير إذن. ولقد رأيتنا، حين دخلت على النبيّ ﷺ، أطعمنا عليها الخبز واللحم».

قال الحافظ ابن حجر: وهذا أيضاً من أبلغ ما وقع في ذلك: وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب. لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه. وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها. هل بقي منه شيء أم لا؟ وفيه استحباب فعل المرأة الاستخارة ودعائها عند الخطبة قبل الإجابة. وأن من وكَلَ أمره إلى اللّه عزّ وجلّ، يسّر اللّه له ما هو الأحظّ له والأنفع دنيا وأخرى. انتهى. أي فقد حفظ اللّه شرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى. فاختار لها ما شرّفها به وأسمى مكانتها، عنايةً منه ورحمة للأمة أيضاً.

السادس – روى ابن جرير عن الشعبي قال: كانت زينب رضي اللّه عنها تقول للنبيّ ﷺ: إني لأُدلّ عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تدل بهن: إن جدّي وجدّك واحد: وإني أنكحنيك اللّه عزّ وجلّ من السماء. وإن السفير لجبريل عليه السلام.

وروى[٣] البخاري بعضه عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال: إن زينب كانت تفخر على أزواج النبيّ ﷺ فتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني اللّه تعالى من فوق سبع سموات.

---

(١) أخرجه في المسند ٣/١٩٥.

(٢) أخرجه في: النكاح حديث رقم ٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في: التوحيد، ٢٢– باب ﴿وكان عرشه على الماء﴾، حديث ٢٠٣٢، عن أنس

قال ابن القيّم في (زاد المعاد): ومن خصائص زينب أن اللّه سبحانه كان هو وليّها الذي زوجها لرسوله من فوق سمواته. وتوفيت في أول خلافة عمر بن الخطاب. وكان أولاً عند زيد بن حارثة. وكان رسول اللّه ﷺ تبناه، فلما طلقها زوجه اللّه إياها، لتتأسى به أمته في نكاح أزواج من تبنّوه. انتهى.

السابع – قالوا: لا ينقض عموم قوله تعالى: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ بكونه ﷺ أباً للطاهر والقاسم وإبراهيم، لأنهم لم يبلغوا الحلم. ولو بلغوا لكانوا رجالاً له، ﷺ، لالهم. انتهى.

وهذا من التعمق في البحث. وإلا فدلالة السياق أوضح من تخصيص الإضافة.

قال ابن كثير: لم يعيش له عليه الصلاة والسلام ولد ذكر، حتى بلغ الحلم. فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضي اللّه عنها. فماتوا صغاراً، وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية. فمات أيضاً رضيعاً. وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، رضي اللّه عنهن أجمعين. فمات في حياته ﷺ ثلاث. وتوفيت فاطمة بعده بستة أشهر. انتهى.

ثم أمر تعالى بكثرة ذكره، والعناية بشكره لما منّ به من هدايته، إلى نور شريعته حتى ينسى عار الكفر وجاهليته، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُواْ اللَّهَ﴾ أي بما هو أهله من صنوف التحميد والتمجيد ﴿ذِكْراً كَثِيراً﴾ أي يعمّ الأوقات والأحوال. قال ابن عباس رضي اللّه عنهما. إن اللّه تعالى لم يفرض على عباده فريضة، إلا جعل لها حدّاً معلوماً؛ ثم عذرأهلها في حال العذر، غير الذكر، فإن اللّه تعالى لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه. ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله،وأمرهم به في الأحوال كلها. فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]، وقال ﴿اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾، أي بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي في أول النهار وآخره، ليسري أثر التسبيح فيهما بقية النهار والليل. لأن ذكره وتسبيحه، يفيدان تنوير القلوب وقت خلوّها عن الأشغال.

قال الزمخشريّ: والتسبيح من جملة الذكر. وإنما اختصه من بين أنواعه

اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة، ليبيّن فضله على سائر الأذكار، لأن معناه تنزيه ذاته، عمّا لا يجوز عليه من الصفات والأفعال. ومثالُ فضله على غيره من الأذكار، فضل وصف العبد بالنزاهة من أدناس المعاصي، والطهر من أرجاس المآثم، على سائر أوصافه، من كثرة الصلاة والصيام، والتوفر على الطاعات كلها. ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره، تكثير الطاعات والإقبال على العبادات. فإن كل طاعة وكل خير، من جملة الذكر. ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلاً. وهي الصلاة في جميع أوقاتها. لفضل الصلاة على غيرها. أو صلاة الفجر والعشاءين. لأن أداءها أشق ومراعاتها أشد. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

﴿ **هوَ الَّذي يُصلِّيَ عَلَيْكُمْ ومَلائكتُهُ** ﴾ استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله من الأمرين. فإن صلاته تعالى عليهم. مع عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين، مما يوجب عليهم المداومة على ما يستوجبه تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه. أفاده أبو السعود.

وقال ابن كثير: هذا تهييج إلى الذكر. أي أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم. كقوله عزّ وجلّ: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢]. انتهى.

والصلاة: الرحمة والعطف. والمعنى: هو الذي يترحم عليكم ويترأف، حيث يدعوكم إلى الخير، ويأمركم بإكثار الذكر، والتوفر على الصلاة والطاعة ﴿ **لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ** ﴾ أي ظلمة الكفر والمعاصي والشبهات ومساوئ العادات ﴿ **إِلَى النُّورِ** ﴾ أي نور الإيمان والسنّة والطاعة ومحاسن الأخلاق ﴿ **وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً** ﴾ أي حيث لم يتركهم يتخبطون في عمياء الضلالة والجهالة، بل أنار لهم السبل وأوضح لهم المعالم. وذكر الملائكة تنويهاً بشأنهم وشأن المؤمنين. وأن للملأ الأعلى عناية وعطفاً وترحماً، بالاستغفار والدعاء والثناء على الجميل. كقوله تعالى: ﴿ الَّذينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ [غافر: ٧-٩] الآية.

القول في تأويل قوله تعالى:

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾

﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ** ﴾ أي يحيّون يوم لقائه، بالموت أو الخروج من القبر أو دخول الجنة، بسلام، تبشيراً بالسلامة من كل مكروه وآفة، والإضافة إما من إضافة المصدر إلى المفعول، والمحيي لهم، إما اللّه جلّ جلاله، لقوله ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّنْ رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨]، تعظيماً لهم وتفضلاً منه عليهم، كما تفضل عليهم بصنوف الإكرام، وإما الملائكة لآية ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، أو من إضافة المصدر لفاعله. أي تحية بعضهم بعضاً بالسلام. وقد يستدل له بآية ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴾ [يونس: ١٠]، ﴿ **وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً** ﴾ يعني الجنة وما حوته، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً** ﴾ أي على من بعثت إليهم بالبلاغ ﴿ **وَمُبَشِّراً** ﴾ أي بالثواب لمن آمن ﴿ **وَنَذِيراً** ﴾ أي من النار لمن كفر ﴿ **وَدَاعِياً إِلَى اللّهِ** ﴾ إلى دينه وطاعته والإقرار بوحدانيته ﴿ **بِإِذْنِهِ** ﴾ أي بأمره ووحيه ﴿ **وَسِرَاجاً مُّنِيراً** ﴾ أي يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية، ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

﴿ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً** ﴾ أي ثواباً عظيماً وأجراً جزيلاً ﴿ **وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ** ﴾ أي فيما يرجفون به ويعيبون من جاهليتهم

وعوائدهم، بإلانة الجانب في التبليغ، والمسامحة في الإنذار والتمهل في الصدع بالحق ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي إيصال الضرر إليهم، مجازاةً لفعلهم. بل اعف واصفح. أو معناه: دع ما يؤذونك به بسبب صدعك إياهم. فالمصدر مضاف إلى الفاعل على الأول، وإلى المفعول على الثاني ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ أي موكولاً إليه، وكفيلاً فيما وعدك من النصر، ودحر ذوي الكفر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي تزوجتموهن ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تجامعوهن ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ أي تستوفون عددها من إحصاء أقراء، ولا أشهر تحصونها عليهن ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي أعطوهن ما يستمتعن به من عرض أو عين مال ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أي خلّوا سبيلهن بإخراجهن من منازلكم. إذ ليس لكم عليهن عدّة ﴿سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ أي من غير ضرار ولا منع حق.

تنبيه:

قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة. منها إطلاق النكاح على العقد وحده. وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منه. وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده، أو في الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال. واستعمال القرآن، إنما هو في العقد والوطء بعده، إلا في هذه الآية. فإنه استعمل في العقد وحده لقوله تعالى ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُم طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها. وقوله تعالى ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ خرج مخرج الغالب. إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك، بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس رضي اللّه عنهما، وابن المسيّب والحسن البصريّ وزين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية، على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح، لقوله تعالى ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فعقب النكاح بالطلاق. فدل على أنه لايصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعيّ وأحمد وطائفة كثيرة من السلف والخلف. وأيّده ما روي مرفوعاً[١] (لاطلاق لابن آدم فيما لا يملك) رواه أحمد وأبو داود والترمذيّ وابن ماجة. وقال الترمذيّ: هذا حديث حسن. وهو أحسن شيء روي في هذا الباب. وهكذا روى ابن ماجة[٢] عن عليّ والمِسْوَر بن مخرمة رضي اللّه عنهما، عن النبيّ ﷺ: «لا طلاق قبل النكاح».

---

(١) أخرجه أبو داود في: الطلاق، ٧- باب في الطلاق قبل النكاح، حديث ٢١٩٠.

(٢) أخرجه في: الطلاق، ٧- باب لا طلاق قبل النكاح، حديث ٢٠٤٩ و ٢٠٤٨.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها، لاعدة عليها. فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت. ولايستثنى من هذا إلا المتوفى زوجها. فإنها تعتدّ منه أربعة أشهر وعشراً. وإن لم يكن دخل بها، بالإجماع أيضاً. وقوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها. قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال عزّ وجلّ: ﴿لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً، وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ، حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وعن ابن عباس: إن كان سمّى لها صداقاً، فليس لها إلا النصف. وإن لم يكن سمّى لها صداقاً، فأمتعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل. انتهى.

وعليه، فالآية في المفوضة التي لم يسمّ لها. وقيل: الآية عامة. وعليه، فقيل الأمر للوجوب، وأنه يجب مع نصف المهر المتعة أيضاً. ومنهم من قال للاستحباب، فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشيء.

لطيفة:

قال الرازيّ: وجه تعلق الآية بما قبلها، هو أن الله تعالى في هذه السورة، ذكر مكارم الأخلاق، وأدّب نبيّه على ما ذكرناه. لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيّه المرسل، فكلما ذَكَرَ للنَبيّ مكرمةً، وعلّمه أدباً، ذَكَرَ للمُؤمنين ما يناسبه. فكما بدأ الله في تأديب النبيّ ﷺ بذكر ما يتعلق بجانب الله، بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزب:١]، وثنّى بما يتعلق بجانب العامة بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ [الأحزاب:٤٥]، كذلك بدأ في إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٤١]، ثم ثنّى بما يتعلق بجانب مَنْ تحت أيديهم بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ ثم، كما ثلث في تأديب النبيّ بجانب الأمة، ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيّهم، فقال بعد هذا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وبقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾

﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الأَتِي ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ**﴾ أي مهورهن فإنها أجور الأبضاع. وإيتاؤها، إما إعطاؤها معجلة، أو تسميتها في العقد. وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم، وما لا يعرف بينهم غيره.

قال ابن كثير: كان مهر النبيّ ﷺ لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشّاً. وهو نصف أوقية فالجميع خمسائة درهم. إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشيّ رحمه اللّه تعالى أربعمائة دينار. وإلا صفية بنت حُييّ فإنه اصطفاها من سبي خَيْبَر ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها. رضي اللّه عنهن. انتهى.

وتقييد الإحلال له عليه الصلاة والسلام بإعطاء المهور، ليس لتوقف الحل عليه. ضرورةَ أنه يصح العقد بلا تسمية. ويجب مهر المثل أو المتعة على تقديري الدخول وعدمه. بل لإيثار الأفضل والأوْلى له عليه الصلاة والسلام. كتقييد إحلال المملوكة بكونها مسبيّة، في قوله تعالى ﴿**وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ**﴾ فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها.

قال ابن كثير: أي وأباح لك التسرّي مما أخذت من المغانم. وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما. وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام، وكانتا من السراري، رضي اللّه عنهما ﴿**وَبَنَات عَمِّكَ وَبَنَات عَمَّتِكَ وَبَنَات خَالِكَ وَبَنَات خَالاَتِكَ الَّلاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ**﴾ أي من مكة، إلى المدينة. والتقييد لبيان الأفضل كما تقدم، ولهم في إفراد العم والخال وجمع العمة والخالة، عدة أوجه. فيها اللطيف والضعيف. وعندي أن الإفراد والجمع تابع لمقتضى السبك والنظم ورقة التعبير ورشاقة التأدية. كما يدريه من يذوق طعم بلاغة القول، ويشرب

من عين فصاحته. فالإفراد فيهما هنا أرق وأعذب من الجمع. كما أن في آية ﴿ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ ﴾ [النور: ٦١]، أمتن وأبلغ من الإفراد. ولكل مقام مقال ولكل مجال حال ﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾. أي يتزوجها ويرغب في قبول هبة نفسها بدون مهر. وقد سمى من الواهبات ميمونة بنت الحارث وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم رضي اللّه عنهن.

وفي البخاريّ[1] عن عائشة قالت: «كنت أغار في اللائي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل اللّه تعالى ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ [الأحزاب: ٥١] الآية – قلت ما أرى ربك إلا يسارع في هواك».

وعن ابن عباس، أنه لم يكن عنده ﷺ امرأة وهبت نفسها له. أي أنه لم يقبل ذلك وإن كان مباحاً له. لأنه مردود إلى إرادته. واللّه أعلم.

قال ابن القيّم: وأما من خطبها ﷺ ولم يتزوجها، ومن وهبت نفسها له ولم يتزوجها، فنحو أربع أو خمس. وقال بعضهم: هن ثلاثون امرأة. وأهل العلم بالسيرة وأحواله ﷺ، لايعرفون هذا بل ينكرونه.

قال أبو السعود: وإيراده عليه الصلاة والسلام في الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات، للتكرمة والإيذان بأنها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه السلام حسب اختصاصها به كما ينطبق به قوله تعالى ﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾ أي خلص لك إحلالها خالصة أي خلوصاً، فهي مصدر مؤكد، أو صفته أي هبة خالصة ﴿ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي فإنهم لا تحل لهم الموهوبة إلا بوليّ ومهر، خوف أن يستسري النساء وينتشر الفحش بدعوى ذلك. قال قتادة: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل، بغير وليّ ولا مهر إلا للنبيّ ﷺ ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي على المؤمنين ﴿ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ أي في حلّها من الوليّ والشهود والمسمى ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي في حلها من توسيع الأمر فيها.

وقال السيوطي في (الإكليل): فسر بالاستبراء، وليس له في القرآن ذكر إلا ها هنا.

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٣٣– سورة الأحزاب، ٧– باب قوله ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء، حديث ٢٠٣٣.

﴿ لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ أي ضيق. واللام متعلقة بـ (خالصة) أو بفعل يفهم مما قبله. أي قد علمنا ما فرضنا عليهم. وأسقطناه عنك لرفع الحرج عنك والضيق، فيما اقتضته الحكمة والعناية بك ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ أي يغفر ما يعسر التحرز عنه، ويرحم فيما يوسع في مواقع الحرج.

القول في تأويل قوله تعالى:

تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

﴿ تُرْجِي ﴾ بهمز وغير همز. أي تترك وتؤخر ﴿ مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أي من هؤلاء النساء اللاتي أحللناهن لك، فلا تتزوج بهن ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ أي تضم من تشاء منهن بالتزوج ﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ أي اخترت تزوجها بعد إرجائها ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ أي في أن تضمها إليك. ومن رأى بعضهم أن الضمير في (منهن) يعود إلى الواهبات. قال الشعبيّ: كن نساء وهبن أنفسهن للنبيّ ﷺ: فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن. لم ينكحن بعده. منهن أم شريك. واستؤنس بحديث عائشة عن أحمد؛ أنها كانت تعيّر النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وتقول: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فلما أنزل الله ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ الآية قالت: إني أرى ربك يسارع لك في هواك. ورواه البخاري[١] أيضاً كما تقدم. وذهب آخرون إلى أن معنى الآية: تطلّق وتخلّي سبيل من شئت من نسائك، وتمسك من شئت منهن فلا تطلق. وعن قتادة؛ أنها في القَسْم، وأن له أن يقسم لمن شاء، ويدعه لمن شاء. مع هذا فلم يكن ﷺ يدع القسم. وقد احتج بالآية من ذهب إلى أن القسم لم يكن واجباً عليه ﷺ. والتحقيق أن الآية عامة في ذلك كله. وأن ما روي مما ذكر، فمن باب الاكتفاء من العام على بعض أفراده، أو من رأي ذهب إليه قائله. وقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيئتك ورفع الحرج عنك فيه ﴿ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ﴾ أي تطيب أنفسهن، إن علمن أن ذلك من الله تعالى ﴿ وَلاَ يَحْزَنَّ ﴾ لمخالفة الإرجاء ﴿ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أي لأنه

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير. ٣٣– سورة الأحزاب، ٧– باب قوله ﴿ ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ﴾، حديث رقم ٢٠٢٣، عن عائشة.

حكم، كلهن فيه سواء، فإن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلاً. وإلا علمن أنه بحكم الله تعالى. فتطمئن به نفوسهن ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي من الميل إلى البعض منهن دون البعض بالمحبة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً﴾ أي بذات الصدور ﴿حَلِيماً﴾ أي ذا حلم عن عباده فيعفو ويغفر. وروى الإمام أحمد[1] وأهل السنن[2] عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل. ثم يقول: «اللهم! هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك». يعني القلب.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

﴿لاَّ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي من بعد النساء اللاتي نصّ إحلالهن لك في الآية قبلُ. وانظر إلى تكريمه تعالى لنبيّه صلوات الله عليه حيث لم يقل له (وحرم عليك ما وراء ذلك) كما خاطب المؤمنين بنظيره، لتعلم كيف تتفاوت الناس بالخطاب تفاوتهم في رفيع الدرجات.

ولم أر أحداً نبه على ذلك، فاحرص عليه فيه وفي أمثاله.

قال مجاهد في الآية: أي لا يحل لك يهودية ولا نصرانية ولا كافرة ﴿وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي فلك التسرّي بهن وإن كن كتابيات أو مشركات، لأنه ليس لهن ما للحرائر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴾ أي حيث أحل ما أحل وحظر ما حظر للنبيّ وللأمة، في بيانٍ لاخفاء معه وحكمة لا حيف معها. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية هو حظر نكاح ما بعد التسع اللاتي عنده ﷺ. وأن التسع نصابه كالأربع لغيره، وأن ذلك جزاء لاختيارهن إياه لما خيّرهن. كما تقدم في الآية، ثم قالوا إنه تعالى رفع الحرج عنه في ذلك، ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، لكنه لم يفعله إتماماً للمنّة عليهن. ومنهم

---

(١) أخرجه في المسند ٦/١٤٤.

(٢) أخرجه أبو داود في: النكاح، ٣٨- باب في القسم بين النساء، حديث رقم ٢١٣٤.
وأخرجه الترمذي في: النكاح، ٢٤- باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، حديث رقم ١١٤٠.
وأخرجه النسائي في: عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض.
وأخرجه ابن ماجة في: النكاح، ٤٧- باب القسمة بين النساء، حديث رقم ١٩٢١.

من قال إنها محكمة. وكل ذلك لا برهان معه، وتفكيك للمعنى، وغفلة عن سر تكريمه صلوات الله عليه بمقصود الخطاب. وقد وهم في هذا المعنى زياد - رجل من الأنصار - فرده أُبيّ رضي الله عنه، إلى صواب المعنى. وذلك فيما رواه عبد الله ابن أحمد وابن جرير؛ أن زياداً قال لأُبيّ بن كعب: أرأيت لو أن أزواج النبيّ ﷺ تُوُفِّينَ، أما كان له أن يتزوج؟ فقال: وما يمنعه من ذلك؟ قال: قوله تعالى: ﴿**لاَّ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ**﴾ فقال له: إنما أحل الله له ضرباً من النساء. فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾، - إلى قوله - ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ثم قيل له ﴿**لاَّ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ**﴾.

وروى الترمذيّ[١] عن ابن عباس قال: نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات، بقوله تعالى ﴿**لاَّ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ**﴾ الآية. فحرم كل ذات دين غير الإسلام.

والمطلع على ما كتبوه هنا، يأخذه العجب من البعد عن مقصدها. فالحمد لله على إلهام الحق وتعليمه.

تنبيه:

قال في (لباب التأويل): في قوله تعالى ﴿**وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ**﴾ دليل على جواز النظر من الرجل التي يريد نكاحها من النساء. ويدل عليه ما روي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها، فليفعل. أخرجه أبو داود[٢].

وروى [٣]مسلم عن أبي هريرة؛ أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار. فقال له النبيّ صلّى الله عليه وسلم انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً. قال الحميديّ: يعني هو الصِّغَر.

وعن المغيرة بن شعبة قال: خطبتُ امرأةً. فقال لي النبيّ صلى الله عليه وسلم: هل نظرتَ إليها؟ قلت: لا. قال: فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما. أخرجه الترمذيّ [٤]وحسنه.

---

(١) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٣٣- سورة الأحزاب، ١٨- حدثنا عبد. حدثنا روح عن عبد الحميد.

(٢) أخرجه في: النكاح، ١٨- باب في الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها، حديث ٢٠٨٢.

(٣) أخرجه في: النكاح، حديث رقم ٧٤.

(٤) أخرجه في: النكاح ٥- باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة، حديث رقم ١٠٨٧.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (٥٣)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلاَّ أن يُؤْذَنَ لَكُمْ إلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إناهُ﴾ هذا خطاب لبعض الصحب، وحظر عليهم أن يدخلوا منازله ﷺ بغير إذن. كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام. و (إلى) متعلق بـ (يؤذن) بتضمين معنى الدعاء، للإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة، وإن تحقق الإذن. كما يشعر به قوله تعالى: **﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إنَاهُ﴾** أي غير منتظرين وقته، وإدراكه.

قال ابن كثير: أي لا ترقبوا الطعام إذا طبخ، حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه. وهذا دليل على تحريم التطفل. وهو الذي تسميه العرب الضيفن. وقد صنف الخطيب البغداديّ في ذلك كتاباً في ذم الطفيليين. وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها. انتهى.

وأقول: قد يكون معنى قوله **﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إنَاهُ﴾** نهياً لهم أن يدخلوا – مع كونهم مأذوناً لهم ومدعوين – قبل الميعاد المضروب لهم حضورهم فيه، عجلة وانتظاراً لنضج الطعام. فإن ذلك مما يؤذي قلب صاحب الدعوة، لشغل هذه الحصة معهم بلا فائدة، إلا ضيق صدر الداعي وأهله، وشغل وقته وتوليد حديث، وتكلفاً لكلام لا ضرورة له، وإطالة زمن الحجاب على نسائه. وما ذلك إلا من شؤم التعجيل قبل الوقت. ولذلك قال تعالى **﴿وَلَكِنْ إذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾** أي إذا دعيتم إلى الدخول في وقته. فادخلوا فيه لا قبله ولا بعده. فـ (لكن) استدراك من النهي عن الدخول، مع الإذن المطلق الذي هو الدعوة بتعليم أدب آخر. وإفادة شرط مهم، وهو الإشارة إلى أن للدعوة حيناً ووقتاً يجب أن يراعى زمنه، وهذا المنهيّ عنه لم يزل يرتكبه ثقلاء القرويين ومن شاكلهم من غلظاء المدنيين الذين لم يتأدبوا بآداب الكتاب الكريم

والسنة المطهرة. وهو أنهم إذا دعوا لتناول طعام يتعجلون المجيء قبل وقته بساعات، مما يغمّ نفس الداعي وأهله. ويذهب لهم جانباً من عزيز وقتهم عبثاً إلا في سماع حديثهم البارد. وخدمتهم المستكرهة كما قدمنا. فعلى ما ذكرناه يكون في الآية فائدة جميلة، وحكم مهم. وهو حظر المجيء قبل الوقت المقدّر. وحينئذ فكلمة (غير) حال ثانية من الفاعل مقيدة للدخول المأذون فيه. وهو أن يكون وقت الدعوة، لا قبله. والتقدير (إلاَّ مَأْذُونينَ فِي حال كونكم غير ناظرين إناه) ولذا قيل: إنها آية الثقلاء. إذا علمت هذا، فالأجدر استنباط حظر التطفل من صدرالآية، وهو ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلاَّ أن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ومن قوله ﴿وَلَكِنْ إذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ﴾ لا من قوله ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إنَاهُ﴾ لأنه في معنى خاص. وهو ما ذكرناه والله أعلم.

فائدة:

(الإني) مصدر. يقال أنى الشيء يانى أنياً بالفتح. و(أنى) مفتوحاً مقصوراً. (وإنى) بالكسر مقصوراً. أي حان وأدرك. قال عمرو بن حسان:

تَمَخَّضَتِ الْمَنُونُ لَهُ بِيَوْمٍ أَنَى ولكل حاملة تِمَامُ

ثم أشار سبحانه إلى أدب آخر بقوله تعالى ﴿فَإذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ أي تفرقوا ولا تمكثوا ﴿وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي لحديث بعضكم بعضاً، أو لحديث أهل البيت بالتسمع له عطف على (ناظرين) أو مقدر بفعل. أي لا تمكثوا مستأنسين ﴿إنَّ ذَلِكُمْ﴾ أي المنهيّ عنه في الآية ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ أي لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإشغاله بما لا يعنيه ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ أي من الإشارة إليكم بالانتشار ﴿وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني أن انتشاركم حق. فينبغي أن لا يترك حياء، كما لا يتركه الله ترك الحييّ، فأمركم به. ووضع الحق موضع الانتشار، لتعظيم جانبه. وقرئ ﴿لاَ يَسْتَحِي﴾ بحذف الياء الأولى وإلقاء حركتها على الحاء ﴿وَإذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضمير لنساء النبيّ، المدلول عليهن بذكر بيوته عليه السلام ﴿مَتَاعاً﴾ أي شيئاً يتمتع به ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي ستر ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن، وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول، وسؤال المتاع من وراء حجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي من الخواطر الشيطانية، في الميل إليهن وإليكم. يعني ويجب التطهر عنه، لما فيه من إيذاء رسول الله ﷺ. ولذا قال ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي أن تفعلوا فعلاً يتأذى به في حياته ﴿وَلا أَن تَنكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ أي من بعد وفاته لا إلى انقضاء العدة بل ﴿أَبَداً إنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ أي أمراً عظيماً

وخطباً هائلاً، لا يقادر قدره. لما فيه من هتك حرمة حبيبه ﷺ.

قال أبو السعود: وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ، وإيجاب حرمته حيّاً وميتاً، ما لا يخفى. ولذلك بالغ تعالى في الوعيد حيث قال:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

﴿**إِن تُبْدُواْ شَيْئاً**﴾ أي مما لا خير فيه، كنكاحهن على ألسنتكم، على ما روي عن بعض الجفاة ﴿**أَوْ تُخْفُوهُ**﴾ أي في نفوسكم ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾ أي فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصي البادية والخافية لا محالة. وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود، مزيد تهويل وتشديد ومبالغة في الوعيد.

قال ابن كثير: أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول اللّه ﷺ من أزواجه، أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده. لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة، وأمهات المؤمنين. واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته. هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين. مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله (مِن بَعْدِهِ) أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره، والحالة هذه نزاعاً واللّه أعلم. انتهى.

تنبيه:

في (الإكليل): هذه آية الحجاب التي أمر بها أمهات المؤمنين. بعد أن كان النساء لا يحتجبن. وفيها جواز سماع كلامهن ومخاطبتهن. وفيها تحريم أذى النبيّ ﷺ بسائر وجوه الأذى. انتهى.

وقال ابن كثير: هذه آية الحجاب. وفيها أحكام، وآداب شرعية. وهي مما وافق تنزيلها قول عمر رضي اللّه عنه، كما روى البخاريّ[1] عنه أنه قال: يا رسول اللّه! يدخل عليك البر والفاجر. فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب! فأنزل اللّه آية الحجاب.

وكان يقول لو أطاع فيكن، ما رأتكن عين.

---

(١) أخرجه في: التفسير، ٣٣- سورة الأحزاب، ٨- باب قوله لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم، حديث رقم ٢٦٧.

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول اللّه ﷺ بزينب بنت جحش، التي تولى اللّه تزويجها بنفسه تعالى. وكان ذلك في ذي القعدةمن السنة الخامسة (في قول قتادة والواقديّ وغيرهما) وزعم أبو عبيدة، معمر بن المثنى، وخليفة بن خياط؛ أن ذلك كان في سنة ثلاث. فاللّه أعلم.

وروى البخاريّ[١] عن أنس قال: لما تزوج رسول اللّه ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون. فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام. فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبيّ ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس. ثم إنهم قاموا فانطلقوا. فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل. فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل اللّه تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ الآية.

ورواه مسلم[٢] أيضاً والنسائيّ.

وعن أنس أيضاً قال: بني على النبيّ ﷺ بزينب بنت جحش، بخبز ولحم. فأُرسلت على الطعام داعياً. فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعو. فقلت: يا رسول اللّه! ما أجد أحداً أدعوه. قال: ارفعوا طعامكم. وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت. فخرج النبيّ ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة رضي اللّه عنها فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة اللّه وبركاته. قالت: وعليك السلام ورحمة اللّه وبركاته. كيف وجدت أهلك؟ يا رسول اللّه! بارك اللّه لك.

فتقرّى حجر نسائه كلهن. يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة. ثم رجع النبيّ ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون. وكان النبيّ ﷺ شديد الحياء. فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة. فما أدري آخبرتُهُ أو أُخْبِرَ، أن القوم خرجوا. فرجع، حتى إذا وصع رجله في أسكفّة الباب داخلة، والأخرى خارجة، أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب. انفرد به البخاريّ.

وأخرج نحوه مسلم والترمذيّ. كما بسطه ابن كثير.

---

(١) أخرجه في: التفسير، ٣٣- سورة الأحزاب، ٨- باب قوله ﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾، حديث رقم ٢٠٣٥.

(٢) أخرجه في: النكاح، حديث ٨٧.

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): قال عياض: فرض الحجاب مما اختصصن به. فهو فرض عليهن بلا خلاف، في الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف ذلك في شهادة ولا غيرها. ولا إظهار شخوصهن وإن كن مستترات، إلا ما دعت إليه ضرورة من براز. ثم استدل بما في (الموطأ) أن حفصة لما توفي عمر سترها النساء عن أن يرى شخصها. وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها يُستر شخصها. انتهى.

وليس فيما ذكره دليل على ما ادعاه من فرض ذلك عليهن. وقد كن بعد النبيّ ﷺ يحججن ويطفن. وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث، وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص. وقد تقدم في الحج قول ابن جريج لعطاء، لما ذكر له طواف عائشة: أقبل الحجاب أو بعده؟ قال قد أدركت ذلك بعد الحجاب. انتهى.

ومما يؤيده ما رواه البخاريّ[1] في التفسير عن عائشة رضي اللّه عنها. قالت: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها. وكانت امرأة جسيمة، لا تخفى على من يعرفها. فرآها عمر بن الخطاب. فقال: يا سودة! أما واللّه! ما تخفين علينا. فانظري كيف تخرجين.

قالت: فانكفأت راجعة، ورسول اللّه ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى وفي يده عَرْقٌ، فدخلتْ فقالتْ: يا رسول اللّه! إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا. قالت فأوحى اللّه إليه ثم رفع عنه، وإن العَرْقَ في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أذن لكن أن تخرجنّ لحاجتكن.

قال الكرمانيّ: فإن قلت وقع هنا أنه كان بعد ما ضرب الحجاب وفي الوضوء – أي من البخاريّ – أنه كان قبل الحجاب. فالجواب لعله وقع مرتين.

قال ابن حجر: قلت بل المراد بالحجاب الأول غير الحجاب الثاني.

والحاصل أن عمر رضي اللّه عنه وقع في قلبه نفرة من اطلاع الأجانب على الحريم النبويّ، حتى صرح بقوله له عليه الصلاة والسلام: احجب نساءك، وأكد ذلك إلى أن نزلت آية الحجاب. ثم قصد بعد ذلك أن لا يبدين أشخاصهن أصلاً، ولو كن مستترات، فبالغ في ذلك فمنع منه، وأذن لهن في الخروج لحاجتهن، دفعاً

---

(١) أخرجه في: التفسير، ٣٣- سورة الأحزاب، ٨- باب قوله ﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام﴾ حديث رقم ١٢٣.

للمشقة، ورفعاً للحرج، انتهى بحروفه. وإنما نقلنا الجمع بين الروايتين، مع أن الأمسّ به شرح الصحيح، لما اتفق من نقل كثير من المفسرين إحدى الروايتين ونقل آخرين الثانية، مما يوقع الواقف في شبهة الاختلاف، فآثرنا توسيع الكلام لتحقيق المقام. زادنا الله من فضله علماً، إنه هو العليم العلام.

ثم بين تعالى من لا يجب الاحتجاب منهم من الأقارب، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليهن، في أن لا يحتجبن من هؤلاء المسمَّيْن.

قال الطبريّ: وعُنِي بـ (إخوانهن وأبناء إخوانهن) إخوتهن. وأبناء إخوتهن. وخرج معهم جمع ذلك، مخرج جمع فتى إذا جمع (فتيان) فكذلك جمع أخ إذا جمع (إخوان) وأما إذا جمع إخوة فذلك نظير جمع فتى إذا جمع (فتية).

تنبيهات:

الأول – قيل: إنما لم يذكر العم والخال، لأنهما بمنزلة الوالدين. ولذلك سمي العم أباً في قوله تعالى ﴿وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة:١٣٣]، أو لأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة، وأبناء الأخوات. فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الفريقين، عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤولة. لما أنهن عمات لأبناء الإخوة، وخالات لأبناء الأخوات. وقيل: لأنه كره ترك الاحتجاب منهما، مخافة أن يَصِفَاهُنَّ لأبنائهما.

وهو رأي عكرمة والشعبيّ. كما أخرجه الطبريّ من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة والشعبيّ أنه قال لهما: ما شأن العم والخال لم يذكرا؟ قالا: لأنهما ينعتانها لأبنائهما. وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها.

قال الشهاب: لكنه قيل عليه، إن هذه العلة، وهو احتمال أن يَصِفَا لأبنائهما

وهما يجوز لهما التزوج بها، جار في النساء كلهن، ممن لم يكن أمهات محارم. فينبغي التعويل على الأول. انتهى.

والتحقيق في رده ما رواه البخاري[١] في التفسير من طريق عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن عليّ أفلح أخو أبي القعَيْس، بعد ما أنزل الحجاب، فقلت: لا آذن له حتى أستأذن فيه النبيّ ﷺ. فإن أخاه أبا القعيس ليس هو أرضعني، ولكن أرضعتني امرأة أبي القعيس. فدخل عليّ النبيّ ﷺ، فقلت له: يا رسول الله! إن أفلح أخا أبي القعيس استأذن. فأبيت أن آذن حتى أستأذنك، فقال النبيّ ﷺ: وما منعك أن تأذني؟ عمك. قلت: يا رسول الله! إن الرجل ليس هو أرضعني، ولكن أرضعتني امرأة أبي القعيس، فقال: ائذني له فإنه عمك، تربت يمينك.

قال عروة: فلذلك كانت عائشة تقول: حرموا من الرضاعة ما تحرمون من النسب انتهى. فبقوله ﷺ[٢] «ائذني له فإنه عمك» مع قوله في الحديث الآخر[٣] «العم صنو الأب» يرد على عكرمة والشعبيّ.

الثاني - قيل: أريد بقوله تعالى ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ المسلمات، حتى لا يجوز للكتابيات الدخول على أزواج رسول الله ﷺ. وقيل هو عامّ في المسلمات والكتابيات. وإنما قال ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ لأنهن من أجناسهن.

الثالث - استدل بعموم قوله تعالى ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ مَنْ ذهب إلى أن عبد المرأة مَحْرم لها. وذهب قوم إلى أنه كالأجانب. والآية مخصوصة بالإماء دون العبيد، وتقدم تفصيل ذلك في سورة النور.

الرابع - قال السيوطيّ في (الإكليل): استدل الحسن والحسين بعدم ذكر أبناء العمومة فيها، على تحريم نظرهما إليهن، فكانا لا يدخلان عليهن ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ أي أن تتعدين ما حدّ لكنّ، فتبدين من زينتكن ما ليس لكن، أو تتركن الحجاب فيراكن أحد غير هؤلاء. وقال الرازيّ: أي واتقينه عند المماليك. قال، ففيه دليل على أن

---

(١) أخرجه في: التفسير، ٣٣- سورة الأحزاب، ٩- باب قوله ﴿إن تبدوا شيئاً أو تخفوه﴾، حديث ١٢٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في: التفسير، ٣٣- سورة الأحزاب، ٩- باب قوله ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾، حديث رقم ١٢٨٣.
وأخرجه مسلم في: الرضاع، حديث ٣-٦.

(٣) أخرجه مسلم في: الزكاة، حديث رقم ١١.

التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ أي فهو شاهد على ما تفعلنه من احتجابكن وترككنّ الحجاب لمن أبيح لكن تركه، وغير ذلك من أموركن، فاحذرن أن تلقينه. وهو شاهد عليكن بمعصيته وخلاف أمره ونهيه فتهلكن. قال الرازيّ: هذا التذييل في غاية الحسن في هذا الموضع، لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم، فقال: إن اللّه شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض. فخلوتكم مثل ملتكم بشهادة اللّه تعالى فاتقوا. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾

﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً**﴾ قال الرازيّ: لما أمر اللّه المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراماً، كمّل بيان حرمته. وذلك لأن حالته منحصرة في اثنتين: حالة خلوته وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله ﴿لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وحالة يكون في ملأ. والملأ إما الملأ الأعلى وإما الملأ الأدنى، أما في الملأ الأعلى فهو محترم. فإن اللّه وملائكته يصلون عليه. وأما في الملأ الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً**﴾ انتهى.

وقد روى البخاريّ[1] عن أبي العالية قال: صلاة اللّه: ثناؤه عليه عند الملائكة. وصلاة الملائكة الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون يُبَرِّكُون. أي يدعون له بالبركة. فيوافق قول أبي العالية، لكنه أخص منه. وبالجملة، فالصلاة تكون بمعنى التمجيد والدعاء والرحمة، على حسب ما أضيفت إليه في التنزيل أو الأثر. وقد أطنب الإمام ابن القيّم في (جلاء الأفهام) في مبحث معنى الصلاة، وأطال فأطاب. فلينظر.

وفي البخاريّ[2] عن كعب بن عجرة رضي اللّه عنه، أنه قيل: يا رسول اللّه! أما السلام عليك فقد عرفناه. فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا: اللهم! صلي على

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٣٣- سورة الأحزاب، ١٠- باب ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾.

(٢) أخرجه البخاري في: التفسير، ٣٣- سورة الأحزاب، ١٠- باب ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، حديث رقم ١٥٩١.

محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم! بارك على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وروى الإمام أحمد [١] وأبو داود والنسائيّ وابن خزيمة وابن حبان والحاكم في مستدركه، عن أبي مسعود البدريّ؛ أنهم قالوا: يا رسول الله! أما السلام فقد عرفناه. فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا؟ فقال: قولوا: اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد. وذكره. ورواه الشافعيّ في مسنده عن أبي هريرة بمثله.

ومن ههنا ذهب الشافعيّ رحمه الله، إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير. فإنْ تركه لم تصح صلاته. ووافقه الإمام أحمد في روايةٍ. وقال به إسحاق بن راهويه والإمام ابن المواز المالكيّ وغيرهم. كما بسطه ابن القيم في (جلاء الأفهام) وابن كثير في (التفسير) وقد تقصَّيا، عليهما الرحمة، أيضاً الروايات في الأمر بالصلاة وكيفيتها. فأوسعا. فليرجع إليهما.

تنبيهات:

الأول - تدل الآية على وجوب الصلاة على النبيّ ﷺ مطلقاً. لأن الأصل في الأمر للوجوب. فذهب قوم إلى وجوبها في المجلس مرة. ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس. وآخرون إلى وجوبها في العمر مرة واحدة. ثم هي مستحبة في كل حال. وآخرون إلى وجوبها كلما ذكر. وبعضهم إلى أن محل الآية على الندب. قال ابن كثير: وهذا قول غريب. فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة. فمنها واجب ومنها مستحب على ما نبينه. فمنه بعد النداء للصلاة، لحديث[٢] (إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ) الحديث ومنه عند دخول المسجد لحديث[٣] (كان ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم). ثم قال: اللهم! اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرج صلى على محمد وسلم. ثم قال: اللهمّ! اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك. ومنه الصلاة، فتستحب على قول الشافعي في التشهد الأول منها، وتجب في الثاني. ومنه في صلاة الجنازة بعد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤ /١١٨.

(٢) أخرجه البخاري في: الأذان، ٧- باب ما يقول إذا سمع المنادي، حديث ٣٩٠، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) أخرجه الترمذي في: الصلاة، ١١٧- باب ما جاء ما يقول عند دخول المسجد، حديث ٣١٤.

التكبيرة الثانية، لقول أبي أمامة: من السنة ذلك. وهذا من الصحابيّ في حكم المرفوع، على الصحيح. ومنه ختم الدعاء. فيستحب الصلاة فيه على النبيّ ﷺ، ومن آكد ذلك دعاء القنوت. ومنه يوم الجمعة وليلتها. فيستحب الإكثار منها فيهما، ومنه في خطبة يوم الجمعة. يجب على الخطيب في الخطبتين الإتيان بها. وهو مذهب الشافعيّ وأحمد. ومنه عند زيارة قبره ﷺ لحديث (ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام) تفرد به أبو داود [1] وصححه النوويّ في (الأذكار). وعن الحسن بن الحسن بن عليّ؛ أنه رأى قوماً عند القبر فنهاهم وقال: إن النبيّ ﷺ قال: لا تتخذوا قبري عيداً. ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً. وصلوا عليّ حيثما كنتم. فإن صلاتكم تبلغني.

قال ابن كثير: فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة، فنهاهم. وقد روي أنه رأى رجلاً ينتاب القبر. فقال: يا هذا! ما أنت ورجل بالأندلس، منه إلا سواء. أي الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين. وقد استحب أهل الكتاب أن يكرر الكاتب الصلاة على النبيّ ﷺ كلما كتبه. وقد روي في حديث (من صلى عليّ في كتاب لم تزل الصلاة جارية له، ما دام اسمى في ذلك الكتاب).

قال الحافظ ابن كثير: وليس هذا الحديث بصحيح. بل عدّه الحافظ الذهبيّ موضوعاً. وقد ذكر الخطيب البغداديّ أنه رأى بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، كثيراً اسم النبيّ ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة. قال: وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظاً.

الثاني - الصلاة على غير الأنبياء، إن كانت على سبيل التبعية، كنحو: اللهم صل على محمد وآله وأزواجه، فهذا جائز إجماعاً. وأما استقلالاً فجوّزه قوم لآية ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب:٤٣]، وآية ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:١٥٧]، وآية ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣]، ولحديث[2] كان ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال:

---

(١) أخرجه في: المناسك، ٩٦- باب في زيارة القبور، حديث ٢٠٤١.

(٢) أخرجه البخاري في: الزكاة، ٦٤- باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة، حديث ٨٠٠، عن عبد الله بن أبي أوفى.

«اللهم! صل عليهم. فأتاه أبو أوفى بصدقته فقال: اللهم! صل على آل أبي أوفى». وكرهه قوم، لكون صيغة الصلاة صارت شعاراً للأنبياء إذا ذكروا. فلا يلحق بهم غيرهم. فلا يقال: قال عمر صلى اللّه عليه. كما لا يقال قال محمد عز وجل. وإن كان عزيزاً جليلاً. لكون هذا من شعار ذكر اللّه عز وجل. وحملوا ما ورد من ذلك في الكتاب والسنة على الدعاء لهم.

وقال ابن حجر: إن ذلك وقع من الشارع. ولصاحب الحق أن يتفضل من حقه بما شاء وليس لغيره أن يتصرف إلا بإذنه. ولم يثبت عنه إذن في ذلك. انتهى.

وقد يقال: كفى في المرويّ المأثور المتقدم إذناً.

والاستدلال بأن ذلك من حقه فيه مصادرة على المطلوب. على أن المرجح أن الأصل الإباحة حتى يرد الحظر. ولا حظر هنا. فتدبر.

وأما السلام، فقال الجوينيّ: هو في معنى الصلاة. فلا يستعمل في الغائب. ولا يفرد به غير الأنبياء. فلا يقال: عليّ عليه السلام. وساء في هذا الأحياء والأموات. وأما الحاضر فيخاطب به. فيقال: سلام عليك، وسلام عليكم. أو السلام عليك أو عليكم. وقد غلب – كما قال ابن كثير – على كثير من النساخ للكتب، أن يفرد عليّ رضي اللّه عنه بأن يقال (عليه السلام) من دون سائر الصحابة.

قال: والتسوية بينهم في ذلك أولى. انتهى.

والخطب سهل. ومن رأى المرويّ في هذا الباب، علم أن الأمر أوسع من أن يحرّج فيه. على أن هذه المسألة من فروع تخصيص العرف، وفيه بحث في الأصول.

الثالث – قال النوويّ: إذا صلى على النبيّ ﷺ، فليجمع بين الصلاة والتسليم. فلا يقتصر على أحدهما، فلا يقول (صلى اللّه عليه) فقط. ولا (عليه السلام) فقط.

قال ابن كثير: وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة. وهي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ فالأولى أن يقال ﷺ تسليماً. انتهى.

الرابع – قال الرازيّ: إذا صلى اللّه وملائكته عليه، فأي حاجة إلى صلاتنا؟ نقول: الصلاة عليه ليس لحاجته إليها. وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة اللّه عليه. وإنما هو لإظهار تعظيمه كما أن اللّه تعالى أوجب علينا ذكر نفسه، ولا حاجة له إليه. وإنما هو لإظهار تعظيمه منا، رحمة بنا، ليثيبنا عليه. ولهذا جاء في الحديث (من صلى عليّ مرة، صلى اللّه عليه بها عشراً). انتهى.

وكان سبق لي، من أيام معدودات أن كتبت في مقدمة مجموعة الخطب في سر الصلاة عليه، ما مثله: ويُسَنُّ يوم الجمعة إكثار الصلاة على النبيّ ﷺ. ليذكر الرحمة ببعثته، والفضل بهدايته والمنة باقتفاء هديه وسنته، والصلاح الأعظم برسالته، والجهاد للحق بسيرته، ومكارم الأخلاق بحكمته، وسعادة الدارين بدعوته، ﷺ وعلى آله. ما ذاق عارفٌ سرَّ شريعته. وأشرق ضياء الحق على بصيرته، فسعد في دنياه وآخرته.

الخامس - قال الرازيّ: ذكر (تسليماً) للتأكيد ليكمل السلام عليه. ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد، لأنها كانت مؤكدة بقوله ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾ انتهى.

وقيل: إنه من الاحتباك. فحذف (عليه) من أحدهما. و(المصدر) من الآخر.

قال القاضي: قيل معنى ﴿**وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾ أي انقادوا لأوامره. فالسلام من التسليم والانقياد.

السادس - قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : سئلتُ عن إضافة الصلاة إلى الله دون السلام، وأمر المؤمنين بها وبالسلام، فقلت: يحتمل أن يكون السلام له معنيان: التحية والانقياد. فأمر به المؤمنون لصحتهما منهم. والله وملائكته لا يجوز منهم الانقياد، فلم يضف إليهم، دفعاً للإيهام. والعلم عند الله. انتهى.

وقال الشهاب: قد لاح لي في تخصيص السلام بالمؤمنين دون الله وملائكته، نكتة سرية. وهي أن السلام تسليمه عما يؤذيه. فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر ما يؤذي النبيّ ﷺ، والأذية إنما هي من البشر وقد صدرت منهم، فناسب التخصيص بهم والتأكيد. انتهى.

ولما أمر تعالى بالصلاة على نبيّه ﷺ التي هي الثناء عليه وتمجيده وتعظيمه، بيّن وعيد مَن لا يرعاها، بأن يجرؤ على ضدها بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً**﴾ أي ينالون فيه الهوان والخزي. والمقصود من الآية الرسول ﷺ. وذكر الله تعالى إنما

هو لتعظيمه، ببيان قربه، وكونه حبيبه، حتى كأنّ ما يؤذيه يؤذيه. كما أن من يطيعه يطيع اللّه. وقد روى الطبريّ عن ابن عباس؛ أنها نزلت في الذين طعنوا على النبيّ ﷺ، حين اتخذ صفية بنت حييّ. وهذا في الحقيقة من أفراد ما تشمله الآية. بل لو قيل إنها عني بها مَنْ خاض في مسألة زينب، لكان أقرب، لتقارب الآيات في الباب الواحد، وتناسقها كسلسلة واحدة، في تلك المسألة التي كانت المقصود الأعظم من السورة بتمامها. كما لا يخفى على من تدبرها. وبالجملة، فاللفظ عامٌّ في كل ما يصاب به ﷺ من أنواع المكروه. فيدخل المقصود من التنزيل دخولاً أوليّاً. وعلى هذا، فالأذية على حقيقتها. وقيل المراد بأذية اللّه ورسوله، ارتكاب ما لا يرضيانه، مجازاً مرسلاً. لأنه سبب، أو لازم له. وإن كان بالنسبة إلى غيره، فإنه كان في العلاقة وذكر اللّه والرسول على ظاهره. ومَنْ جوَّز إطلاق اللفظ الواحد على معنيين، كاستعمال اللفظ المشترك في معنييه، أو في حقيقته ومجازه، فسر الأذية بالمعنيين باعتبار المعمولين. فتكون بالنسبة إليه تعالى، ارتكاب ما يكره مجازاً، وإلى الرسول على ظاهره. فإن تعدد المعمول بمنزلة تكرر لفظ العامل. فيجيء فيه الجمع بين المعنيين.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ أي بقول أو فعل ﴿ **بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ** ﴾ أي بغير جناية يستحقون بها الأذية ﴿ **فَقَدِ احْتَمَلُواْ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً** ﴾ أي ظاهراً بيّناً.

قال الزمخشريّ: أطلق إيذاء اللّه ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات، لأن أذى اللّه ورسوله لا يكون إلا غير حق أبداً. وأما أذى المؤمنين والمؤمنات، فمنه ومنه.

تنبيه:

في (الإكليل): في هذه الآية تحريم أذى المسلم، إلا بوجه شرعيّ. كالمعاقبة على ذنب. ويدخل في الآية كل ما حرم للإيذاء. كالبيع على بيع غيره، والسوم على سومه، والخطبة على خطبته. وقد نص الشافعيّ على تحريم أكل الإنسان مما يلي غيره، إذا اشتمل على إيذاء.

وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عائشة مرفوعاً (أربى الربا عند الله، استحلال عرض امرئ مسلم) ثم قرأ هذه الآية. وأخرج عن قتادة في هذه الآية: إياكم وأذى المؤمن، فإن الله يحوطه ويغضب له. وقد زعموا أن عمر بن الخطاب قرأها ذات يوم، فأفزعه ذلك. حتى ذهب إلى أُبيّ بن كعب. فدخل عليه فقال: يا أبا المنذر! إني قرأت آية من كتاب الله فوقعت مني كل موقع ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. والله! إني لأعاقبهم وأضربهم. فقال له: إنك لست منهم. إنما أنت مؤدِّب، إنما أنت معلِّم. انتهى.

قال الزمخشريّ: وعن الفضيل: لا يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق، فكيف؟

وكان ابن عون لا يكرى الحوانيت إلا من أهل الذمة، لما فيه من الروعة عند كرّ الحول. فرحمه الله ورضي عنه.

ولما بيّن تعالى سوء حال المؤذين، زجراً لهم عن الإيذاء، أمر النبيّ عليه الصلاة والسلام بأن يأمر بعض المتأذين منهم، بما يدفع إيذاءهم في الجملة من الستر والتميز، عن مواقع الإيذاء، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ جمع (جلباب) كسرداب، وهو الرداء فوق الخمار، تتغطى به المرأة. وهو معنى قول بعضهم: جلبابها ملاءتها تشتمل بها. وقيل هو الخمار. قالت جنوب أخت عمرو ذي الكَلْب ترثيه:

تمشي النسورُ إليه وهي لاهِيَةٌ ... مَشْيَ العَذارَى، عليهن الجَلاَلِيبُ

وقال آخر يصف الشيب:

حَتَّىَ اكْتَسَى الراسُ قِناعاً أشهَبَا ... أكْرَهَ جلبابٍ لمن تَجَلْبَبَا

وقال الزمخشريّ: الجلباب ثوب واسع، أوسع من الخمار، ودون الرداء. تلويه المرأة على رأسها ويبقى منه ما ترسله على صدرها. وعن ابن عباس رضي الله

عنهما: الرادء الذي يستر من فوق إلى أسفل. ثم قال: ومعنى ﴿**يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ**﴾ يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن. يقال إذا زلّ عن وجه المرأة: أدني ثوبك على وجهك. وذلك أن النساء كن في أول الإسلام على هجّيراهن في الجاهلية متبذلات، تبرز المرأة في درع وخمار، لا فصْل بين الحرة والأمة. وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرضون للإماء إذا خرجن بالليل، إلى مقاضي حوائجهن في النخيل والغيطان. وربما تعرضوا للحرة بعلة الأمَة. يقولون حسبناها أمة. فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زي الإماء، بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس والوجوه ليحتشمن ويُهبن، فلا يطمع فيهن طامع، وذلك قوله ﴿**ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ**﴾ أي أولى وأجدر بأن يعرفن أنهن حرائر، فلا يتعرض لهن ولا يلقين ما يكرهن. ثم قال الزمخشريّ: فإن قلت: ما معنى (من) في (من جلابيبهن) قلت: هو للتبعيض. إلا أن معنى التبعيض محتمل وجهين: أحدهما – أن يتجلببن ببعض ما لهن من الجلابيب. والمراد أن لا تكون الحرة متبذلة في درع وخمار كالأمة والماهنة، ولها جلبابان فصاعداً في بيتها. والثاني – أن ترخي المرأة بعض جلبابها وفضله على وجهها، لتتقنع حتى تتميز من الأمة. انتهى.

ومن الآثار في الآية، ما رواه الطبريّ عن ابن عباس قال: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة، أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عيناً واحدة. وأخرج ابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿**يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ**﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان، من السكينة. وعليهن أكسية سود يلبسنها. وأخرج عن يونس بن يزيد أنه سأل الزهريّ: هل على الوليدة خمار، متزوجة أو غير متزوجة؟ قال: عليها الخمار إن كانت متزوجة، وتنهى عن الجلباب. لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات.

تنبيهات:

الأول – قال ابن كثير: روي عن سفيان الثوريّ أنه قال: لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة. وإنما نهيَ عن ذلك لخوف الفتنة، لا لحرمتهنّ. واستدل بقوله تعالى: ﴿**وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾. انتهى.

الثاني – قال السبكيّ في (طبقاته): استنبط أحمد بن عيسى، من فقهاء الشافعية، من هذه الآية أن ما يفعله العلماء والسادات، من تغيير لباسهم وعمائمهم، أمر حسن. وإن لم يفعله السلف. لأن فيه تمييزاً لهم حتى يُعرفوا، فيعمل بأقوالهم. انتهى.

الثالث - قال الشهاب: قوله تعالى ﴿يُدْنِينَ﴾ يحتمل أن يكون مقول القول. وهو خبر بمعنى الأمر، أو جواب الأمر، على حدّ ﴿قُل لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، انتهى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً﴾ أي لما سلف منهنّ من التفريط ﴿رَّحِيماً﴾أي بعباده، حيث يراعي مصالحهم حتى الجزئيات منها.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾

﴿لَئِن لَمْ ينتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ أي عن نفاقهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي ضعف إيمان، عن مراودة النساء بالفجور ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي بأخبار السوء اللاتي يفترونها وينشرونها. كمجيء عدوّ وانهزام سريّة. وهكذا مما يكسرون به قلوب المؤمنين. وأصله التحريك. من (الرجفة) وهي الزلزلة. يسمى به الخبر المفترى، لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابتً. أو لاضطراب قلوب المؤمنين به ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنسلطنك عليهم بما يضطرهم إلى الجلاء ﴿ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أي في المدينة من قوة بأسك عليهم ﴿إلاَّ قَلِيلاً﴾ أي زمناً قليلاً ريثما يستعدون للرحلة ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُواْ﴾ أي مبغضين للّه وللخلق. لا يستريحون بالخروج. للصوق اللعنة بهم أينما وجدوا. ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً﴾ أي أسروا وبولغ في قتلهم لذلتهم وقلتهم. ثم أشار تعالى إلى أن ذلك ليس ببدع، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ أي في المفترين والمؤذين الذين مضوا، إذا تمرّدوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا، أن يسلّط عليهم أهل الإيمان فيقهرونهم. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ أي لأنه لا يبدلها، أو لا يقدر أحد أن يبدلها.

تنبيهات:

الأول - قال الشهاب: إما أن يراد بالمنافقين والمراض والمرجفين، قوم مخصوصون، ويكون العطف لتغاير الصفات مع اتحاد الذات، على حدّ (إلى الملك

القرم وابن الهمام) أو يراد بهم أقوام مختلفون في الذوات والصفات. فعلى الأول، تكون الأوصاف الثلاثة للمنافقين. وهو الموافق لما عرف من وصفهم بالذين في قلوبهم مرض، كما مرّ في البقرة. والأراجيف بالمدينة أكثرها منهم. لكنه لا يوافق ما ذيل به من الوعيد بالإجلاء والقتل. فإنه لم يقع للمنافقين. وعلى الثاني، هم المنافقون وقوم ضعاف الدين. كأهل الفجور. والمرجفون اليهود الذين كانوا مجاورين لهم بالمدينة. وقد وقع القتال والإجلاء لمن لم ينته منهم. وهم اليهود. انتهى.

الثاني – ذكروا أن معنى قوله تعالى: ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً﴾ أنهم إذا خرجوا لا ينفكّون عن المذلّة، ولا يجدون ملجأ. بل أينما يكونون، يطلبون ويؤخذون ويقتلون. وعليه، فالجملة خبريّة. وانظر هل من مانع أن تكون الجملة دعائيّة كقوله ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [التوبة:٩٨] و[الفتح:٦]، وقوله: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١]، كأنه قيل: أخذهم الله. أي أهلكهم وقتلهم أبلغ قتل وأشدّه. ولم أر أحداً تعرّض له. وقد أفاد ابن عطية، أن كل ما كان بلفظ الدعاء من الله تعالى، فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء. لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته، أي لاستحالة حقيقة الدعاء وهو الطلب من الغير.

الثالث – في (الإكليل): في الآية تحريم الأذى بالإرجاف. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّيّ في قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم قوم كانوا يجلسون على الطريق، يكابرون المرأة مكابرة. فنزلت فيهم الآية إلى قوله: ﴿أُخِذُوا وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً﴾ قال: هذا حكم في القرآن، ليس يعمل به، لو أن رجلاً أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها، كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم، أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم. انتهى.

وهذا وقوف مع وجه تحتمله الآية. كما قدمنا. على أن للحاكم أن يفعل ذلك، إذا رأى في ذلك مصلحة ودرء مفسدة. على قاعدة رعاية المصالح التي هي أم الباب. كما بسط ذلك النجم الطوفيّ في (رسالته) وأيدناه بما علقناه عليها.

الرابع – كتب الناصر في (الانتصاف) على قول الكشاف في قوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي زمناً قليلاً ريثما يرتحلون ويتلقطون أنفسهم وعيالاتهم، ما مثاله: فيها إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعيّ، يمهل ريثما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان حتى يتحصل له منزل آخر، على حسب الاجتهاد. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾

﴿ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونَ قَرِيباً** ﴾ أي يسألونك عن وقت قيامها. وكان المشركون في مكة يسألونه ﷺ، عنها استعجالاً على سبيل الهزء. وكذلك اليهود في المدينة أو غيرهم. لأن هذه السورة مدنية، وقدأرشده تعالى أن يردّ علمها إليه لاستئثاره تعالى به. فلم يطلع عليه نبياً ولا ملكاً، وأن يبين لهم أنها قريبة الوقوع، تهديداً للمستعجلين وإسكاتاً للممتحنين.

لطيفة:

تذكير (قريباً) باعتبار موصوفه، الخبر، أي شيئاً قريباً. أو لأن الساعة في معنى اليوم أو الوقت. أو أن (قريباً) ظرف منصوب على الظرفية، فإن (قريباً) و (بعيداً) يكونان ظرفين. فليس صفة مشتقة، حتى تجري عليه أحكام التذكير والتأنيث.

قال أبو السعود: والإظهار في حيز الإضمار، للتهويل وزيادة التقرير. وتأكيد استقلال الجملة. يعني أن قوله: ﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ** ﴾ خطاب مستقل له عليه السلام، غير داخل تحت الأمر، مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق، مرجوة المجيء عن قريب.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ **وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً** ﴾ أي ناراً شديدة الاتّقاد في الآخرة ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً** ﴾ أي حافظاً يتولاهم ﴿ **وَلاَ نَصِيراً** ﴾ أي يخلصهم ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ** ﴾ أي تصرف من جهة إلى جهة، تشبيه بقطعة لحم في قدرٍ تغلي. ترامى بها الغليان من جهة إلى جهة. أو المعنى: من حال إلى حال. فالمراد تغيير هيئاتها من سواد وتقديد وغيره.

قال الزمخشريّ: وخصت الوجوه بالذكر، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده، ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة. وناصب الظرف (يقولون) أو

(اذكر) أو (لا يجدون) أو (خالدين) أو (نصيراً) ﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾ أي فكنا ننجو من هذا العذاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وكُبرَاءنَا﴾ وهم رؤساء الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم حتى قلدوهم فيه ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾ أي بما زينوه لنا. قال الزمخشريّ: وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع، وأن ما بعده مستأنف ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي مثلي العذاب الذي آتيتناه، لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ أي لعناً هو أشد اللعن وأعظمه. وقرئ (كثيراً) تكثيراً لأعداد اللعائن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ اللَّه وَجِيهاً﴾ لما بين تعالى وعيد من يؤذي نبيه ﷺ، من استحقاقه اللعنة في الدارين، تعريضاً بمن صدر منهم شيء من الأذى في قصة زيد وزينب، التي سيقت السورة لأجلها، ختمها أيضاً بالوصية بالتباعد عن التشبه بقوم صدر منهم إيذاء لموسى عليه السلام، بتنقصه تارة، وقلة الأدب معه طوراً، ونسبته إلى ما ينافي الرسالة آونة. كما يمر كثير من ذلك بقارئي توراتهم. مما ينبئ عن عدم إيفائهم رسالته ونبوته حقها، من التعظيم له والصلاة عليه والتسليم لأمره وقضيته. فكانت النتيجة أن غضب الله عليهم ورماهم بأفانين العقوبات، ولحقتهم المخازي، وبرأ رسوله موسى عليه السلام من إفكهم، ونزه مقامه عن تنقيصهم، بأن حقق فضله، وأسمى منزلته، وآتاه الوجاهة - وهي العظمة والقرب - عنده. وهكذا حقت كلمة اللعنة والخزي على مؤذي رسول الله ﷺ، ولحقهم الدمار، وشرح لنبيه صدره، ورفع له ذكره، وأعلى منزلته، وفخم وجاهته، ما تعاقبت الأدوار. ويقرب من هذه الآية، في المعنى والإشارة، قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّه إِلَيْكُمْ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وفيهما كلتيهما تسلية للنبيّ ﷺ بتأسيه بأخيه موسى صلوات الله وسلامه عليهما. وكثيراً ما كان

يقول ﷺ في جواب جفاة الأعراب حين ما يبلغه أو يسمع ما يكره: رحمة الله على موسى. لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر.

وقد روى المفسرون ههنا آثاراً. أحسنها ما أخرجه البزار عن أنس مرفوعاً: كان موسى رجلاً حيياً. وأنه أتى الماء ليغتسل. فوضع ثيابه على صخرة. وكان لا يكاد تبدو عورته. فقال بنو إسرائيل إن موسى آدَرُ أو به آفة. يعنون أنه لا يضع ثيابه. فاحتملت الصخرة ثيابه حتى صارت بحذاء بني إسرائيل. فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال. أو كما قال. فذلك قوله ﴿**فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً**﴾ ورواه[١] البخاريّ في صحيحه عن أبي هريرة أيضاً.

قال الرازيّ وحديث إيذاء موسى مختلف فيه – أي لكثرة الروايات فيه – مع أن الإيذاء المذكور في القرآن كاف كقولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ﴾ [المائدة: ٢٤]، وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نرى اللَّه جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥]، وقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة:٦١]، إلى غير ذلك. فقال للمؤمنين: لا تكونوا أمثالهم. انتهى.

وقال ابن كثير: يحتمل أن يكون كل ما روي مراداً. وأن يكون معه غيره. انتهى. أي لعموم المعمول المحذوف. وما بيناه أولاً، هو الأقرب. والله أعلم.

تنبيهات:

الأول – (الوجيه) لغة بمعنى السيد، كالوجه. يقال: هؤلاء وجوه البلد ووجهاؤه. أي أشرافه. وبمعنى ذي الجاه – والجاه القدر والمنزلة. مقلوب عن (وجه) فلما أخرت (الواو) إلى موضع (العين) وصارت جَوَها، قلبت (الواو) ألفاً. فصارت (جاها). كذا في القاموس وشرحه.

الثاني – قال الزمخشريّ: (وجيها) أي ذا جاه ومنزلة عنده. فلذلك كان يميط عنه التهم ويدفع الأذى ويحافظ عليه لئلا يلحقه وصم ولا يوصف بنقيصة. كما يفعل الملك بمن له عنده قربة ووجاهة. وقال ابن جرير: أي كان موسى عند الله مشفّعاً فيما يَسأل، ذا وجه ومنزلة عنده، بطاعته إياه. أي مقبولاً ومجاباً فيما يطلب لقومه من الله تعالى، عناية منه تعالى وتفضيلاً.

الثالث – اتخذ العامة، وكثير من المتعالمين، وصف الوجاهة للأنبياء، ذريعة

---

(١) أخرجه البخاري في: الغسل، ٣٠– باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة، حديث رقم ٢٠١.

المطلب والرغبة منهم، مما لا ينطبق على عقل ولا نقل، ولا يصدق على المعنى اللغويّ بوجه ما، وقد كتب في ذلك الإمام الشيخ محمد عبده فتيا، أبان وجه الصواب فيما تشابه من هذه المسألة. وذلك أنه سئل، رحمه الله، عمن يتوسل بالأنبياء، والأولياء، معتقداً أن النبيّ أو الوليّ يستميل إرادة الله تعالى عما هي عليه، كما هو المعروف للناس من معنى الشفاعة والجاه عند الحكام. وأن التوسل بهم إلى الله تعالى كالتوسل بأكابر الناس إلى الحكام.

فقال امرؤ: إن هذا مخلّ بالعقيدة وإن قياس التوسل إلى الله تعالى على التوسل بالحكام محال. وإن عقيدة التوحيد أن لا فاعل ولا نافع ولا ضار إلاّ الله تعالى. وإنه لا يدعى معه أحد سواه. كما قال تعالى: ﴿فَلَاَ تَدْعُواْ مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾[الجن:١٨]، وإن النبيّ ﷺ، وإن كان أعظم منزلة عند الله تعالى من جميع البشر، وأعظم الناس جاهاً ومحبة، وأقربهم إليه، ليس له من الأمر شيء، ولا يملك للناس ضراً ولا نفعاً ولا رشداً ولا غيره. كما في نص القرآن. وإنما هو مبلّغ عن الله تعالى. ولا يتوسل إليه تعالى إلا بالعمل بما جاء على لسانه ﷺ، واتباع ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون من هديه وسنته. وإنه لا سبب لجلب المنافع ودفع المضارّ إلا ما هدى الله الناس إليه. ولا معنى للتوسل بنبيّ أو وليّ إلا باتباعه والاقتداء به. يرشدنا إلى هذا كثير من الآيات الواردة في القرآن العظيم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]، إلى غير ذلك من الآيات. هذا هو اعتقادي وهو الذي قلته للناس. فإن كنتم ترون فيه خطأ فأرجو بيانه. وإن كان هو الصواب فأرجو إقراري عليه كتابة، لأدافع بذلك من أساء بي الظن.

فأجاب رحمه الله، بعد البسملة والحوقلة: اعتقادك هذا هو الاعتقاد الصحيح. ولا يشوبه شوب من الخطأ. وهو ما يجب على كل مسلم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ أن يعتقده. فإن الأساس الذي بنيت عليه رسالة النبيّ محمد ﷺ هو هذا المعنى من التوحيد. كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢]، و﴿الصَّمَدُ﴾ هو الذي يقصد في الحاجات، ويتوجه إليه المربوبون في معونتهم على ما يطلبون، وإمدادهم بالقوة فيما تضعف عنه قواهم. والإتيان بالخبر على هذه الصورة يفيد الحصر. كما هو معروف عند أهل اللغة. فلا صَمَدَ إلا هو. وقد أرشدنا إلى وجوب القصد إليه وحده بأصرح عبارة في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقد قال الشيخ محي

الدين بن العربيّ، شيخ الصوفية، في صفحة ٢٢٦ من الجزء الرابع من (فتوحاته) عند الكلام على هذه الآية: إن اللّه تعالى لم يترك لعبده حجة عليه. بل للّه الحجة البالغة. فلا يتوسل إليه بغيره. فإن التوسل إنما هو طلب القرب منه. وقد أخبرنا اللّه أنه قريب. وخبره صدق. انتهى ملخصاً.

على أن الذين يزعمون جواز شيء مما عليه العامة اليوم في هذا الشأن، إنما يتكلمون فيه بالمبهمات، ويسلكون طرقاً من التأويل لا تنطبق على ما في نفوس الناس. ويفسرون الجاه والواسطة بما لا أثر له في مخيلات المعتقدين. فأيّ حالة تدعوهم إلى ذلك؟ وبين أيديهم القرون الثلاثة الأولى، ولم يكن فيها شيء من هذا التوسل ولا ما يشبهه بوجه من الوجوه، وكتب السنة والسير بين أيدينا شاهدة بذلك، فكل ما حدث بعد ذلك فاقل أوصافه أنه (بدعة) في الدين وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. وأسوأ البدع ما كان فيه شبهة الإشراك باللّه تعالى وسوء الظن به. كهذه البدع التي نحن بصدد الكلام فيها، وكأن هؤلاء الزاعمين يظنون أن في ذلك تعظيماً لقدر النبيّ ﷺ، أو الأنبياء أو الأولياء. مع أن أفضل التعظيم للأنبياء هو الوقوف عندما جاءوا به، واتقاء الزيادة عليهم فيما شرعوه بإذن ربهم. وتعظيم الأولياء يكون باختيار ما اختاروه لأنفسهم. وظنُّ هؤلاء الزاعمين أن الأنبياء والأولياء يفرحون بإطرائهم وتنظيم المدائح وعزوها إليهم، وتفخيم الألفاظ عند ذكرهم، واختراع شؤون لهم مع اللّه، لم ترد في كتاب اللّه ولا في سنة رسوله ولا رضيها السلف الصالح. هذا الظن بالأنبياء والأولياء هو أسوأ الظن. لأنهم شبهوهم في ذلك بالجبارين من أهل الدنيا، الذين غشيت أبصارهم ظلمات الجهل قبل لقاء الموت، وليس يخطر بالبال أن جباراً لقي الموت وانكشف له الغطاء عن أمر ربه فيه، يرضى أن يفخمه الناس بما لم يشرعه اللّه. فكيف بالأنبياء والصديقين؟ إن لفظ (الجاه) الذي يضيفونه إلى الأنبياء والأولياء عند التوسل، مفهومه العرفيّ هو السلطة. وإن شئت قلت نفاذ الكلمة عند من يستعمل عليه أو لديه، فيقال فلان اغتصب مال فلان بجاهه، ويقال فلان خلص فلاناً من عقوبة الذنب بجاهه، لدى الأمير أو الوزير مثلاً. فزعمُ زاعم أن لفلان جاهاً عند اللّه بهذا المعنى، إشراك جليّ لا خفيّ. وقلما يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغويّ، وهو المنزلة والقدر. على أنه لا معنى للتوسل بالقدر والمنزلة نفسها. لأنها ليست شيئاً ينفع. وإنما يكون لذلك معنى، لو أوِّلتْ بصفة من صفات اللّه، كالاجتباء والاصطفاء، ولا علاقة لها بالدعاء ولا يمكن لمتوسل أن يقصدها في دعائه. وإن كان (الآلوسيّ) بنى تجويز التوسل بجاه النبيّ خاصة على

ذلك التأويل. وما حمله على هذا إلاّ خوفه من ألسنة العامة وسباب الجهّال. وهو مما لا قيمة له عند العارفين. فالتوسل بلفظ الجاه مبتدع بعد القرون الثلاثة. وفيه شبهة الشرك والعياذ بالله، وشبهة العدول عما جاء به الرسول ﷺ. فَلِمَ الإصرار على تحسين هذه البدعة؟

يقول بعض الناس: إن لنا على ذلك حجة لا أبلغ منها. وهي ما رواه الترمذيّ[١] بسنده إلى عثمان بن حنيف رضي الله عنه قال: إن رجلاً ضرير البصر أتى النبيّ ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني. فقال: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك. قال: فادعه. قال فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبيّ الرحمة. يا محمد! إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي. اللهم فشفعه فيّ. قال الترمذيّ: وهو حديث حسن صحيح غريب، ونقول أولاً: قد وصف الحديث بالغريب، وهو ما رواه واحد. ثم يكفي في لزوم التحرز عن الأخذ به، أن أهل القرون الثلاثة لم يقع منهم مثله، وهم أعلم منا بما يجب الأخذ به من ذلك. ولا وجه لابتعادهم عن العمل به، إلا علمهم بأن ذلك من باب طلب الاشتراك في الدعاء من الحي. كما قال عمر[٢] رضي الله عنه، في حديث الاستسقاء: إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك العباس فاسقنا، قال ذلك، رضي الله عنه، والعباس بجانبه يدعو الله تعالى، ولو كان التوسل ما يزعم هؤلاء الزاعمون، لكان عمر يستسقي ويتوسل بالنبيّ ﷺ، ولا يقول (كنا نستسقي بنبيك) وطلب الاشتراك في الدعاء مشروع حتى من الأخ لأخيه، بل ويكون من الأعلى للأدنى، كما ورد في الحديث. وليس فيه ما يخشى منه، فإن الداعي ومن يشركه في الدعاء وهو حيّ، كلاهما عبد يسأل الله تعالى، والشريك في الدعاء شريك في العبودية، لا وزير يتصرف في إرادة الأمير كما يظنون ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، ثم المسألة داخلة في باب العقائد، لا في باب الأعمال. ذلك أن الأمر فيها يرجع إلى هذا السؤال (هل يجوز أن نعتقد بأن واحداً سوى الله يكون واسطة بيننا وبين الله في قضاء حاجاتنا أو لا يجوز)؟ أما الكتاب فصريح في أن تلك العقيدة من عقائد المشركين، وقد نعاها عليهم في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ

---

(١) أخرجه في: الدعوات، ١١٨– باب حدثنا محمود بن غيلان.

(٢) أخرجه البخاري في: الاستسقاء، ٣– باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء، إذا قحطوا، حديث ٥٧٢.

شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّه﴾ [يونس:١٨]، سورة يونس، وقد جاء في السورة التي نقرؤها كل يوم في الصلاة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فلا استعانة إلا به، وقد صرح الكتاب بأن أحداً لا يملك للناس من اللّه نفعاً ولا ضراً، وهذا هو التوحيد الذي كان أساس الرسالة المصطفوية كما بيّنا. ثم البرهان العقليّ يرشد إلى أن اللّه تعالى في أعماله لا يقاس بالحكام وأمثالهم في التحول عن إرادتهم، بما يتخذه أهل الجاه عندهم، لتنزّهه جل شأنه عن ذلك. ولو أراد مبتدع أن يدعو إلى هذه العقيدة، فعليه أن يقيم عليها الدليل الموصل إلى اليقين، إما بالمقدمات العقلية البرهانية أو بالادلة السمعية المتواترة. ولا يمكنه أن يتخذ حديثاً من حديث الآحاد دليلاً على العقيدة مهما قوي سنده. فإن المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن. ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ [النجم:٢٨]، انتهى كلامه رحمه اللّه.

ثم راجعت (اقتضاء الصراط المستقيم) للإمام العلَم تقيّ الدين ابن تيمية رضي اللّه عنه. فرأيته ذكر نحواً من ذلك، وعبارته: فالوسيلة التي أمر اللّه بابتغائها، تعمّ الوسيلة في عبادته وفي مسألته. فالتوسل إليه بالأعمال الصالحة التي أمر بها، وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم، ليس هو من باب الإقسام عليه بمخلوقاته. ومن هذا الباب استشفاع الناس بالنبيّ ﷺ يوم القيامة، فإنهم يطلبون منه أن يشفع لهم إلى اللّه، كما كانوا في الدنيا يطلبون منه أن يدعوَ لهم في الاستسقاء وغيره: وقول عمر رضي اللّه عنه (إنا كنا، إذا أَجْدَبْنَا، توسلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبينا) معناه نتوسل بدعائه وشفاعته وسؤاله، ونحن نتوسل إليك بدعاء عمه وسؤاله وشفاعته. ليس المراد به، إنا نقسم عليك به. أو ما يجري هذا المجرى مما يفعل بعد موته وفي مغيبه. كما يقوله بعض الناس: أسألك بجاه فلان عندك. ويقولون: إنا نتوسل إلى اللّه بأنبيائه وأوليائه، ويروون حديثاً موضوعاً (إذا سألتم اللّه فاسألوه بجاهي، فإن جاهي عند اللّه عريض) فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه، كما ذكر عمر رضي اللّه عنه، لفعلوا ذلك بعد موته، ولم يعدلوا عنه إلى العباس. مع علمهم أن السؤال به والإقسام به، أعظم من العباس. فعلم أن ذلك التوسل الذي ذكروه، وهو مما يفعل بالأحياء دون الأموات. وهو التوسل بدعائهم وشفاعتهم. فإن الحيّ يطلب منه ذلك والميت لا يطلب منه شيء، لا دعاء ولا غيره. وكذلك حديث الأعمى. فإنه طلب من النبيّ ﷺ أن يدعو له ليردّ اللّه عليه بصره. فعلّمه النبيّ ﷺ دعاءً أمره فيه، أن يسأل اللّه قبول شفاعة نبيّه فيه. فهذا يدل على أن النبيّ ﷺ شفع فيه، وأمره أن يسأل اللّه قبول شفاعته، وأن قوله (أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمد نبيّ الرحمة) أي بدعائه وشفاعته. كما قال

عمر: كنا نتوسل إليك بنبينا. فلفظ (التوجه) و (التوسل) في الحديثين بمعنى واحد. ثم قال (يا محمد! يا رسول الله! إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها. اللهم! فشفعه فيّ) فطلب من الله أن يشفّع فيه نبيّه. وقوله (يا محمد! يا نبيّ الله!) هذا وأمثاله نداء، يطلب به استحضار المنادى في القلب. فيخاطب المشهود بالقلب. كما يقول المصلّي: السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته. والإنسان يفعل مثل هذا كثيراً. يخاطب من يتصوّره في نفسه. وإن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب. فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به والسؤال به، فيه إجمال واشتراك. غلط تسببه من لم يفهم مقصد الصحابة، يراد به التشبث به (في الأصل التسبب به) لكونه داعياً وشافعاً مثلاً. أو لكون الداعي محبّباً له، مطيعاً لأمره، مقتدياً به. فيكون التسبب إما بمحبة السائل له واتباعه له، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته، ويراد به الإقسام به والتوسل بذاته. فلا يكون التوسل، لا شيء منه ولا شيء من السائل، بل بذاته أو بمجرد الإقسام به على الله. فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ**﴾ أي في كل ما تأتون وما تذرون. لا سيما في ارتكاب ما يكرهه، فضلاً عما يؤذي رسوله ﷺ ﴿**وَقُولُواْ**﴾ أي في كل شأن من الشؤون ﴿**قَوْلاً سَدِيداً**﴾ أي قويماً حقاً صواباً. قال القاشانيّ: (السداد) في القول، الذي هو الصدق والصواب، هو مادة كل سعادة، وأصل كل كمال. لأنه من صفاء القلب وصفاؤه يستدعي جميع الكمالات. وهو وإن كان داخلاً في التقوى المأمور بها، لأنه اجتناب من رذيلة الكذب، مندرج تحت التزكية التي عبر عنها بالتقوى. لكنه أفرد بالذكر للفضيلة. كأنه جنس برأسه. كما خص جبريل وميكائيل من الملائكة.

القول في تأويل قوله تعالى:

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

﴿**يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ أي بإمداد الصلاح والكمالات والفضائل عليكم. لأنه

لا يصح عملٌ ما بدون الصدق أصلاً. وبه يصلح كل عمل ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي ويجعلها مكفرة باستقامتكم في القول والعمل. فإن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في الأوامر والنواهي التي من جملتها هذه التشريعات ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ أي في الدارين.

وقال القاشانيّ: أي فاز بالتحلية والاتّصاف بالصفات الإلهية، وهو الفوز العظيم.

تنبيه:

قال الزمخشريّ: المراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول. والبعثُ على أن يَسِدّ قولُهم في كل باب. لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله. وهذا الآية مقررة للتي قبلها. بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله ﷺ، وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى في حفظ اللسان، ليترادف عليهم النهي والأمر، مع إتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام. وإتباع الأمر الوعد البليغ، فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه. انتهى.

ولك أن تضم إلى المراد من الآية الذي ذكره، مراداً آخر. وهو نهيهم أيضاًعما خاض فيه المنافقون من التعويق والتثبيط وبث الأراجيف في غزوة الأحزاب، المتقدمة أوائل السورة وبالجملة، فالسياق يشمل ذينك وغيرهما. إلا أن الذي يراعى أولاً، هو ما كان التنزيل لأجله، وذلك ما ذكر.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ قال أبو السعود: لما بيّن عظم شأن طاعة الله ورسوله، ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الأليم، ومثال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل - مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها، صدر عنهم بعد القبول والالتزام. وعبر عنها بـ (الأمانة) تنبيهاً على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين، وائتمنهم عليها. وأوجب عليهم تلقّيها بحسن الطاعة والانقياد.

وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير إخلال بشيء من حقوقها. وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها، بالعرْض عليهنّ، لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة في قبولهنّ لها - وعن عدم استعدادهنّ لقبولها، بالإباء والإشفاق منها، لتهويل أمرها وتربية فخامتها - وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها، بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة التي يستعمل فيها القوى الجسمانية، التي أشدها وأعظمها ما فيهنّ من القوة والشدة. والمعنى: أن تلك الأمانة في عظم الشأن، بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام، التي هي مثل في القوة والشدة، مراعاتَها، وكانت ذات شعور وإدراك، لأَبَيْنَ قبولها وأشفقن منها. ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق، رَوْماً لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه. وقوله تعالى: ﴿**وَحَمَلَهَا الإنسَانُ**﴾ أي عند عرضها عليه. إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده، أو بتكليفه إياها يوم الميثاق - أي تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة - وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطريّ، أو عن اعترافه بقوله (بلى). وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾ اعتراض وسط بين الحمل وغايته، للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله - أي أنه كان مفرطاً في الظلم، مبالغاً في الجهل. أي بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة. أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة اللّه تبديلاً. وإلى الفريق الأول أشير بقوله عز وجل:

القول في تأويل قوله تعالى:

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

﴿**لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ**﴾ أي حملها الإنسان ليعذب اللّه بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة. على أن اللام للعاقبة. فإن التعذيب وإن لم يكن غرضاً له من الحمل، لكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده، ترتب الأغراض على الأفعال المعللة بها، أبرز في معرض الغرض - أي كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذب اللّه تعالى هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية. وإلى الفريق الثاني أشير بقوله تعالى ﴿**وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ أي كان عاقبة حمله لها أن يتوب اللّه تعالى على هؤلاء من أفراده. أي يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة. وتلافيهم لما

فرط منهم من فرطات. قلما يخلو عنها الإنسان بحكم جبلّته وتداركهم لها بالتوبة والإنابة. والالتفات إلى الاسم الجليل أولاً، لتهويل الخطب وتربية المهابة. والإظهارُ في موضع الإضمار ثانياً، لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكل من مقامي الوعيد والوعد حقه: ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً** ﴾ أي مبالغاً في المغفرة والرحمة. حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم. انتهى ملخصاً مما حرره أبو السعود. وقد آثرت نقله بحروفه لتجويده الكلام، وإجادته في المقام. وهكذا عادتنا في كل مجوّد، أن ننقله ولا نتصرف فيه.

بقي في الآية لطائف نشير إليها:

الأولى - فسر بعض السلف الأمانة بالطاعة، وبعضهم بالفرائض والحدود والدين. وبعضهم بمعرفته تعالى. قال ابن كثير: وكل هذه الأقوال لا تنافيَ بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها. وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب. انتهى.

وقيل: المراد بالأمانة الطاعة التي تعمّ الطبيعية والاختيارية، لأنها لازمة الوجود، كما أن الأمانة لازمة الأداء. وبعرضها، استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من المختار، وإرادة صدوره من غيره - وبحملها، الخيانة فيها والامتناع عن أدائها، فيكون الإباء امتناعاً عن الخيانة وإتياناً بالمراد. فالمعنى أن هذه الأجرام مع عظمها وقوتها، أَبَيْنَ الخيانة وانقدن لأمره تعالى انقياد مثلها. حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاداً وتكويناً وتسوية، وعلى هيئات مختلفة وأشكال متنوعة. كما قال: ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت:١١]، وخانها الإنسان حيث لم يأت - وهو حيوان عاقل صالح للتكليف - بما أمرناه به؛ إنه كان ظلوماً جهولاً. وإرادة الخيانة من حملها، هو بتشبيه الأمانة قبل أدائها بحمل يحمله. كما يقال (ركبته الديون) وقرره الزمخشريّ بقوله: وأما حمل الأمانة فمن قولك (فلان حامل للأمانة ومحتمل لها) تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته، ويخرج عن عهدتها. لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها، وهو حاملها. ألا تراهم يقولون (ركبته الديون) و (لي عليه حق) فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملاً لها. ومنه قولهم (أبغض حق أخيك) لأنه إذا أحبه لم يخرجه إلى أخيه ولم يؤدّه. وإذا أبغضه أخرجه وأداه فمعنى (فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان) فأبين إلا أن يؤدينها. وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملاً لها لا يؤديها. ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً لأداء الأمانة، وبالجهل لإخطائه

ما يسعده مع تمكنه منه، و هو أداؤها. انتهى ملخصاً.

الثانية – نقل ابن كثير آثاراً عن بعض التابعين ؛ أن عرض الأمانة على هذه الأجرام كان حقيقياً. وأنه قيل لها: إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت. فقلن: يا رب! إنا لا نستطيع هذا الأمر، ليس بنا قوة. ولكنا لك مطيعين. قال الشراح: ولا بُعْد، أن يخلق الله فيها فهماً لخطابه، وأنه كان على سبيل التخيير لها. ولذا عبر بالعرض، لا تكليفاً حتى يلزم عصيانها. انتهى.

قال الإمام ابن حزم في (الفِصَل) في الردّ على من جعل للجمادات تمييزاً، ما مثاله: وأما عرضه تعالى الأمانة على السموات والأرض والجبال، وإباية كل واحد منها، فلسنا نعلم نحن ولا أحد من الناس كيفية ذلك. وهذا نص قوله: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١]، فمن تكلف أو كلف غيره معرفة ابتداء الخلق، وأن له مبدأً لا يشبهه البتة، فأراد معرفة كيف كان، فقد دخل في قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

إلا أننا نوقن أنه تعالى لم يعرض على السموات والأرض والجبال الأمانة، إلا وقد جعل فيها تمييزاً لما عرض عليها. وقوة تفهم بها الأمانة فيما عرض عليها. فلما أبتها وأشفقت منها، سلبها ذلك التمييز وتلك القوة، وأسقط عنها تكليف الأمانة.

قال: هذا ما يقتضيه كلامه عز وجل، ولا مزيد عندنا على ذلك. انتهى.

وذهب جمع إلى أن ذلك من باب المجاز، كما بينه ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) وسبقه الزمخشريّ حيث قال: ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب. وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم. ومن ذلك قولهم (لو قيل للشحم أين تذهب، لقال أسوّي العوج) وكم وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات. وتصوُّرُ مقاولة الشحم محال. ولكن الغرض أن السِّمَن في الحيوان مما يحسّن قبيحه. كما أن العجف مما يقبح حسنه. فصوّر أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع، وهي به آنس، وله أقبل، وعلى حقيقته أوقف. وكذلك تصوير عظم الأمانة، وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها. انتهى.

الثالثة – قال الرازيّ: إن قال قائل: لم قدم التعذيب على التوبة – في آخر الآية؟ نقول: لما سمي التكليف أمانة، والأمانة من حكمها اللازم أن الخائن يضمن، وليس من حكمها اللازم أن الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة، فكان التعذيب على

الخيانة كاللازم، والأجر على الحفظ إحسان، والعدل قبل الإحسان.

الرابعة – ورد في تعظيم الأمانة عدة أحاديث. منها عن أبي هريرة مرفوعاً: أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك. رواه أبو داود [١] والترمذي [٢]. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: أربع، إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة. رواه الإمام أحمد[٣] والطبرانيّ وعن أبي هريرة[٤] قال: قال رسول الله ﷺ، لمن سأل عن الساعة: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: كيف إضاعتها؟ يا رسول الله! قال: إذا وسّد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة.

الخامسة – قال ابن كثير: روى عبد الله بن المبارك في كتاب (الزهد) أن عمر ابن الخطاب كان ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع عن بريدة: من حلف بالأمانة فليس منا، تفرد به أبو داود [٥]. أي لأن الحلف لا يكون إلا باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته. وأما بغير ذلك فمكروه أو حرام. كما تقرر في موضعه. والله أعلم.

السادسة – سبق لي أن كتبت في الآية شيئاً. في منتصف ربيع الأول سنة ١٣٢٤، في قرية ضمّت حفلة من أهل العلم. فسأل بعض الناس عن تفسير الآية. ولم يكن ثمة تفسير فاستعنتُ بالله تعالى، وقرأت السورة من أولها إلى آخرها مرات ثم كتبت ما تراه.

أردت إثباته هنا تعزيزاً للمقام، ونصه: في ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع (ردّ العجز على الصدر) ذلك أن طليعة هذه السورة كانت في ذم المنافقين وقص مخازيهم ونواياهم السيئة ضد الرسول وأصحابه في غزوة الأحزاب، وهي غزوة الخندق. أبان الحق تعالى أثر ما ذكر من الأمر بالتقوى وعدم إطاعة المنافقين، وما كانوا يخوضون فيه من قصة التبني ونحوها، أنهم كانوا أعطوا العهود والمواثيق أنهم إن قاتلوا لا يفروا وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَاهَدُوا۟

---

(١) رواه في: كتاب البيوع، ٧٩– باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، حديث ٣٥٣٥.

(٢) أخرجه في: البيوع، ٣٨– باب حدثنا أبو كريب، حديث ١٢٦٤.

(٣) أخرجه في المسند ٢ /١٧٧، والحديث رقم ٦٦٥٢.

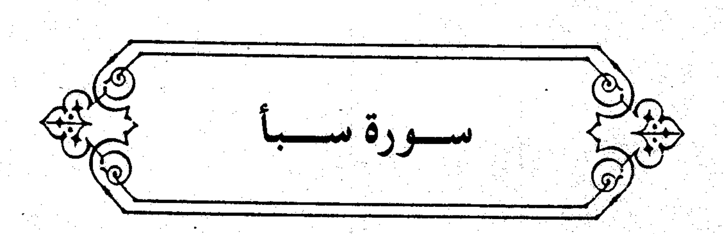
(٤) أخرجه البخاري في: العلم، ٢– باب من سئل علما وهو مشتغل في حديثه، حديث ٥٢.

(٥) أخرجه في: الأيمان، ٥– باب كراهية الحلف بالأمانة، حديث ٣٢٥٣.

اللَّهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً قُل لَن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الأحزاب:١٥-١٦]، فلما خانوا أماناتهم بالفرار والتعويق لإخوانهم، والتثبيط لهم وما كان من شنائعهم في تلك الغزوة، بين اللّه تعالى في خاتمة السورة، شأن الأمانة، وعظم خطرها، وأنها عند اللّه بمكان عظيم. وذلك لأن من أعطى من نفسه موثقاً، عاهد اللّه عليه فاطمأنت به النفوس ووثقت به وركنت إليه وأدرجته في عداد من يشدّ أزرها، فإذا هو غادر خائن كاذب متلاعب، يتخذ عهود اللّه هزؤاً ولعباً، فيخذل من وثق به، ويمالئ العدوّ عليه ويثبط من يرجى منه نوع معونة، ويوقع الأراجيف ليوهي العزائم ويضعف الهمم، فتكثر القالة وترتبك العامة فما أسوأ ما يأتي به وما أفظع ما ارتكب وما أعظم جريمته! وجليّ أن عظم الجريمة بقدر عظم آثارها، وما ذكر بعض من آثارها. ففي أي مرتبة تكون الخيانة؟ لا جرم أنها في أحط المهاوي الدنيئة. كما أن مرتكبها في الدرك الأسفل من النار. فالأمانة المذكورة في الآية باعتبار سياقها وسباقها، هي الأمانة التي خان في تحملها المنافقون، ونقضوا بها عهدهم في هذه الواقعة. وكان من أثرها السيّء في المدينة وأهلها ما كان – وإن كان لفظها يعم ما ذكر وغيره، والإنسان هنا، المعنيّ به جنس المنافق الذي قصّ من نبئه ما قصّ. والقصد لومه على كونه تحمل ما تحمل، ثم نقض ذلك عن عمد وقصد، ظلماً لنفسه وجهلاً بالعاقبة وباللوم الذي يتبعه، وبالعذاب الذي سيلقاه، وبكون هذا الأمر أمراً ربّانياً وعزيمة إلهية ما هي بالهزل. والمراد بعرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، هو ظهور خطرها لهذه المكونات، وفظاعة الخيانة فيها، وإشفاق كلٍّ من خطر تحملها. وإبائهن ذلك لو كن مما يعقلن. مع أنهن أقوى أجساماً وأعظم ثباتاً وأصبر على طوارئ الحدثان، تخوفاً من أن يطغين في أمرها أو يعصين في شأنها. وإن الإنسان، مع ضعفه بالنسبة لهن، حملها وما حفظها ولا رعاها. واجترأ مع ضعفه على ما أشفق منه ما هو أقوى منه. فما أظلمه وما أجهله! والقصد رميه بالظلم والجهل. وجراءته على الخيانة وعدم مبالاته بما ترهب منه السماوات والأرض والجبال. فياللّه ما أطغاه! فذكر هذه الأجرام الكبيرة تهويل لخطر الأمانة، وأنهن لو عقلن لكان منهن ما كان. ونظير هذه الآية في ذكر هؤلاء الثلاثة قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ﴾ [مريم:٨٨-٩١]، وحقاً أن سبك المعنى المذكور في قالب هذا النظم البديع لمعجزة من معجزات التنزيل، وخارق من خوارقه في باب البلاغة. فإن أسلوبه في

إفراغ المعاني في أرق الألفاظ وأفخم التراكيب، أسلوب انفرد به عن كل كلام. وبه يعلم أن من بحث في كيفية العرض عليهن، هل كان بإيداع عقل فيهن أولا، وفي تعيين زمانه وفي كيفية إبائهن وإشفاقهن، وفي معنى لوم الإنسان ورميه بالظلم والجهل، بعد ما عرضت عليه، وأن ظاهره التخيير إلى غير ذلك - كله فلسفة لفظية، ولّدها عشاق الظواهر والألفاظ، الولعون في الغلوّ بمفرداتها، وصرف الوقت فيها جعل ذلك منتهى قصدهم ومبلغ علمهم. فضاع عليهم المعنى ولم يهتدوا إليه - ولن يجدوا إليه سبيلاً ما دام هذا سبيلهم - والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة سبأ

سميت بها لتضمن قصتها آية تدل على نعيم الجنة في السعة وعدم الكلفة والخلوّ عن الآفة، وتبدّلها بالنقم، لمن كفر بالمنعم.. وهذا من أعظم مقاصد القرآن. قاله المهايميّ. وهي مكية. واستثني منها ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ﴾ [سبأ:٦] الآية. وروى الترمذيّ [١] عن فروة بن مسيك المراديّ قال: أتيت النبيّ ﷺ فقلت: يا رسول الله! ألا أقاتل من أدبر من قومي؟ الحديث. وفيه: وأنزل في سبأ ما أنزل. فقال رجل: يا رسول الله! وما سبأ؟ الحديث.

قال ابن الحصار: هذا يدل على أن هذه القصة مدنية. لأن مهاجرة فروة بعد إسلام ثقيف سنة تسع.

قال: ويحتمل أن يكون قوله (وأنزل) حكاية عما تقدّم نزوله قبل هجرته. أفاده في (الإتقان) وآيها أربع وخمسون.

(١) أخرجه في: التفسير، ٣٤- سورة سبأ، ١- حدثنا أبو كريب وعبد بن حميد.

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾

﴿**الْحَمْدُ للَّه الَّذي لَهُ ما في السَّموات وَمَا في الأرْض ولَهُ الْحَمْدُ في الآخِرَة، وهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ خلقاً وملكاً، وتصرفاً بما شاء ﴿**ولَهُ الْحَمْدُ في الآخِرَة**﴾ أي في النشأة الآخرة. قال الشهاب: السموات والأرض عبارة عن هذا العالم بأسره.وهو يشتمل على النعم الدنيوية. فعلم من التوصيف بقوله ﴿**الَّذي**﴾ الخ، أنه محمود على نعم الدنيا، ولما قيّد الثاني بكونه في الآخرة، علم أن الأول محله الدنيا فصار المعنى: أنه المحمود على نعم الدنيا فيها، وعلى نعم الآخرة فيها. أو هو من باب الاحتباك. وأصله: الحمد للّه الخ في الدنيا، وله ما في الآخرة والحمد فيها. فأثبت في كل منها ماحذف من الآخرة. وقوله تعالى:﴿**وَلَهُ الْحَمْدُ**﴾ معطوف على الصلة ، أو اعتراض، إن كانت جملة (يَعْلَمُ) حالية ﴿**وَهُوَ الْحَكِيمْ**﴾ أي الذي أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته ﴿**الْخَبِيرُ**﴾ أي بخلقه وأعمالهم وسرائرهم، ثم ذكر مما يحيط به علماً قوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

﴿**يَعْلَمُ ما يَلجُ في الأرْضِ**﴾ أي من الأمطار والمياه والكنوز والدفائن والأموات ﴿**وَمَا يَخْرُجُ منْهَا**﴾ أي من الشجر والنبات وماء العيون والغلة والدواب ﴿**وَمَا يَنْزِلُ منَ السَّمَاء**﴾ أي من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة والمقادير ﴿**وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا**﴾ أي من الملائكة وأعمال العباد ﴿**وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ**﴾ أي لمن تاب من المؤمنين وقام بواجب شكره.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ **لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ** ﴾ أي ساعة الجزاء، إنكاراً لها ﴿ **قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** ﴾ أي الساعة. رد لكلامهم وتأكيد لما نفوه، باليمين بالله عزّ وجلّ ﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ** ﴾ بالجرّ صفة، والرفع خبر محذوف. وقرئ (علاَّمِ). بالجرّ. وفي هذا التوصيف تقوية للتأكيد. لأن تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به، يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة إثباته وصحته. لما أن في حكم. الاستشهاد على الأمر. لا سيما إذا خص من الأوصاف ما له اختصاص بهذا المعنى. فإن قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها في الخفية، وأولها مسارعة إلى القلب، إذا قيل عالم الغيب ﴿ **لاَ يَعْزُبُ** ﴾ أي لا يغيب بضم الزاي وكسرها ﴿ **عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ أي فالجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء وإن تناهى في الصغر. فالعظام وأجزاء البدن، وإن تلاشت وتفرّقت وتمزّقت، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرّقت. ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، لسعة علمه وعظم قدرته، جلّ شأنه.

لطائف:

الأولى – عامة القرّاء على رفع ﴿ **أَصْغَرُ** ﴾ و﴿ **أَكْبَرُ** ﴾ وفيه وجهان:

أحدهما: الابتداء والخبر ﴿ **إِلاَّ فِي كِتَابٍ** ﴾ والثاني النسق على ﴿ **مثقال** ﴾. وعلى هذا فيكون قوله ﴿ **إِلاَّ فِي كِتَابٍ** ﴾ تأكيداً للنفي في ﴿ **لاَ يَعْزُبُ** ﴾ كأنه قال: لكنه في كتاب مبين. ويكون في محل الحال. وقرأ بعض السلف بفتح الراءين. وفيه وجهان: أحدهما – أن (لا) هي لا التبرئة. بني اسمها معها. والخبر قوله ﴿ **إِلاَّ فِي كِتَابٍ** ﴾. والثاني – النسق على ﴿ **ذَرَّةٍ** ﴾ لامتناعه من الصرف.

الثانية – يشير قوله تعالى ﴿ **وَلاَ أَصْغَرُ مِنَ ذَلِكَ** ﴾ إلى أن ﴿ **مِثْقَالَ** ﴾ لم يذكر للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب أيضاً.

الثالثة – قال الكرخيّ: فإن قيل فأيُّ حاجة إلى ذكر (الأكبر) فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد وأن يعلم الأكبر؟ فالجواب: لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات

الأمور في الكتاب، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت فيه الصغائر لكونها محل النسيان. وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته، فاعلم أن الإثبات في الكتاب ليس كذلك. فإن الأكبر مكتوب فيه أيضاً. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

﴿لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ علة لقوله تعالى ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وبيان لما يقتضي إتيانها من جزاء المحسن والمسيء ﴿أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي عيش هنيء في الآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

﴿والَّذِينَ سَعَوْا فِي ءاياتِنَا﴾ أي بالطعن فيها ونسبتها إلى السحر والشعر وغير ذلك. ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ أي مقدرين الغلبة والعجز في زعمهم الفاسد وظنهم الباطل ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وهو أسوأ العذاب و ﴿مِّن﴾ للبيان ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة (عذاب)، وبالجرّ صفة لـ (رجز) قراءتان. وقد جوّز في قوله ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾ أن يكون مبتدأ، وجملة ﴿أُوْلَئِكَ..﴾ الخ خبره وأن يعطف على ﴿الَّذِينَ﴾ قبله. أي ويجزي الذين سعوا. ويكون جملة ﴿أُوْلَئِكَ﴾ التي بعده مستأنفة، والتي قبله معترضة. وفي التعبير عن طعنهم وصدّهم بالسعي، تمثيل لحالهم. فإن المكذب آت بإخفاء آيات بينات، فيحتاج إلى السعي العظيم والجدّ البليغ، ليروّج كذبه لعله يعجز المتمسك به.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾

﴿وَيَرَى﴾ أي يعلم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي

﴿إلى صراط الْعَزيز الْحَميد﴾ أي دينه وشرعه **﴿وقَالَ الَّذين كَفَرُواْ﴾** أي من قريش **﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾** يعنون النبيّ ﷺ **﴿يُنَبِّئُكُمْ إذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾** أي فرقتم كل تفريق، بحيث صرتم تراباً ورفاتاً **﴿إنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾** أي فيما قاله **﴿أم به جِنَّةٌ﴾** أي جنون تخيل به ذلك. فرد تعالى عليهم ما نعى به سوء حالهم بقوله: **﴿بَلِ الَّذينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالْضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾** أي المتناهي أمره. فإن من يدعى إلى الصلاح والرشاد، ونبذ الهوى والفساد، فيرمي الداعي بالفرية والجنون، لَمُغْرِق في الجهالة. ومبعد أيّ بعد في الضلالة. ثم أشار إلى تهويل تلك العظيمة التي تفوهوا بها، وإنها موجبة لنزول أشد العذاب، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

﴿أفلَمْ يرَوْا إلى مَا بَيْنَ أيديهِمْ ومَا خَلفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ والأرْضِ إن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرْضَ أوْ نُسْقِطْ علَيْهِمِ كِسفاً مِّنَ السَّماءِ﴾ أي: أَعَمُوا فلم ينظروا إلى السماء. والأرض، وإنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم، محيطتان بهم، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت اللّه عز وجل، ولم يخافوا أن يخسف اللّه بهم أو يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات، وكفرهم بالرسول ﷺ وبما جاء به، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة، أفاده الزمخشريّ. و(الكسف) بسكون السين، بمعنى القطع، إما جمع كسفة، أو فعل بمعنى مفعول، أو مخفف من المصدر. وقرأ حفص (كسفاً) بالفتح **﴿إنَّ في ذَلكَ﴾** أي النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة اللّه **﴿لآيَةً﴾** أي دلالة واضحة **﴿لكُلّ عَبْدٍ مُّنيب﴾** أي راجع إلى ربه مطيع له. فإن شأنه لا يخلو من الاعتبار في آياته تعالى، على أنه قادر على كل شيء من البعث ونشر الرميم كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]. وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. ثم أخبر تعالى عما آتى داود وسليمان من الفضل والملك وسعة السلطان ووفرة الجند وكثرة العدد والعدد، ببركة إنابتهما وقيامهما بشكر الرب تعالى، عِدَةً للنبيّ ﷺ وأتباعه المنيبين الشاكرين بنيل مثل ذلك، وتذكيراً بقدرته على كل شيء، فقال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿**وَلَقَدْ ءاتَيْنا داوُدَ مِنّا فَضْلاً يا جِبالُ أوِّبي مَعَهُ**﴾ أي رجّعي معه التسبيح و﴿**يا جِبالُ**﴾ بدل من ﴿**فَضْلاً**﴾ أو من ﴿**ءاتَيْنا**﴾ بتقدير قولنا، أو قلنا يا جبال أوّبي معه ﴿**وَالطَّيْرَ**﴾ بالرفع والنصب، عطفاً على لفظ الجبال ومحلها. وجوز انتصابه مفعولاً معه وأن يعطف على ﴿**فَضْلاً**﴾ بمعنى وسخرنا له الطير. قال الزمخشري: فإن قلت أي فرق بين هذا النظم وبين أن يقال وآتينا داود منا فضلاً، تأويب الجبال معه والطير؟ قلت: كم بينهما! ألا ترى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى، من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الإلهية، حيث جعلت الجبال منزّلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا، إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت، إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته. انتهى. ﴿**وألَنّا لَهُ الْحَديدَ أنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ**﴾ أي دروعاً واسعات ﴿**وَقَدِّرْ في السَّرْدِ**﴾ أي اقتصد في نسج الدروع لتتناسب حلقها ﴿**واعْمَلُوا صالِحاً**﴾ أي وقلنا له ولأهله ذلك ﴿**إنّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصيرٌ**﴾ أي فأجازيكم به.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

﴿**ولِسُلَيْمانَ**﴾ أي وسخرنا له ﴿**الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ ورَواحُها شَهْرٌ**﴾ أي جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشيّ كذلك والريح الهواء المسخر بين السماء والأرض. ويطلق بمعنى النصرة والدلالة والغلبة والقوة، كما في القاموس ﴿**وَأسَلْنا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ**﴾ أي النحاس المذاب، أي أجرينا له ينبوعه لكثرة ما توفر لديه منه من سعة ملكه ﴿**وَمِنَ الْجِنِّ**﴾ أي الشياطين الأقوياء ﴿**مَن يَعْمَل بَيْنَ يَدَيْه**﴾ أي من رفيع المباني وإشادة القصور وغيرها ﴿**بِإذْنِ رَبِّه**﴾ أي بأمره تعالى: ﴿**وَمَن يَزِغْ**﴾ أي يعدل ﴿**مِنْهُمْ عَنْ أمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ**﴾ أي النار. ثم فصل ما ذكر من عملهم بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

﴿ **يَعْمَلُونَ لَهُ مَايَشَاءُ من مَّحَارِيبَ** ﴾ أي مساكن ومجالس شريفة أو مساجد ﴿ **وتَمَاثِيلَ** ﴾ أي صور ونقوش منوعة على الجدر والسقوف والأعمدة، جمع (تمثال) وهوكل ما صوّر على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان، ولم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرماً.

قال السيوطي في (الإكليل): قال ابن الفرس: احتجت به فرقة في جواز التصوير، وهو ممنوع فإنه منسوخ في شرعنا ﴿ **وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ** ﴾ أي وصحاف كالجوابي وهي الحياض الكبار. و(الجفان) جمع جفنة وهي كالصحفة والقصعة، ما يوضع فيه الطعام مطلقاً. وقيل الجفنة أعظم القصاع. ثم يليها القصعة وهي ما تشبع عشرة. ثم الصحفة وهي ما تشبع خمسة. ثم الميكلة وهي ما تشبع ثلاثة أو اثنين. ثم الصحيفة ﴿ **وقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ** ﴾ أي ثابتات على الأثافي، لا تنزل عنها لعظمها ﴿ **اعْمَلُوا ءالَ دَاوُدَ شُكْراً** ﴾ أي قيل لهم: اعملوا الله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه. وفيه إشارة إلى أن العمل حقه أن يكون للشكر لا للرجاء والخوف. كما أن فيه وجوب الشكر. وأنه يكون بالعمل ولا يختص باللسان. لأن حقيقته صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله. وداود عليه السلام قد يدخل هنا في (آله) فإن آل الرجل قد يعمه ﴿ **وقَلِيلٌ مِن عِبادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ أي المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه، أكثر أوقاته.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿١٤﴾

﴿ **فَلمَّا قَضَيْنا عَلَيْه** ﴾ أي على سليمان ﴿ **الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِه إلاَّ دَابَّةُ الأرْضِ** ﴾ وهي الأرضة ﴿ **تَأْكُلُ منسَأتَهُ** ﴾ أي عصاه التي ينسأ بها، أي يطرد ويؤخر ﴿ **فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغيبَ مَا لَبِثُواْ فِي العَذَابِ الْمُهِينِ** ﴾ أي الشديد من الجري على رسمه لهم، والدأب عليه، لظنهم إياه حيّاً.

ثم بين تعالى من أخبار بعض الكافرين بنعمه، إثر بيان أحوال الشاكرين لها، ما فيه عظة واعتبار، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ**﴾ اسم لأبي قبيلة. وقد قرئ بمنع الصرف على أنه اسم لها ﴿**فِي مَسْكَنِهِمْ**﴾ أي في مواضع سكناهم، وهي باليمن يقال لها (مأرب) كمنزل من بلاد الأزد، في آخر جبال حضرموت. وكانت في الزمن الأول قاعدة التبابعة، فإنها مدينة بلقيس، بينها وبين صنعاء نحو أربع مراحل. وقرئ ﴿مَسَاكِنِهِمْ﴾ ﴿**ءَايَةٌ**﴾ على قدرته تعالى ومجازاته المسيء ﴿**جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ**﴾ أي جماعتان من البساتين عن يمين بلدهم وشمالها. أو لكل واحد جنتان عن يمين مسكنه وشماله: قيل لهم ﴿**كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ**﴾ أي بصرف ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله. ثم بين ما يوجب الشكر المأمور به، بقوله سبحانه: ﴿**بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ**﴾ أي لطيفة جميلة مباركة لا عاهة فيها ﴿**وَرَبٌّ غَفُورٌ**﴾ أي لمن شكره.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

﴿**فَأَعْرَضُواْ**﴾ أي عن الشكر ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**﴾ أي سَيل الأمر العرم، أي الصعب والمطر الشديد - أو الوادي - أو السُّكْر الذي يحبس الماء - أو هو البناء الرصين المبنيّ بين الجبلين لحفظ ماء الأمطار وخزنها. وقد ترك فيه أثقاب على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم، فلما طغوا أهلكهم اللّه بخراب هذا البناء، فانهال عليهم تيار مائه، فأغرق بلادهم وأفسد عمرانهم وأرضهم. واضطر من نجا منهم للنزوح عنها. كما قال تعالى: ﴿**وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَي أُكُلٍ خَمْطٍ**﴾ أي ثمر مرّ، أو بشع لا يؤكل ﴿**وَأَثْلٍ**﴾ شجر يشبه الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له ﴿**وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ**﴾ وهو شجر النبق. أي قلة لا تسمن ولا تغني من جوع. فهذا تبديل النعم بالنقم. لمن لم يشكر النعم، كما قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ أي بشكر النعم، أو باتباع الرسل وتكذيب الحق والعدول إلى الباطل، ثم بين تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهنيّ والبلاد الآمنة والقرى المتواصلة، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي بالزروع والثمار وحسن العمران وهي قرى بصنعاء كما قاله مجاهد وسعيد بن جبير ومالك وغيرهم ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي متواصلة، يرى بعضها من بعض لتقاربها. فهي ظاهرة لأعين الناظرين. أو ظاهرة للمسافرين لا تبعد عن مسالكهم ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلنا بين قراها مقادير متساوية. فمن سار من قرية صباحاً وصل إلى أخرى وقت الظهيرة والقيلولة. ومن سار بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب، فلا يحتاج لحمل زاد ولا مبيت في أرض خالية، ولا يخاف من عدوّ ونحوه ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً ءَامِنِينَ﴾ أي لا تخافون في الليل أو النهار، أو وإن تطاول أمد سفركم فيها وامتد، فلا ترون إلا الأمن. والأمر على تقدير القول بلسان المقال بواسطة نبيّ ونحوه. أو بلسان الحال. كأنهم لما تمكنوا منه جعلوا مأمورين به. فالأمر للإباحة. وفي (في) إشعار بشدة القرب، حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

﴿فَقَالُوا﴾ أي بلسان الحال والميل إلى المهالك الشيطانية ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أي فاستعدوا لضلالهم وكفرهم لأن تجعل أمكنتهم تعمل فيها المطيّ والرواحل، لتباعد ما بينها وبين ما يسيرون إليه . وحصل ذلك بما بدلوا به من بلادهم الحسنة ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي حتى حل بهم ما حل ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي

يتحدث الناس بهم ويتعجبون من نبئهم وكيف مكر اللّه بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والعيش الهني ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي فرّقناهم كل تفريق، حتى اتخذه الناس مثلاً مضروباً. يقولون (تفرقوا أيادي سبا، وذهبوا أيدي سبا) بألف مقصورة. قال الأزهري: العرب لا تهمز سباً في هذا الموضع. لأنه كثر في كلامهم فاستثقلوا فيه الهمز. وإن كان أصله مهموزاً. والذهاب معلوم . والأيادي جمع أيد. والأيدي جمع يد. وهي بمعنى الجارحة،وبمعنى النعمة، وبمعنى الطريق، وهو المراد. قال في التهذيب: قولهم ذهبوا أيدي سبا، أي متفرقين. شبهوا بأهل سبأ لمامزقهم اللّه في الأرض كل ممزق. فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة. و(اليد) الطريق. يقال: أخذ القوم يد بحر.. فقيل للقوم إذا ذهبوا في جهات مختلفة (ذهبوا أيدي سبا) أي فرقتهم طرقهم التي سلكوها، كما تفرق أهل سبا في مذاهب شتى.

قال ابن مالك: إنه مركب تركيب خمسة عشر، مبنيّاً على السكون. وفي (زهر الأكم، في الأمثال والحكم) أن سبا كانت أخصب بلاد اللّه. كما قال تعالى: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ قيل كانت مسافة شهر للراكب المجدّ. يسير الماشي في الجنان من أولها إلى آخرها لا يفارقه الظل مع تدفق الماء وصفاء الأنهار واتساع الفضاء. فمكثوا مدة في أمن لا يعاندهم أحد إلا قصموه. وكانت في بدء الأمر تركبها السيول. فجمع لذلك حميرُ أهل مملكته وشاورهم. فاتخذوا سدّاً في بدء جريان الماء ورصفوه بالحجارة والحديد، وجعلوا فيه مخارق للماء . فإذا جاءت السيول انقسمت على وجه يعيمهم نفعه في الجنات والمزروعات. فلما كفروا نعم اللّه تعالى، ورأو أن ملكهم لا يبيده شيء، وعبدوا الشمس، سلط اللّه على سدّهم فأرة فخرقته. وأرسل عليهم السيل فمزقهم اللّه كل ممزق. وأباد خضراءهم. وتبددوا في البلاد. فلحق الأزد بعمان. وخزاعة ببطن مرّ. والأوس والخزرج بيثرب. وآل جفنة بأرض الشام. وآل جذيمة الأبرش بالعراق.

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس، أن رجلاً سأل رسول اللّه ﷺ عن سبأ ما هو ؟ أرجل أم امرأة؟ أم أرض؟ قال ﷺ: بل هو رجل ولد له عشرة. فسكن اليمن منهم ستة . وبالشام منهم أربعة. فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير . وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان. قال ابن كثير: وإسناده حسن إلا ابن لهيعة.

روى الإمام أحمد أيضاً عن فروة بن مسيك رضي اللّه عنه قال: أتيت رسول اللّه

ﷺ فقلت: يا رسول الله! أقاتل بمقبل قومي مدبرهم؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. فقاتل بمقبل قومك مدبرهم. فلما وليت دعاني فقال: لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام. فقلت: يارسول الله! أرأيت سبأ؟ أوادٍ هو أو جبل أو ما هو؟ قال ﷺ: لا، بل هو رجل من العرب ولد له عشرة. فتيامن ستة، وتشاءم أربعة. تيامن الأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار - الذين يقال لهم بجيلة - وخثعم. وتشاءم لخم وحذام وعاملة وغسان.

قال ابن كثير: حديث حسن. وإن كان فيه أبو حباب الكلبي، وقد تكلموا فيه.

ورواه الحافظ ابن عبد البرّ في كتاب (القصد والأمم بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم) عن تميم الداري؛ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ؟ فذكر مثله.

وقال ابن كثير: فقوي هذا الحديث وحسن.

وذكر علماء النسب، منهم محمد بن إسحاق اسم سبأ، عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب وكان يقال له الرائش. لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه. فسمي الرائش. والعرب تسمي المال ريشاً ورياشاً. وذكروا أنه بشّر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدّم. وقال في ذلك شعراً.

سيملكُ بعدنا مَلِكٌ عظيمٌ ... نبيٌّ لا يرخِّص في الحرامِ
ويملك بعده منهم ملوكٌ ... يدينوه القيادَ بكل رامي
ويملك بعدهم منا ملوك ... يصير الملك فينا بانقسامِ
ويملك بعد قحطان نبيٌّ ... تقي مُتَحَنَّثٌ خيرُ الأنامِ
يسمّى أحمداً. يا ليت أني ... أعمّر بعد مبعثه بعامِ
فأعضده وأحبوه بنصري ... بكل مُدَجَّج وبكل رام
متى يظهرْ فكونوا ناصريه ... ومن يَلْقَهْ يبلِّغْهُ سلامي

ذكر ذلك الهمداني في كتاب (الإكليل). واختلفوا في قحطان. فقيل: إنه من سلالة إرم بن سام بن نوح. وقيل: من سلالة عابر وهو هود عليه السلام. وقيل: إنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام. وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ النمري في كتاب (الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواه).

قال ابن كثير: ومعنى قوله ﷺ في سبأ: كان رجلاً من العرب، يعني العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث. كان من سلالة الخليل عليه السلام، وليس هذا بالمشهور عندهم. والله أعلم.

ولكن في صحيح البخاري [١] أن رسول الله ﷺ مرّ بنفرٍ من أسلم ينتضلون فقال: ارموا، بني إسماعيل! فإن أباكم كان رامياً. وأسلم قبيلة من الأنصار. والأنصار أوسها وخزرجها من عرب اليمن. من سبأ، نزلت يثرب، لما تفرقت، كما مر.

(ثم قال): ومعنى قوله ﷺ: ولد له عشرة أي كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن. لا أنهم ولدوا من صلبه. بل منهم من بينه وبينه، الأبوان والثلاثة، والأقل والأكثر. كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصتهم، وما حل بهم من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي لعبراً عظيمة ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي شأنه الصبر عن الشهوات والهوى والآثام، والشكر على النعم. قال الأعشى من قصيدة:

ففي ذاكَ للمؤتسي أسْوَةٌ ... وَمَأْرِبُ عَفَّى عليها العَرِمْ
رُخامٌ بنته لهم حِمْيَرٌ ... إذا جاء مواره لم يَرِمْ
فأروى الزروعَ وأعنابَها ... على سَعَةٍ ماؤهم إذ قُسِمْ
فصاروا أيادِيَ ما يقدرو ... ن منه على شُرْبِ طِفْلٍ فُطِمْ

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قال الزمخشري: قرئ (صدق) بالتشديد والتخفيف. ورفع لفظ (إبليس) ونصب (الظن) فمن شدد، فعلى: (حقق عليهم ظنه، ووجده ظنه صادقاً) أي صدّق بمعنى حقق مجازاً. لأنه ظن شيئاً فوقع فحققه.

---

(١) أخرجه في: الجهاد، ٧٨- باب التحريض على الرمي، حديث رقم ١٣٨٧، عن سلمة بن الأكوع.

وقوله (أووجده ظنه صادقاً) فإن العرب تقول صدَّقك ظنك. والمعنى أن إبليس كان يسوّل له ظنه شيئاً فيهم. فلما وقع جعل كأنه صدقه. شهاب.

ومن خفف فعلى (صدق في ظنه، أو صدق يظن ظناً) نحو فعلته جهدك. أي فـ(ظنه) منصوب على الظرفية بنزع الخافض. وأصله (في ظنه) أي وجد ظنه مصيباً في الواقع، فـ(صدق) حينئذ بمعنى أصاب، مجازاً. أو منصوب على أنه مصدر لفعل مقدّر. كفعلته جهدك، أي وأنت تجهد جهدك. فالمصدر وعامله في موقع الحال. شهاب.

وبنصب (إبليس) ورفع (الظن) فمن شدد فعلى (وجد ظنه صادقاً). ومن خفف، فعلى (قال له ظنه الصدقَ حينَ خيله إغواؤهم) برفع (إغواؤهم) على الفاعلية. أو نصبه على الحذف والإيصال، وفاعليه وضمير الظن. أي خيل له إغواءهم. شهاب. يقولون صدقك ظنك.

وبالتخفيف ورفعهما، أي على إبدال الظن من إبليس، بدل اشتمال. شهاب. على (صدق عليهم ظن إبليس). انتهى.

وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى انهماكهم في الشهوات، أو ببني آدم حينما رأى ما ركب فيهم من الشهوة والغضب.

﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي ما كان له عليهم من تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء، إلا لغرض صحيح وحكمة بينة. وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاكّ فيها. وعلل التسليط بالعلم. والمراد ما تعلق به العلم. قاله الزمخشري. يعني أن العلم المستقبَل المعلل به هنا، ليس هو العلم الأزلي القائم بالذات المقدس. بل تعلقه بالمعلوم في عالم الشهادة الذي يترتب عليه الجزاء بالثواب والعقاب. فالمعنى ما سلطناه عليهم إلا ليبرز من كمون الغيب ما علمناه، فتظهر الحكمة فيه يتحقق ما أردناه من الجزاء أو لازمه، وهو ظهور المعلوم.

ويجوز أن يكون المعنى: لنجزي على الإيمان وضده. كذا في (العناية) **﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾** أي رقيب قائم على أحواله وأموره.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

﴿قُلِ﴾ أي للمشركين، إظهاراً لبطلان ماهم عليه وتبكيتاً لهم ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي زعمتموهم آلهة ﴿مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي من خير وشر ونفع وضر ﴿فِي السَّموَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي شركة، لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ﴾ أي معين يعينه على تدبير خلقه، قال الزمخشري: يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية. فكيف يصح أن يُدْعَوا كما يدعى، ويرجَوْا كما يرجى؟

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي من المستأهلين لمقام الشفاعة. كالنبيين والملائكة. وهذا تكذيب لقولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم، بكلمة يتكلم بها رب العزة، في إطلاق الإذن، تباشروا بذلك ﴿قَالُوا﴾ أي سائلاً بعضهم بعضاً ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ الْحَقَّ﴾ أي قال القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي ذو العلوّ والكبرياء. ليس لملك ولا نبيّ أن يتكلم إلا بإذنه، وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

قال ابن كثير: هذا أيضاً مقام رفيع في العظمة. وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي. فسمع أهل السموات كلامه، أرعدوا من الهيبة، حتى يلحقهم مثل الغشي. قاله ابن مسعود رضي الله عنه ومسروق وغيرهما.

قال الزمخشري: فإن قلت: بم اتصل قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ ولأي شيء وقعت (حتى) غاية؟ قلت: بمافهم من هذا الكلام، من أن ثم انتظاراً للإذن وتوقعاً وتمهلاً وفزعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء، هل يؤذن لهم أو لا يؤذن وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد مليّ من الزمان وطول من التربص. ومثل هذه الحال دل عليه قوله عزّ وجلّ ﴿رَبِّ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ [النبأ: ٣٧- ٣٨]. أي: وإذا كانت الشفاعة لمن أذن له بهذا الحال، عظمة وسمواً من ذي الجلال، فأنّى ينالها جماد لا يعقل، لا سيما وهو عدوّ للكبير المتعال، فتبين

كذبهم فيهم أنهم شفعاء، وحرمانهم من مقامها، بأجلى بيان وأفصح مقال.

وفي الآية تأويل آخر، وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي عن قلوب المشركين عند الاحتضار، ويوم القيامة إذا تنبهوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة، قالوا ماذا قال ربكم؟ فقيل لهم الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا. قال مجاهد: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي كشف عنها الغطاء يوم القيامة. وقال الحسن: أي كشف عما فيها من الشك والتكذيب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا عند الموت، أقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار. واختار ابن جرير[1] القول الأول، وهو أن الضمير عائد إلى الملائكة.

قال ابن كثير: وهذا هو الحق الذي لامرية فيه. لصحة الأحاديث فيه والآثار، أي ولورود ما يؤيده في آية أخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِنْ خَشْيَتِه مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨]، نعم، النظم الكريم لا يأبى ما ذكروه، إلا أن مراعاة الأشباه والنظائر هو العمدة في باب فهم التأويل، ما وجد إليها سبيل.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَوات وَالأَرْض﴾ أمر بتبكيت المشركين بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي الذي تعترفون بأنه هو الخالق. كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]. أي فحينئذ قامت الحجة عليهم منهم.

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُم لَعَلَى هدىً أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِين﴾ أي وإن أحد الفريقين من الموحدين، الرازق من السموات والأرض بالعبادة، ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة على ذرة، لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال.

قال الزمخشري: وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من مُوالٍ أو منافٍ قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك. وفي دَرْجِه بعد تقدمة ما قدم من

التقرير البليغ، دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أفضل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وقل شوكته بالهوينا، ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم اللّه الصادق مني ومنك، وإن أحدنا لكاذب.

ومنه بيت حسان:

اتهجوه ولستَ له بكفء فشرُّكما لِخَيْرِكُما الفِداءُ

انتهى.

قال الناصر: وهذا تفسير مهذب وافتنان مستعذب، رددته على سمعي فزاد رونقاً بالترديد. واستعاده الخاطر، كأني بطيء الفهم حين يفيد، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاطيها متأخرو الفقهاء في مجادلاتهم ومحاوراتهم. وذلك قولهم: أحد الأمرين لازم على الإبهام. فهذ المسلك من هذا الوادي غير بعيد، فتأمله، واللّه الموفق. انتهى.

قال الشهاب: وهذا فن من فنون البلاغة يسمى (الكلام المنصف). وقيل إن الآية على اللف والنشر المرتب. ونظر فيه بأنه لو قصد اللف بأن يكون على هدى راجعاً لقوله: ﴿وَإِنَّآ﴾ و﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ﴾ راجعاً لـ ﴿إِيَّاكُمْ﴾ كان العطف بالواو لا بأو. وكونها بمعنى الواو كما في قوله:

سِيّانِ كسرُ رَغِيفِهِ أو كسرُ عَظْمٍ من عِظَامِهْ

بعيد جداً. إلاّ أنه قيل: لو جعل فيه إيماء لذلك لم يبعد. وإيثار (على) في الهدى و(في) في مقابله، للدلالة على استعلاء صاحب الهدى وتمكنه واطلاعه على ما يريد، كالواقف على مكان عال، أو الراكب على جواد. وانغماس الضال في ضلاله حتى كأنه في مهواة مظلمة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين: لا تُسْأَلُونَ عما أجرمنا من جرم وركبنا من إثم، ولا نُسْأَلُ نحن عما تعملون من عمل.

قال ابن كثير: معناه التبري منهم. أي لستم منا ولا نحن منكم. بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده ، وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم وإن كذبتم فنحن براء منكم وأنتم براء منا. كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُل لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١]. وقوله: ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون: ١-٣]. انتهى.

وما ذكره معنى دقيق، قلَّ من يتفطن له، أسميه التفسير بالأشباه والنظائر. وهو حمل آية موجزة أو مجملة على آية تشبهها مطولة أو مبينة، ولا يدرك هذا إلا الراسخ في فن التأويل، الولع بتدبر التنزيل، ومن لطائف الآية ما ذكره الزمخشري والمنتصف، من أن هذا القول أدخل في الإنصاف من الأول. حيث أسند الإجرام إلى النفس، وأراد به الزلات والصغائر التي لا يخلو عنها مؤمن، وأسند العمل إلى المخاطبين، وأراد به الكفر والمعاصي والكبائر. فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم. وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات، التزاماً للإنصاف. وزيادة على ذلك، أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي، الذي يعطي تحقيق المعنى. وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطي ذلك. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦)

﴿ **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا** ﴾ أي يوم القيامة في صعيد واحد. ﴿ **ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ** ﴾ أي يقضي بالعدل. لأن أحد فريقينا على هدى والآخر على ضلال. فيتبين يومئذ المهتدي منا من الضالّ، ويجزى كلاً بعمله ، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم: ١٤-١٦]. ولهذا قال سبحانه: ﴿ **وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ** ﴾ أي الحاكم العادل العليم بالقضاء بين خلقه ،لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يحتاج إلى شهود تعرّفه المحق من المبطل.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

﴿ **قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَآءَ** ﴾ أي جعلتموها لله أنداداً، وصيرتموها له

عدلاً، قال أبو السعود: أريد بأمرهم بإراءة الأصنام، مع كونها بمرأى منه ﷺ. إظهار خطئهم العظيم وإطلاعهم على بطلان رأيهم. اي أرونيها لأنظر بأي صفة ألحقتموها بالله الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة. وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجة عليهم. وقد جوّز المعربُ في (رأى) هنا أن تكون علمية متعدية بهمزة النقل. إلى ثلاثة مفاعيل: ياء المتكلم والموصول وشركاء. وعائد الموصول محذوف. أي ألحقتموهم. وأن تكون بصرية تعدت بالنقل لاثنين: ياء المتكلم والموصول، و(شركاء) حال. ولا ضعف في هذا كما قاله ابن عطية. بل فيه توبيخ لهم، إذ لم يرد حقيقته. لأنه كان يراهم ويعلمهم. فهو مجاز وتمثيل. والمعنى: ما زعمتموه شريكاً إذا برز للعيون وهو خشب وحجر، تمت فضيحتكم. وقوله تعالى: ﴿كَلاَّ﴾ ردع لهم عن المشاركة، بعد إبطال المقايسة ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الموصوف بالغلبة القاهرة والحكمة الباهرة. فأين شركاؤكم التي هي أخسّ الأشياء وأذلها، من هذه الرتبة العالية. والضمير إما لله عزَّ وعلا، أو للشأن. قاله أبو السعود.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي وما أرسلناك إلا إرسالة عامة لجميع الخلائق من المكلفين. تبشر من أطاعك بالجنة، وتنذر من عصاك بالنار، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّه إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ﴿تَبَارَكَ الَّذي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١].

﴿وَلَكِنَ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فيحملهم جهلهم على ماهم فيه من الغيّ والضلال كقوله عز وجلّ ﴿وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأَرْضِ يُضِلُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. قال ابن عباس – فيمارواه ابن أبي حاتم – إن الله تعالى فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء. قالوا: يا ابن عباس ! فَبِمَ فضله الله على الأنبياء؟ قال رضي الله عنه: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنَ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]،، وقال للنبيّ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِلنَّاسِ﴾. فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس.

قال ابن كثير: وهذا الذي قاله ابن عباس رضي اللّه عنهما قد ثبت في الصحيحين. رفعه عن جابر رضي اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ[١]: أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ. وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي. وأعطيت الشفاعة. وكان النبيّ يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة، وفي الصحيح أيضاً[٢] أن رسول اللّه ﷺ قال: بعثت إلى الأسود والأحمر، قال مجاهد: يعني الجن والإنس. وقال غيره: يعني العرب والعجم. والتحقيق في معنى عموم إرساله وشمول بعثته، هو مجيئه بشرع ينطبق على مصالح الناس وحاجاتهم أينما كانوا. وأي زمان وجدوا، مما لم يتفق في شرع قبله قط. ولهذا ختمت النبوّات بنبوّته ﷺ، كما تقرر في موضعه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُل لَّكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ يعنون بالوعد المنذر به استهزاء، كقوله تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨] وقوله ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٤-١٠٥].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْءَانِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وهو ما نزل قبل

---

(١) أخرجه البخاري في: التيمم، ١- باب قول اللّه تعالى ﴿ فلم تجدوا ماء فتيمموا ﴾، حديث رقم ٢٣١، عن جابر بن عبد اللّه.

(٢) أخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٣ عن جابر بن عبد اللّه.

القرآن من كتبه تعالى ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ** ﴾ أي يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعون بينهم. ثم أبدل من ﴿ **يَرْجِعُ** ﴾ قوله ﴿ **يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ** ﴾ وهم الأتباع ﴿ **لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ** ﴾ وهم قادتهم وسادتهم ﴿ **لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ** ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾

﴿ **قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ** ﴾ أي نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختيارتكم لذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** ﴾ أي مكركم فيهما وإغراؤكم وتمنيتكم لنا ﴿ **إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً** ﴾ أي نظراء وآلهة معه. ﴿ **وَأَسَرُّواْ** ﴾ أي الجميع من السادة والأتباع ﴿ **النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ **هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ أي بأعمالهم كلٌّ بحسبه. للقادة عذاب بحسبهم. وللأتباع بحسبهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾

﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴾ أي زعماً أنه أكرمهم الله بذلك في الدنيا، فلا

يعذبهم في الآخرة على تقدير وقوعها. وتوهماً بأنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم. ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم. وقد أبطل الله تعالى حسبانهم ذلك بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)

﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ أي يضيق عليه حسب ما اقتضته حكمته ومشيئته في عباده، من يحب ومن لا يحب، وهو أعلم بمقتضياته وشؤونه. فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب، اللذين مناطهما الطاعة وعدمها. ولذا قال ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ ذلك. فيزعمون أن مدار البسط الكرامة، والتضييق الهوان. ويجهلون أن مناط الفوز والقرب منه تعالى، إنما هو الكمالات النفسية، وذلك بصدق الإيمان وحسن الاتباع. كما قال:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)

﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى** ﴾ أي بالمزية التي تقربكم قربة. فـ ﴿ **زُلْفَى** ﴾ محلها النصب ﴿ **إِلاَّ مَنْ ءامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ** ﴾ أي الثواب المضاعف ﴿ **بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءامِنُونَ** ﴾ أي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون. ومن نظائر الآية قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦]، وقوله سبحانه: ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة:٥٥]. وروى الإمام أحمد[١] ومسلم[٢] عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

---

(١) أخرجه في المسند ٢/٢٨٥.

(٢) أخرجه في: البر والصلة والآداب، حديث رقم ٣٤.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿**وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى ءَايَاتِنَا**﴾ أي بالصدّ عنها والطعن فيها ﴿**مُعَاجِزِينَ**﴾ أي قاصدين المعاجزة والمغالبة والقهر ﴿**أولئك في الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ**﴾ أي في عذاب جهنم محضرون يوم القيامة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

﴿**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، وَمَآ أنفقتُم مِن شَيءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**﴾ أي يعوضه، فإن ينابيع خزائنه لا تنضب. وسحائب أرزاقه سحَّاء الليل والنهار ﴿**وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ أي أعلاهم. لأنه خالق الرزق وخالق الأسباب التي ينتفع بها المرزوق بالرزق. روى أبو يعلى عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: الا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض. يعض الموسر على ما في يده حذار الإنفاق.

ثم تلا هذه الآية ﴿**وَمَآ أنفقتُم مِن شَيءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ وقال مجاهد: لا يتأولنّ أحدكم هذه الآية ﴿**وَمَآ أَنفَقْتُمْ مِن شَيءٍ فَهُو يُخْلِفُهُ**﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جميعاً ثُمَّ يقُولُ لِلمَلائكة أهؤلآء إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُون قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِن دُونِهِم بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مؤمنُونَ**﴾ قال الزمخشري: هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار، وارد على المثل السائر (إياك أعني واسمعي يا جارة) ونحوه قوله تعالى: ﴿ءأنتَ قُلتَ للنَّاسِ اتَّخِذُوني وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦]، وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزّهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير. والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل

ويجيبوا، فيكون تقريعهم أشد، وتعييرهم أبلغ، وخجلهم أعظم، وهوانهم ألزم. ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه، وزاجراً لمن اقتص عليه. انتهى.

وتخصيص الملائكة، لأنهم أشرف الأنداد عند مشركي العرب، ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله، لزعمهم أن الأوثان على صور الهياكل العلوية المقربة. فتكون شفعاء لهم. وقوله تعالى: ﴿ أَهَؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ أي: أبإذنكم كان ذلك. كما قال تعالى: ﴿ أءنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادي هؤُلآءِ أمْ هُمْ ضلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: ١٧]. وكما يقول تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ ءأنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخذُوني وأمِّي إلهَيْنِ من دُونِ اللَّه قالَ سُبْحَانَكَ ﴾ [المائدة: ١١٦]، وهكذا تقول الملائكة ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أي تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿ أنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أي أنت الذي نواليه من دونهم، إذ لا موالاة بيننا وبينهم. فنبرء إليك منهم. بينوا بإثبات موالاة اللَّه ومعاداة الكفار، براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم. وقولهم ﴿ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ أي الشياطين، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم. والضمير الأول في قولهم ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ للإنس أو للمشركين. والأكثر بمعنى الكل. والثاني للجن.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

﴿ فَالْيَوْمَ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾ أي لأن الأمر كله فيه للَّه. لأن الدار دار جزاء وهو المجازي وحده. قال أبو السعود: وهذا من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزّه والتبرؤ عما نسب إليهم الكفرة. يخاطبون بذلك على رؤوس الأشهاد، إظهاراً لعجزهم وقصورهم عند عبدتهم، وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ثم بين جملة أخرى من كفرانهم بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم ءَايَاتُنَا بَيِّنَات قَالُوا مَا هَذَا﴾ يعنون رسول الله ﷺ ﴿إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا﴾ أي القرآن الكريم ﴿إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرىً، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾

﴿وَمَا ءَاتَيْنَاهُم مِن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا. فلما منّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه. ثم هددهم سبحانه بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من الأمم المتقدمة والقرون الخالية كما كذبوا ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾ أي هؤلاء ﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ يعني أولئك، من المال وبسطة الملك والعمران والمدينة ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي عقابي ونكالي وانتقامي.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا

بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحدة أن تَقُومُوا للَّه﴾ أي بخصلة واحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وقد فسرها بقوله ﴿أن تَقُومُوا للَّه مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ أي قياماً خالصاً للّه بلا محاباة. ولا مراءاة، اثنين اثنين وواحداً واحداً ﴿ثُمَّ تَتَفكَّرُوا﴾ أي في أمره ﷺ وما جاء به من الهدى والإصلاح وتهذيب الأخلاق. ورفع النفس عن عبادة ما هو أحط منها من الأوثان، إلى عبادة فاطر الأرض والسموات، واتباع الأحسن، ونبذ التقاليد، وإنزال الرؤساء إلى مصاف المرؤوسين رغبة في الإخاء والمساواة، إلى غير ذلك من محاسن الإسلام وخصائصه المعروفة في الكتب المؤلفة في ذلك. وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي جنون. مستأنف منبّه لهم على أن ما عرفوه من رجاحة عقله كاف في

ترجح صدقه. فإنه لا يدعه أن يتصدى لادعاء أمر خطير وخطب عظيم من غير تحقق وثوق ببرهان. فيفتضح على رؤوس الأشهاد، ويلقي نفسه إلى الهلاك. فكيف وقد انضم إليه معجزات كثيرة؟ وجوّز كون الجملة معلقاً عنها. لقول ابن مالك: إنّ (تفكر) يعلّق حملاً على أفعال القلوب. والتعبير عنه ﷺ بـ (صاحبهم)، للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم، لأنه نشأ بين أظهرهم معروفاً بقوة العقل ورزانة الحلم وسداد القول والفعل. ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهوعذاب الآخرة والمآل.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي أيّ شيء سألتكم من أجر على الرسالة فهو لكم. والمراد نفي السؤال رأساً . وإمحاض النصح كناية، لأن ما يسأله السائل، يكون له. فجعله للمسؤول عنه، كناية عن أنه لا يسأل أصلاً. و(ما) على هذا شرطية . وجوز كونها موصولة مراد بها ماسألهم ﴿مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْه مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّه سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٥٧]. وقوله :﴿قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْه أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]. واتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى، وقرباه عليه السلام قرباهم. وجوّز أيضاً كونها نافية. وقوله ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ جواب شرط مقدر. أي فإذا لم أسألكم فهو لكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّه وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي يرمي به الباطل فيدمغه ويزهقه. أو يرمي به في أقطار الآفاق، فيكون وعداً بإظهار الإسلام وإعلاء كلمة الحق ﴿عَلاَّمُ الْغُيُوب قُلْ جَآءَ الْحَقُّ﴾ أي ظهر، وهو الإسلام ومحاسنه ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره. مأخوذ من هلاك الحيّ. فإنه مادام موجوداً، إما أن يبدئ فعلا أو يعيده، فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة. ثم شاع في كل ماذهب، وإن لم يبق له أثر، وإن يكن ذا روح. وجوز كون (ما) استفهامية منتصبة بما بعده. أي: أي شيء يقدر عليه.

تنبيه:

في (الإكليل): في الآية استحباب هذا القول عند إزالة المنكر.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ أي عن الطريق الحق ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ أي لأن وبال ذلك عائد عليها، أو على ذاتي، لاعلى غيري ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِليَّ رَبِّي﴾ أي من الرشاد والحق المبين ﴿إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ فإن قيل: مقتضى المقابلة مع الجملة قبلها، أن يقال (وإن اهتديت فإنما أهتدي لها) فلم عدل عنها إلى ما ذكر؟ قيل: إن المقابلة تكون باللفظ وتكون بالمعنى. وما هنا من الثاني. بيانه أن النفس كل ما عليها فهو بها، أي: كل ماهو وبال عليها، وضارّ لها، فهو بسببها، ومنها، لأنها الأمارة بالسوء. وكل ما هو لها مما ينفعها، فبهداية ربها وتوفيقه إياها.

وهذا حكم عام لكل مكلف. وإنما أمر رسول الله ﷺ أن يسند ذلك إلى نفسه. لأن (الرسول) إذا دخل في عمومه، مع علّو محله وسداد طريقته، كان غيره أولى به. أشار لهذا، الفاضل ابن الأثير في (المثل السائر).

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُواْ﴾ أي هؤلاء المكذبون عند الموت أو البعث أو ظهور الحق وسلطانه، ودخولهم تحت أسرة ﴿فَلاَ فَوْتَ﴾ أي لهم، بهرب أو التجاء. إذ لا وزر لهم ولا ملجا ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا. أو من الموقف إلى النار إذا بعثوا. أو ظفر بهم بسهولة بعد تعذره.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

﴿وَقَالُوا ءامَنَّا بِه﴾ أي بمحمد ﷺ، أو القرآن ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ومن أين لهم تناول الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، لأنهم صاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء، لا دار الابتلاء، أو: لأنهم آمنوا بلسانهم ولم يدخل الإيمان قلوبهم، أي (على تفسير ﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾ بظهور الحق عليهم في حياتهم. منه) قال الزمخشريّ: التناوش والتناول، أخوان. إلا أن التناوش، تناول سهل لشيءٍ قريب،

يقال: ناشه ينوشه، وتناوشه القوم.ويقال تناوشوا في الحرب. ناش بعضهم بعضاً. وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون. وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا. مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة، كما يتناوله الآخر من قيس ذراع، تناولاً سهلا لا تعب فيه. انتهى. أي ففيه استعارة تمثيلية. شبه إيمانهم حيث لا يقبل، بمن كان عنده شيء يمكن أخذه،فلما بعد عنه فرسخاً، مد يده لتناوله. وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

﴿**وقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ**﴾ حال أو معطوف أو مستأنف. والأول أقرب. ﴿**وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ أي يرجمون بالظن فيتكلمون بما لم ينشأ عن تحقيق من أقوالهم الباطلة. كقولهم: ساحر وشاعر ومجنون وما نحن بمبعوثين. ونحو ذلك. فكله مقذوف من جهة بعيدة، لا قرب لمصداقها بوجه ما.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

﴿**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**﴾ أي من نفع الإيمان يومئذ، والنجاة به من النار. أو من أن يدال لهم الأمر. لأنه جاء نصر الله والفتح ﴿**كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِن قَبْلُ**﴾ أي بأشباههم من كفرة الأمم ﴿**إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُرِيبٍ**﴾ من (أرابه) أوقعه في ريبة وتهمة. فالهمزة للتعدية. أو من (أراب الرجل) أي صار ذا ريبة. وهو مجاز، إما بتشبيه الشك بإنسان، على أنه استعارة مكنية وتخييلية . أو على أنه إسناد مجازيّ، أسند فيه ما لصاحب الشك، للشك، للمبالغة. أفاده الشهاب.

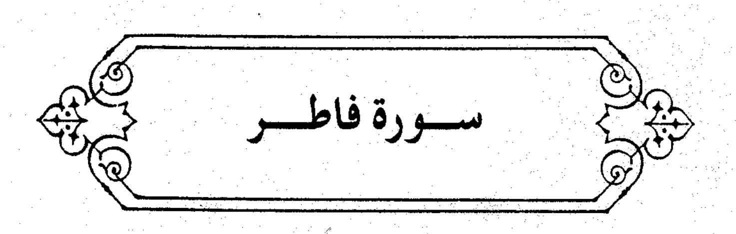
تنبيه:

في الإكليل؛ قال ابن الفرس: احتج بهذه الآية بعض المفسرين، على أن الشاك كافر. وردَّ بها على من زعم أنه ليس بكافر، وأن الله لا يعذب على الشك. انتهى.

وعن قتادة: إياكم والشك والريبة. فإن من مات على شك بُعث عليه. ومن مات على يقين بعث عليه .

أحيانا الله وبعثنا على اليقين. إنه أرحم الراحمين. ووليّ المؤمنين.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة فاطر

سميت بذلك لما جاء فيها من خلق الملائكة، وجعلهم ذوي أجنحة متنوعة في العدد، الدالّ على عجيب صنعه تعالى وباهر قدرته.

وقال المهايميّ: سميت بها لاشتمالها على بيان تفصيل رسالتهم، من جهة أخذهم الفيض عن اللّه، وإيصاله إلى خلقه، من جهة أو جهتين أو ثلاث أو أكثر. ليشعر أن الرسالة العامة لهم، إذا كانت كذلك، فكيف الرسالة الخاصة؟ مثل إنزال القرآن. فيجوز أن يكون له جهات كثيرة.

وقد روي أنه كان لجبريل ستمائة جناح. انتهى.

وتسمى هذه السورة سورة (فاطر) لذكر هذا الاسم الجليل والنعت الجميل في طليعتها. وهذه السورة ختام السور المفتتحة بالحمد، التي فصلت فيها النعم الأربع،التي هي مجامع النعم. لأن نعم اللّه تعالى قسمان: عاجلة وآجلة. والعاجلة وجود وبقاء، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى. كما بينه الرّازي.

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) ﴾

﴿ **الْحَمْدُ لِلَّه فَاطِرِ السَّمٰوات وَالأَرْضِ** ﴾ أي مبتدئها ومبدعها من غير سبق مثل ومادة ﴿ **جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ** ﴾ أي ذوي أجنحة متعددة متفاوتة في العدد، حسب تفاوت ما لهم من المراتب. ينزولون بها ويعرجون أو يسرعون بها. وفي الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة أسري به، وله ستمائة جناح. ولهذا قال سبحانه ﴿ **يَزِيدُ في الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ** ﴾ أي يزيد في خلق الأجنحة وغيره ما يشاء. مما تقتضيه حكمته: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ** ﴾ أي نعمة سماوية كانت أو أرضية ﴿ **فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا** ﴾ أي لا أحد يقدر على إمساكها ﴿ **وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِه** ﴾. أي من بعد إمساكه ﴿ **وَهُوَ الْعَزِيزُ** ﴾ الغالب على كل ما يشاء ﴿ **الْحَكِيمُ** ﴾ أي في أمره وصنعه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ** ﴾ أي لتستدلوا بها على وحدته في الوهيته. لأنه المنفرد بإرسالها وحده. ولا يصح لمن انفرد بالإنعام أن يشرك معه غيره. لأنه كفران له موجب لغضبه. وهذا ماأشار له بقوله تعالى: ﴿ **هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ**

(١) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، ٧- باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء، حديث ١٥٢٦، عن ابن مسعود.

اللّه يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَآء وَالأَرْضِ﴾ أي المطر والنبات **﴿لاَ إله إلاَّ هُوَ فَأنَّى تُؤْفَكُونَ﴾** أي تصرفون عن التوحيد الواجب – لأنه مقتضى شكر المنعم – إلى الشرك والكفر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبلِكَ وَإِلى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ فيجازي المكذب وشيعته بالخزي وظهور الحق عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾

﴿يَا أيُّهَا النَّاسُ إنَّ وَعْدَ اللّه حَقٌّ﴾ أي ما وعد به من جزائه بالثواب إن صدقتم في الاتّباع. وبالعقاب. إن عصيتم **﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنيا﴾** أي بأن يذهلكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها، عن العمل للآخرة وطلب ما عند اللّه **﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُم باللّهِ الْغَرُورُ﴾** أي الشيطان. وقرئ بالضم.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾

﴿إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي باتباع الهوى والركون إلى الدنيا.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

﴿الذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ، وَالذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبيرٌ أفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرءاهُ حَسَناً﴾ أي: فمن حسن له عمله السيء، بأن غلب هواه على عقله، حتى انتكس رأيه فرأى الباطل حقاً والتقبيح حسناً، كمن لم يزين له، بل هدى فعرف الحق وميز الحسن من السيء؟ فحذف الجواب لدلالة قوله:

﴿فإنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ أي إلى الإيمان واتباع الحق. وجوّز

أن يكون تقديره: أفمن زين له سوء عمله، ذهبت نفسك عليهم حسرة، بقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ أي فلا تهلك نفسك حزناً على ضلالهم وعدم اتباعهم لك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي فيجازيهم عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾

﴿واللَّهُ الَّذي أرسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها، كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ أي مثل إحياء الموات، إحياء الأموات. وكثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، ليعتبر المرتاب في هذا. فإنه من أظهر الآيات وأوضحها.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ أي الشرف والرفعة ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ أي فليطلبها من عنده، باتباع شريعته، وموالاة أنبيائه ورسله والتأسي بهم في الصلاح والإصلاح، والصبر والثبات، واطّراح كل ملامة رغبة في الحق وعملاً بالصدق. وهذا كآية ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٣٩]. وكآية ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وهو الداعي إلى الحق والإصلاح، والمنبه على سبل الضلال والفساد ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي يرفع الكلمُ العمل الصالح، على أن يكون المستكن للكلم. إشارة إلى أن العمل لا يقبل إلا بالكلم المؤثر في إبلاغ دعوة الخير. والضمير المستتر للعمل. والبارز للكلم. أي يكون العمل الصالح موجباً لرفعها وقبولها لأنه يحققها ويصدقها، كما قال تعالى عن شعيب عليه السلام ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ، إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي الأعمال السيئة المفسدة لصلاح الأمة وقيام عمرانها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي يضمحلّ. لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)

﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً**﴾ أي ذكراناً وإناثاً. لطفاً منه ورحمة ﴿**وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ**﴾ أي من أحد. وإنما سمي معمراً لما يؤول إليه. أي وما يمدّ في عمر أحد ﴿**وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ**﴾ وهو علمه تعالى الذي سبق. ببلوغ أصله إليه ﴿**إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ أي: الحفظ والزيادة أو النقص، سهل. لشمول علمه وعموم قدرته.

لطيفة:

الضمير في (عمره) للمعمر قبله. باعتبار الأصل المحوّل عنه. لأن الأصل (وما يعمر من أحد) كما ذكرنا. أو هو على التسامح المعروف فيه، ثقة في تأويله بأفهام السامعين: كقولهم (له عليّ درهم ونصفه) أي نصف درهم آخر. أو للمنقوص من عمره لا للمعمر، كما في الوجه السابق، وهو وإن لم يصرح به في حكم المذكور، كما قيل (وبضدها تتبين الأشياء) فيعود الضمير على ما علم من السياق. وقد أطال بعضهم الكلام في ذلك. ومحصله، كما ذكره الشهاب، أنه اختلف في معنى ﴿**مُّعَمَّرٍ**﴾ فقيل: المزاد عمره. بدليل ما يقابله من قوله ﴿**يُنقَصُ**﴾ الخ. وقيل (من يجعل له عمر). وهل هو واحد أو شخصان؟ فعلى الثاني هو شخص واحد. قالوا مثلاً: يكتب عمره مائة ثم يكتب تحته مضى يوم، مضى يومان، وهكذا، فكتابة الأصل هي التعمير. والكتابة بعد ذلك هو النقص. كما قيل:

حياتك أنفاسٌ تُعَدُّ فكلما مضى نَفَسٌ منها انتقصتَ به جُزْءاً

والضمير في (عمره) حينئذ راجع إلى المذكور. والمعمّر هو الذي جعل الله له عمراً طال أو قصر. وعلى القول الأول هو شخصان. والمعمر الذي يزيد في عمره. والضمير حينئذ راجع إلى (معمر آخر) إذ لا يكون المزيد من عمره منقوصاً من عمره. وهذا قول الفرّاء وبعض النحويين. وهو استخدام أو شبيه به. انتهى.

ثم أشار تعالى لآيات أخرى من آيات قدرته ووحدانيته، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هذا عذبٌ فُراتٌ**﴾ أي شديد العذوبة ﴿**سآئغٌ شرابُهُ وهذا مِلْحٌ أجاجٌ**﴾ أي قويّ الملوحة ﴿**ومن كلٍ تأكُلُونَ لحماً طَرِياً**﴾ يعني السمك ﴿**وتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا**﴾ أي زينة تتحلّون بها. كما قال تعالى: ﴿**يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**﴾ [الرحمن: ٢٢]. ﴿**وتَرَى الْفُلْكَ فيه مواخِرَ**﴾ أي تمخر الماء وتشقه بجريها ﴿**لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ**﴾ أي بالتنقل فيها ﴿**ولَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

﴿**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ وسَخَّرَ الشَّمسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يجْرِي لأجَلٍ مُسمّىً**﴾ يعني مدة دوره، أو منتهاه، أو يوم القيامة ﴿**ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِه ما يَمْلِكُونَ من قِطْميرٍ**﴾ أي فأنّى يستأهلون العبادة. و(القطمير) لفافه النواة. وهو مثل في القلة والحقارة.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

﴿**إن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعآءَكُمْ**﴾ لأنهم جماد ﴿**وَلَوْ سَمِعُوا**﴾ أي على الفرض ﴿**مَا اسْتَجَابُواْ لَكُمْ**﴾ أي لعدم قدرتهم على النفع ﴿**وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**﴾ أي يقرون ببطلانه، وأن لا أمرَ لهم فيه ﴿**وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ أي لا يخبرك بالأمر مخبر، مثل خبير عظيم أخبرك به. وهو الحق سبحانه. فإنه الخبير بكنه الأمور دون سائر المخبرين. والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتم، ونفي ما يدعون لهم من الإلهية.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ**﴾ أي رحمته وعنايته ولطفه وإمداده في كل لمحة ونفس. وسرُّ وصل الآية بما قبلها من التهكم بالأنداد، لتذكيرهم الالتجاء إليه تعالى. والتضرع والابتهال إذا مسهم الضر وأخذت البأساء بمخانقهم، فإنهم يشعرون من أنفسهم دافعاً إلى سؤاله لا مردّ له. وحاثّاً إلى اللجإ إليه لا صادّ عنه. كما بين في غير آية. مما يدل على أنه تعالى هو الحقيق بالعبادة. لغناه المطلق، كما قال ﴿**وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ أي المحمود لنعمه التي لا تحصى.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧﴾

﴿**إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**﴾ أي بممتنع. قال الزمخشريّ: وهذا غضب عليهم، لاتخاذهم له أنداداً، وكفرهم بآيه، ومعاصيهم، كما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ [محمد:٣٨].

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨﴾

﴿**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أُخْرَى**﴾ أي لا تحمل نفس آثمة ﴿**وِزْرَ أُخْرَى**﴾ أي إثم نفس أخرى، بل إنما تحمل وزرها الذي اقترفته، لا تؤخذ نفس بذنب نفس. كما تأخذ جبابرة الدنيا الوليّ بالوليّ والجار بالجار، ولا يرد آية ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]،لأنها في الضالين المضلين، وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم، وذلك كله أوزارهم، ما فيها شيء من وزر غيرهم.

﴿**وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ**﴾ أي نفس أثقلتها الأوزار ﴿**إِلى حِمْلِهَا**﴾ أي إلى حمل بعض أوزارها ليخفف عنها ﴿**لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ**﴾ أي لم تجب ولم تُغثْ بحمل شيء ﴿**وَلَوْ كَانَ**﴾ أي المدعوّ المفهوم من الدعوة ﴿**ذَا قُرْبَى**﴾ أي ذا قرابة من الداعي، من أب أو ولد أو أخ. وهذا قطع لأطماع انتفاعهم بقرابتهم وغنائهم عنهم. وأنه لا تملك نفس

لنفس شيئاً، وأن كل امرئ بما كسب رهين. ثم بين من يتعظ ويتذكر. فقال سبحانه ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّى﴾ أي تطهر من أوضار الأوزار ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾

﴿وما يَسْتَوِي الأعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ مثل للكافر والمؤمن.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾

﴿وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ﴾ مثل للحق والباطل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾

﴿وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ﴾ مثل للثواب والعقاب و﴿الْحَرُورُ﴾ الريح الحارة بالليل، وقد تكون بالنهار.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أي: ما يستوي أحياء القلوب بالإيمان باللّه ورسوله ومعرفة تنزيله، وأموات القلوب. لغلبة الكفر عليها حتى صارت لا تعقل عن اللّه أمره ونهيه، ولا تعرف الهدى من الضلال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أي يوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: كما لايقدر أن يسمع من في القبور كتاب اللّه، فيهديهم به إلى سبيل الرشاد، فكذلك لا يقدر أن ينتفع بمواعظ اللّه وبيان حججه،من كان ميت القلب عن معرفة اللّه وفهم كتابه وواضح حججه. وهذا ترشيح لتمثيل المصرّين على الكفر بالأموات، وإشباع في إقناطه عليه الصلاة والسلام، من إيمانهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾

﴿إن أنتَ إلاَّ نَذيرٌ﴾ أي ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر. فإن كان المنذَر ممن يسمع الإنذارنفع. وإن كان من المصرّين فلاعليك.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾

﴿إنَّآ أرسَلْنَاكَ بالْحَقِّ بَشيراً ونَذيراً، وإن مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خلاَ فيها نَذيرٌ﴾ أي وما من أمة من الأمم الدائنة بملة، إلا مضى فيها نذير من قبلك ينذرهم على كفرهم بالله، ويزيح عنهم العلل كما قال تعالى: ﴿إنَّمَا أنتَ مُنذرٌ، ولِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]. وكقوله سبحانه ﴿ولَقَدْ بَعَثْنَا في كُلِّ أمَّةٍ رَّسُولاً أن اعْبُدُوا اللَّهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾

﴿وَإن يُكَذِّبُوكَ فقَدْ كَذَّبَ الَّذينَ مِن قبلِهِمْ جآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالْبَيِّنَاتِ وبِالزُّبُرِ وبِالْكِتَابِ الْمُنيرِ﴾ أي: وإن يكذبوك ولم يستجيبوا لك، فلا تبال بهم وتأس بمن كُذّب من الرسل السالفة، فقد جاءوهم بالآيات والخوارق المحسوسة على صحة نبوتهم، وبالصحف المرشدة لهم إلى مسالك الفلاح والنجاح، وبالكتاب المنير لمن تدبره وتأمله، أنه الحق الناطق بالصواب والصدق. وليس المراد أن كل رسول جاء بجميع ما ذكر، حتى يلزم أن يكون لكل رسول كتاب، بل المراد أن بعض الرسل جاء بهذا وبعضهم جاء بهذا. وجوز أن يراد بالجميع واحد، والعطف لتغاير الأوصاف.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

﴿ثُمَّ أخذتُ الَّذينَ كَفرُوا، فكَيْفَ كَانَ نَكيرِ﴾ أي إنكاري بالعقوبة. وفيه مزيد تشديد وتهويل لها.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ قرأ الجمهور (جدد) بضم الجيم وفتح الدال، جمع (جدة) بالضم، وهي الطريقة من (جدَّه) إذا قطعه، أي ومن الجبال ذوو جدَد، أي طرائق بيض وحمر. وإنما قدر المضاف، لأن الجبال ليست نفس الطرائق. و(غرابيب) جمع (غربيب) وهو الأسود المتناهي في السواد، يقال: أسود غربيب، كما يقال: أحمر قان، وأصفر فاقع، تأكيداً. وإما قدم هنا، ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد للمبالغة ورأى بعضهم أنه مقدم من تأخير، ذهاباً إلى جواز تقديم الصفة على موصوفها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي اختلافاً كذلك، أي كاختلاف الثمرات والجبال. وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ تكملة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨]، بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس، بعد بيان اختلاف طبقاتهم، وتباين مراتبهم، أما في الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل. وأما في الأوصاف الصورية فبطريق التصريح، توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان. أي إنما يخشاه تعالى بالغيب، العالمون به عز وجل، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة. لما أن مدار الخشية معرفة المخشيّ والعلم بشؤونه، فمن كان أعلم به تعالى، كان أخشى منه عز وجل. كما قال عليه الصلاة والسلام: «أنا أخشاكم للّه وأتقاكم له»[1]. ولذلك عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته. وحيث كان الكفرة بمعزل من هذه المعرفة، امتنع إنذارهم بالكلية. أفاده أبو السعود.

وقال القاشانيّ: أي ما يخشى اللّه إلا العلماءُ العرفاء به، لأن الخشية ليست هي خوف العقاب، بل هيئة في القلب خشوعية انكسارية عند تصوّر وصف العظمة واستحضاره لها. فمن لم يتصوّر عظمته لم يمكنه خشيته. ومن تجلى اللّه له بعظمته، خشيه حق خشيته. وبين الحضور التصورّيّ الحاصل للعالم غير العارف،

---

(١) أخرجه البخاري في: النكاح، ١- باب الترغيب في النكاح، حديث رقم ٢٠٩٩ عن أنس بن مالك، قطعه من حديث طويل.

وبين التجلّي الثابت للعالم العارف - بون بعيد. ومراتب الخشية لا تحصى بحسب مراتب العلم والعرفان. انتهى.

ويذكر بعض المفسّرين هنا القراءة الشاذة. رفع الاسم الجليل ونصب العلماء. ويتأوّلون الخشية بالتعظيم استعارة. وربما استشهدوا بقوله:

أَهَابُكِ إجلالاً وما بكِ قُدْرَةٌ علَيَّ ولكن مِلْءُ عَينٍ حَبِيبُهَا

وقد طعن في (النشر) في هذه القراءة. والحق له. لمنافاتها للسياق والسباق. وما أغنى المنقحين عن تسويد الصحف بمثل هذه الشواذ! وبالله التوفيق.

﴿إنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي غالب على كل شيء بعظمته، غفور لمن تاب وأناب وعمل صالحاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾

﴿إنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي يداومون على تلاوته وتدبره، للأخذ بما فيه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ أي أجراً وفضلاً لا يفنى، والتجارة استعارة لتحصيل الثواب بالطاعة. والبوار بمعنى الكساد والهلاك ترشيح للاستعارة.

القول في تأويل قوله تعالى:

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي لأعمالهم. والشكر مجاز عن الإثابة والجزاء بالإحسان.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

﴿ وَالَّذي أوْحَيْنَآ إلَيْكَ منَ الْكتاب هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْه إنَّ اللَّهَ بعبَاده لَخَبيرٌ بَصيرٌ ثُمَّ أوْرَثْنَا الْكتابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنَا منْ عبَادنَا ﴾ أي: ثم، بعد أخذ الذين كفروا، أورثنا الكتاب الذي هو أعظم فضل وعناية ورحمة، المصطفين من الموحدين. ثم بيّن انقسامهم في العمل به إلى ثلاثة، بقوله تعالى: ﴿ فَمنْهُمْ ظَالمٌ لنَفْسه ﴾ أي بالإثم والعصيان ﴿ وَمنْهُمْ مُقْتَصدٌ ﴾ أي في العمل، ليس من المجرمين ولا من السابقين ﴿ وَمنْهُمْ سَابقٌ بالْخَيْرَات بإذْن اللَّه ذَلكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبيرُ ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فيهَا منْ أَسَاوِرَ منْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلبَاسُهُمْ فيهَا حَريرٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ للَّه الَّذي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

القول في تأويل قوله تعالى:

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

﴿ الَّذي أحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَة ﴾ أي الإقامة ﴿ من فَضْله لا يَمَسُّنَا فيهَا نَصَبٌ ﴾ أي تعب ﴿ ولا يَمَسُّنَا فيهَا لُغُوبٌ ﴾ أي كلال.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

﴿ وَالَّذينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم منْ عَذَابهَا كَذَلكَ نَجْزي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرخُونَ فيهَا رَبَّنَآ أخْرجْنَا نَعْمَلْ صَالحاً غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُ أوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فيه مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذيرُ فَذُوقُواْ فَمَا للظَّالمينَ من نَّصيرٍ ﴾ أي: أو ما عشتم في الدنيا أعماراً ينتفع فيها من يتذكر ويتبصر؟ قال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة. فنعوذُ باللَّه أن نغتر بطول العمر. وقد نزلت هذه الآية. وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمواتِ وَالأرْضِ إنَّهُ عَليمٌ بذَاتِ الصُّدُورِ هُوَ الَّذي جعلَكُمْ خَلائفَ في الأَرْضِ﴾ أي مستخلفين فيها . أباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْه كُفْرُهُ وَلاَ يزيدُ الْكافِرين كُفرُهُمْ عنْدَ ربِّهِمْ إلاّ مَقتاً﴾ أي بغضاً شديداً ﴿ولاَ يَزيدُ الْكافرينَ كُفرُهُمْ إلاَّ خَساراً﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

﴿قُلْ﴾ أي تبكيتاً لهم ﴿أرَءيْتم شُركَآءكُمُ الَّذينَ تدْعُونَ مِن دُون اللَّه أُروني مَاذا خَلَقُوا مِنَ الأرْضِ أمْ لَهُمْ شِرْكٌ في السَّموات﴾ أي شركة في خلقها ﴿أمْ ءاتَيْناهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنت مِنْهُ﴾ أي حجة وبرهان، بأنه أذن لهم في الإشراك ﴿بَلْ إن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إلاَّ غُرُوراً﴾ أي في قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾

﴿إنَّ اللَّهَ يُمْسكُ السَّموَاتِ وَالأرْضَ أن تزُولا ولَئن زَالتَآ إنْ أمْسكَهُمَا﴾ أي ما أمسكهما ﴿مِنْ أحدٍ مِنْ بَعْدهِ إنَّهُ كَانَ حَليماً غَفُوراً وَأَقْسَمُوا باللَّه جَهْدَ أيْمانِهِمْ لَئن جَآءَهُمْ

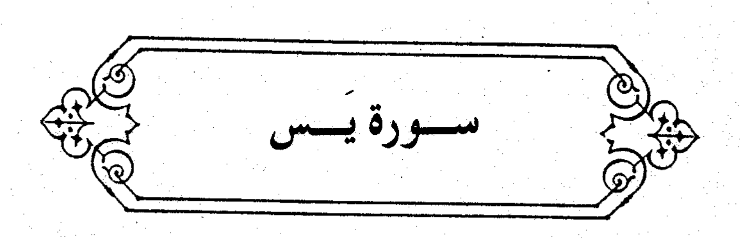
نَذيرٌ لَيَكُونُنَّ أهْدَى مِنْ إحْدَى الأمَمِ فَلَمَّا جآءَهُمْ نَذيرٌ مَّا زَادَهُمْ إلاَّ نُفُوراً اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءِ إلاَّ بأهْلِه فَهَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ سُنَّتَ الأوَّلينَ ﴾ يعني إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم ﴿ **فَلَنْ تَجدَ لِسُنَّةِ اللَّه تَبْديلاً، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّه تَحْويلاً** ﴾ وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿ أن تَقُولوا إنَّمَآ أنزلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئفَتَيْنِ من قَبْلنَا وَإن كُنَّا عَن دراسَتِهِمْ لَغَافلينَ أوْ تَقُولُوا لَوْ أنَّآ أنزلَ عَلَيْنَا الْكتابَ لَكُنَّا أهْدَى منْهُمْ فَقَدْ جآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بآيَات اللَّه وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٦- ١٥٧]. وقوله تعالى: ﴿ وَإن كَانُواْ لَيَقُولُونَ لَوْ أنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِنَ الأوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الصافات: ١٦٧-١٧٠].

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

﴿ **أوَ لَمْ يَسيرُوا في الأرْضِ فَينظُرُواْ كَيفَ كَانَ عَاقبَةُ الَّذينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجزَهُ من شَيْءٍ في السَّموات وَلاَ في الأرْضِ إنَّهُ كَانَ عَليماً قَديراً وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا** ﴾ أي بما اقترفوا من معاصيهم ﴿ **ما تَركَ على ظَهْرِها من دآبَّةٍ** ﴾ أي من نسمة تدب، لشؤم معاصيهم، والضمير للأرض لسبق ذكرها. ﴿ **وَلَكن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أجَلٍ مُّسَمّىً** ﴾ أي يؤخرعقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل معلوم عنده ﴿ **فَإذَا جآءَ أجَلُهُمْ فَإنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً** ﴾ أي فإذا جاء أجل عقابهم فإن اللّه كان بعباده بصيراً بمن يستحق أن يعاقب، وبمن يستوجب الكرامة.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة يس

هي مكية. واستثنى منها بعضهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ﴾ [يس: ١٢] الآية، لما أخرجه الترمذيّ (١) والحاكم عن أبي سعيد قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة. فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية . ولاحاجة لدعوى الاستثناء فيها وفي نظائرها. لأن ذلك مبنيّ على أن المراد بالنزول أن الواقعة كانت سبباً لنزولها، مع أن النزول في الآثار يشمل ذلك، وكل ماتصدق عليه الآية، كما بيناه مراراً. لاسيما في المقدمة. يؤيده أنه جاء في هذه الرواية أنه ﷺ قرأ لهم هذه الآية. كما في راوية الصحيحين(٢). وهكذا يقال فيما روي أن آية ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [يس: ٣٧]. من هذه السورة نزلت في المنافقين. فإن المراد ما ذكرناه. ولم يهتد لهذا التحقيق أرباب الحواشي هنا، فاحفظه. وآيها ثلاث وثمانون آية. ومما روي في فضلها ما أخرجه (٣) الترمذيّ عن أنس رفعه: إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس، وفي إسناده ضعف.

---

(١) أخرجه في: التفسير، ٣٦- سورة يس، ١- حدثنا محمد بن وزير الواسطي.

(٢) أخرجه البخاري في: الأذان، ٣٣- باب احتساب الآثار، حديث ٤١٥، عن أنس، وليس في مسلم.

(٣) أخرجه في: ثواب القرآن، ٧- باب ما جاء في فضل يس.

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

يسٓ ﴿١﴾

﴿يس﴾ تقدم الكلام في مثل هذه الفواتح مراراً. وحاصله - كما قاله أبو السعود - انها إما مسرودة على نمط التعديد، فلا حظَّ لها من الإعراب، أو اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه. وعليه الأكثر. فمحله الرفع على أنه خبر محذوف. أو النصب، مفعولاً لمحذوف، وعليهما مدار قراءة ﴿يس﴾ بالرفع والنصب.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾

﴿وَالْقُرءَانِ الْحَكِيمِ﴾ أي ذي الحكمة أو الناطق بالحكمة، ولما كانت منزلة الحكمة من المعارف، منزلة الرأس، وكانت أخص أو صاف التنزيل، أوثِرَتْ في القَسَمِ به دون بقية صفاته، لذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الموصل إلى المطلوب بدون لغوب. والتنكير للتفخيم والتعظيم.

القول في تأويل قوله تعالى:

تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾

﴿تنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ بالنصب على إضمار فعله، وبالرفع خبر لمحذوف. أو خبر لـ ﴿يس﴾ إن كان اسماً للسورة. أو مؤولاً بها. والجملة القسمية معترضة. والقَسَم لتأكيد المقسَم عليه والمقسَم به، اهتماماً.

القول في تأويل قوله تعالى:

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾

﴿ **لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ** ﴾ أي برسول ولا كتاب ﴿ **فَهُمْ غَافِلُونَ** ﴾ أي عن أمر حق الخالق والمخلوق، بالكفر والفساد ونكران البعث والمعاد.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

﴿ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ على أَكْثَرِهِمْ** ﴾ أي استأهلوا لأن ينزل بهم العذاب وينتقم منهم أشد الانتقام ﴿ **فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾ أي لا يريدون أن يؤمنوا ويهتدوا، كفراً وكبراً وعناداً. وبغياً في الأرض بغير الحق.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾

﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا في أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلىَ الأَذْقَانِ** ﴾ أي اللحى. أي واصلة إليها وملزوزة إليها ﴿ **فَهُم مُّقْمَحُونَ** ﴾ أي ناصبو رؤوسهم، غاضّو أبصارهم. يقال: أقمح الرجل،في رأسه وغض بصره. وأقمح الغلّ الأسير، إذا ترك رأسه مرفوعاً لضيقه، فهو مقمح. إذا لم يتركه عمود الغلّ الذي ينخس ذقنه، أن يطأطئ رأسه. قال ابن الأثير: هي في قوله تعالى: ﴿ **فَهِيَ إلى الأَذْقَانِ** ﴾ كناية عن الأيدي لا عن الأعناق. لأن الغلّ يجعل اليد تلي الذقن والعنق، وهو مقارب للذقن. وقال الأزهريّ: أراد عز وجل أن أيديهم لما غلّت عند أعناقهم، رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صُعُداً، كالإبل الرافعة رؤوسها، وهذا معنى قول ابن كثير: اكتفى بذكر الغل في العنق، عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين، لما دل السياق عليه. فإن الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

﴿ **وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَداًّ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَداًّ فَأغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ** ﴾ قال الزمخشريّ: مثل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم، بأن جعلهم

كالمغلولين المقمحين، في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له. وكالحاصلين بين سدّين. لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم، في أن لا تأمل لهم ولا تبصر. وأنهم متعامون عن النظر في آيات اللّه. انتهى. أي فالمجموع استعارة تمثيلية. وفي (الانتصاف) للناصر: إذا فرقت هذا التشبيه، كان تصميمهم على الكفر مشبهها بالأغلال. وكان استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه، مشبهاً بالإقماح. لأن المقمح لا يطأطئ رأسه. وقوله ﴿فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ﴾ تتمة للزوم الإقماح لهم. وكان عدم الفكر في القرون الخالية مشبها بسدّ من خلفهم ، وعدم النظر في العواقب المستقبلة مشبهاً بسد من قدامهم انتهى. فيكون فيه تشبيه متعدد. قال الشهاب: والتمثيل أحسن منه. انتهى.

ثم قال الناصر: يحتمل أن تكون الفاء في (فهم مقمحون) للتعقيب، كالفاء الأولى، أو للتسبّب، ولا شك أن ضغط اليد مع العنق في الغلّ يوجب الإقماح. فإن اليد، والعياذ باللّه، تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن، دافعة بها ومانعة من وطأتها. ويكون التشبيه أتم على هذا التفسير، فإن اليد متى كانت مرسلة مخلاة، كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها. ولعله يتحيّل بها على فكاك الغلّ ، ولا كذلك إذا كانت مغلولة. فيضاف إلى ما ذكرناه من التشبيهات المفرقة. أن يكون انسداد باب الحيل عليهم في الهداية والانخلاع من ربقة الكفر المقدر عليهم ، مشبهاً بغلّ الأيدي. فإن اليد آلة الحيلة إلى الخلاص. انتهى.

وإنما اختير هذا، لأن ما قبله وما بعده في ذكر أحوالهم في الدنيا، وجعله أبو حيان لبيان أحوالهم في الآخرة، على أنه حقيقة لا تمثيل فيه. فورد عليه أن يكون أجنبياً في البين. وتوجيهه بأنه كالبيان لقوله: ﴿حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ [يس: ٧]، والأول أدق، وبالقبول أحق.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءأَنْذَرْتَهُمْ﴾ أي خوفتهم بالقرآن **﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾** أي لا يريدون أن يؤمنوا. ولما صدقت الآية على مثل أبي جهل وأصحابه من كفرة قريش، الذين هلكوا في بدر، وكانوا طواغيت الكفر، أشار بعضهم إلى أن الآية نزلت في ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

﴿**إِنَّمَا تُنذِرُ**﴾ أي الإنذار المترتب عليه النفع ﴿**مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ**﴾ أي القرآن بالتأمل فيه والعمل به ﴿**وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**﴾ أي عمل الصالحات لوجهه، وإن كان لا يراه ﴿**فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرةٍ**﴾ أي لذنوبه في الدنيا ﴿**وأَجْرٍ كَرِيمٍ**﴾ أي ثواب حسن في الجنة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى**﴾ أي للبعث ﴿**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا**﴾ أي نحفظ عليهم ما أسلفوا من الخير والشر ﴿**وءَاثَارَهُمْ**﴾ أي ما تركوه من سنة صالحة، فعمل بها بعد موتهم. أو سنة سيئة فعمل بها بعدهم ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ**﴾ أي في اللوح المحفوظ، أو العلم الأزليّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿**واضْرِب لَهُم مَّثلاً**﴾ أي مثّل لأهل مكة مثلاً ﴿**أصْحَابَ الْقَرْيَةِ**﴾ أي اذكر لهم قصة عجيبة، قصة أصحاب القرية ﴿**إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ**﴾ أي الدعاة إلى الحق ورفض عبادة الأوثان.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿**إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَينِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**﴾ أي فقوّيناهما برسالة ثالث ﴿**فقَالُوا إِنَّآ إِلَيْكُم مرْسَلُونَ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾

﴿ **قالواْ مَآ أنتم إلاّ بشرٌ مثلُنا ومآ أنزلَ الرَّحمٰنُ من شيءٍ إنْ أنتمْ إلاّ تكذبون قالُوا ربُّنا يَعْلَمُ إنّآ إليكُمْ لَمُرْسَلُون وَمَا علَيْنا إلاّ البَلاغُ الْمبِينُ** ﴾ أي التبليغ عن الله ظاهراً بيِّناً لا سترة فيه، وقد خرجنا من عهدته.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾

﴿ **قَالُوا إنَّا تطَيَّرْنا بِكُمْ** ﴾ أي تشاءمنا بكم. فكان إذا حدث في البلد مايسيء من حريق أو بلاء، نسبوه إليهم. وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه، وآثروه وقبلته طباعهم. ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه. فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا . كما حكى الله عن القبط ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وعن مشركي مكة ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾ [النساء: ٧٨]، أفاده الزمخشري: ﴿ **لئن لَّم تَنْتَهُوا** ﴾ أي عن دعوتكم إلى التوحيد ﴿ **لَنرجُمَنَّكُمْ ولَيَمَسَّنَّكُمْ منَّا عذابٌ أليمٌ** ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

﴿ **قالواْ** ﴾ أي الرسل ﴿ **طائرُكُمْ مَّعَكُمْ** ﴾ أي سبب شؤمكم معكم، وهو الكفر والمعاصي ﴿ **أئِن ذُكِّرْتُم** ﴾ أي وعظتم بما فيه سعادتكم . وجواب الشرط محذوف ، ثقتة بدلالة ما قبله عليه. أي تطيرتم وتوعدتم بالرجم والتعذيب ﴿ **بلْ أنتُمْ قوْمٌ مُسْرِفُونَ** ﴾ أي في الشؤم والعدوان.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾

﴿ **وَجآءَ منْ أقصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى** ﴾ أي يسرع في المشي، حيث سمع بالرسل

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي بالإيمان بالله وحده.

القول في تأويل قوله تعالى:

اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾

﴿اتَّبِعُواْ مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أجراً﴾ أي جُعْلاً ولا مالاً على الإيمان ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أي في أنفسهم بالكمالات والأخلاق الكريمة والآداب الشريفة. أي فيجدر أن يُتأسّى بهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾

﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي خلقني. وهذا تلطُّف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه، وإمحاض النصح، حيث أراهم أنه اختار لهم مايختار لنفسه. والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره. كما ينبئ عنه قوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي بعد الموت.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾

﴿ءأتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءالِهةً﴾ أي فأضرع إليها وأعبدها، وهي في المهانة والحقارة بحيث ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونَ﴾ أي من ذلك الضر، بالنصر والمظاهرة. وفيه تحميق لهم، لأن ما يتخذ ويصنعه المخلوق، كيف يعبد؟

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾

﴿إِنِّي إِذاً لَفَي ضَلالٍ مُبِينٍ إِنِّي ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ أي فاسمعوا إيماني واشهدوا به. قال السمين: الجمهور على كسر النون. وهي نون الوقاية، حذفت بعدها ياء الإضافة، مجتزى عنها بكسرة النون، وهي اللغة العالية. وقرأ بعضهم بفتحها وهي غلط. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي ثواباً على صدق إيمانك وفوزك بسببه بالشهادة ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غفر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أي ليقبلوا على ما أقبلت عليه، ويضحوا لأجله النفس والنفيس.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾

﴿وَمَآ أنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ﴾ أي من بعد موته بالشهادة ﴿مِن جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي لإهلاكهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ قال الرازيّ: إشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً، على أسهل وجه، فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي ما كانت العقوبة إلا صيحة واحدة من السماء هلكوا بها ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ميتون كالنار الخامدة. رمزاً إلى أن الحيّ كالنار الساطعة في الحركة والالتهاب، والميت كالرماد. كما قال لبيد:

وما المرءُ إلا كالشهابِ وضوئِهِ   يَحُورُ رماداً بعد إذْ هو ساطعُ

تنبيهات:

الأول - قال ابن كثير: روي عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وإن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى عليه السلام، كما نص عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يذكر عن أحد من متأخري المفسرين، غيره. وفي ذلك نظر من وجوه:

أحدهما - أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل اللّه عز وجل، لا من جهة المسيح عليه السلام. كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ ولو كان هؤلاء من الحواريين، لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام. واللّه أعلم.

ثم لو كانوا رسل المسيح لماقالوا لهم: إن أنتم إلا بشر مثلنا.

الثاني – أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم. وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح. ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللائي فيهن بطاركة. وهن: القدس لأنها بلد المسيح. وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها. والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البطارقة والأساقفة والشمامسة والرهابين، ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأطده. ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البطرك من رومية إليها – كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم – كسعد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين – فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر اللّه تعالى أنهم كذبوا رسله، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم.

الثالث – أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدريّ رضي اللّه عنه وغير واحد من السلف. أن اللّه تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة، لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم. بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين. ذكروه عند قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولى ﴾ [القصص:٤٣]، فعلى هذا يتعين أن أهل هذه القرية المذكورة في القرآن ، قرية أخرى غير أنطاكية. كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً. أو تكون أنطاكية – إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة – مدينة أخرى غير المشهورة المعروفة. فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية، ولا قبل ذلك، واللّه سبحانه وتعالى أعلم. انتهى كلام ابن كثير.

وأقول: إن من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة، هو الإيجاز في الأنباء التي يقصها، والإشارة منها إلى روحها وسرها، حرصاً على الثمرة من أول الأمر، واقتصاراً على موضع الفائدة، وبعداً عن مشرب القصاص والمؤرخين. لأن القصد من قصصه الاعتبار والذكرى. وما من حاجة إلى تسمية تلك المبهمات كائنة ما كانت، ثم إن المفسرين رحمهم اللّه عنوا بالبحث والأخذ والتلقي. فكان من سلف منهم يرون فيما يَرونَ أن من العلم تفصيل مجملات التنزيل وإبانة مبهماته. حتى جعل ذلك فناً برأسه وألف فيه مؤلفات. ولا بأس في التوسع من العلم والازدياد منه بأي طريقة كانت . لا سيما وقد رفع عنا الحرج بالتحدث عن بني إسرائيل. إلا أنه يؤاخذ من يجزم بتعيين مبهم ما، إن كان جزمه من غير طريق القواطع فإن القاطع. هو

ما تواتر أو صحّ سنده إلى المعصوم، صحة لا مغمز فيها. وهذا مفقود في الأكثر، ومنه بحثنا المذكور. فإن تعيين أن البلدة أنطاكية وتسمية الرسل، إنما روي موقوفاً ومنقطعاً، وفي بعض إسناده متهمون. ولذا قديرد على من يقطع بذلك ما لا مخرج له منه. فالمفسر أحسن أحواله أن يمشي مع التنزيل، إجمالاً فيما أجمله وتفصيلاً فيما فصله، ولا يأخذ من إيضاح مبهماته إلا بما قام عليه قاطع أو كان لا ينبذه العلم الصيحيح. وإلا فليعرض عن تسويد وجوه الصحف بذلك، بل عن تشويهها. والذي حمل السلف على قص ما نحن فيه، هو تلقيهم له عن مثل كعب ووهب، وموافقة من في طبقتهما لهما فيه. هذا أولاً، وثانياً شهرة بلدة أنطاكية في ذلك العهد، لا سيما وقد أسس فيها معبداً أحد رسل عيسى عليه السلام. ثالثاً ما جرى في أنطاكية لما قدم ملك الرومان وتهدد كل من أبى عبادة الأوثان بالقتل. وكان في مقدمة الآبين رجل مقدم في المؤمنين. فأراده على الشرك فأبى وجهر بالتوحيد، فأرسله من أنطاكية موثقاً وأمر بأن يطعم للوحوش: فالقى في رومية إلى أسدين كبيرين فابتلعاه. ولما قدم لهما استبشر وتهلل لنيل الشهادة في سبيل اللّه. وكذلك يؤثر عن رجل مؤمن كان يدافع عن المؤمنين في عهد الرومانيين لغيرته وصلاحه. فطلب منه الحاكم أن يرتد فأبى وجهر بوجوب عبادة الإله الواحد، ونبذ عبادة من لا يضر ولا ينفع. فهدده بأن يضربه من الرأس إلى القدم. فأجاب بأنه مستبشر بنعمة اللّه وكرامته الأبدية. ثم أمر به الحاكم فقتل مع رفقته . والشواهد في هذا الباب لا تحصى. معروفة لمن أعار نظره جانباً مما كتب في تواريخ مبدأ ظهور الأديان، وماكان يلاقيه من أعدائه ومقاوميه. فللقصة الكريمة هذه مصدقات لا تحصى. رابعاً شهرة المرسلين برسل عيسى عليه السلام، وكانوا انبثوا في البلاد لمحو الوثنية والكف عن الكبائر والشرور التي كانت عليها دولة الرومان وقتئذ. هذا وما ذكره ابن كثير من وقوف عذاب الاستئصال بعد نزول التوراة يحتاج إلى قاطع. وإلا ، فقد خربت كثير من البلاد الأثيمة بعدها، وتدمرت بتسليط اللّه من شاء عليها .والصيحةُ أعم من أن تكون صيحة سماوية أو صيحة أرضية، وهي صيحة من سلط عليهم للانتقام منهم، حتى أباد ملكهم وقهر صولتهم ومحا من الوجود سلطانهم. وإن كان عذاب الصيحة ظاهره الأول. وبالجملة فنحن يكفينا من النبأ الاعتبار به وفهمه مجملاً، وأما تعيينه، بوقت ما، وفئة ما، فهو الذي ينشأ منه ما ينشأ. وما بنا من حاجة إلى الزيادة عن الاعتبار، وتخصيص مالا قاطع عليه.

الثاني – ذكر الرازيّ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾ لطيفة، إن صح أن الرسل

المنوه بهم هم رسل عيسى عليه السلام. وهي أن إرساله لهم كإرساله تعالى. لأنه بإذنه وأمره. وبذلك تتمة التسلية للنبيّ صلوات اللّه عليه، لصيرورتهم في حكم الرسل.

ثم قال: وهذا يؤيد مسألة فقهية. وهي أن وكيل الوكيل بإذن الموكل، وكيل الموكل لا وكيل الوكيل. حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه، وينعزل إذا عزله الموكل الأول. انتهى.

الثالث - في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا في النصح باذلين جهدهم كما فعل.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي يا ندامة عليهم تكون يوم القيامة بسبب استهزائهم وسخريتهم في الدنيا بالناصحين، حتي أفضى بهم الحال إلى قتلهم كما فعل أصحاب القرية. أو المراد شدة خسرانهم حتى استحقوا أن يتحسر عليهم أهل الثقلين. أو التحسر منه تعالى مجازاً. وتقريره أن التحسر ما يلحق المتحسر من الندم حتى يبقى حسيراً. وهو لا يليق به تعالى. فيجعل استعارة، بأن شبه حال العباد بحال من يتحسر عليه اللّه فرضاً، فيقول، يا حسرة على عبادي، قيل: وهو نظير قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]. على القراءة بضم التاء، فالنداء للحسرة تعجب منه. والمقصود تعظيم جنايتهم، أي عدّها أمراً عظيماً بتعجب منه. أفاده الشهاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي يخبروا **﴿كَمْ أَهلَكْنَا مِّنَ الْقُرُونِ﴾** أي من الأمم الخالية **﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾** أي كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾

﴿وَإِن كُلٌّ﴾ أي من هؤلاء المتفرقين **﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾** أي إلا

جميعهم محضرون للحساب والجزاء، وإنما أخبر عن (كل) بجميع ومعناهما واحد، لأن (كلاً) تفيد الإحاطة حتى لا ينفلت عنهم أحد. و(جميع) تفيد الاجتماع، وهو فعيل بمعنى مفعول، وبينهما فرق. ومن ثم وقع أجمع في التوكيد تابعاً لـ (كل)، لأنه أخص منه وأزيد معنى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ **وَءَايَةٌ لَّهُمُ** ﴾ أي عبرة لأهل مكة عظيمة ﴿ **الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أحْيَيْنَاهَا** ﴾ أي بالنبات لتدل على إحياء الموتى ﴿ **وأخْرَجْنَا منهَا حبّاً فَمنْهُ يأْكُلُون وجَعلْنا فيها جنَّاتٍ من نَّخيلٍ وأعْناب وفجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ليأْكُلواْ من ثَمرِه وَمَا عَملَتْهُ أَيْديهِمْ** ﴾ أي وليأكلوا مما عملته أيديهم، وهو ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما، على ما استظهره القاضي . وقال الزمخشريّ: أي عملته بالغرس والسقي والآبار، قيل وهذا التفسير خلاف الظاهر. أي لاحتياجه إلى تجوز. إلا أن فيه تذكيراً بلذة ثمرة العمل وسرور النفس بعده. وفي الحديث (أفضل الكسب بيع مبرور، وعمل الرجل بيده) رواه الإمام أحمد [١] عن أبي بردة. وجوّز أن تكون (ما) نافية، والمعنى: أن الثمر بخلق اللّه لا بفعلهم ﴿ **أفلاَ يَشْكُرُونَ** ﴾ أي خالق هذه النعم الجسام بعبادته وحده. وهو إنكار لعدم قيامهم بواجب الشكر.

القول في تأويل قوله تعالى:

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ **سُبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأزْوَاجَ كُلَّهَا** ﴾ أي الأصناف كلها ﴿ **ممَّا تُنبتُ الأَرْضُ** ﴾ أي مما ذكر وغيره ﴿ **وَمِنْ أنفُسِهِمْ** ﴾ يعني الذكر والأنثى ﴿ **ومِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ أي من الأصناف والأنواع الموجودة في البر والبحر. وقوله تعالى:

---

(١) أخرجه في المسند ٣/ ٤٦٦.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾

﴿ **وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ** ﴾ بيان لقدرته تعالى في الزمان، إثر ما بيّنها في المكان، أي نزيله ونكشفه عن مكانه. استعير لإزالة الضوء، السلخ الذي هو كشط الجلد وإزالته عن الحيوان المسلوخ. وفيه إشارة إلى أن النهار طارئ على الليل، كما أن المسلوخ منه قبل المسلوخ، الذي هوكالغطاء الطارئ على المغطى. قال الشهاب: لأن الليل سابق عرفاً وشرعاً ومعنى (مظلمون) داخلون في الظلام. يقال (أظلمنا) كما يقال: أعتمنا وأدجينا.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا** ﴾ أي لحدٍّ لها مؤقت مقدر ينتهي إليه دورها اليومي أو السنوي. شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره. فالمستقر اسم مكان تقطعه في حركتها الدائمة ثم تعود. ووجه الشبه الانتهاء إلى محل معين، واللام تعليلية أو بمعنى (إلى). وقيل مستقرها منقطع جريها عند حراب العالم. ومستقر، عليه، اسم زمان ﴿ **ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ أي ذلك الجري المتضمن للحكم والمصالح والمنافع، والمدهش نظام سيره وإحكامه بلا اختلال، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور، المحيط علماً بكل معلوم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

﴿ **وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ** ﴾ أي صيرنا له منازل ينزل كل ليلة في واحد منها ﴿ **حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** ﴾ أي حتى إذا كان في آخر منازله، دق واستقوس وصار كالعذق المقوس اليابس، إذا حال عليه الحول. فالعرجون هو الشمروخ.، وهو العنقود الذي عليه الرطب، ويسمى العذق، بكسر العين. والقديم: العتيق، وإذا قدم دق وانحنى واصفرّ. فشبه به من ثلاثة أوجه.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

﴿لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي تجتمع معه في وقت واحد، وتداخله في سلطانه فتطمس نوره ﴿وَلاَ الَّلَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي يسبقه بأن يتقدم على وقته فيدخل قبل مضيّه. أو المراد بالليل والنهار آيتاهما. أي ولا القمر سابق الشمس فيكون عكساً للأول. أي ولا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس . والمعنى على هذا ، أن كل واحد منهما لا يدخل على الآخر في سلطانه، فيطمس نوره ، بل هما متعاقبان بمقتضى تدبيره تعالى، وعليه فسر إيثار (سابق) على (مدرك) كما قبله، هو أن السبق مناسب لسرعة سير القمر. إذ السبق يشعر بالسرعة، والإدراك بالبطء. و كذلك الشمس بطيئة السير تقطع فلكها في سنة. والقمر يقطعه في شهر. فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن توصف بالإدراك. والقمر لسرعته جديراً بأن يوصف بالسبق.

لطيفة:

قال الناصر في (الانتصاف): يؤخذ من هذه الآية أن النهار، تابع لليل، وهو المذهب المعروف للفقهاء. وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التي هي آية النهار غير مدركة للقمر الذي هو آية الليل.

وإنما نفي الإدراك لأنه هوالذي يمكن أن يقع، وذلك يستدعي تقدم القمر وتبعية الشمس ، فإنه لا يقال (أدرك السابق اللاحق) ولكن (أدرك اللاحقُ السابق) وبحسب الإمكان توقيع النفي،. فالليل إذاً متبوع والنهار تابع. فإن قيل: هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار، وقد صرحت الآية بأنه ليس سابقاً؟ فالجواب أن هذا مشترك الإلزام. وبيانه: أن الأقسام المحتملة ثلاثة: إما تبعية النهار لليل وهو مذهب الفقهاء، أو عكسه وهو المنقول عن طائفة من النحاة. أو اجتماعهما. فهذا القسم الثالث منفي بالاتفاق. فلم يبق إلا تبعيه النهار لليل وعكسه. وهذاالسؤال وارد عليهما جميعاً. لأن من قال إن النهار سابق الليل لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال (ولا الليل يدرك النهار) فإن المتأخر إذا نفي إدراكه كان أبلغ من سابقه. مع أنه يتناءى عن مقتضى قوله: ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ تنائيّاً لا يجمع شمل المعنى باللفظ. فإن اللّه تعالى نفى أن تكون مدركة، فضلاً عن أن تكون سابقة، فإذا أثبت ذلك، فالجواب المحقق عنه، أن المنفيّ السبقية الموجبة لتراخي النهار عن الليل، وتخلل زمن آخر بينهما. وحينئذ يثبت التعاقب، وهو مراد الآية. وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما، فإنه غير معتبر. الا ترى إلى جواب موسى بقوله: ﴿هُمْ أُوْلاَءِ عَلَى أَثَرِي﴾ [طه: ٨٤]، فقد قربهم منه عذراً عن قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ ﴾ [طه: ٨٣]، فكأنه سهل أمر هذه العجلة بكونهم على أثره. فكيف لو كان متقدماً وهم في عقبه لا يتخلل بينهم وبينه مسافة، فذاك لو اتفق، لكان سياق الآية يوجب أنه لا يعد عجلة ولاسبقاً. فحينئذ يكون القول بسبقية النهار لليل، مخالفاً صدر الآية على وجه لا يقبل التأويل. فإن بين عدم الإدراك الدال على التأخير والتبعية، وبين السبق بوناً بعيداً، ومخالفاً أيضاً لبقية الآية. فإنه لو كان الليل تابعاً ومتأخراً، لكان أحرى أن يوصف بعدم الإدراك، ولا يبلغ به عدم السبق. ويكون القول بتقديم الليل على النهار مطابقاً لصدر الآية صريحاً، ولعجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن. وثبوت ضده أقرب إلى الحق من حبل وريده ، والله الموفق للصواب من القول وتسديده. انتهى.

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي كل مما ذكر يجرون في مدار عظيم كالسابح في الماء. وتقدم لنا في سورة الأنبياء، ما قاله بعض علماء الفلك في مثل هذه الآية. فراجعه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي حملنا أولادهم الذين يرسلونهم في تجارتهم. قال الشهاب: ولا يخفى مناسبته لقوله قبله: ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وذكر (المشحون) أقوى في الامتنان بسلامتهم فيه، أو لأنه أبعد عن الخطر، وقيل المراد فلك نوح عليه السلام. فهومفرد، وتعريفه للعهد. والمعنى حمل آبائهم الأقدمين الذين بهم حفظ بقاء النوع لما عمّ الطوفان، ونجوا مع نوح في السفينة. وإنما كان آية، لأن بقاء نسلهم ونجاتهم بسفينة واحدة، صنع عجيب ومقدوركبير. وآثر البعض الوجه الأول، لأن الثاني محتاج للتأويل. وأرى جدارة الثاني بالإيثار لقاعدة الحمل على الأشباه والنظائر، ما وجد له سبيل. لأنه أقرب وأسدّ. وقد جاء نظيره آية: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ حَمَلْنَاكُمْ في الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١١ - ١٢]. وإن ورد في نظير الأول آية ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ ﴾ [الرحمن: ٢٤]، وأشباهها، إلا أن لفظ الحمل اتحد في الآيتين، فقارب ما بينهما.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِن مِّثْلِهِ﴾ أي مثل الفلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ أي من الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ماتحمل، حتى شاع إطلاق السفينة عليها. كما قيل (سفائن برٍّ والسراب بحارها) أو ما يركبون. أي من السفن والزوارق على الوجه الثاني. وهو أن يراد بالفلك سفينة نوح.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي لا مغيث لهم، أو لا مستغيث منهم، أو لا استغاثة، وذلك لأن الصريخ يكون المغيث والمستغيث وهو الصارخ. ومصدراً للثلاثيّ كالصراخ، يتجوز به عن الإغاثة، لأن المغيث ينادي من يستغيث به ويصرخ له، ويقول. جاءك العون والنصر. أنشد المبرد في أول الكامل:

كُنَّا إِذَا مَا أتانَا صَارِخٌ فَزِعٌ كان الصراخ له قَرْعَ الظنَّابِيبِ

أي إذا أتانا مستغيث، كانت إغاثته الجد في نصرته.

﴿ولاَ هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي ينجون من الموت به.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

﴿إلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ أي لكن رحمناهم ومتعناهم إلى زمن قدر لهم، يموتون فيه بعد النجاة من موت الغرق. ومن هنا أخذ أبو الطيّب قوله:

وإنْ أَسْلَمْ فَمَا أبقَى ولكن سَلِمْتُ مِنَ الْحَمَام إلى الحِمَامِ

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أيْدِيكُمْ﴾ أي من الوقائع الخالية في الأمم المكذبة للرسل ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي من العذاب المعدّ في الآخرة، أو عذاب الدنيا وعذاب

الآخرة، أو عكسه، أو ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر ﴿لعلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ أي باتقائكم وشكركم، وجواب (إذا) محذوف دل عليه قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾

﴿وَمَا تَأْتيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي الدالة على صدق الرسل ﴿إلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ بالتكذيب والصدّ عن الإيمان بها.

القول في تأويل قوله تعالى :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أنفقُوا ممَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي تصدقوا على الفقراء، من مال اللّه الذي آتاكم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ أنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ أطْعَمَهُ إنْ أنتُمْ إلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أي حيث أمرتمونا بما يخالف مشيئة اللّه. وقولهم هذا ، إما تهكم أو عن اعتقاد. وجوز أن يكون ﴿إنْ أنتُمْ﴾ جواباً من اللّه لهم، أو حكاية لجواب المؤمنين. وفي هذه الآية أبلغ زجر عن اقتصاص ما يحكى عن البخلاء، في اعتذارهم بمثل ما ضلل به المشركون ومجاراتهم فيه. فإن ذلك من اللؤم وشح النفس وخبث الطبع. وإن كان يورده بعضهم للفكاهة أو الإغراب. كما فعل الجاحظ سامحه اللّه في كتاب (البخلاء).

القول في تأويل قوله تعالى :

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾

﴿ويَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إن كُنتُمْ صَادقِينَ﴾ يعنون وعد البعث.

القول في تأويل قوله تعالى :

مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾

﴿مَا يَنظُرُونَ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخصِّمُونَ﴾ أي يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم. أي أنها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها. و(يخصمون) بفتح الياء وكسر الخاء لالتقاء الساكنين. والصادر على الأصل، وأصله (يختصمون)

سكنت التاء وأدغمت، ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

﴿**فلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً**﴾ أي أن يوصوا في شيء من أمورهم توصية ﴿**ولاَ إلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ**﴾ أي لا يقدرون على الرجوع إلى أهليهم، ليروا حالهم. بل يموتون حيث تفجؤهم الصيحة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾

﴿**ونُفِخَ في الصُّورِ**﴾ أي للبعث ﴿**فإذَا هُم منَ الأَجْدَاث**﴾ أي من القبور ﴿**إلى ربِّهِمْ يَنسِلُونَ**﴾ أي يعدون مسرعين، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ منَ الأَجْدَاث سِرَاعاً﴾ [المعارج:٤٣]، ولا منافاة بين هذا وما في آية ﴿فَإذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، لأنهما في زمان واحد متقارب.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾

﴿**قَالُوا يَا ويلْنَا مَن بعَثَنَا من مَّرقَدِنَا**﴾ أي رقادنا أو مكانه. فيقال لهم ﴿**هَذَا مَا وعَدَ الرَّحْمَنُ وصَدَقَ الْمُرْسَلونَ**﴾ أي المخبرون عن ذلك الوعد.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾

﴿**إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فإذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ**﴾ أي بمجرد تلك الصيحة. وفي كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر، عليه تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾
إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾

﴿**فالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شيْئاً ولاَ تجْزَوْنَ إلاَّ مَا كُنتُمْ تعْمَلُونَ إنَّ أَصْحابَ الْجَنَّة الْيَوْمَ في**

شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ أي متنعمون متلذذون ، وفي تنكير **﴿شُغُلٍ﴾** تعظيمُ ما هم فيه وتفخيمه.

القول في تأويل قوله تعالى:

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ أي في ظلال الأشجار، أو في مأمن من الحرور **﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾** أي السُّرُرُ المزينة **﴿مُتَّكِئُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ﴾**،

القول في تأويل قوله تعالى:

سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِّنْ رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي ولهم سلام يقال لهم قولاً كائناً منه تعالى. فيكون **﴿سَلَامٌ﴾** مبتدأ محذوف الخبر. أو هو بدل من (مَّا) أو خبر محذوف، أي: هو سلام. أو مبتدأ خبره الناصب لـ **﴿قَوْلاً﴾** أي: سلام يقال لهم قولاً. أو مبتدأ وخبره **﴿مِّنْ رَّبٍّ﴾** و **﴿قَوْلاً﴾** مصدر مؤكد لمضمون الجملة. وهو مع عامله معترض بين المبتدأ والخبر.

والمعنى إنه تعالى يسلم عليهم تعظيماً لهم. كقوله: **﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾** [الأحزاب: ٤٤].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وَامْتَازُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي عن المؤمنين في موقفهم. كقوله تعالى: **﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾** [يونس: ٢٨]. وقوله: **﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾** [الروم: ١٤]. **﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾** [الروم: ٤٣]، أي يصيرون صدعين فرقتين **﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾** [الصافات: ٢٢-٢٣].

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تقريع منه

تعالى للكفرة، يقال لهم إلزاماً للحجة. وعهده تعالى إليهم هو ميثاق الفطرة. كما قاله القاشانيّ. أو ما نصبه لهم من الحجج العقلية والسمعية، الآمرة بعبادته وحده ونبذ عبادة غيره.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

﴿وأنِ اعْبُدُوني هَذَا صِراطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: وأن أفردوني بالعبادة فإنه السبيل السويّ. وفي تنكيره إشعار بأنه صراط بليغ في استقامته، جامع لكل ما يجب أن يكون عليه. وأصلٌ لمرتبة يقصر عنها التوصيف، فالتنوين للتعظيم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾

﴿ولَقَدْ أضلَّ﴾ أي الشيطان وأغوى بالشرك ﴿منْكُمْ جبلاً كثيراً﴾ أي خلقاً كثيراً قبلكم، فحاق بهم سوء العذاب ﴿أفلَم تكُونُواْ تعْقِلُونَ﴾ أي من أولي العقل. إنكار لأن يكونوا منهم. وقد قامت البراهين والإنذارات.

القول في تأويل قوله تعالى:

هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

﴿هذهِ جهَنَّمُ الَّتِي كُنتُم توعَدُونَ اصلَوْهَا الْيَوم بِمَا كُنتُمْ تكْفُرُونَ﴾ أي ذوقوا حرها اليوم بكفركم في الدنيا.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾

﴿الْيوْمَ نَخْتِمُ علَى أفوَاهِهِمْ وتُكَلِّمُنَآ أيْدِيهِمْ وتَشْهَدُ أرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يكْسِبُونَ﴾ أي عندما يجحدون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم، قال الرازيّ: وفي الختم على الأفواه وجوه. أقواها أن الله يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها، وينطق جوارحهم فتشهد عليهم، وإنه في قدرة الله يسير. أما الإسكات فلا خفاء فيه، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة

مخصوصة. فكما جاز تحركه بها، جاز تحرك غيره بمثلها. والله قادر على الممكنات. والوجه الآخر، أنهم لا يتكلمون بشيء، لانقطاع أعذارهم وانهتاك أستارهم. فيقفون ناكسي الرؤوس وقوف القنوط اليؤوس، لا يجد عذراً فيعتَذر، ولا مجال توبة فيستغفر، وتكلم الأيدي ظهور الأمور بحيث لا يسع معه الإنكار، حتى تنطق به الأيدي والأبصار. كما يقول القائل (الحيطان تبكي على صاحب الدار) إشارة إلى ظهور الحزن، والأول الصحيح. انتهى. أي لإمكانه وعدم استحالته، فلا تتعذر الحقيقة. ويؤيده آية ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُواْ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

ومن لطائف بعض أدباء العصر ما نظمه في الفونغراف، مستشهداً به في ذلك، فقال:

ينطق الفونغراف لنا دليلٌ ... على نطق الجوارح والجمادِ
وفيه لكل ذي نظرٍ مثالٌ ... على بدء الخليفة والمعادِ
يدير شؤونه فرد بصُورٍ ... به الأصوات تجري كالمدادِ
فيثبت رسمها قلم بلوح ... على وفق المشيئة والمرادِ
وبعد فراغها تمضي كبرق ... ولا أثر لها في الكون بادِي
تظن بانها ذهبت جفاء ... كما ذهبت بريحٍ قوم عادِ
وأحلى رنّها فيه لتبقى ... كأرواح تجرد عن موادِّ
متى شاء المدير لها معاداً ... ورام ظهورها في كل نادِ
يدير الصور بالآلات قسراً ... فينشر ميتها بعد الرقادِ
وهذي آلة من صنع عبد ... فكيف بصنع خلاّق العبادِ؟
تبارك من يعيد الخلق طرّاً ... بنفخة صوره يوم التنادِ.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُواْ الصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أي لو شاء تعالى، لمسح أعينهم. فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المسلوك لهم لم يقدروا، لعماهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

﴿ولَو نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ أي بتغيير صورهم وإبطال قواهم ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أي مكانهم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِياً﴾ أي ذهاباً ﴿وَلاَ يَرْجِعُونَ﴾ أي ولا رجوعاً. أي أنهم لا يقدرون على مفارقة مكانهم. فوضع الفعل موضعه للفواصل. وإذا كان بمعنى (لا يرجعون عن تكذيبهم) فهو معطوف على جملة (ما استطاعوا) والمراد أنهم بكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم، أحقَّاءُ بأن يفعل بهم ذلك. لكنا لم نفعل لشمول الرحمة، واقتضاء لحكمة إمهالهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي نطل عمره ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي بتناقص قواه وضعف بنيته حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبيّ في ضعف جسده وقلة عقله وخلّوه من العلم، كما قال عز وجل: ﴿وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [الحج: ٥]، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥]. ﴿أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ أي من قدر على ذلك، قدر على الطمس والمسخ، وأن يفعل ما يشاء.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ أي حتى يأتي بشعر. وهذا رد لقولهم أنه صلوات اللّه عليه شاعر أتى بشعر. قاسوه على من يشعر بقراءة الدواوين وكثرة حفظها. وكيف يشابه ما نزل عليه الشعر، وليس منه لا لفظاً لعدم وزنه وتقفيته، ولا معنى لأن الشعر تخيلات، وهذا حكم وعقائد وشرائع وحقائق.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي وما يصح لمقامه. لأن منزل النبوة والرسالة يتسامى عن الشعر وقرضه. لما يرمي به الشعراء كثيراً من الكذب والمين ومجافاة مقاعد الحقيقة. ولذا قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن الذي يتلوه ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ﴾ أي عظة وإرشاد منه

تعالى ﴿ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴾ أي كتاب سماويّ بيّن أمره وحقائقه. فلا مناسبة بينه وبين الشعر بوجهٍ ما.

القول في تأويل قوله تعالى:

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

﴿ لِيُنْذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ أي عاقلاً متأملاً، لأن الغافل كالميت ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ ﴾ أي وتجب كلمة العذاب ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي المعرضين عن اتباعه.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾

﴿ أو لَمْ يروا أنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عملتْ أيْدينا ﴾ أي مما تولينا نحن خلقه، لم يقدر على إحداثه غيرنا، ﴿ أنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ أي متصرّفون فيها تصرّف الملاك. أو ضابطون قاهرون لها كما قال:

أصبحتُ لا أحمِلُ السلاحَ وَلا ... أمْلِكُ راسَ البعيرِ إنْ نَفَرَا

القول في تأويل قوله تعالى:

وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾ أي صيّرناها منقادة غير وحشية ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ أي مركوبهم ﴿ وَمِنْهَا يأكُلُونَ ﴾ أي ينتفعون بأكل لحمه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أي من الجلود والأصواف والأوبار ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ أي من ألبانها ﴿ أفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ أي فيعبدوا المنعم بأصناف هذه النعم الجسيمة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾

﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي ينصرونهم فيما نابهم من الكوارث.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾

﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ﴾ أي لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي مُعَدُّونَ لخدمتهم والذب عنهم. فمن أين لهم أن ينصروهم وهم على تلك الحال من العَجز والضعف؟ أي بل الأمر بالعكس. وقيل: المعنى محضرون على أثرهم في النار. وَجَعْلُهُمْ - على هذا - جنداً، تهكم واستهزاء. وكذا لام (لَهُمْ) الدالة على النفع.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

﴿فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي في اللّه تعالى بالإلحاد والشرك. أو في حقك بالتكذيب والإيذاء ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي فنجازيهم عليه . كنى عن مجازاتهم بعلمه تعالى، للزومه له. إذ علم الملك القادر بما جرى من عدوّه الكافر، مقتضٍ لمجازاته وانتقامه. وتقديم السرّ، لبيان إحاطة علمه تعالى بحيث يستوي السر عنده والعلانية. أو للإشارة إلى الاهتمام بإصلاح الباطن، فإنه ملاك الأمر.

القول في تأول قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي جدل بالباطل. بيّن الجدال، وهذه تسلية ثانية، بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر. تأثرت الأُولى وهي قوله ﴿فَلاَ يَحْزُنكَ﴾ الآية، عنايةً بشأنه صلوات اللّه عليه.

قال الطيبيّ: هذا معطوف على (أولم يروا) قبله. والجامع ابتناء كل منهما على التعكيس. فإنه خلق له ما خلق ليشكر ، فكفر وجحد النعم والمنعم. وخلقه من نطفة قذرة ليكون منقاداً متذللاً، فطغى وتكبر وخاصم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً﴾ أي في استبعاد البعث وإنكاره ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي خلقنا إياه ﴿قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي بالية أشد البلى، بعيدة عن الحياة غاية

البعد. وإنما لم يؤنث لأنه اسم لما بلي من العظام. جامد غير صفة، كالرمة والرفات. أو مشتق، فعيل بمعنى فاعل. إلا أنه لما غلب جريانه على غير موصوف، ألحق بالأسماء فلم يؤنث. أو بمعنى مفعول. من (رمَّه) بمعنى أبلاه. وأصله الأكل. من (رمت الإبل الحشيش) فكأن ما بلي أكلته الأرض. وقال الأزهري: إن (عظاماً) لكونه بوزن المفرد، ككتاب وقراب، عومل رميم معاملته. وذكر له شواهد.

قال الشهاب: وهو غريب.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أنشأَهَآ أوَّلَ مرَّةٍ**﴾ أي فلا تقاس قدرة الخالق على قدرة المخلوقين. وإنما تقاس إعادته على إبدائه ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ أي فلا يمتنع عليه جمع الأجزاء بعد تفرقها، لعلمه بأصولها وفصولها ومواقعها، وطريق ضمها إلى بعضها.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ناراً فَإِذَآ أنتُم مِّنْهُ تُوقدُونَ**﴾ أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً فأثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً يوقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد. لا يمنعه شيء. قال قتادة: الذي أخرج النار من هذا الشجر، قادر على أن يبعثه. وقيل: المراد بذلك شجر المرخ والعفار (من شجر البادية) في أرض الحجاز. فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدها بالآخر، فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء. روي هذا عن ابن عباس رضي اللّه عنهما. والعَفار الزند وهو الأعلى. والمرخ الزندة وهو الأسفل بمنزلة الذكر والأنثى. وعكس الجوهريّ فجعل المرخ ذكراً والعفار أنثى، واللفظ مساعد له. إلا أن الأول يؤيده قول الشاعر:

إذا المرخُ لم يُورِ تحت العَفَارِ وضُنَّ بِقِدْرٍ فلم تُعْقَبِ

وقال أبو زياد: ليس في الشجر كله أورى ناراً من المرخ. وربما كان المرخ مجتمعاً ملتفاً، وهبت الريح، وجاء بعضه بعضاً فأورى فأحرق الوادي. ولم نر ذلك في سائر الشجر.

وقال الأزهريّ: العرب تضرب بالمرخ والعفار، المثل في الشرف العالي. فتقول: (في كل شجر نار. واستمجد المرخ والعفار) أي كثرت فيهما على ما في سائر الشجر. و(استمجد) استكثر واستفضل. وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً، وزنادهما أسرع الزناد ورياً. وفي المثل: اقدح بعفار أو مرخ، ثم اشدد إن شئت أو أرخ. ويقال (في كل شجر نار إلا العُنّاب).

قال الشهاب: ولذا يتخذ منه مدقّ القصارين. ثم أنشد لنفسه:

أيا شجر العُنَّاب نارك أوقدت بقلبي. وما العُنَّاب من شجر النار

انتهى.

والمقصود أنه تعالى لا يمتنع عليه إعادة المزاج الذي به تعلق الروح بعد انعدامه بالكلية. لأن الذي يبدل مزاج الشجر الرطب بمزاج النار، وهي حارة يابسة بالفعل، مع ما في الشجر من المائية المضادّة لها، أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً، تطرأ عليه اليبوسة والبلى.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾

﴿**أوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ**﴾ أي مع كبر جرمهما ﴿**بِقَادرٍ عَلَى أن يَخْلُقَ مِثْلَهُم**﴾ أي في الصغر والضعف ثانياً، بعد ما خلقهم أولاً ﴿**بَلَى**﴾ أي هو القادر ﴿**وَهُوَ الْخَلاَّقُ**﴾ أي الكثير الخلق مرة بعد أخرى ﴿**الْعَلِيمُ**﴾ أي الواسع المعلومات.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

﴿**إنَّمآ أَمْرُهُ**﴾ أي شانه الأعلى أو قوله النافذ ﴿**إذَآ أرادَ شَيْئاً**﴾ أي إذا تعلقت إرادته بإيجاد شيء ﴿**أنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ أي فيوجد عن أمره.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿**فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ تنزيه له مما وصفه به المشركون،

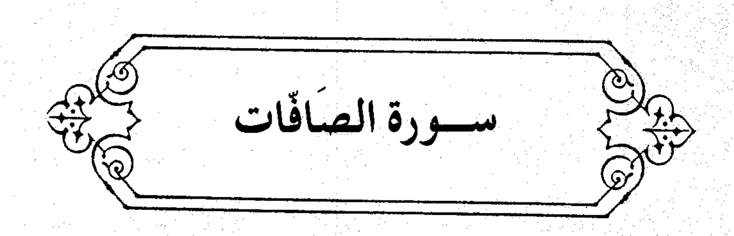
وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا. وهو مالك كل شيء والمتصرّف فيه بلا وازع ولا منازع. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي بعد الموت، فيجازيكم بأعمالكم.

فائدة:

قال ابن كثير: الملك والملكوت واحد في المعنى. كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت، وجبر وجبروت. ومن الناس من زعم أن المُلك هو عالم الأجسام، والملكوت هو عالم الأرواح. والصحيح الأول. وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم. انتهى.

ولبعضهم: إن الملكوت صيغة مبالغة من الملك. فهو بمعنى الملك التام، والله هو العليم العلام.

بسم الله الرحمن الرحيم



ســورة الصَافّات

سميت بها لاستمال الآية التي هي فيها على صفات للملائكة تنفي إلهية الملائكة من الجهات الموهمة لها فيهم. فينتفي بذلك إلهية ما دونهم، فيدل على توحيد اللّه، وهو من أعظم مقاصد القرآن. قاله المهايمي.

وهي مكية اتفاقاً، وآيها مائة واثنتان وثمانون. روى النسائي عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما قال: كان رسول اللّه ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمّنا بالصفات.

قال ابن كثير: تفردّ به النسائي.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤

﴿ **وَالصَّافَّاتِ صَفاً فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً فَالتَّالِيَاتُ ذِكْراً إِنَّ إِلَهكُمْ لوَاحِدٌ** ﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته، إظهاراً لعظم شأنها وكبر فوائدها. وتنبيهاً إلى الاعتبار بصفتها وما تستدعيه من سِمَتها. و(الصافات) جمع صافة، أي طائفة صافة، أو جماعة صافة. فيكون في المعنى جمع الجمع. أو على تأنيث مفرده باعتبار أنه ذات ونفس، والمراد بالصفات الملائكة. لقيامها مصطفة في مقام العبودية لمالك الملك. من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ [الصافات:١٦٥]، أو لصفها أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر اللّه تعالى. و﴿ الزاجرات ﴾ أي: الناس عن المعاصي، بإلهام الخير. من (الزجر) بمعنى المنع والنهي. أو الزاجرات الأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور به. من (الزجر) بمعنى السوق والحث. و(التاليات) أي: آياته تعالى على أنبيائه عليهم السلام، وقيل: الصافات الطير. من قوله تعالى: ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ [النور: ٤١]، و(الزاجرات)، كل ما زجر عن معاصي اللّه. و(التاليات) كل من تلا كتاب اللّه. أو هم العلماء الصافون في العبادات أقدامهم، الزاجرون عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح، التالون آيات اللّه وشرائعه. أو هم الغزاة الصافون في الجهاد والزاجرون الخيل أو العدوّ، التالون لذكر اللّه، لا يشغلهم فيها عنه مبارزة العدوّ. وقد ذكر غير هذا، مما يشمله اللفظ ولا يأباه. وبالجملة، فالعطف إما لاختلاف الذوات أو الصفات. وإيثارُ الفاء على (الواو) لقصد الترتيب والتفاضل طرداً أوعكساً. أما الأول فاعتناءً بالأهم فالأهم. وأما الثاني فالترقي إلى الأعلى. و(صفاً) و(زجراً) مصدر مؤكد. وكذا (ذكراً) ويجوز فيه كونه مفعولاً به. قال الناصر: وفي هذه الآية دلالة على مذهب سيبويه والخليل في مثل ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل: ١ - ٢]، فإنهما يقولان: الواو الثانية وما بعدها عواطف. وغيرهما يذهب إلى أنها حروف قسم . فوقوع الفاء في هذه الآية موقع

الواو. والمعنى واحد. إلا أن ما تزيده الفاء من ترتيبها، دليل واضح على أن الواو الواقعة في مثل هذا السياق، للعطف لا للقسم. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ الجواب للقسم. وفي تأكيد المقسم عليه بتقديم الإقسام وتوكيد الجملة، اهتمام به بتحقيق الحق فيه الذي هو التوحيد، وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به، وهو قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ فإن وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع، من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته، وأعدل شواهد وحدته. أي مالك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات ومربيّها ومبلغها إلى كمالاتها. والمراد بالمشارق مشارق الشمس. وإعادة ذكر الرب فيها، لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم. فإنها ثلاث مائة وستون مشرقاً. تشرق كل يوم من مشرق منها. وبحسبها تختلف المغارب، وتغرب كل يوم في مغرب منها. وأما قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما. أفاده أبو السعود.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا﴾ أي الجهة العليا القربى من كرة الأرض ﴿بِزِينَةٍ﴾ أي عجيبة بديعة ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ بالجر، بدل من (زينة). وقرئ بالإضافة، على أنها بيانية، أو على معنى ما زينت هي به، وهو ضوؤها، والمراد التزيين في رأي العين. فإن الكواكب تبدو للناظرين كأنها جواهر متلألئة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾

﴿وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ أي خارج عن الطاعة، يقذفه بشهبها، كيما يتطاول إلى استراق السمع من جهتها و﴿حفظاً﴾ إما منصوب بإضمار فعله. أي حفظناها حفظاً، أو بعطفه على ﴿زينة﴾ من حيث المعنى. أي خلقنا الكواكب

للسماء زينة وحفظاً. أو على المفعول لأجله بزيادة الواو. والعامل فيه ﴿ زيَّنَّا ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾

﴿ لاَ يَسَّمَّعُونَ إلى الْمَلإِ الأعْلَى ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد. وأصله (يتسمعون) أي يتطلبون السماع. والضمير لكل شيطان. لأنه في معنى الشياطين. والجملة مستأنفة لبيان ما عليه حال المسترقة للسمع من أنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة الخ. أو هي علة للحفظ. أي لئلا يسمعوا. فحذفت اللام ثم (أنْ) وأهدر عملها. وضعفوه بلزوم اجتماع حذفين، وهو منكر. كما ذكروه في قوله تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾ [النساء: ١٧٦]، أي لئلا تضلوا، وقد يقال: إنما ينكر حذف شيئين فيما يخلّ بانسجام الكلام. أما في تقدير أمْرٍ له نظائر، ومرجعه إلى تحليل معنى. لا يأباه اللفظ - فلا وجه للتعصب في رده، لمجرد أن الكوفيين، مثلاً، ذهبوا إليه أو غيرهم. وشاهد المعنى أعدل من حكم القواعد وتحكيمها ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ أي يرمون ﴿ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أي من جميع جوانب السماء، إذا قصدوا الصعود إليها.

القول في تأويل قوله تعالى:

دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾

﴿ دُحُوراً ﴾ أي للدحور وهو الطرد ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي شديد غير منقطع.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

﴿ إلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ أي اختلس الكلمة ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ﴾ أي لحقه شعلة نارية تنقضّ من السماء ﴿ ثَاقِبٌ ﴾ أي مضيء. كأنه يثقب الجوّ بضوئه.

تنبيه:

ذكر المفسرون أن الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء. فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم

أنهم يعلمون الغيب. فمنعهم اللّه تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب. فإنه تعالى يرميهم بها فيحرقهم.

قال ابن كثير: يعني إذا أراد الشيطان أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه. ولهذا قال جلّ جلاله ﴿ لاَ يسَّمَّعُونَ إلى الْمَلإِ الأعْلَى ﴾ أي: لئلا يصلوا إلى الملإ الأعلى، وهي السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه اللّه تعالى بما يقوله من شرعه وقدره. كما وردت الأخبار بذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّى إذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا الْحقَّ، وَهُو العَليُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، انتهى.

قال بعض علماء الفلك: كما أن العرش تحفّه الأرواح الغيبية – حسبما تقدم بيانه في آية ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، في الأعراف – فكذلك الكواكب الأخرى مسكونة مع الحيوانات والدواب بأرواح، منها الصالح (الملَك) ومنها الطالح (الشيطان) وكذلك أرضنا هذه . فيها من الملائكة ومن الشياطين مالا نبصره ﴿إنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]. ولا يخفى أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود. فعدم إدراكنا لهذه الأرواح لا يدل على عدم وجودها. كما أن عدم معرفة القدماء للميكروبات وللكهرباء التي تشاهد الآن آثارها العظيمة، لم يكن يدل على عدم وجودها إذ ذاك في العالم. فمن الجهل الفاضح إنكار الشيء لعدم معرفته أو العثور عليه. على أن لنا الآن من مسألة استحضار الأرواح أكبر دليل على وجود أرواح في هذه الأرض، لا نبصرها ولا نشعر بها. وقد قدّر اللّه تعالى أن الحيوانات في هذه الأرض، إذا خرجت عنها إلى حيث ينقطع الهواء ويبطل التنفس ، تموت في الحال. وكذلك قدر أن الأرواح الطالحة التي في أرضنا هذه، إذا أرادت الصعود إلى السماء والاختلاط بالأرواح التي في الكواكب الأخرى، انقضّ عليها، قبل أن تخرج من جوّ الأرض، شهاب من هذه الكواكب أو من غيرها، فأحرقها وأهلكها، بإفساد تركيبها ومادتها. حتى لا يحصل اتصال بين هذه وتلك، ولا تطلع على أسرار العوالم الأخرى. وهذه الشهب التي تنقضّ، إن كانت صادرة من أجرام ملتهبة، كانت ملتهبة. وإن كانت صادرة من أجرام غير ملتهبة. التهبت فيمابعد لشدة شرعتها واحتكاكها بالغازات التي تمر فيها في جوّنا هذا. ولعل في مادة الشياطين ما يجتذب إلى هذه الشهب ويتحدُ بها. كما تجتذب العناصر الكيماوية بعضها بعضاً (مثال ذلك عنصر الصوديم فإنه يجتذب إليه الأكسجين من

الماء فيحلله) ولا نقول إن جميع الشهب تنقضّ لهذا السبب، بل منها ما ينقضّ لأسباب أخرى. كاجتذاب بعض الأجرام السماوية له. ومنها ما ينقض لإهلاك الشياطين، كما بينّا هنا. والشياطين مخلوقة من مواد غازية كانت ملتهبة ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] والمراد (بالسماء الدنيا) في هذه الآية الفضاء المحيط بنا القريب منا. أي هذا الجوّ الذي نشاهده وفيه العوالم كلها. أما ما وراءه من الجواء البعيدة عنا، التي لا يمكن أن نصل إليها بأعيننا ولا بمناظيرنا، فهو فضاء محض لا شيء فيه. فلفظ (السماء) له معان كثيرة كلها ترجع إلى معنى السموّ. وتُفَسَّرُ في كل مقام بحسبه.

ثم قال: فكل مسألة جاء بها القرآن حق، لا يوجد في العلم الطبيعيّ ما يكذبها. لأنه وحي اللّه حقاً، والحق لا يناقضه الحق ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال أيضاً: يعتقد الآن علماء الفلك أن أكثر الشهب تنشأ من ذوات الأذناب. ويحتمل أن بعضها ناشئ من بعض الشموس المنحلّة، أو الباقية الملتهبة، أو من براكين بعض السيارات، أو مما لم ينطفئ من السيارات للآن. ومتى علمنا أن ذوات الأذناب والسيارات جميعاً مشتقة من الشموس، كان مصدر جميع الشهب هو الشموس أو النجوم.

(قال): وهذا يفهمنا معنى هذه الآية. اه كلامه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨]، وقوله سبحانه إخباراً عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴾ [الجن: ٨-٩].

القول في تأويل قوله تعالى:

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي فاستخبر مشركي مكة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً﴾ أي أقوى خلقة

وأمتن بنية ﴿ أم مَّنْ خلقنا ﴾ أي من السموات والأرض والجبال. كقوله تعالى: ﴿ ءأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أمِ السَّمَآءُ ﴾ [النازعات: ٢٧] الآية، وقوله ﴿ لَخَلْقُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، وفي اضطرارهم إلى الجواب بصغر خلقهم وتضاؤله عما ذكر، اعتراف بأنه لا يتعالى عليه أمر بعد هذا. كشأن البعث وغيره. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إنَّا خلقناهُم مِنْ طِينٍ لأزِبٍ ﴾ أي لزج ضعيف لا قوة فيه.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾

﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ أي من إنكارهم للبعث بعد اضطرارهم للاعتراف بما يحققه ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي من تقرير أمر البعث والاحتجاج عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ ﴾ أي بما يؤيده، أو وعظوا وخوفوا من المخالفة ﴿ لاَ يَذْكُرُونَ ﴾ أي ما يقتضيه؟ لتعنتهم وعنادهم. أو لا يخافون ولا يتعظون.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً ﴾ أي برهاناً واحتجاجاً على مصداقه، من آيات الكائنات في أنفسهم أو في الآفاق ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي يبالغون في السخرية، بدل الاعتبار والتدبر والتفكر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هذا ﴾ أي ادعاء ماذكر، والاستدلال عليه والصدع بشأنه، والقراع فيه ﴿ إلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾

﴿ أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ ءَابَاؤُنَا الأَوَّلُونَ قُلْ ﴾ أي تبكيتاً لهم.

﴿ نَعَمْ ﴾ أي تبعثون ﴿ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي ذليلون، لا جدل منكم يدفعه ولا قدرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ ﴾ أي البعثة ﴿ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي صيحة واحدة ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أي قيام من مراقدهم أحياء، أولو قوة مدركة، بها يبصرون. أو ينتظرون ما يفعل بهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أي الجزاء.

القول في تأويل قوله تعالى:

هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾

﴿ هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ احْشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي أنفسهم بالكفر والمعاصي والسعي بالفساد ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ أي وأشباههم من الفجرة. أو نساءهم الكافرات ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ .

القول في تأويل قوله تعالى:

مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾

﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي من الأصنام وغيرها، زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِراطِ الْجَحِيمِ ﴾ أي فعرفوهم طريقها ليسلكوها. والتعبير بـ (الهداية) و (الصراط) للتهكم بهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ أي احبسوهم في الموقف ﴿ إِنَّهُمْ مسؤولُونَ ﴾ أي عن عقائدهم وأعمالهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾

﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ ﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضاً، وقد كان شأنكم التعاضد في الحياة الأولى، وهو تبويخ لهم وتقريع.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

﴿ بَلْ هُمُ اليَوْمَ مُسْتَسْلِمونَ ﴾ أي منقادون مخذولون.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾

﴿ وأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتساءَلُونَ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تأتُونَنا عَنِ اليَمينِ ﴾ أي عن القهر والغلبة. أي كنتم تضطروننا إلى ما تدعوننا إليه. كما في آية ﴿ وَقَالَ الَّذينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلَّذينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أن نَّكْفُرَ باللَّهِ وَنجْعَلَ لَهُ أَنْداداً ﴾ [سبأ: ٣٣]، وقيل عن الحلف والقسم. وقيل عن جهة الخير وناحية الحق. من (اليمن) ضد الشؤم. أي توهموننا وتخدعوننا أن ما أنتم عليه أمر ميمون فيه الخير والفوز فأين مصداقه وقد نزل ما نزل؟

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ قالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمنينَ وَمَا كَانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطانٍ بَلْ كنتُمْ قَوْماً طَاغينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذائقُونَ فَأَغْوَيْناكُمْ إنَّا كُنَّا غاوِينَ فإنَّهُمْ يومئذٍ في العَذاب مُشْتَرِكُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمينَ إِنَّهُمْ كَانُواْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي عن الاستجابة للداعي إليها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾

﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُواْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ**﴾ أي لقول من يقول بالمقدمات الخيالية عن الجنون. فرد عليهم بأنه لم يأتِ بكلام مخيل.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾

﴿**بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ أي الذين هم أعقل الأمم وأحكم الحكماء. فمتى يتفقون على قول مصدره الجنون؟

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾

﴿**إِنَّكُمْ**﴾ أي بافترائكم ﴿**لَذَائِقُواْ الْعَذَابِ الأَلِيمِ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ أي في الصف متراثين، لا يحجب بعضهم عن بعض، ولا يتفاضلون في المقاعد.

القول في تأويل قوله تعالى:

يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾

﴿**يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ**﴾ أي شراب معين، جارٍ كالنهر لا ينقطع.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾

﴿**بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ لاَ فِيهَا غَوْلٌ**﴾ أي ما يغتال العقل، ولا فساد من فساد خمر الدنيا ﴿**وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ**﴾ أي تذهب عقولهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

﴿**وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ**﴾ أي على أزواجهن أو مبيضّاته تشبيهاً بالثوب المقصور، وهو المحوّر. ﴿**عِينٌ**﴾ أي كبار الأعين ﴿**كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ**﴾ أي بيض نعام في الصفاء، مستور لم يركب عليه غبار.

قال الشهاب: وهذا على عادة العرب في تشبيه النساء بها. وخصت ببيض النعام، لصفائه وكونه أحسن منظراً من سائره. ولأنها تبيض في الفلاة وتبعد ببيضها عن أن يمس. ولذا قالت العرب للنساء (بيضات الخدور) ولأن بياضه يشوبه قليل صفرة مع لمعان، كما في الدرّ. وهو لون محمود جداً. إذ البياض الصرف غير محمود. وإنما يحمد إذا شابَهُ قليل حمرة في الرجال، وصفرة في النساء. انتهى.

وحكى ابن جرير عن ابن عباس؛ أنه عنى بالبيض المكنون (اللؤلؤ).

ثم قال: والعرب تقول لكل مصون (مكنون) لؤلؤاً كان أو غيره. كما قال أبو دهبل:

وهي زهراءُ مثلُ لؤلؤةِ الغـــــوّاص ميزت مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾

﴿**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ معطوف على (يطاف) والمعنى، يشربون فيتحادثون على الشراب، كعادة أهل الشرب، عما جرى لهم وعليهم.

وقال القاشانيّ: أي يتحادثون أحاديث أهل الجنة والنار، ومذاكرة أحوال السعداء والأشقياء، مطلعين على كلا الفريقين وما هم فيه من الثواب والعقاب، كما ذكر في وصف أهل الأعراف.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾

﴿**قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ**﴾ أي في المحادثة ﴿**إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ**﴾ أي جليس في الدنيا

﴿يَقُولُ أءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أءِذا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظاماً أءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي لمبعوثون فمجزيّون. أي يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب. والمعنى: فهنا قد صدقنا ربنا وعده، وأحل بالقرين وعيده. كما أشار بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾

﴿قَالَ﴾ أي ذلك القائل ﴿هَلْ أنتم مُطَّلِعُونَ﴾ أي إلى أهل النار من كوى الجنة ومطالّها، لأريكم ذلك القرين.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾

﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ في سَوَآءِ الْجَحِيمِ﴾ أي وسطه ﴿قَالَ تَاللَّه إن كدتَّ لَتُردِينِ﴾ أي لتهلكني بالإغواء ﴿وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي﴾ أي بالهداية واللطف بي ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي معك في النار. وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾

﴿أفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إلاَّ مَوْتَتَنَا الأولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ من تتمة كلامه لقرينه، تقريعاً له. أو معاودة إلى محادثة جلسائه، تحدثاً بنعمة اللّه تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿إنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لمثْلِ هذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أي لنيل مثله، فليجدّ المجدّون.

ولما وصف ملاذّ أهل الجنة، تاثره بمطاعم أهل النار، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾

﴿أذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ وهي شجرة كريهة المنظر والطعم، كما ستذكر صفتها.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾

﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً**﴾ أي محنة وعذاباً ﴿**لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا**﴾ أي حملها ﴿**كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾ أي مثل ما يتخيل ويتوهم من قبح رؤوس الشياطين، فهي قبيحة الأصل والثمر والمنظر والملمس. قال الزمخشريّ: وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهية وقبح المنظر. لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير. فيقولون في القبيح الصورة (كأنه وجه شيطان) (كأنه رأس شيطان) وإذا صوره المصوّرون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدرّ وأهوله. كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه. فشبهوا به الصورة الحسنة. قال اللّه تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وهذا تشبيه تخييليّ. انتهى. أي لأمر مركوز في الخيال. وبه يندفع ما يقال إنه تشبيه بما لا يعرف، وذلك لأنه لا يشترط أن يكون معروفاً في الخارج. بل يكفي كونه مركوزاً في الذهن والخيال. الاترى امرأ القيس – وهو ملك الشعراء – يقول:

* ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوال *

وهو لم يَرَ الغول. والغول نوع من الشياطين، لأنه في خيال كل أحد مرتسم بصورة قبيحة، وإن كان قابلاً للتشكل.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾

﴿**فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا**﴾ أي من طلعها ﴿**فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ**﴾ أي لغلبة الجوع أو الإكراه على أكلها.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾

﴿**ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عليها لَشوباً مِّنْ حَمِيمٍ**﴾ أي لشراباً كالصديد أو الغساق، ممزوجاً من ماء متناه في الحرارة، يقطع أمعاءهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

﴿ **ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ** ﴾ أي مصيرهم ﴿ **لَإِلَى الْجَحِيمِ** ﴾ أي إلى دركاتها. أو إلى نفسها لا مفر لهم منها ولامحيص كيفما تحولوا. قال ابن كثير: أي ثم إن مردّهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج وسعير تتوهج. فتارة في هذا وتارة في هذا. كما قال تعالى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية. وهو تفسير حسن قويّ. انتهى.

ومن لطائف الإشارات في هذه الآية، ما قاله القاشانيّ. وعبارته: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ وهي شجرة النفس الخبيثة المحجوبة النابتة في قعر جهنم المتشعبة أغصانها في دركاتها القبيحة الهائلة ثمراتها من الرذائل والخبائث كأنها من غاية القبح والتشوّه والخبث بالتنفر ﴿ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ أي تنشأ منها الدواعي المهلكة والنوازع المردية الباعثة على الأفعال القبيحة والأعمال السيئة. فتلك أصول الشيطنة ومبادئ الشر والمفسدة، فكانت رؤوس الشياطين ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ يستمدون منها ويتغذون ويتقوّون، فإن الأشرار غذاؤهم من الشرور ولا يلتذون إلا بها ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ بالهيئات الفاسقة والصفات المظلمة، كالممتلئ غضباً وحقداً وحسداً وقت هيجانها ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ الأهواء الطبيعية والمُنى السيئة الرديئة، ومحبات الأمور السفلية، وقصورالشرور الموبقة، التي تكسر بعض غلة الأشرار ﴿ **ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ** ﴾ لغلبة الحرص والشره، بالشهوة والحقد والبغض والطمع وأمثالها. واستيلاء دواعيها مع امتناع حصول مباغيها. انتهى.

وهذه الإشارات من المجازات التي تتسع لها اللغة. لأنها لا تنحصر في الحقيقة، ولا يقال إنها المرادة هنا، لنبوّها عن نظائرها من آيات الوعيد، واللّه أعلم. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾

﴿ **إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ** ﴾ تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال. و(الإهراع) الإسراع الشديد كأنهم يزعجون على

الإسراع على آثارهم، وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير نظر وبحث، بل مجرد تقليد وترك اتباع دليل. قال الرازيّ: ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد، لكفى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي أنبياء حذروهم العواقب.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أي الذين أُنذروا وخوِّفوا. فقد أُهلكوا جميعاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

﴿ إلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي الذين أخلصوا دينهم للّه. أو الذين أخلصهم تعالى لدينه. على القراءتين. أي فإنه تعالى نصرهم وجعل العاقبة لهم. ثم أشار تعالى إلى أنبائهم، تثبيتاً لفؤاده صلوات اللّه عليه. وتبشيراً لأتباعه، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ أي بقوله ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيّاراً ﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ أي نحن بهلاك قومه. لأنه لا يجيب المضطر غيره. ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ أي من الغرق والطوفان. والمراد بأهله، من آمن معه ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ أي في الأرض بعد هلاك قومه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ أي أبقينا عليه في الأمم بعده ثناء حسناً، فمفعول (تركنا) محذوف، أو ما حكاه تعالى بقوله ﴿سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ أي أن يسلموا عليه إلى يوم القيامة. أي أن يقولوا هذه الجملة . قال السمين: قوله ﴿سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ﴾ مبتدأ وخبر. وفيه أوجه: أحدها أنه مفسر لـ (تركنا) والثاني أنه مفسر لمفعوله. أي تركنا عليه شيئاً وهو هذا الكلام. أو ثَمَّ قول مقدر. أي فقلنا سلام . أو ضمن (تركنا) معنى (قلنا) أو سلط (تركنا) على ما بعده. وقرئ (سلاماً) وهو مفعول به لـ (تركنا).

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لما أثيب به من التكرمة، بأنه مجازاة له على إحسانه، وهو مجاهدته في إعلاء كلمة الله، والدعوة إلى الحق ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المصدقين، وتعليل إحسانه بالإيمان، إظهار لفضل الإيمان ومزيته. حيث مدح من هو من كبار الرسل به. فالمقصود بالصفة مدحها نفسها، لا مدح موصوفها. وذلك لأن الإيمان أساس لكل خير يوجد، ومركز لدائرته، ومسك خاتمته.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ أي من كفار قومه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ﴾ أي ممن شايعه وتابعه في الإيمان والدعوة القوية إلى التوحيد.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾

﴿**إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ أي أقبل إلى توحيده بقلب خالص من الشوائب، باق على الفطرة، سليم عن النقائص والآفات، محافظ على عهد التوحيد الفطريّ، منكر على من غيّر وبدّل.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾

﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ**﴾ أي من دون اللّه.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾

﴿**أَئِفْكاً ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ**﴾ أي أتريدون بطريق الكذب، آلهة دون اللّه؟

القول في تأويل قوله تعالى:

فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿**فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ أي بمن هو الحقيق بالعبادة، لكونه ربّاً للعالمين، حتى تركتم عبادته وأشركتم به غيره، والمعنى: لا يقدّر في وهم ولا ظن ما يصد عن عبادته. لأن استحقاقه للعبادة أظهر من أن يختلج عرق شبهة فيه. فأنكر ظنهم الكائن في بيان استحقاقه للعبادة. وهو الذي حملهم على عبادة غيره. أو المعنى: فما ظنكم به؟ ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره؟ وعلى كلٍّ، فالاستفهام إنكاري. والمراد من إنكار الظن إنكار ما يقتضيه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾

﴿**فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ**﴾ أي ليريهم على أنه يستدل بها على شيء لأنهم كانوا منجّمين.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾

﴿ **فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ** ﴾ أي مريض لا يمكنني الخروج معكم إلى معيّدكم. ترخص عليه السلام بذلك. ليتخلص من شهود زورهم ومنكراتهم وأفانين شركهم، مما تجوزه المصلحة. أو عنى أنه سقيم القلب. تشبيهاً لغمه وحزنه بالمرض، على طريق التشبيه. أو أراد أنه مستعد للموت استعداد المريض. فهو استعارة أو مجاز مرسل.

قال الزمخشري: والذي قاله إبراهيم عليه السلام، معراض من الكلام. ولقد نوى به ان من في عنقه الموت، سقيم. ومنه المثل (كفى بالسلامة داء) وقول لبيد:

فدعوتُ رَبِّي بالسلامة جاهداً ليُصِحَّني، فإذا السلامةُ دَاءُ

ومات رجل فجأة ، فالتفّ عليه الناس وقالوا: مات وهوصحيح. فقال أعرابيٌّ:

أصحيحٌ مَنِ الموت في عنقه؟ انتهى.

وقال السيوطي في (الإكليل): في الآية استعمال المعاريض والمجاز للمصلحة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾

﴿ **فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ** ﴾ أي إلى معيّدهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾

﴿ **فَرَاغَ إِلَى ءَالِهَتِهِمْ** ﴾ أي ذهب إليها في خفية ﴿ **فَقَالَ** ﴾ أي للأصنام استهزاء ﴿ **أَلَا تَأْكُلُونَ** ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ﴾ أي بإيجاب ولا سلب ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي هجم عليهم ﴿ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ أي التي هي أقوى الباطشتين، فكسرها. ﴿فَأَقْبَلُواْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى إبراهيم بعد ما رجعوا ﴿يَزِفُّونَ﴾ أي يسرعون لمعاتبته على ما صدر منه. فأخذ عليه السلام يبرهن لهم على فساد عبادتهم ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أي من الأصنام ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وما تعملونه من الأصنام المنوعة الأشكال، المختلفة المقادير. ولما قامت عليهم الحجة، عدلوا إلى أخذه باليد والقهر.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾

﴿قَالُوا ابْنُواْ لَهُ﴾ أي لإحراقه ﴿بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ أي الأذلّين بإبطال كيدهم. جعل النار عليه برداً وسلاماً.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي مهاجر إلى بلد أعبد فيه ربي، وأعصم فيه ديني. قال الرازي: فيه دليل على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء، تجب مهاجرته. وذلك لأن إبراهيم عليه السلام، مع ما خصه تعالى به من أعظم أنواع النصرة، لما أحسّ من قومه العداوة الشديدة، هاجر. فَلأنْ يجب على غيره. بالأولى. وقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي إلى ما فيه صلاح ديني، أو إلى مقصدي. وإنما بتّ القول لسبق وعده تعالى. إذ تكفل بهدايته. أو لأن من كان مع اللّه كان اللّه معه[1] (احفظ اللّه يحفظك).

القول في تأويل قوله تعالى:

رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ولداً صالحاً يعينني على الدعوة والطاعة ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ﴾ أي متسع الصدر حسن الصبر والإغضاء في كل أمر، والحلم رأس الصلاح وأصل الفضائل.

---

(١) أخرجه الترمذي في: القيامة، ٥٩- باب حدثنا بشر بن هلال.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ**﴾ أي السنّ الذي يقدر فيه على السعي والعلم ﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ**﴾ أي: إني أمرت في المنام بذبحك - ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة - فانظر هل تصبر على إمضائي أمر الرؤيا والعمل بظاهرها؟ ﴿**قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**﴾، أي يأمرك اللّه به. فإن كان ذاك أمراً من لدنه فأمضه. قال القاضي: ولعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأموراً به. أو علم أن رؤيا الأنبياء حق، وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر، ثم قال: ولعل الأمر في المنام دون اليقظة، لتكون مبادرتهما إلى الامتثال، أدل على كمال الانقياد والإخلاص. انتهى.

قال الرازي: الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب، أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة اللّه، فتكون فيه قرة عين لإبراهيم، حيث يراه قد بلغ في الحِلْم إلى هذا الحد العظيم. وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية. ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة،والثناء الحسن في الدنيا. وقوله: ﴿**سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ أي على الذبح، أو على قضاء اللّه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾

﴿**فَلَمَّآ أَسْلَمَا**﴾ أي استسلما وانقادا لأمره تعالى بدون إبطاء، واستلّ إبراهيم السكين، ﴿**وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ**﴾ أي صرعه على شقه، فوقع جبينُه على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة. و(تله) أصل معناه: رماه على التلّ، وهو التراب المجتمع. كـ (تربه). ثم عم لكل صرع.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾

﴿**وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا**﴾ أي لا تذبحه وقد قمت بمصداقها في بذل الوسع من الأخذ بإمضاء ما تشير إليه وكمال الطاعة في هذا الشاقّ. وأوتيت

أجر الامتثال والصبر والثبات. وفي جواب (لما) ثلاثة أوجه، أظهرها أنه محذوف. أي نادته الملائكة. أو ظهر صبرهما. أو أجزلنا لهما أجرهما، الثاني في أنه ﴿وتلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ بزيادة (الواو) وهو رأي الكوفيين والأخفش. الثالث أنه ﴿ونَادَيْنَاهُ﴾ والواو زائدة أيضاً. ﴿إنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي باللطف والعناية والنداء والوحي والفرج بعد الشدة.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾

﴿إنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ أي الاختيار البيّن الذي يتميز فيه المخلص من غيره. إشارة إلى أن هذا الأمر كان ابتلاء وامتحاناً لإبراهيم في صدق الخلة لله، وتضحية أعز عزيز لديه، وأحب محبوب عنده، لأمر ربه تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾

﴿وفَدَيْنَاهُ بِذِبحٍ عَظِيمٍ﴾ أي رزقناه ما يذبح بدلاً عنه وفداء له، منة وتطولاً. وقد روي أنه عليه السلام لما نودي، حانت منه التفاتة إلى ما حوله، فأبصر كبشاً قد انتشب قرناه في شجرة. فتم به المرئي في المنام المقصود به القربان لله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

﴿وتَركْنا عَلَيْه في الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى إبْراهِيمَ﴾ أي مثل ما تركنا على نوح. كما تقدم بيانه وإعرابه ﴿كَذَلكَ نَجزِي الْمُحْسِنينَ إنَّهُ مِن عِبادنا الْمُؤْمنين وبَشَّرناهُ بإِسْحاقَ نَبيّاً مِنَ الصَّالحِينَ وبَارَكْنا عَلَيْه﴾ أي على إبراهيم ﴿وعَلَى إسْحَاقَ﴾ أي: بتكثير الذرية وتسلسل النبوة فيهم، وجعلهم ملوكاً، وإيتائهم ما لم يؤتَ أحد ﴿ومِنْ ذُرِّيّتِهِما مُحْسنٌ﴾ أي في علمه ﴿وظَالِمٌ لنَفْسِهِ﴾ أي بالكفر والمعاصي ﴿مُبِينٌ﴾ أي ظاهر الظلم.

تنبيهات:

الأول – يروي المفسرون ههنا في قصة الذبح روايات منكرة لم يصحّ سندها ولا متنها: بل ولم تحسن، فهي معضلة تنتهي إلى السّدّي وكعب. والسّدّي حاله معلوم في ضعف مروياته. وكذلك كعب.

قال ابن كثير رحمه الله: لما أسلم كعب الأحبار في الدولة العمرية، جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديماً: فربما استمع له عمر. فترخص الناس في استماع ما عنده عنه، غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرف واحد مما عنده. انتهى.

ولقد صدق رحمه الله. ولذا لا نرى التزيد على أصل ما قص في التنزيل من الضروريّ له، إلا إذا صح سنده، أو اطمأن القلب به. وقد وَلِعَ الخطباء في دواوينهم برواية هذه القصة في خطبة الأضحى من طرقها الواهية عند المحدثين. ويرونها ضربة لازب على ضعف سندها وكون متنها منكراً أيضاً أو موضوعاً. ولما صنفتُ مجموعة الخطب حذفتُ هذه الرواية من خطبة الأضحى ككل مرويّ ضعيف في فضائل الشهور والأوقات، واقتصرتُ على جياد الأخبار والآثار. وذلك من فضل الله علينا فلا نحصي ثناء عيهى. وأمثل ما روي في هذا النبأ من الآثار ما أخرجه الإمام أحمد[١] عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً، قال: لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك، عرض له الشيطان عند السعي، فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى جمرة العقبة. فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب. ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، ثم تلّه للجبين، وعلى إسماعيل عليه السلام قميص أبيض. فقال له: يا أبت! إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنني فيه. فعالجه ليخلصه، فنودي من خلفه: أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا. فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين، قال ابن عباس: لقد رأيتُنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش.

الثاني – قال السيوطيّ في (الإكليل): في هذه الآية أن رؤيا الأنبياء وحي، وجواز نسخ الفعل قبل التمكن، وتقديم المشيئة في كل قول. واستدل بعضهم بهذه القصة على أن من نذر ذبح ولده، لزمه ذبح شاة.

(١) أخرجه في المسند ١ /٢٩٧. والحديث رقم ٢٧,٧ .

ثم قال السيوطيّ: فسّرالذّبح العظيم في الأحاديث والآثار بكبش. فاستدل به المالكية على أن الغنم في التضحية أفضل من الإبل. انتهى.

الثالث – استدل بالآية على أنه تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه – كما ذكره الرازي – وذلك في باب الابتلاء. أي ابتلاء المأمور في إخلاصه وصدقه، فيما يشق على النفس تحمله.

الرابع – يذكر كثير الخلافَ في الذبيح، قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد): وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى من أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم. فإن فيه إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه (بكره) . وفي لفظ (وحيده) ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده. والذي غرّ أصحاب هذا القول إن في التوارة التي بأيديهم (اذبح ابنك إسحاق) قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم . لأنهم تناقض قوله (بكرك) (وحيدك) ولكن يهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويختارونه دون العرب. ويابى الله إلا أن يجعل فضله لأهله. وكيف يسوغ أن يقال إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧٠– ٧١]، فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه. ولا ريب أن يعقوب داخل في البشارة. فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ الواحد. وهذا ظاهر الكلام وسياقه. فإن قيل، لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجروراً عطفاً على إسحاق، فكانت القراءة ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ أي ويعقوب من وراء إسحاق. قيل لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به. لأن البشارة قول مخصوص: وهي أول خبر سارّ صادق. وقوله: ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ جملة متضمنة بهذه القيود، فيكون بشارة بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية. أو لما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول. كأن المعنى: وقلنا لها من وراء إسحاق يعقوب والقائل إذا قال: بشرت فلاناً بقدوم أخيه، وثقله في أثره، لم يعقل منه إلا بشارة بالأمرين جميعاً. هذا مما لا يستريب ذو فهم فيه البتة. ثم يضعف الجر

أمر آخر، وهو ضعف قولك (مررت بزيد ومن بعده عمرو) لأن العاطف يقوم حرف الجر، فلا يفصل بينه وبين المجرور: كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور، ويدل عليه أنه سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه في هذه السورة، قال: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنَ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِيْ الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٣-١١١]، ثم قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١١٢]، فهذا بشارة من اللّه له، شكراً على صبره على ما أمر به. وهذا ظاهر جداً في أن المبشر به غير الأول. بل هو كالنص فيه . فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته. أي لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر اللّه، جازاه اللّه على ذلك، بأن أعطاه النبوة. قيل: البشارة وقعت على المجموع، على ذاته ووجوده وأن يكون نبيّاً. ولهذا ينصب ﴿نبيّاً﴾ على الحال المقدر أي مقدراً نبوته. فلا يمكن إخراج البشارة أن يقع على الأصل، ثم يخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة. هذا محال من الكلام. بل إذا وقع البشارة على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى، وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر. كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار، تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر اللّه. ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة، دون إسحاق وأمه. ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل. وكان النحر بمكة، من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً. ولو كان الذبح بالشام، كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة. وأيضاً فإن اللّه سبحانه سمى الذبيح حليماً لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه. ولما ذكر إسحاق سماه عليماً فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٥] إلى أن قال ﴿قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وهذا إسحاق بلا ريب، لأنه من امرأته وهي المبشرة به. وأما إسماعيل فمن السرية. وأيضاً فإنهما بشّرا به على الكبر واليأس من الولد. وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك. وأيضاً فإن اللّه سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده. وإبراهيم لما سأل ربه الولد ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته،واللّه تعالى قد اتخذه خليلاً. والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة وأن لا

يشارك بينه وبين غيره فيها. فلما أخذ الولدُ شعبةً من قلب الوالد، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره الجليل بذبح المحبوب. فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبة اللّه أعظم عنده من محبة الولد، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة. إذْ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس فيه، فقد حصل المقصود، فنسخ الأمر، وفُدي الذبيح، وصدق الخليل الرؤيا، وحصل مراد الرب. ومعلوم أن هذا الامتحان والاختيار. إنما حصل عند أول مولود. ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول. بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة، ما يقتضي الأمر بذبحه. وهذا في غاية الظهور. وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة. فإنها كانت جارية. فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة. فأمر اللّه سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة، ليبرّد عن سارة حرارة الغيرة. وهذا من رحمته ورأفته . فكيف يأمره سبحانه بعد هذا، أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله هذا مع رحمة اللّه لها وإبعاد الضرر عنها وخيرته لها. فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية؟ بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية، فحينئذ يرق قلب الست على ولدها. وتتبدل قسوة الغيرة رحمة، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها، وأن اللّه لا يضيع بيتاً، هذه وابنها منهم، ويرى عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة. وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم، إلى ذبح الولد، آلت إلى ما آلت إليه، من جعل آثارهما وموطئ أقدامهما مناسك لعبادة المؤمنين، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة. وهذا سنته تعالى فيمن يريد رفعته من خلقه، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره. قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥]، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١]، انتهى.

وقال السيوطي في (الإكليل): واستدل بقوله تعالى بعد ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ [الصافات:١١٢]، من قال إن الذبيح إسماعيل. وهو الذي رجحه جماعة. واحتجوا له بأدلة. منها وصفه بالحلم وذكر البشارة بإسحاق بعده. والبشارة بيعقوب من وراء إسحاق. وغير ذلك، وهي أمور ظنية لا قطعية، ثم قال: وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضي القطع أو يقرب منه – ولم أر من سبقني إلى استنباطه – وهو أن البشارة وقعت مرتين. مرة في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي

أذْبَحُكَ ﴾ [الصافات:٩٩-١٠٢]، فهذه الآية قاطعة في أن هذا المبشر به هو الذبيح. ومرة في قوله: ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] الآية. فقد صرح فيها أن المبشر به إسحاق. ولم يكن بسؤال من إبراهيم. بل قالت امرأته إنها عجوز. وإنه شيخ. وكان ذلك في الشام لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط وهو في آخر أمره. أما البشارة الأولى لما انتقل من العراق إلى الشام، حين كان سنه لا يستغرب فيه الولد، ولذلك سأله. فعلمنا بذلك أنهما بشارتان في وقتين، بغلامين. أحدهما بغير سؤال، وهو إسحاق صريحاً. والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره. فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ أي بالنبوة والرسالة، والاصطفاء على عالَمي زمانهما.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾

﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو قهر فرعون لهم، بذبح الأولاد ونهاية الاستعباد.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾

﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُواْ هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ أي مع ضعفهم وقوة فرعون وقومه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾

﴿ وءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ أي البليغ في بيانه للأحكام والتشريعات، والآداب.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾

﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي في باب الاعتقاد والمعاملات الموصل

رعايته والسلوك عليه، إلى السعادة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهو من أنبياء بني إسرائيل من بعد زمن سليمان. أرسله الله لما انتشرت الوثنية في الإسرائيليين، وساعد على انتشارها بينهم ملوكهم،وبنوا لها المذابح وعبدوها من دون الله تعالى، ونبذوا أحكام التوراة ظهرياً. فقام إلياس عليه السلام يوبخهم على ضلالهم ويدعوهم إلى التوحيد، ويسمى في التوراة (إيليا) وله نبأ فيها كبير.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ أي عذاب الله ونقمته.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً ﴾ أي تعبدونه أو تطلبون الخير منه؟ وهو صنم من أصنام الفينيقيين، أقاموا له ولغيره من الأوثان معابد ومذابح وكهنة، يعظمون من شأنهم ويقيمون لهم المآدب والأعياد الحافلة. ويقدمون لهم ضحايا بشرية **﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾** أي تتركون عبادته. قال القاضي: وقد أشار فيه إلى المقتضي للإنكار، المعني بالهمزة. ثم صرح به بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ الأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي في العذاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾

﴿**إلا عِبَادَ اللَّه الْمُخْلَصِين**﴾ أي الذين آمنوا به واتبعوه ﴿**وَتَركْنَا عَلَيْهِ في الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ**﴾ بكسر الهمزة وسكون اللام موصولة بـ (ياسين). وقرئ آل ياسين بإضافة آل (بمعنى أهل) إليه. وكله من التصرف في العَلَم الأصلي، الذي هو (إيليا) على قاعدة العرب في الأعلام العجمية، إذا أرادت أن تلفظها في الاستعمال، وتخففها على الألسنة.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾

﴿**إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسنين إِنَّهُ من عبادنَا الْمُؤْمنين وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ أي للدعاء إلى الله والنهي عن الفواحش ﴿**إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ**﴾ أي من عذاب قومه المنذرين.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾

﴿**إِلاَّ عَجُوزاً**﴾ وهي امرأته، فإنها وإن خرجت عن مكان عذابهم، كانت ﴿**في الْغَابِرِينَ**﴾ أي في حكم الباقين في العذاب، لكونها على دين قومها.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾

﴿**ثُمَّ دَمَّرْنَا**﴾ أي أهلكنا ﴿**الآخَرِينَ**﴾ بجعل قريتهم عاليها سافلها، وإمطار حجارة من سجيل عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾

﴿ وإنَّكُمْ ﴾ أي يا أهل مكة ﴿ لَتمُرُّونَ عَلَيْهِم مُصْبِحِينَ وبِاللَّيْلِ ﴾ أي فترون دائماً علامات مؤاخذتهم ﴿ أفَلا تَعْقِلُونَ وَإنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي إلى أهل نينوى للتوحيد، والزجر عن ارتكاب المآثم.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾

﴿ إذْ أبَقَ ﴾ أي: بغير إذن ربه عن قومه المرسل إليهم ﴿ إلى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي السفينة المملوءة، ليركب منها إلى بلد آخر. روي أنه نزل من يافا وركب الفلك إلى ترسيس. فهبت ريح شديدة كادت تغرقهم. فاقترعوا ليعلموا بسبب مَن، أصابهم هذا البلاء. فوقعت على يونس. فألقوه في البحر. وهو معنى قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾

﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أي قارع ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أي المغلوبين بالقرعة. وأصله الزلق عن الظفر.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ﴾ أي ابتلعه ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي آت بما يلام عليه من السفر بغير أمر ربه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾

﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي الذاكرين الله بالتسبيح والإنابة والتوبة، في بطن الحوت.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

﴿ لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لكان بطنه قبراً له إلى يوم القيامة. أي لكن رحمناه بتسبيحه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ﴾ أي حملنا الحوت على طرحه باليبس من الشط ﴿وَهُوَسَقِيمٌ﴾ أي مما ناله من هذا المحبس الذي يأخذ بالخناق.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْه شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ أي لتقيه من الذباب والشمس.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾

﴿وأَرْسَلنَاهُ﴾ أي بعد ذلك، بأن أمرناه ثانية بالذهاب ﴿إِلَى مِائَة أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ وهم قومه المرسل إليهم، الذين أبق عن الذهاب إليهم أولاً. و(أو) للإضراب. أو بمعنى الواو أو للشك بالنسبة إلى مرأى الناظر. أي إذا رآها الرائي قال: هي مائة ألف أو أكثر. والغرض الوصف بالكثرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

﴿فَآمَنُوا﴾ أي فسار إليهم ودعاهم إلى الله، وأنذرهم عذابه إن يرجعوا عن الكفر والغي والضلال والفساد والإفساد. فاشفقوا من إنذاره واستكانوا لدعوته وآمنوا معه ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ﴾ أي حين انقضاء آجالهم بالعيش الهني والمقام الأمين، ببركة الإيمان والعمل الصالح. وإنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص من قوله: ﴿وَتركْنَا عَلَيْهِ﴾ الخ اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي قريشاً المنذرين بأنباء الرسل وقومهم ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾

أي سلهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها. جعلوا للّه الإناث ولأنفسهم الذكور، في قولهم (الملائكة بنات اللّه) مع كراهتهم الشديدة لهنّ، ووأدهم واستنكافهم من ذكرهن .

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿ **أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ** ﴾ أي حاضرون، حتى فاهوا بتلك العظيمة.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾

﴿ **أَلا إِنَّهُم مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ** ﴾ أي صدر منه الولد. مع أن الولادة من خواص الأجسام القابلة للفساد ﴿ **وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ أي في مقالتهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

﴿ **أَصْطَفَى الْبَنَاتِ** ﴾ أي اختار الإناث ﴿ **عَلَى الْبَنِينَ** ﴾ أي الذكور.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾

﴿ **مَا لَكُمْ** ﴾ أي: أيّ شيء عرض لعقولكم ﴿ **كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾ بنسبة الناقص إلى المقام الأعلى، وتخيّركم الكامل.

لطيفة:

قال الزمخشريّ: قال قلت: ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ ﴾ بفتح الهمزة، استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد، فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات؟ قلت: جعله من كلام الكفرة، بدلاً عن قولهم ﴿ وَلَدَ اللَّهُ ﴾ وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضي اللّه عنهما. وهذه القراءة، وإن كان هذا محملها، فهي ضعيفة. والذي أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها. وذلك قوله ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ و﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فمن جعلها للإثبات، فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين. انتهى. /

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾

﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أنه منزه عن ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ أي حجة واضحة وبرهان قاطع. ثم لايجوز أن يكون ذلك عقلياً، لاستحالته عند الفعل. فغايته أن يكون مأثوراً عن أسفار مقدسة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ أي المسطور فيه ذلك عن وحي سماوي ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في دعواكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيهِمْ سُلطَاناً فَهُوَ يَتكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣٥]، وفيه إشعار بأن المدار في الدعوى على البرهان البين. وأنها بدونه لايقام لها وزن.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّة نَسَباً﴾ أي قرباً منه. قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى. فقال أبو بكر رضي الله عنه: فَمَنْ أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن. وكذا قال قتادة وابن زيد. ثم أشار إلى أن لانسبة تقتضي النسب بوجه ما. عدا عن استحالة ذلك عقلاً، بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَت الْجِنَّةُ﴾ أي المنسوب إليهم هذا النسب ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي في النار يوم القيامة. لكون الجنة كالجن، علماً في الأغلب للفرقة الفاسقة عن أمر ربها من عالم الشياطين. أي: فالمنسوب إليهم يتبرؤون من هذه النسبة، لما يعلمون من أنفسهم أنهم من أهل السعير، لا من عالم الأرواح الطاهرة، فما بال هؤلاء المشركين يهرفون بما لايعرفون؟وفسر بعضهم (الجنة) بالملائكة المحدّث عنها قبلُ. والضمير في (إنهم) للكفرة. ولعل ما ذكرناه أولى، لخلوّه عن تشتيت الضمائر، ولموافقته للأغلب من استعمال الجن والجنة.

وذلك فيما عدا الملائكة. وقلنا (الأغلب) لما سمع من إطلاق الجن في الملائكة.

قال الأعشى يذكر سليمان عليه السلام:

وسخَّرَ من جنِّ الملائك تسعةً قياماً لَدَيْهِ يَعملون مَحَارِبَا

وقال الراغب: الجن يقال على وجهين: أحدهما للروحانيين المستترة عن الحواس كلها، بإزاء الإنس. فعلى هذا تدخل فيه الملائكة. وقيل: بل الجن بعض الروحانيين. وذلك أن الروحانيين ثلاثة: أخيار وهم الملائكة. وأشرار وهم الشياطين. وأوساط فيهم أخيار وأشرار، وهم الجن، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن:١] إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجن:١٤]. انتهى.

وردَّ إطلاق الجن على الملائكة العلامةُ الفاسي في شرحه على (القاموس) فقال: تفسير الجن بالملائكة مردود. إذ خلق الملائكة من نور لا من نار كالجن. والملائكة معصومون. ولا يتناسلون ولا يتّصفون بذكورة وأنوثة، بخلاف الجن. ولهذا قال الجماهير: الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إلا إبليسَ﴾ [البقرة:٣٤]، منقطع أو متصل. لكونه كان مغموراً فيهم، متخلقاً بأخلاقهم. انتهى. وهو يؤيد ماذهبنا إليه. وبيت الأعشى لا يصلح حجة، لفساد مصداقه. لأن سليمان لم تسخَّر الملائكة لتشيد له المباني. وليس ذلك من عملهم عليهم السلام. وقد مر الكلام على ذلك في تفسير سورة (سبأ).

القول في تأويل قوله تعالى:

سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾

﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ أي من الولد والنسب. وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

﴿**إلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾ استثناء من (المحضرين) الذين هم الجنة، متصل على القول الأول، أي المؤمنين منهم. ومنقطع على الثاني. أو استثناء منقطع من (واو) يصفون. هذا،وبقي وجه في الآية لم يذكروه. وهو أن يراد بالنسب المناسبة والمشاكلة في العبادة. ويراد بالجنة الملائكة. ويكون المراد من الآية الإخبار عمن

عبد الملائكة من العرب وجعلوهم نداً ومثلاً له تعالى، وحكاية لضلال آخر لهم، غير ضلال دعواهم، أنهم بنات الله سبحانه، من عبادتهم له. مع أنهم عليهم السلام يعلمون أن هؤلاء الضالين محضرون في العذاب. والآية في هذا كآية ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]، وكان السياق من هنا إلى آخر، كالسياق في طليعة السورة. كله في تقرير عبودية الملائكة له تعالى، وكونها من مخلوقاته الصافّة لعبادته، فأنّى تستحق الربوبية؟ والله أعلم. وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عود إلى خطابهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾

﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ أي مفسدين أحداً بالإغواء.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾

﴿إِلاَّ مَنَ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أي ضالّ مثلكم. مستوجب للنار، قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: فإنكم أيها المشركون بالله ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من الآلهة والأوثان ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْه بفَاتنينَ﴾ أي ما انتم على ما تعبدون من دون الله بمضلين أحداً، ﴿إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أي مَن سبق في علمي انه صال الجحيم. وقد قيل: إن معنى (عليه) به. انتهى.

ثم بين تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية، للرد على عبدتهم، بقوله حاكياً عنهم:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾

﴿وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي في العبودية وتسخيره فيما يريده تعالى منه. لا

يتعدى فيه طوره، ولا يجاوز منه قدره.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ أي في أداء الطاعة ومنازل الخدمة التي نؤمر بها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ أي المنزهون الله عما يصفه به الملحدون. أو المصلون له خشوعاً لعظمته، وتواضعاً لجلاله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾

﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴾ أي مشركو قريش.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾

﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴾ أي كتاباً من الكتب التي نزلت عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي لأخصلنا العبادة له. فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار، والكتاب الذي هو أهدى الكتب والمعجز من بينها.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

﴿ فَكَفَرُواْ بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة كفرهم. وهذا كقوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ [فاطر: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى

طَائِفَتَيْنِ مِنَ قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٦- ١٥٧].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي وعدنا لهم الأزليّ، وهو:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا ﴾ أي الرسل ومن آمن معهم ﴿ لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ أي الظاهرون على أعدائهم، والمالكون لنواصيهم كقوله تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

القول في تأويل قوله تعالى:

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٤﴾

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم إعراض الصفوح الحليم عمن ينال منه. كقوله تعالى: ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ [الأحزاب:٤٨]، وقوله: ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥]، ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أي إلى استقرار النصر لك.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ أي بصرهم وعرفهم عاقبة البغي والكفر، وما نزل بمن أُنذر قبلهم، أو أوضح لهم الدلائل والحجج في مجاهدتك إياهم بالقرآن والوحي. فإن لم يبصروا الآن، ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أي ما قضينا لك من التأييد والنصرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي قبل حلول أجله، وإنه لآت، لأنه يوم الفتح الموعود بـه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي بقربهم وفنائهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي فبئس الصباح صباح من أنذرتهم بالرسل فلم يؤمنوا. لأنه يوم هلاكهم ودمارهم. قال الزمخشريّ: مثّل العذاب النازل بهم، بعد ما أنذروه فأنكروه، بجيش أنذر بهجومه بعضُ نصّاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أخذوا أهبتهم، ولا دبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم، حتى أناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة، وقطع دابرهم. وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً. فسميت الغارة (صباحاً) وإن وقعت في وقت آخر. وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك، إلا لمجيئها على طريقة التمثيل. انتهى. أي فهي استعارة تمثيلية. أو في الضمير استعارة مكنية، والنزول تخييلية.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قال الزمخشريّ: إنما ثنى ذلك ليكون تسلية على تسلية، وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد. وفيه فائدة زائدة. وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول. وإنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به من الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة. وقيل: أريد بأحدهما عذاب الدنيا، وبالآخر عذاب الآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي المنعة والقدرة والغلبة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي من الشريك والولد ونحوهما.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي سلام وأمان وتحية على المرسلين المبلغين رسالات ربهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على نعمه، التي أجلُّهَا إرسال الرسل لإظهار أسمائه الحسنى وشرائعه العليا، وإصلاح الأولى والأخرى.

فوائد في خواتم هذه السورة:

الأولى – روى ابن جرير عن الوليد بن عبد اللّه قال: كانوا لا يصفّون في الصلاة حتى نزلت ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ فصفوا. وقال أبو نضرة: كان عمر رضي اللّه عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال: أقيموا صفوفكم، استقيموا قياماً، يريد اللّه بكم هدى الملائكة. ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ تأخّر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وفي صحيح مسلم(١) عن حذيفة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة. وجعلت لنا الأرض مسجداً. وتربتها لنا طهوراً.

الثانية – روى الشيخان(٢) عن أنس رضي اللّه عنه قال: صبّح رسول اللّه ﷺ خيبر. فلماخرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد واللّه! محمد والخميس. فقال النبيّ ﷺ: اللّه أكبر خربت خيبر (إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين). دَلّ تمثله ﷺ بالآية على شمولها لعذاب الدنيا، أولاً وبالذات.

الثالثة – قال ابن كثير: لما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص، بدلالة المطابقة. ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال المطلق مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص – قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ الآيات.

الرابعة – روى ابن حاتم عن الشعبيّ مرسلاً: من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى

---

(١) أخرجه في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٤.
(٢) أخرجه البخاري في: الأذان، ٦– باب ما يحقن بالأذان من الدماء، حديث ٢٤٦.
وأخرجه مسلم في: النكاح، حديث رقم ٨٧.

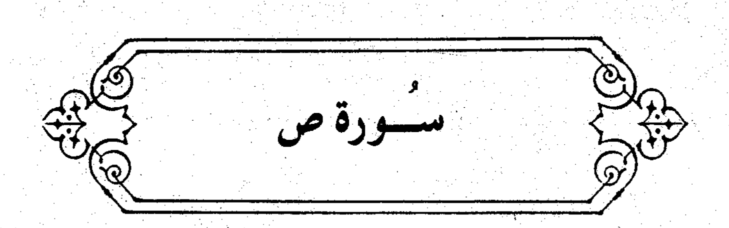
من الأجر يوم القيامة، فليقل آخر مجلسه، حين يريد أن يقوم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ الآيات.

وروي أيضاً عن عليّ موقوفاً.

وأخرج الطبرانيّ عن زيد بن أرقم مرفوعاً: من قال دبر كل صلاة ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ الآيات، ثلاث مرات، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر.

وقد بيّن الرازيّ أن خاتمة هذه السورة الشريفة جامعة لكل المطالب العالية. فارجع إليه.

بسم الله الرحمن الرحيم



مكية. وقيل: مدنية وضُعِّفَ وآياتها ثمان وثمانون.

بسم الله الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾

﴿ص﴾ بالسكون على الوقف. وقرئ بالكسر والفتح. اسم للسورة، على القول المتجه عندنا فيه وفي نظائره. لماقدمنا غير ما مرة. وقيل: قَسم رمزي، وإليه نحا المهايميّ. قال: أقسم الله سبحانه وتعالى بصدق محمد ﷺ الذي اعترف به الكل في غير دعوى النبوة، حتى صدقه أهل الكتابين في إخباره عن الغيوب، الدال على الصدق في دعوى النبوّة. أو بصفائه عن رذائل الأخلاق وقبائح الأفعال الدال على صفائه عن نقيصة الكذب. أو بصعوده في مدارج الكمالات، الدال على صعوده في مدارج القرب من الله – أو بصبره الكامل هو لوازم الرسالة على أنه رسوله. انتهى.

﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي الشرف الدال على حقيقته وصدقه. أو التذكير، كآية ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، والجواب محذوف لدلالة السياق عليه. أي إنه لحق. وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ﴾ أي كبر ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي عداوة للحق والإذعان له. إضراب عما قبله. كأنه قيل: لا ريب فيه قطعاً. وليس عدم إيمان الكفرة به لشائبة ريبٍ ممّا فيه. بل هم في حميّة جاهلية وشقاق بعيد لله ولرسوله. ولذلك لا يذعنون له. وقيل: الجواب ما دل عليه الجملة الإضرابية. أي ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه. ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ ثم أوعدهم على شقاقهم بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ﴾ أي لكبرهم عن الحق، ومعاداتهم لأهله ﴿فَنَادَواْ﴾ أي فدعوا واستغاثوا ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي وليس الحين حين فرار ومهرب ومنجاة. والكلام على (لات) وأصلها وعملها والوقف عليها، ووصل التاء بها أو فصلها عنها، مبسوط في مطولات العربية، وفي معظم التفاسير هنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

﴿وَعَجِبُواْ أن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ أي رسول ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي من أنفسهم. يعني النبيّ ﷺ ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي بليغ في العجب. وذلك لتمكن تقليد آبائهم في نفوسهم، ورسوخه في أعماق قلوبهم. ومضي قرون عديدة عليه، وإلفهم به وأنسهم له، حتى ران على قلوبهم، وغشي على أبصارهم، ونسي باب النظر والاستدلال. بل محي بالكلية من بينهم. وصار عندهم من أبطل الباطل وأمحل المحال.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾

﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ﴾ أي الأشراف من قريش يحضون بعضهم على التمسك بالوثنية، ويتواصوْن بالصبر على طغيانهم قائلين ﴿أَنِ امْشُواْ﴾ أي في طريق آبائكم ﴿وَاصْبِرُواْ عَلَى ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي عبادتها مهماسمعتم من تسفيه أحلامنا وتفنيد مزاعمنا ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ تعليل للأمر بالصبر. أي يراد منا إمضاؤه وتفنيده لا محالة. أي يريده محمد من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه، لا قول يقال من طرف اللسان. أو المعنى: إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد منا. أي بنا. فلا انفكاك لنا عنه. وما لنا إلا الاعتصام عليه بالصبر.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ أي ما سمعنا بهذا التوحيد الذي ندعى إليه في ملة النصارى. لأنهم مثلثة غير موحدة. أو في ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا

﴿إِنْ هَذَآ إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾ اي ما هذا التوحيد إلا فرية محضة، لا مستند له سوى هذا الذكر بزعمهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ اي مع ان فينا من هو اثرى واعلى رياسة. قال الزمخشري: انكروا ان يختص بالشرف من بين اشرافهم ورؤسائهم، وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد، على ما اوتي من شرف النبوة من بينهم ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي﴾ إضراب عن مقدّر. اي: إنكارهم للذكر ليس عن علم، بل هم في شك منه. يقولون في أنفسهم: إمّا وإمّا ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ اي على الإنكار. فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد، وصدّقوا وتصديقهم لا ينفعهم حينئذ لأنهم صدقوا مضطرين.

قال الناصر في (الانتصاف): ويؤخذ منه ان (لما) لائقة بالجواب. وإنما ينفي بها فعل يتوقع وجوده. كما يقول سيبويه. وفرق بينها وبين (لم) بأن (لم) نفيٌ لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبته (قد). و(لما) نفي لما يتوقع وجوده أُدخل على مثبته (قد).

وقال: وإنما ذكرت ذلك لأني حديث عهد بالبحث في قوله عليه الصلاة والسلام: الشفعة فيما لم يقسم. فإني استدللت به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة. فقيل لي: إن غايته انه اثبت الشفعة فيما نفى عنه القسمة. فإما لأنها لا تقبل قسمة. وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة، فأبطلتُ ذلك بأن آلة النفي المذكورة (لم) ومقتضاها، قبول المحل الفعل المنفيّ وتوقع وجوده. الا تراك تقول: الحجر لا يتكلم. ولو قلت: الحجر لم يتكلم. لكان ركيكاً من القول، لإفهامه قبوله للكلام. انتهى. وهو لطيف جيد.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ اي حتى يتخيروا للنبوة ما تهوى انفسهم. كلا ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨]، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤].

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِي الأَسْبَابِ﴾ أي فليصعدوا في المراقي التي توصلهم إلى السماء، وليتحكموا بما شاءوا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية.

روى ابن جرير بسنده عن الربيع بن أنس قال: الأسباب أدق من الشعر وأشدّ من الحديد. وهو بكل مكان. غير أنه لا يرى. انتهى.

وهذا البيان ينطبق على ما يعرّف به الأثير الموجود في أجزاء الخلاء المظنون أنها فارغة. فتأمل.

ثم قال ابن جرير: وأصل السبب عند العرب، كل ما تسبب به إلى الوصول إلى المطلوب من حبل أو وسيلة، أو رحم أو قرابة أو طريق أو محجة، وغير ذلك. انتهى.

وقال المهايميّ: أي فليصعدوا في الأسباب التي هي معارج الوصول إلى العرش، ليستووا عليه، فيدبروا العالم وينزلوا الوحي على من شاءوا. وأنّى لهم ذلك؟؟

القول في تأويل قوله تعالى:

جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

﴿جُندٌ مَا﴾ أي هم جند حقير ﴿هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأحْزَابِ﴾ أي الذين كانوا يتحزبون على الأنبياء قبلك. وأولئك قد قهروا وأهلكوا. وكذا هؤلاء. فلا تبال بما يقولون ولا تكترث لما به يهذون. و﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول، فهو مجاز. وجوز أن يكون حقيقة، للإشارة إلى مكان قولهم وهو مكة. قال قتادة: وعده الله وهو بمكة يومئذ، أنه سيهزم جنداً من المشركين. فجاء تأويلها يوم بدر. وقال ابن كثير: هذه الآية كقوله جلت عظمته ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤ – ٤٥]. وكان ذلك يوم بدر. وفي الآية أوجه من الإعراب أشار له السمين بقوله: ﴿جُندٌ﴾ يجوز فيه وجهان: أحدهما – وهو الظاهر – أنه خبر مبتدأ. أي هم جند. و﴿ما﴾ فيها وجهان، أحدهما – أنها مزيدة. والثاني أنها صفة لـ (جند) على سبيل التعظيم، للهزء بهم، أو للتحقير. فإن (ما) إذا كانت صفة تستعمل لهذين المعنيين.

و﴿هُنَالِكَ﴾ يجوز فيه ثلاثة أوجه: أحدها – أن يكون خبراً لـ (جند) و(ما) مزيدة و﴿مَهْزُومٌ﴾ نعت لـ (جند). الثاني – أن يكون صفة لـ (جند). الثالث – أن يكون منصوباً بـ (مهزوم). و﴿مَهْزُومٌ﴾ يجوز فيه أيضاً وجهان: أحدهما – أنه خبر ثان لذلك المبتدأ المقدر، والثاني أنه صفة لـ (جند). و﴿هُنَالِكَ﴾ مشارٌ به إلى موضع التقاول والمحاورة بالكلمات السابقة، وهو مكة. أي سيهزمون بمكة. وهو إخبار بالغيب. وقيل: مشارٌ به إلى نصرة الإسلام. وقيل: إلى حفر الخندق، يعني إلى مكان ذلك. الثاني من الوجهين الأولين أن يكون (جند) مبتدأ و(ما) مزيدة و﴿هُنَالِكَ﴾ نعت و﴿مَهْزُومٌ﴾ خبره. وفيه بعد، لتفلّته عن الكلام الذي قبله. انتهى.

فائدة:

روى ابن عباس في هذه الآية أنه لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل. فقالوا إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل. ويقول ويقول. فلو بعثت إليه فنهيته! فبعث إليه. فجاء النبيّ ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل. قال فخشي أبو جهل لعنه الله. إن جلس إلى جنب أبي طالب، أن يكون أرق له عليه. فوثب فجلس في ذلك المجلس. ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه. فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي! ما بال قومك يشكونك! يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول. قال، وأكثروا عليه من القول. وتكلم رسول الله ﷺ فقال: يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها. تدين لهم بها العرب. وتؤدي إليهم بها العجم الجزية. ففزعوا لكلمته ولقوله. فقال القوم: كلمة واحدة؟ نعم، وأبيك عشراً. فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال ﷺ: لا إله إلا الله. فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: ﴿أجَعَلَ الآلِهَةَ إلَهاً وَاحِداً إنَّ هذا لَشَيءٌ عُجَابٌ﴾ ونزلت الآية . رواه ابن جرير والإمام أحمد والنسائيّ، والترمذيّ وحسنّه.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾ وهم قوم هود ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ﴾ أي الملك الثابت. وأصله البيت المطنّب، أي المربوطة أطنابه – أي حباله – بأوتاده. استعير للملك استعارة تصريحية. وصف به فرعون مبالغة بجعله عين ملكه. أو شبه فرعون في ثبات ملكه بذي بيت ثابت أقيم عموده وثبتت أوتاده. على

طريق الاستعارة المكنية. وأثبت له ماهو من خواصه تخييلاً، وهو قوله : ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾ فإنه لازم له. أو هو كناية. حيث أطلق اللازم وأريد الملزوم وهو الملك الثابت. وقد جاء هذا في قول الأسود من شعراء الجاهلية:

ولقد غَنُوا فيها بأنعمِ عيشةٍ ... في ظل مُلْكٍ ثابتِ الأَوْتَادِ

أو المعنى: ذو الجموع الكثيرة. سمّوا بذلك لأن بعضهم يشد بعضاً، كالوتد يشد البناء. فالاستعارة تصريحية في الأوتاد. أو هو مجاز مرسل للزوم الأوتاد للجند. أو هو على حقيقته والمراد المباني العظيمة والهياكل الثابتة الفخيمة. واللفظ صادق في الكل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾

﴿وَثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي الغيضة، وهم قوم شعيب ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أي الكفار المتحزبون على رسلهم، الذين جعل الجند المهزوم منهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي فوجبت عليهم عقوبتي. قال الشهاب: ﴿إن﴾ نافية و﴿كُلٌّ﴾ محذوف الخبر. والتفريغ من أعمّ العام. أي ما كلٌ أحد مخبر عنه بشيء، إلا مخبر عنه بأنه كذب جميع الرسل، لأن الرسل يصدق كلٌّ منهم الكل. فتكذيب واحد منه تكذيب للكل. أو على انه من مقابلة الجمع بالجمع. فيكون كل كذب رسوله. أو الحصر مبالغة. كأن سائر أوصافهم بالنظر إليه، بمنزلة العدم. فهم غالون فيه. انتهى.

وقال الزمخشريّ: وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً، والاستثنائية ثانياً. وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص – أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه.

وزاد الناصر فائدة أخرى للتكرير. وهي أن الكلام لما طال بتعديد آحاد

المكذبين، ثم أريد ذكر ما حاق بهم من العذاب جزاء لتكذيبهم، كرر ذلك مصحوباً بالزيادة المذكورة، ليليقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ على سبيل التطرية المعتادة عند طول الكلام. وهو كما قدمته في قوله: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ [الحج: ٤٤]، حيث كرر الفعل ليقترن بقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ [الحج: ٤٤]. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾

﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ﴾ أي أهل مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي أخذة واحدة بعذاب بئيس. يقال: صاح الزمان بهم، إذا هلكوا. كما قال:

صاح الزمانُ بآل برمكَ صيحةً خَرُّوا لشدّتها على الأذْقان

وأصله من الغارة إذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي من توقف مقدار فواق. وهو ما بين الحلبتين. أو رجوع وترداد. فإنه فيه يرجع اللبن إلى الضرع فـ (فواق) إما بحذف مضافين أو مجاز مرسل بذكر الملزوم وإرادة لازمه. وقرئ بالضم. وهما لغتان. وقيل: المفتوح اسم مصدر من (أفاق المريض) إفاقة وفاقة، إذا رجع إلى الصحة. والمضموم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي نصيبنا من العذاب الذي وعدته. كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] و[العنكبوت: ٥٣و٥٤]، ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي الجزاء. وقولهم ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية. كما قص عنهم نظائره في عدة آيات.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧﴾

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي فقد وعدت بالنصر والظفر والملك والتأييد، كما أوتي داود عليه السلام، مما سارت به الأمثال ولذا قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: القوة. أي: الاجتهاد في أداء الأمانة والتشدد في القيام بالدعوة ومجانبة إظهار الضعف والوهن ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي رجّاع إليه تعالى بالإنابة والخشية والعبادة والصيام.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ أي تبعاً لتسبيحه **﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾** أي مجموعة عنده يسبحن معه **﴿كُلٌّ لَهُ﴾** أي للَّه تعالى **﴿أَوَّابٌ﴾** أي مطيع منقاد. يرجع بتسبيحه وتقديسه إليه.

قال ابن كثير: أي أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار. كما قال عز وجل: ﴿ يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ: ١٠]، وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجّع بترجيعه، إذا مرّ به الطير وهو سابح في الهواء، فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب. بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجّع معه، وتسبح تبعاً له. انتهى. أي بأن خلق فيها حياةً ونطقاً. أوكان له عليه السلام من شدة صوته الحسن دويٌّ في الجبال. وحنين من الطيور إليه، وترجيع . وقد عهد من الطير القمريّ أنه ينتظر سكتة المصوّت والقارئ بصوت حسن أو المنشد، فيجيبه، واللَّه أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي قويناه بوفرة العدَد والعُدَد ونفوذ السلطة وإمداده بالتأييد والنصر **﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾** أي النبوة أو الكلام المحكم المتضمن للمواعظ والأمثال والحضّ على الأداب ومكارم الأخلاق. وكان زبوره عليه السلام، كله حكماً غرراً **﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾** أي فصل الخصام بتمييز الحق من الباطل، ورفع الشبه، وإقامة الدلائل. وكان يقيم بذلك العدل الجالب محبة الخلائق، ولا يخالفه أحد من أقاربه ولا من الأجانب. ثم ذكر تعالى من حكمته عليه السلام وقضائه الفصل، وشدة خوفه وخشيته مع ذلك، ما قصه بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أي ولجوه. و(المحراب) مقدم كل بيت وأشرفه.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تخَفْ﴾ أي منا. فلسنا فاتكين وإنما نحن ﴿خَصْمَانِ﴾ أي شخصان متخاصمان تحاكمنا إليك ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ أي تعدى ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي بما يطابق أمرالله ﴿وَلاَ تُشْطِطْ﴾ أي ولا تبعد عن الحق أو تجاوزه ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي بحيث لا تميل عن الحق أصلاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾

﴿إِنَّ هَذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي أنثى من الضأن ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي فلم ينظر إلى غناه عنها، ولا إلى افتقاري إليها، بل أراد التغلب عليّ ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: ملكنيها. بمعنى اجعلني كافلها كما أكفل ما تحت يدي. أو بمعنى اجعلها كفلي أي نصيبي: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي غلبني في المكالمة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

﴿قَالَ﴾ أي داود ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ أي طلب نعجتك التي أنت أحوج إليها ليضمها ﴿إِلَى نِعَاجِهِ﴾ أي مع استغنائه عن هذا الضم ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ أي الإخوان الأصدقاء المتخالطين في شؤونهم ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي بغي الأعداء. مع أن واجب حقهم النصفة على الأقل. إن لم يقوموا بفضيلة الإيثار ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي فإنهم لا يبغون ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي وهم قليل. و (ما) مزيدة للإبهام والتعجيب من قلتهم.

قال الشهاب: فيه مبالغة من وجوه: وصفهم بالقلة، وتنكير (قليل) وزيادة (ما) الإبهامية. والشيء إذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب منه. فكأنه قيل: ما أقلهم.

وفي قضائه عليه السلام هذا، من الحكمة وفصل الخطاب ما يهيج الأفئدة ويقر عين المغبون. ذلك أنه صدع بالحق أبلغ صدع. فجهر بظلم خصمه وبغيه جهراً لا محاباة فيه ولا مواربة فأقر عين المظلوم . وعرف الباغي ظلمه وحيفه، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه. ثم نفس عن قلب المظلوم البائس. وروّح عن صدره بذكر ما عليه الأكثر من هذه الخلة – خلة البغي وعدم الإنصاف – مع الخلطة والخلة، ليتأسى ويتسلى كما قيل (إن التأسي روح كل حزين) ثم أكد الأمر بقلة القائمين بحقوق الأخوة، ممن آمن وعمل صالحاً، فكيف بغيرهم؟. وكلها حكم وغرر ودرر، حقائق تنطبق على أكثر هذا السواد الأعظم من الناس، الذين يدعون المحبة، والصداقة. ولعظم شأن حقوق المحبة أسهب في آدابها علماءُ الأخلاق، إسهاباً نوعوا فيه الأبواب، ولونوا فيه الفصول، ومع ذلك لا تزال الشكوى عامة. وقد امتلأت من منظومها ومنثورها كتب الأدب، كما لا يخفى على من له إلمام به. وبالله التوفيق **﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾** أي ابتليناه بتلك الحكومة **﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾** أي ما استغفر منه **﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى﴾** أي لقرباً **﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾** أي مرجعاً حسناً وكرامة، في الآخرة.

تنبيهات:

الأول – للمفسرين في هذا النبأ أقوال عديدة ووجوه متنوعة. مرجعها إلى مذهبين: مذهب من يرى أنها تشير تعريضاً إلى وزر ألمّ به داود عليه السلام ثم غفر له، ومذهب من يرى أنها حكومة في خصمين لا إشعار لها بذلك. فممن ذهب إلى الأول ابن جرير. فإنه قال: هذا مَثَل ضربه الخصم المتسوّرون على داود محرابه. وذلك أن داود كانت له ، فيما قيل، تسع وتسعون امرأة. وكانت للرجل الذي أغزاه حتى قتل امرأة واحدة، فلما قُتِل نكح، فيما ذكر، داود امرأتَه، ثم لما قضى للخصمين بما قضى، علم أنه ابتليَ. فسأل غفران ذنبه وخرّ ساجداً لله وأناب إلى رضا ربه، وتاب من خطيئته. هذا ما قاله ابن جرير. ثم أسند قصته مطولة من روايات عن ابن عباس والسدّيّ وعطاء والحسن وقتادة ووهب ومجاهد. ومن طريق عن أنس مرفوعاً. ويشبه سياق بعضها ما ذكر في التوراة المتداولة الآن

قال السيوطي في (الإكليل): القصة التي يحكونها في شأن المرأة، وأنها أعجبته، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل، أخرجها ابن أبي حاتم من حديث أنس مرفوعاً. وفي إسناده ابن لهيعة، وحاله معروف، عن ابن صخر عن يزيد الرقاشيّ وهو ضعيف. وأخرجها من حديث ابن عباس موقوفاً. انتهى.

أقول: أما المرفوع إلى النبيّ ﷺ فيها، فلم يأت من طريق صحيح، وأما الموقوف من ذلك على الصحب والأتباع رضي الله عنهم، فمعوّلهم في ذلك ما ذكر في التوراة من هذا النبأ، أو الثقة بمن حكى عنها. وينبني على ذلك ذهابهم إلى تجويز مثل هذا على الأنبياء. وقد ذهبت طائفة إلى تجويز ما عدا الكذب في التبليغ. كما فصّل في مطولات الكلام.

قال ابن حزم رحمه الله: وهو قول الكرامية من المرجئة. وابن الطيّب الباقلانيّ من الأشعرية، ومن اتبعه. وهو قول اليهود والنصارى. ثم رد هذا القول، رحمه الله، ردّاً متيناً.

وأما المذهب الثاني، فهو ما جزم به ابن حزم في (الفصَل) وعبارته: ما حكاه تعالى عن داود عليه السلام قوله صادق صحيح، لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولّدها اليهود. وإنما كان ذلك الخصم قوماً من بني آدم، بلا شك، مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم. بغى أحدهما على الآخر على نصّ الآية. ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرّضين بأمر النساء، فقد كذب على الله عزَّ وجلَّ، وقوله ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وكذّب الله عز وجل وأقر على نفسه الخبيثة، أنه كذّب الملائكة . لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُاْ الْخَصْمِ﴾ فقال هو: لم يكونوا قط خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة، ولا كان للآخر نعجة واحدة، ولا قال له أكفلنيها فاعجبوا. لِمَ يقحمون فيه الباطل أنفسهم؟ ونعوذ بالله من الخذلان، ثم كل ذلك بلا دليل، بل الدعوى المجرّدة. وتالله! إن كل امرئٍ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره، ثم يعرّض زوجها للقتل عمداً، ليتزوجها. وعن أن يترك صلاته لطائر يراه. هذه أفعال السفهاء المتهوّكين الفسّاق المتمردين. لا أفعال أهل البرّ والتقوى. فكيف برسول الله ﷺ الذي أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه؟ لقد نزّهه الله عزّ وجلّ عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله. فكيف أن يستضيف إلى أفعاله؟ وأما استغفاره وخروره ساجداً، ومغفرة الله له، فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة. والاستغفار فعل خير لا ينكَر من ملَك ولا من نبيّ. ولا من مذنب ولا من غير مذنب. فالنبيّ يستغفر الله لمذنبي أهل الأرض. والملائكة كما قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]. وأما قوله تعالى عن دواد عليه السلام ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا

﴿لَهُ ذَلِكَ﴾ فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما آتاه الله عزّ وجلّ من سعة الملك العظيم فتنة. فقد كان رسول الله ﷺ[1] يدعو في أن يثبت الله قلبه على دينه، فاستغفر الله تعالى من هذا الظن، فغفر الله تعالى له هذا الظن. إذ لم يكن ما آتاه الله من ذلك فتنة. انتهى كلام ابن حزم، وهو وقوف على ظاهر الآية، مجرداً عن إشارة وإيماء.

وقال البرهان البقاعي في (تفسيره): وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود.

ثم قال: وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام . لأن عيسى عليه السلام من ذريته، ليجدوا سبيلاً إلى الطعن فيه. انتهى.

ثم قال: وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي الوقوع في الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه. وهذه الدعوى تدريب لداود عليه السلام في الأحكام. وذكرها للنبيّ ﷺ تدريب له في الأناة في جميع أموره على الدوام. ولما ذكر هذا، ربما أوهم شيئاً في مقامه ﷺ، فدفعه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾. فالقصة لم يجر ذكرها إلا للترقية في رتب الكمال. وأول دليل على ما ذكرته، أن هذه الفتنة إنما هي بالتدريب في الحكم، لا بامرأة ولا غيرها. وأن ما ذكروه من قصة المرأة باطل وإن اشتهر. فكم من باطل مشهور، ومذكور، هو عين الزور. انتهى.

وقال ابن كثير: قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات. ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصحّ سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشيّ عن أنس رضي الله عنه. ويزيد، وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة. فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يردّ علمها إلى الله عزّ وجلّ. فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً. انتهى.

وقال القاضي عياض في (الشفا): وأما قصة داود عليه السلام، فلا يجب أن يلتفت إلى ما سطره فيها الإخباريون على أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا، ونقله بعض المفسرين. ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح. والذي نص الله عليه قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾ وقوله فيه ﴿أَوَّابٌ﴾ فمعنى ﴿فَتَنَّاهُ﴾ أي اختبرناه. و﴿أَوَّابٌ﴾ قال قتادة: مطيع.

---

(١) أخرجه الترمذي في: القدر، ٧- باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن.

وهذا التفسير أولى. قال ابن عباس وابن مسعود: ما زاد داود على أن قال للرجل: انزل عن امرأتك وأكفلنيها. فعاتبه الله على ذلك ونبهه عليه. وأنكر عليه شغله بالدنيا، وهذا هوالذي ينبغي أن يعوّل عليه من أمره. وقد قيل خطبها على خطبته، وقيل بل أحب بقلبه أن يستشهد. وحكى السمرقنديّ أن ذنبه الذي استغفر منه قوله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ فظلمه بقول خصمه. وقيل: بل لما خشيه على نفسه، وظن من الفتنة بما بسط له من الملك والدنيا. وإلى نفي ما أضيف في الأخبار إلى داود من ذلك – ذهب أحمد بن نصر وأبو تمام، وغيرهما من المحققين. قال الداوديّ: ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت. ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم. وقيل: إن الخصمين اللذين اختصما إليه، رجلان في نتاج غنم على ظاهر الآية. وقيل: بل لما خشي على نفسه وظن من الفتنة لما بسط له من الملك والدنيا . انتهى.

وقال ابن القيم في أواخر كتابه (الجواب الكافي) في مباحث العشق: وقد أرشد ﷺ المتحابين إلى النكاح. كما في سنن ابن ماجة[1] مرفوعاً: لم يُرَ للمتحابّين مثل النكاح. ونكاحه لمعشوقه هو داوء العشق الذي جعله الله دواءه شرعاً وقدراً. وبه تداوى نبيّ الله داود ﷺ ولم يرتكب نبيّ الله محرماً. وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها.وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلوّ مرتبته. ولا يليق بنا المزيد على هذا . انتهى.

وهذا منه تسليم ببعض القصة لابتمامها. وهو من الأقوال فيها.

وأما دعوى بعضهم أن التوراة تعدّ داود ملكاً حكيماً، لا نبياً، بدليل ذكره في أسفار الملوك منها، وما فيها من أنه بعث إليه نبيّ يقال له قاشان، ضرب له المثل المذكور – فدعوى مردودة من وجوه: منها أن الاستدلال بالتوراة التي بين أيديهم في إثبات أو نفي لا يعول عليه. كيف لا ؟ وقد أوتينا بيضاء نقية محفوظة من التغيير والتبديل بحمده تعالى. ومنها أن نبوة داود عليه السلام لا خلاف فيها عند المسلمين، فلا عبرة بخلاف غيرهم. ومنها أنه لا مانع أن تجتمع النبوة والملك لمن أراده الله واصطفاه. وقد فعل ذلك بداود وسليمان عليهما السلام. ومنها أنه لا حاجة في كتابنا الكريم أن يتمم بما جاء في غيره، أو يحاول رده إلى سواه من الكتب، أو هي إليه، لاستغنائه بنفسه. بل وكونه مهيمناً على سائر الكتب، كما أخبر الله تعالى عنه، فليتأمل ذلك. والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن ماجة في: النكاح، ١– باب ما جاء في فضل النكاح، حديث ١٨٤٧ . .

وقد روي أن عمر بن عبد العزيز حُدِّثَ بنبأ داود على ما يرويه القصاص، وعنده رجل من أهل الحق. فكذَّب المحدِّث به، وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب اللّه، فما ينبغي أن يلتمس خلافها. وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرت وكف اللّه عنها ستراً على نبيّه، فما ينبغي إظهارها عليه. فقال عمر: لسماعي هذا الكلام، أحبّ إلي مما طلعت عليه الشمس. نقله الزمخشري.

قال الناصر في (الانتصاف): وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، داود وغيره، منزهون من الوقوع في صغائر الذنوب، مبرءون من ذلك، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة. وهذا هو الحق الأبلج، والسبيل الأبهج، إن شاء اللّه تعالى، انتهى.

التنبيه الثاني – قال ابن الفرس: في هذه القصة دليل على جواز القضاء في المسجد (أي لظاهر المحراب. إلا أنه ليس نصّاً في محراب المسجد) والتلطف في ردّ الإنسان عن المكروه صنعه. وأنه لا يؤاخذ بعنفٍ ما أمكن. وجواز المعاريض من القول.

قال الزمخشري: وإنما جاءت على طريقة التمثيل والتعريض، دون التصريح، لكونها أبلغ في التوبيخ. من قِبَل أن المتأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرّض به، كان أوقع في نفسه، وأشد تمكناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه، وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبيه على الخطأ فيه، من أن يباده به صريحاً، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة. ألا ترى إلى الحكماء؟ كيف أوصوا في سياسة الولد، إذا وجدت منه هنة منكرة، بأن يعرّض له بإنكارها عليه، ولا يصرح. وأن تحكي له حكاية ملاحظة لحاله، إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية، فاستسمج حال نفسه. وذلك أزجر له. لأنه ينصب ذلك مثالاً لحاله، ومقياساً لشأنه. فتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة، مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة.

الثالث – قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ أي على ديني. أخرجه ابن أبي حاتم. ففيه جواز إطلاق (الأخ) على غير المناسب. واستدل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ على جواز الشركة. أفاده في (الإكليل).

الرابع – قال السيوطيّ في (الإكليل): استدل بقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعاً﴾ من أجاز التعويض عن سجود التلاوة بركوع. والأكثرون على أن الركوع هنا مجاز مرسل، عن السجود. لأنه، لإفضائه إليه، جعل كالسبب، ثم تجوزّ به عنه. أو هو استعارة له، لمشابهته له في الانحناء والخضوع.

الخامس – قال ابن كثير: اختلف الأئمة في سجدة (ص) هل هي من عزائم السجود؟ على قولين: أحدهما أنها ليست من العزائم، بل هي سجدة شكر، لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنها ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها، رواه أحمد والبخاري(١) وأصحاب السنن. وعنه أنه قال: إن النبيّ ﷺ سجد في (ص) وقال: سجدها داود عليه الصلاة والسلام توبة، ونسجدها شكراً، تفرد به النسائي(٢). وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر (ص) فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه. فلما كان يوم آخر قرأها. فلما بلغ السجدة تشزّن الناس للسجود. فقال ﷺ: إنما هي توبة نبيّ. ولكن رأيتكم تشزنتم، فنزل وسجد. تفرّد به أبو داود(٣). وإسناده على شرط الصحيح، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**﴾ أي استخلفناك على الملك في الأرض كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها، ومنه قولهم: خلفاء الله في أرضه ﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى**﴾ أي هوى النفس، من الميل إلى مال أو جاه أو قريب أو صاحب ﴿**فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ أي صراطه الموصل إلى الكمالات، كحفظ المملكة والنصر على الأعداء، والنجاة في الآخرة ورفع الدرجات فيها ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيد بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ أي بسبب نسيانهم، وهو ضلالهم عن السبيل، فإن تذكره يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى.

تنبيه:

في الآية بيان وجوب الحكم بالحق، وأن لا يميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء أو سبب يقتضي الميل. واستدل بها بعضهم على احتياج الأرض إلى خليفة من الله. كذا في (الإكليل).

---

(١) أخرجه البخاري في: سجود القرآن، ٣– باب سجدة صَ، حديث ٥٨٩.

(٢) أخرجه في: الافتتاح، ٤٨– باب سجود القرآن، السجود في صَ.

(٣) أخرجه في: السجود، ٥– باب السجود في صَ، حديث رقم ١٤١٠.

وقال ابن كثير: هذه وصية من اللّه عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى. ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل اللّه. وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. روى ابن أبي حاتم عن أبي زرعة، أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة، فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين؟ أقول؟ قال: قل في أمان. قلت: يا أمير المؤمنين! أنت أكرم على اللّه أو داود عليه الصلاة والسلام؟ إن اللّه تعالى جمع له النبوة والخلافة. ثم توعده في كتابه قال تعالى: ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**﴾ الآية.

وقال الرازي: اعلم أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع. لأن الإنسان الواحد لا تنتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة. حتى هذا يحرث وذاك يطحن وذلك يخبز وذلك ينسج والآخر يخيط. وبالجملة، فيكون كل واحد منهم مشغولاً بمهمّ. وينتظم من أعمال الجميع مصالح الجميع.فثبت أن الإنسان مدنيّ بالطبع. وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات، ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات ويفصل تلك الحكومات. وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل. فثبت أنه لا تنتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس. ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس. إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه، عظم ضرره على الخلق. فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه،ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه. وذلك يفضي إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق. وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك. أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإلهية، انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه:فهذا هو المراد من قوله: ﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**﴾ يعني لا بد من حاكم بين الناس بالحق. فكن أنت ذلك. ثم قال: ﴿**وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ الآية، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل اللّه، والضلال عن سبيل اللّه يوجب سوء العذاب. فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾

﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً**﴾ أي خلقاً باطلاً، لا حكمة فيه. أو

مبطلين عابثين، كقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]. وهو أن تقوم الناس بالقسط في المعتقدات والعبادات والمعاملات ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ولذا أنكروا البعث والجزاء على الأعمال، وأخذوا يصدّون عن سبيل اللّه ويبغون في الأرض الفساد.

قال الزمخشري: ومن حجد الخالق فقد حجد الحكمة من أصلها. ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره. فكان إقراره بكونه خالقاً، كلا إقرار.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾

﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ**﴾ قال المهايمي: أي: أنترك البعث بالكلية، أم نبعث ونجعل الذين آمنوا فشكروا نعمة العقل والكتاب. وعملوا الصالحات فشكروا نعمة الأعضاء، كالمفسدين، بصرف العقل والأعضاء إلى الغير ما خلقت له؟ ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ**﴾ أي مخالفة أمر اللّه رعاية لمحبته ﴿**كَالْفُجَّارِ**﴾ أي الذين يخالفون أوامر اللّه، ولا يبالون بعداوته. أي لا نفعل ذلك ولا يستوون عند اللّه.

قال ابن كثير: وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة، على أنه لا بدّ من معاد وجزاء. فإذا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه، ويموت كذلك. ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده. فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل، الذي لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ**﴾ أي كثير الخير ﴿**لِيَدَّبَّرُواْ آيَاتِه**﴾ قال المهايمي: أي لينظروا في ألفاظه وترتيبها ولوازمها. فيستخرجوا منها علوماً بطريق الاستدلال.

وقال الزمخشري: تدبر الآيات: التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة، لأن من اقتنع بظاهر المتلوّ لم يَحْلَ منه بكثير طائل. وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نثور لا يستولدها . وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله. حفظوا حروفه وضيعوا حدوده. حتى إن أحدهم ليقول: والله!لقد قرآت القرآن فما أسقطت منه حرفاً، وقد ، الله! أسقطه كله. ما يُرى للقرآن عليه أثر في خُلُق ولا عمل، والله! ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده. والله! ماهؤلاء بالحكماء ولا الوزعة، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء. اللّهم اجعلنا من العلماء المتدبرين، وأعذنا من القراء المتكبرين.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾

﴿ووَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي كثير الوجوع إلى الله تعالى، بالتوبة والإنابة.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾

﴿إذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصافِنَاتُ﴾ أي من الخيل، جمع (صافن) وهو الذي يقوم على طرف سنبك يدٍ أو رِجْل، ﴿الْجِيادُ﴾ جمع (جواد) وهو الذي يسرع في جريه أو بمعنى الحسان جمع (جيّد).

القول في تأويل قوله تعالى:

فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾

﴿فَقالَ إنّي أحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيرِ عَن ذِكْرِ ربّي﴾ أي آثرته عليه. عدل عنه للمناسبة اللفظية وقصد التجنيس. وفائدة التضمين إشارة إلى عروضه، و﴿ذِكْرِ رَبِّي﴾ إما مضاف لفاعله أو لمفعوله.

قال الزمخشريّ: و(الخير) المال كقوله: ﴿إن تَركَ خَيراً﴾ [البقرة:١٨٠]، وقوله: ﴿وَإنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَديدٌ﴾ [العاديات:٨]، والمال: الخيل التي شغلته، أو

سمي الخيل خيراً كأنها نفس الخير، لتعلق الخير بها. قال رسول اللّه ﷺ [١]: الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم: ما وصف لي رجل فرأيته، إلا كان دون ما بلغني، إلا زيد الخيل، وسماه زيد الخير، وسأل رجل بلالاً رضي اللّه عنه عن قوم يستبقون، مَن السابق؟ فقال: رسول اللّه ﷺ فقال له الرجل: أردت الخيل .فقال: وأنا أردت الخير. ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي غربت الشمس. متعلق بقوله تعالى: ﴿أَحْبَبْتُ﴾ وفيه استعارة تصريحية أو مكنية لتشبيه الشمس بامرأة حسناء، أو ملك. وباء ﴿بِالْحِجَابِ﴾ للظرفيّة، أو الاستعانة أو الملابسة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ۝٣٣﴾

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ يعني الصافنات. وهذا من مقول القول، فلا حاجة إلى تقدير قول آخر ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ أي فجعل يمسح مسحاً، أي يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها، يعني يقطعها.

تنبيه:

قال ابن كثير: ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أن سليمان عليه السلام اشتغل بعرض الخيل حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً، كما شغل النبيّ ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر، حتى صلاها بعد الغروب. وذلك ثابت في الصحيحين [٢] من غير وجه. ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو، والقتال. والخيلُ تراد للقتال، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة حتى لا تمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود. كما فعل الصحابة رضي اللّه عنهم في فتح (تستر) وهو منقول عن مكحول والأوزاعيّ وغيرهما، والأول أقرب. لأنه قال بعد ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ قال

---

(١) أخرجه البخاري في: المناقب، ٢٨- باب حدثني محمد بن المثنى، حديث رقم ١٣٦٨، عن أنس.

(٢) أخرجه البخاري في: المغازي، ٢٩- باب غزوة الخندق، حديث رقم ١٤٠٠، عن علي.
وأخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٢٠٢.

الحسن البصري: قال: لا، والله! لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك. ثم أمر بها فعقرت. وكذلك قال قتادة.

وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبّاً لها. وهذا القول اختاره ابن جرير. قال: لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالاً من ماله بلا سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها. وهذا الذي رجح ابن جرير، فيه نظر، لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذاكان غضباً لله تعالى، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة. ولهذا لما خرج عنها لله تعالى، عوضه الله عزَّ وجلَّ ما هو خير منها. وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوّها شهر ورواحها شهر. فهذا أسرع وخير من الخيل، روى الأمام أحمد[1] عن ابن قتادة وأبي الدهماء، وكانا يكثران السفر نحو البيت، قالا: أتينا على رجل من أهل البادية فقال لنا البدوي، أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجل يعلمني مما علمه الله عزَّ وجلَّ. وقال: إنك لا تدع سبباً اتقاء الله تعالى، إلا أعطاك الله عزَّ جلَّ خيراً منه. انتهى ما ذكره ابن كثير.

وقال القاشانيّ: أي طفق يمسح السيف بسوقها، يعرقب بعضها وينحر بعضها، كسراً لأصنام النفس التي تعبدها بهواها، وقمعاً لسورتها وقواها، ورفعاً للحجاب الحائل بينه وبين الحق، واستغفاراً وإنابة إليه بالتجريد والترك.

وقد ذهب الرازي إلى تأويل آخر استصوبه، قال: إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم. كما أنه كذلك في دين الإسلام. ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو. فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها. وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه. وهو المراد من قوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتي توارت بالحجاب أي غابت عن بصره. ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه. فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور:

الأول تشريفاً لها وإبانة لعزتها، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدوّ.

والثاني – أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتصنع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.

(١) أخرجه في المسند ٥ /٧٨.

الثالث – أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها. فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض.

وقال: فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقاً. ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات.

قال: وأنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة. مع أن العقل والنقل يردها. وليس لهم في إثباتها شبهة فضلاً عن حجة فإن قيل: إن الجمهور فسّروا الآية بذلك الوجه، فما قولك فيه؟ فنقول: لناههنا مقامان:

المقام الأول – أن ندعي أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها. وقد ظهر، والحمد للّه، أن الأمر كما ذكرناه، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه.

المقام الثاني – أن يقال: هب أن لفظ الآية لا يدل عليه ، إلا أنه كلام ذكره الناس. فما قولك فيه؟ وجوابنا أن الأدلة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام. ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات. ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالي بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم؟ واللّه أعلم . انتهى كلام الرازي.

وسبقه ابن حزم حيث قال: تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة. خرافة موضوعة مكذوبة سخيفة باردة. قد جمعت أفانين من القول، لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها ، والتمثيل بها . وإتلاف مال منتفع به بلا معنى. ونسبة تضييع الصلاة إلى نبيّ مرسل، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها. وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير. من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها. ثم أمر بردها . فطفق مسحاً بسوقها وأعناقها بيده، برّاً بها وإكراماً لها، هذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره. وليس فيها إشارة أصلاً إلى ما ذكروه من قتل الخيل وتعطيل الصلاة. وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين. فكيف ولا حجة في قول أحد دون رسول اللّه ﷺ؟ انتهى كلام ابن حزم.

وأقول: الذي يتجه أن هذه القصة أشير بها إلى نبأ لديهم. لأن التنزيل الكريم مصدق الذي بين يديه. إلا أن له الهيمنة عليه. فما وقف فيه على حدّ من أنباء ما بين يديه، يوقف عنده ولا يتجاوز. وحينئذ، فالقصة المعروفة عندهم هي التي أشير إليها. لكن مع الهيمنة عليها، إذ لا تقبل على علاّتها. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ** ﴾ أي ابتليناه ﴿ **وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً** ﴾ أي جسماً مجسداً كناية عن صنم – على ما رووه – وإنما أوثر الجسد عليه – إجلالاً لسليمان عليه السلام، وإشارة إلى أن قصته – إن صحت – كانت أمراً عرض وزال، بدليل قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَنَابَ** ﴾ أي إلى ربه بالتوبة والاستغفار، كما بينه بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾

﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأحدٍ مِن بَعْدِي** ﴾ أي غيري، لفخامته وعظمته، هبة فضل وإيثار امتنان ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾

﴿ **فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ** ﴾ أي فذللناها لطاعته إجابة لدعوته ﴿ **تَجري بأمْرِه رُخَاءً** ﴾ أي لينة سهلة، مع شدة وقوة، ولذا وصفت في الآية الأخرى بـ ﴿ **عَاصِفَةً** ﴾ ﴿ **حَيْثُ أَصَابَ** ﴾ أي أراد.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾

﴿ **وَالشَّيَاطِينَ** ﴾ عطف على الريح ﴿ **كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ** ﴾ أي في قعر البحر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾

﴿ **وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ في الأَصْفَادِ** ﴾ أي مسلسلين في الأغلال لا يبعثهم إلى عمل.

القول في تأويل قوله تعالى:

هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾

﴿ **هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ** ﴾ أي على من شئت من المقرنين وغيرهم ﴿ **أَوْ أَمْسِكْ** ﴾ أي

امنع ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي غير محاسب على المنّ والإمساك، فيكون حالاً من المستكن، أو هو حال من العطاء، أو صلة له، وما بينهما اعتراض. والمعنى: إنه عطاء جمٌّ لا يكاد يمكن حصره. فقد يعبر عن الكثير بـ (لا يعدّ) و (لا يحسب) ونحوه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾

﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى﴾ اي لقربى في الدرجات، و﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي مرجع في الآخرة.

تنبيه:

روى الأثريّون ههنا قصصاً مطولة ومختصرة، مؤتلفة ومختلفة. قال ابن كثير: وكلها متلقاة من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه ولهذا كان في سياقها منكرات. وتقوية ابن حجر لبعض منها بأنه خرجه النسائي بإسناد قوي – لا عبرة له. فليس المقام قاصراً على صحة السند فحسب، لو كان ذلك في الصحيحين، فأنّى بمروي غيرهما؟؟

وذكر الرازي أن القصص المروية هنا هي لأهل الحشو من تأويلهم، وأما أهل التحقيق فلهم تأويلات، وقد ساقها فانظرها.

وقال الإمام ابن جزم: معنى قوله تعالى: ﴿فَتَنَّا سُلَيْمانَ﴾ أي آتيناه من الملك ما اختبرنا به طاعته، كما قال تعالى مصدقاً لموسى عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ إذ من الفتنة ما يهدي اللّه بها من يشاء وقال تعالى: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أن يُتْرَكُوآ أن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ – ٣] فهذه الفتنة هي الاختبار حتى يظهر المهتدي من الضال، فهذه فتنة اللّه تعالى لسليمان إنما هي اختباره حتى ظهر فضله فقط. وما عدا هذا خرافات ولّدها زنادقة اليهود وأشباههم. وأما الجسد الملقى على كرسيّه فقد أصاب اللّه تعالى به ما أراد. نؤمن بهذا كما هو ، ونقول (صدق اللّه عز وجل، كل من عند اللّه ربنا) ولو جاء نص صحيح في القرآن أو عن رسول اللّه ﷺ بتفسير هذا الجسد ما هو ، لقلنا به، فإذا لم يأت بتفسيره ما هو نص ولا خبر صحيح. فلا يحل لأحد القول بالظن الذي هو أكذب الحديث في ذلك، فيكون كاذباً على اللّه عزَّ وجلَّ ، إلا أننا لا نشك

البتّة في بطلان قول من قال إنه كان جنياً تصور بصورته، بل نقطع على أنه كذب. والله تعالى لا يهتك ستر رسوله ﷺ هذا الهتك، وكذلك نبعد في قول من قال إنه كان ولداً له، أرسله إلى السحاب ليربيه. فسليمان عليه السلام كان أعلم من أن يربي ابنه بغير ما طبع الله عزّ وجلّ بنية البشر عليه من اللبن والطعام. وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة، لم يصح إسنادها قط. انتهى.

وزعم القاشاني أن حكاية الجني والخاتم مع سليمان، هي من موضوعات حكماء اليهود، كسائر ماوضعت الحكماء في تمثيلاتهم من حكايات أبسال وسلامان.

ثم أخذ القاشاني في تأويلها، إلا أنه حل الإشكال بإشكال أعظم منه، عفا الله عنه، وقال قبلُ: إن صحت الحكاية في مطابقتها للواقع، كان قد ابتلي بمثل ما ابتلي به ذو النون وآدم عليهما السلام، انتهى والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ۝٤١﴾

﴿واذْكُرْ﴾ أي في باب الابتلاء وحسن عاقبة الصبر عليه ﴿عَبْدَنَا﴾ أي الكامل في التحقق بالعبودية ﴿أَيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أي دعاه وابتهل إليه قائلا ﴿أَنِي مَسَّنِيَ﴾ أي أصابني ﴿الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ﴾ أي مشقة (بضم النون وفتحها مع سكون الصاد، وبفتحهما وضمهما)

﴿وَعَذَابٍ﴾ أي ألم شديد. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢﴾

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ حكاية لما أجيب به دعاؤه عليه السلام. أي: فاستجبنا له وقلنا: اركض برجلك. أي اعدُ بها وامش، فقد برأت وشفيت من مرضك. وقوي جسمك وصح بدنك ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي ماء تغتسل به وتشرب منه. والإشارة إلى عين أو نهر أو نحوهما.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٤٣﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا﴾

أي ترحماً منا عليه بهذا الإضعاف والمباركة ﴿وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي وتذكيراً لهم لينتظروا الفرج بالصبر والنوال بصدق الاتكال.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً﴾ أي حزمة صغيرة ﴿فَاضْرِب بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾ أي في كل ما ابتليناه به ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي كثير الرجوع إلى الله تعالى، بالإنابة والابتهال والعبادة .

تنبيهات:

الأول – كان أيوب عليه السلام نبياً غنياً من أرباب العقار والماشية، وكان أميراً في قومه. وكانت أملاكه ومنزله في الجنوب الشرقيّ من البحر الميت، بين بلاد أدوم وصحراء العربية. وكانت إذ ذاك خصيبة رائعة التربة كثيرة المياه المتسلسلة. وكان زمنه بعد زمن إبراهيم وقبل زمن موسى عليهم السلام. هذا ما حققه بعض الباحثين. والله أعلم.

الثاني – يذكر كثير من المفسرين ههنا مرويات وقصصاً إسرائيلية في ابتلائه عليه السلام. ولا وثوق من ذلك كله إلا بمجمله. وهو ما أشار له التنزيل الكريم؛لأنه المتيقن. وهو أنه عليه الصلاة والسلام أصابته بلوى عظيمة في نفسه وماله وأهله. وأنه صبر على ذلك صبراً صار يضرب به المثل لثباته وسعة صدره وشجاعته. وأنه جوزي بحسنة صبره أضعافها المضاعفة.

الثالث – قال الزمخشري: فإن قلت: لم نسب المسّ إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه، ليقضي من إتعابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه. وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟

قلت: لما كانت وسوسته إليه، وطاعته له فيما وسوس، سبباً فيما مسّه الله به من النصب والعذاب – نسبه إليه. وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو. وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل. انتهى.

الرابع – دلّ قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً﴾ الآية، على تقدم يمينٍ منه عليه السلام. وقد رووا هنا آثاراً في المحلوف عليه، لم يصح منها شيء، فاللّه أعلم به ولا ضرورة لبيانه. إذ القصد الإعلام برحمة أخرى ونعمة ثانية عليه، صلوات اللّه عليه. وهي الدلالة إلى المخرج من الحنث، برخصة وطريقة سهلة سمحة ترفع الحرج. ونحن نورد هنا أمثل ماكتب في الآية ، إيقافاً للقارئ عليه، قال السيوطي في (الإكليل): أخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن عباس وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وغيرهم؛ أن أيوب حلف ليجلدن امرأته مائة جلد. فلما كشف اللّه عنه البلاء أمر أن يأخذ ضغثاً فيضربها به. فاخذ شماريخ مائة ثم ضربها ضربة واحدة. قال سعيد بن جبير: وهي لهذه الأمة لمن حلف على مثل ما حلف عليه أيوب. ثم أخرج أيضاً عن عطاء قال: هي للناس عامة. وعن مجاهد قال: كانت لأيوب خاصة قال الكيا الهراسي: ذهب الشافعي وأبو حنيفة وزفر، إلى أن من فعل ذلك فقد برّ في يمينه، وخالف مالك ورآه خاصاً بأيوب.

قال: وفي الآية دليل على أن للزوج ضرب زوجته ، وأن يحلف ولا يستثني. انتهى.

واستدل بهذه الآية على أن الاستثناء شرطه الاتصال. إذ لو لم يشترط لأمره تعالى بالاستثناء ولم يحتج إلى الضرب بالضغث. واستدل عطاء بالآية على مسألة أخرى. فأخرج سعيد بن منصور عنه بسند صحيح؛ أن رجلاً قال له: إني أردت أن لا أكسي امرأتي ذراعاً حتى تقف بعرفة. فقال: احملها على حمار ثم اذهب فقف بها بعرفة. فقال: إنما عنيت يوم عرفة. فقال عطاء: وأيوب حين حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة، ما نوى أن يضربها بالضغث، إنما أمره اللّه أن يأخذ ضغثاً فيضربها به. قال عطاء: إنما القرآن عِبَرٌ. انتهى كلام (الإكليل).

وقد رد الإمام ابن القيّم في كتابه (إغاثة اللهفان) الاستدلال بهذه الآية على جواز الحيلة. وعبارته: وأما قوله تعالى لأيوب عليه السلام ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ﴾ فمن العجب أن يحتج بهذه الآية على من يقول: إنه لو حلف ليضربنه عشرة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة لم يبّر في يمينه، هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد. وقال الشافعيّ: إن علم أنها مسته كلها، برّ في يمينه. وإن علم أنها لم تمسه، لم يبر. وإن شك لم يحنث. ولو كان هذا موجباً لبرّ الحالف، لسقط عن الزاني والقاذف والشارب بعدد الضرب، بأن يجمع له مائة سوط

أو ثمانين ويضربه بها ضربة واحدة. وهذا إنما يجري في المرض كما قال الإمام أحمد، في المريض عليه الحدّ، ويضرب بعثكال يسقط عنه الحد. واحتج بما رواه عن أبي أمامة بن سهل، عن سعيد بن سعد بن عبادة[1] قال: كان بين أبنائنا إنسان مخدجٍ ضعيف، لم يرع أهل الدار إلا وهو على أمةٍ من إماء الدار يخبث بها. وكان مسلماً. فرفع شأنه سعد إلى رسول اللّه ﷺ. فقال: اضربوه حدّه، قالوا: يا رسول اللّه! إنه أضعف من ذلك إن ضربناه مائة قتلنه. فقال: فخذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه ضربة واحدة، وخلوا سبيله.

وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق. فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته وخلاصه من دائه، تلتمس له الدواء بما تقدر عليه، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال، أخبرت أيوب عليه السلام بذلك، فقال: إنه الشيطان. ثم حلف لئن شفاه اللّه تعالى ليضربنها مائة سوط فكانت معذورة محسنة في شأنه، ولم يكن في شرعهم كفارة. فإنه لو كان في شرعهم كفارة، لعدل إلى التفكير، ولم يحتج إلى ضربها. فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود. وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذوراً خفف عنه، بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط فيضرب بها ضربة واحدة. وامرأة أيوب كانت معذورة، لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان. فلم تكن تستحق العقوبة، فأفتى اللّه نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور، هذا مع رفقها به وإحسانها إليه فجمع له بين البر في يمينه والرفق بامرأته المحسنة المعذورة، التي لا تستحق العقوبة. فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام، لنص السنة، في شأن الضعيف الذي زنى. فلا يتعدى بهما عن محلهما.

فإن قيل: فقولوا هذا في نظير ذلك ممن حلف ليضربن امرأته أو أَمَتَهُ مائة، وكانتا معذورتين لا ذنب لهما، إنه يبرّ بجمع ذلك في ضربها بمائة شمراخ. قيل: قد جعل اللّه له مخرجاً بالكفارة، ويجب عليه أن يكفر يمينه، ويقضي اللّه بالبر في يمينه هاهنا، ولا يحل له أن يبرّ فيها، بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة. ولا يحل له أن يضربها لا مفرقاً ولا مجموعاً.

فإن قيل: فإذا كان الضرب واجباً كالحد، هل تقولون ينفعه ذلك؟ قيل: إما أن يكون العذر مرجوّ الزوال كالحر والبرد الشديد، والمرض اليسير، فهذا ينتظر زواله.

---

(١) أخرجه في المسند ٥/٢٢٢.

ثم يحدّ الحد الواجب. كما روى مسلم[١] في صحيحه عن عليّ رضي الله عنه، أن أمة لرسول الله ﷺ زنت. فأمرني أن أجلدها. فأتيتها فإذا هي حديثة عهد بنفاس. فخشيت إن جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ. فقال: أحسنت. اتركها حتى تَمَاثَلَ. انتهى كلام ابن القيم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾

﴿ **وَاذْكُرْ عِبادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأيْدِي وَالأَبْصارِ**﴾ أي ذوي القوة في العبادة والأفكار في معرفة الله تعالى. قال القاشانيّ: أي العمل والعلم، لنسبة الأول إلى الأيدي والثاني إلى البصر والنظر، وهم أرباب الكمالات العملية والنظرية .

قال الشهاب: (الأيدي) مجاز عن القوة، مجاز مرسل. و(الأبصار) جمع بصر بمعنى بصيرة. وهو مجاز أيضاً، لكنه مشهور فيه. وإذا أريد بـ (الأيدي) الأعمال، فهو من ذكر السبب وإرادة المسبب. و(الأبصار) بمعنى البصائر مجاز عما يتفرع عليها من المعارف كالأول أيضاً. وعلى الوجهين، فيه تعريض بأن من ليس كذلك، كان لا جارحة له ولا بصر. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾

﴿**إنَّا أَخْلَصْنَاهُم**﴾ أي صفيناهم عن شوب صفات النفوس وكدورة حظوظا. وجعلناهم لنا خالصين بالمحبة الحقيقية ﴿**بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ**﴾ أي الباقية والمقر الأصليّ، أي استخلصناهم لوجهنا بسبب تذكرهم لعالم القدس، وإعراضهم عن معدن الرجس، مستشرفين لأنوارنا، لا التفات لهم إلى الدنيا وظلماتها أصلاً.

لطيفة:

قال السمين: قرأ نافع وهشام: ﴿**بِخَالِصَة ذِكْرَى الدَّار**﴾ بالإضافة. وفيها أوجه: أحدها– أن يكون أضاف خالصة إلى ذكرى للبيان. لأن الخاصة قد تكون ذكرى وغير ذكرى. كما قوله: ﴿بَشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل:٧]، لأن الشهاب يكون قبساً وغيره. الثاني– أن الخالصة مصدر بمعنى إخلاص، فيكون مصدراً مضافاً لمفعوله، والفاعل

---

(١) أخرجه في: الحدود، حديث رقم ٣٤.

محذوف، أي بأن أخلصوا ذكر الدار وتناسوا عند ذكرها ذكر الدنيا. وقد جاء المصدر على(فاعلة) كالعاقبة. أو يكون المعنى بأن أخلصنا نحن لهم ذكرى الدار.

وقرأ الباقون بالتنوين وعدم الإضافة. وفيها أوجه: أحدها- أنها مصدربمعنى الإخلاص، فيكون (ذكرى) منصوباً به، وأن يكون بمعنى الخلوص، فيكون (ذكرى) مرفوعاً به، والمصدر يعمل منوّناً كما يعمل مضافاً. أو يكون (خالصة) اسم فاعل على بابه. و(ذكرى) بدل أو بيان لها أو منصوب بإضمار (أعني) أو هو مرفوع على إضمار مبتدأ، و(الدار) يجوز أن يكون مفعولاً به بـ (ذكرى) وأن يكون ظرفاً إما على الاتساع وإما على إسقاط الخافض. و(خالصة) إن كانت صفة، فهي صفة لمحذوف. أي بسبب خصلة خالصة. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ أي المختارين من ابناء جنسهم لقربنا **﴿الأَخْيَارِ﴾** أي المنزهين عن شوائب الشرور. على أنه جمع (خير) مقابل (شر) الذي هو أفعل تفضيل. أو هو جمع (خيِّر) المشدد أو المخفف منه **﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ﴾** أي بالنبوة والرسالة ، للهداية والإصلاح. و(اليسع) خليفة إلياس وكان خادمه. ويقال له بالعبرانية (اليشاع) كما يسمى إلياس فيها (إيليا)، وفي التوراة نبأ طويل عن اليسع ونبوته ومعجزاته صلوات الله عليه. وتقدم علم أنباء هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، في سورة الأنبياء.

القول في تأويل قوله تعالى:

هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾

﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أي شرف لهم. و(الذكر) يتجوز به عنه. قال الشهاب: لأن الشرف يلزمه الشهرة والذكر بين الناس، فتجوّز به عنه بعلاقة اللزوم. فيكون المعنى: أي في ذكر قصصهم وتنويه الله بهم شرف لهم. واختار الزمخشريّ أن المعنى: هذا نوع من الذكر وهو القرآن. أي فالتنوين للتنويع. والمراد بالذكر القرآن. فذكره إنما هو للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر.

قال الزمخشريّ: لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه، وهو باب من أبواب التنزيل،

ونوع من أنواعه، وأراد أن يذكر على عقبه باباً آخر، وهو ذكرالجنة وأهلها، قال ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي إقامة وخلود ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ﴾ أي متى جاءوها يرونها في انتظارهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ أي على الأرائك ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا، وأحضر كما أرادوا.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي لا ينظرن إلى غير أزواجهن. أو يمنعن طرف الأزواج أن تنظر للغير، لشدة الحسن. وهو أبلغ. أو بمعنى حور الطرف جمع (أحور) والثوب المقصور يشبه بالحواريّ في بياضه ونصاعته ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي متساوية في السن والرتب، لا عجوز بينهن. جمع (ترب) بكسر فسكون. وهو من يولد معه في وقت واحد. كأنهما وقعا على التراب في زمان واحد. فـ (ترب) فعل بمعنى مفاعل ومتارب. وكمثل بمعنى، مماثل.

القول في تأويل قوله تعالى:

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي لوقت جزائه. واللام تعليلية. فإن ما وعده لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة. وهي تظهر بالحساب وتقع بعده. فجعل كأنه علة لتوقف إنجاز الوعد عليه. فالنسبة لليوم والحساب مجازية. ولو جعلت اللام بمعنى (بعد) كما في (كتب لخمس) سلم مما ذكر. أفاده الشهاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ أي انقطاع.

القول في تأويل قوله تعالى:

هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦)

﴿ هَذَا ﴾ أي باب في وصف الجنة وأهلها . فهو مبتدأ خبر مقدر. أو الأمر هذا. فهو خبر لمحذوف. أو مفعول لمحذوف ﴿ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أي الفراش. مستعار من فراش النائم.

القول في تأويل قوله تعالى:

هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧)

﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ وهو ما يغسق من صديد أهل النار . أي يسيل وجملة ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ معترضة بين المبتدأ وخبره.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨)

﴿ وَءَاخَرُ ﴾ أي ومذوق، أو عذاب آخر ﴿ مِن شَكْلِهِ ﴾ أي هذا المذوق أو العذاب في الشدة والهوان ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ أي أجناس وأصناف. ثم بيّن ما يقال للرؤساء الطاغين، إذا ادخلوا النار.

القول في تأويل قوله تعالى:

هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩)

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ﴾ أي هذا جمع من اتباعكم واشباهكم، أهل طبائع السوء والرذائل المختلفة، مقتحم معكم في مضايق المذلة ومداخل الهوان. والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها. وقوله ﴿ لا مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ دعاء من الرؤساء على اتباعهم. أو صفة لـ (فوج). أو حال. أي مقولاً فيهم ﴿ لاَ مَرْحَبَاً بِهِمْ ﴾ أي ما أتوا ربهم رحباً وسعة، لشدة عذابهم وكونهم في الضيق والضنك، واستيحاش بعضهم من بعض، لقبح المناظر وسوء المخابر ﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ أي داخلوها بأعمالهم مثلنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠)

﴿ قَالُوا ﴾ أي الأتباع للرؤساء ﴿ بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ أي بل أنتم أحق بما

قلتم، لتضاعف عذابكم بضلالكم وإضلالكم ﴿أنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي قدمتم العذاب بإضلالنا وإغوائنا.

قال القاشانيّ: وهذه المقاولات قد تكون بلسان المقال وقد تكون بلسان الحال. أي لأن الوضع لا يختص بالحقيقة. إلا أن الأظهر الأول. ويؤيده قوله تعالى بعدُ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي المستقر جهنم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

﴿قَالُوا﴾ أي الأتباع أيضاً ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾ كقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [الأحزاب:٦٨].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾

﴿وَقَالُوا﴾ أي الطاغون أوالأتباع ﴿مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين يَسْترذلونهم ويسخرون بهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾

﴿أَتَّخَذْنَاهُم سِخْرِيّاً﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لـ (رجالاً). وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار منهم. وقوله تعالى: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصارُ﴾ أي مالت عنهم كبراً، وتنحّت عنهم أنفةً. والمعنى أيّ الفعلين فعلنا بهم، السخرية منهم أم الإزراء بهم، على معنى إنكار الأمرين على أنفسهم، تحسراً وندامة على ما فعلوا، وعلى ما حاق بهم وحدهم من سوء العذاب، وقيل (أم) بمعنى (بل) أي بل زاغت عنهم أبصارنا لخفاء مكانهم علينا في النار. كأنهم يسلّون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات وهو قوله عز وجل ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً، قَالُوا نَعَمْ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٤]، إلى قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:٤٩]، الآية. وقيل: (أم)

بمعنى (بل) أيضاً، أي بل زاغت عنهم أبصارنا لكونهم في دار أخرى وهي دار النعيم. وقريئ(سُخْرِيًّا) بضم السين وكسرها.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي الذي حكي عنهم ﴿لَحَقٌّ تخاصُمُ أهلِ النَّارِ﴾ أي لواقع وثابت. و﴿تخاصُمُ﴾ بدل من (حَقٌّ) أو خبر لمحذوف. وقرئ بالنصب على البدل من ﴿ذَلِكَ﴾ قال الزمخشريّ: فإن قلت: لم سمي ذلك تخاصماً؟ قلت: شبه تقاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب، بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك. ولأن قول الرؤساء ﴿لا مَرْحَباً بِهِمْ﴾ وقول اتباعهم ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ﴾ من باب الخصومة. فسمي التقاول كله تخاصماً، لأجل اشتماله على ذلك. انتهى.

فكتب الناصر عليه: هذا يحقق ما تقدم من ان قوله: ﴿لا مَرْحَباً بهمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ من قول المتكبرين الكفار. وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ﴾ من قول الأتباع. فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين. فيتحقق التخاصم. خلافا لمن قال إن الأول من كلام خزنة جهنم والثاني من كلام الأتباع. فإنه على هذا التقدير، إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين. فالتفسير الأول أمكن وأثبت. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ مُنذرٌ﴾ أي رسول مخوِّف ﴿وَمَا مِنْ إِلهٍ إِلا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ أي بلا ولد ولا شريك ﴿ الْقَهَّارُ﴾ أي الغالب على خلقه.

القول في تأويل قوله تعالى:

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾

﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي من الخلق والعجائب ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي الذي لا يغلب إذا عاقب العصاة ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ أي لمن تاب وأناب.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾

﴿قُلْ هُوَ﴾ أي الذي أنذرتكم به من التوحيد ومن البعثة به ﴿نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لتمادي غفلتكم. فإن العاقل لا يعرض عن مثله. كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة. أما على التوحيد، فما مرّ من آثار قدرته وصنعه البديع. أما على بعثته ﷺ به، فقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي فإن إخباره عن محاورة الملائكة وما جرى بينهم، على ما ورد في الكتب المتقدمة، من غير سماع ومطالعة كتاب، لا يتصور إلا بالوحي.

قال القاشانيّ: وفرق بين اختصام الملأ الأعلى واختصام أهل النار بقوله في تخاصم أهل النار ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ﴾ وفي اختصام الملأ الأعلى ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ لأن ذلك حقيقيّ لا ينتهي إلى الوفاق أبداً. وهذا عارضيّ نشأ من عدم اطلاعهم على كمال آدم عليه السلام، الذي هو فوق كمالاتهم. وانتهى إلى الوفاق عند قولهم ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة:٣٢]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:٣٣]، على ما ذكر في البقرة عند تأويل هذه القصة. انتهى.

وبالجملة، فالاختصام المذكور في الآية، هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، قال الرازيّ: وهو أحسن ما قيل فيه.

ثم قال: ولو قيل: كيف جازت مخاصمة الملائكة معه تعالى؟ قلنا: لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب. وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة. والمشابهة علة لجواز المجاز. فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه. انتهى.

وملخصه: أن ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ استعارة تبعية لـ (يتقاولون). وقيل: معنى الآية نفي علم الغيب عنه ﷺ وردّ اقتراحهم عليه أن يخبرهم بما يحدث في الملأ الأعلى من التخاصم، كقوله تعالى: ﴿قُل لا أَقُولُ لَكُمْ عِندي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾

[الأنعام: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٦]، ولذا قال بعد:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

﴿إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وقُرئ ﴿إِنَّمَا﴾ بالكسر على الحكاية.

تنبيهات:

الأول – قال الرازيّ: واعلم أن قوله ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ترغيب في النظر والاستدلال، ومنع من التقليد. لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق، يفوز بأعظم أبواب السعادة، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل، وقع في أعظم أبواب الشقاوة. فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية. وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتي فيها بالاحتياط التام، وأن لا يكتفي بالمساهلة والمسامحة.

الثاني – قدمنا أن أكثر المفسرين على تأويل الاختصام بالتقاول في شأن آدم عليه السلام مع الملائكة. وقيل: مخاصمتهم مناظرتهم بينهم في استنباط العلم. كما تجري المناظرة بين أهل العلم في الأرض. حكاه الكرمانيّ في (عجائبه).

وذهب ابن كثير إلى أنه عنى به ما كان في شأن آدم عليه السلام، وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه. وإن قوله تعالى بعد ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، تفسير له. ولم أره مأثوراً عن أحد. بل المأثور عن ابن عباس وغيره ما تقدم، من أنه في شأن آدم والملائكة. وهذا كله على إثبات علم التخاصم بالوحي. بتقدير (ما كان لي من علم لولا الوحي) ولا تنس القول الآخر. والنظم الكريم يصدق على الكل بلا تناف. والله أعلم.

وقد جاء ذكر تخاصم الملأ الأعلى في حديث أخرجه الإمام أحمد[1] عن معاذ رضي الله عنه قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح. حتى كدنا أن نتراءى قرن الشمس. فخرج ﷺ سريعاً .فثوّب بالصلاة. فصلى وتجوز في صلاته. فلما سلّم قال ﷺ: كما أنتم. ثم أقبل إلينا فقال: إني قمت من الليل

(١) أخرجه في المسند ٥/٢٤٣.

فصليت ما قدّر لي. فنعست في صلاتي حتى استيقظت. فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة. فقال: يا محمد! أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري، يا رب! أعادها ثلاثاً. فرأيته وضع كفه بين كتفيّ حتى وجدت برد أنامله بين صدري. فتجلى لي كل شيء وعرفت. فقال: يا محمد! فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلي الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام. قال: سل. قلت: اللّهم! إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني. وإذا أردت فتنةً بقوم، فتوفني غير مفتون. وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك. وقال رسول اللّه ﷺ: إنها حق فادرسوها وتعلموها.

قال ابن كثير: هذا حديث المنام المشهور. ومن جعله يقظة فقد غلط. وهو في السنن من طرق. وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذيّ[1] من حديث جهضم بن عبد اللّه اليماميّ به، وقال: حسن صحيح.

ثم قال ابن كثير: وليس هذا الاختصام المذكور في القرآن. فإن هذا قد فسّر. وأما الاختصام الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا. انتهى. يعني قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾

﴿إذ قالَ ربُّكَ للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من طينٍ فإذا سوَّيْتُهُ ونفخْتُ فيه من رُّوحي فقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ أي فخرّوا له ساجدين تعظيماً وتكريماً، إذا عدلت خلقته وأحييته بنفخ الروح فيه. (فإذا) بدل من (إذا) الأولى مفصل لما أجمل قبلها من الاختصام، وهذا ما رآه الزمخشريّ وتابعه ابن كثير. وقدّر أبو البقاء (اذكر) وهو الأظهر عندي، ويعضده القول الثاني في الآية المتقدمة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾

---

(١) أخرجه في: التفسير، ٣٨- سورة ص، ٤- حدثنا محمد بن بشار.

﴿فَسَجَدَ الْمَلائكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إلاَّ إبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ أي تعظم ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي باستكباره أمر اللّه تعالى، واستكباره عن طاعته.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾

﴿قَالَ يَا إبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي بنفسي من غير توسط، كأب وأم ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: أعرض لك التكبر والاستنكاف ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي عليه زائداً في المرتبة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾

﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ يعني أن الروح الحيوانيّ الناري أشرف من المادة الكثيفة البدنية. وعاب عنه ما تضمنته من الحكمة الإلهية، واللطيفة الربانية حتى تمسك بالقياس، وعصى اللّه تعالى في السجود.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة أو السماء ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي مطرود من الرحمة ومحل الكرامة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال القاشانيّ: الرجيم واللعين مَنْ بَعُدَ عن الحضرة القدسية، المنزهة عن المواد الرجسية، بالانغماس في الغواشي الطبيعية، والاحتجاب بالكوائن الهيولانية. ولهذا وقّت اللعن بيوم الدين. وحدد نهايته به، لأن وقت البعث والجزاء هو زمان تجرد الروح عن البدن ومواده. وحينئذ لا يبقى تسلطه على الإنسان. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

﴿ **قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ من المُنظَرِينَ إلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ** ﴾ وهو القيامة الكبرى ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ** ﴾ وهم الذين أخلصهم الله لنفسه من أهل العناية عن ثوب الكدورات النفسية وحجب الأنانية، وصفى فطرتهم عن خلط ظلمة النشأة البشرية.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾

﴿ **قَالَ فَالحَقُّ وَالحَقَّ أَقُولُ** ﴾ جملة معترضة، للتأكيد، أي ولا أقول إلا الحق.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾

﴿ **لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ أي تبعك في التعزز والاستكبار والإباء عن الحق والمحاجة في الباطل ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ** ﴾ أي على القرآن أو الوحي. قال القاشانيّ: أي لا غرض لي في ذلك. فإن أقوال الكامل المحقق بالحق مقصودة بالذات، غير معلولة بالغرض ﴿ **وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ** ﴾ قال الزمخشريّ: أي المتصنعين الذين يتحلون بما ليسوا من أهله، وما عرفتموني قط متصنعاً ولا مدعياً ما ليس عندي، حتى أنتحل النبوة وأدّعي القرآن.

تنبيه:

في الآية ذم التكليف. وقد روى الشيخان[1] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: يا أيها الناس! من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم. فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم. فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٣٨- صورة صٓ، ٣- باب ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾، حديث ٥٧٠.
وأخرجه مسلم في: صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ٣٩و٤٠.

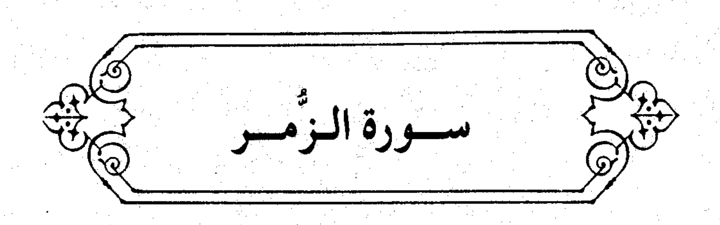
﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي عظة وتذكير لهم. وهذا كقوله ﴿ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله سبحانه ﴿ وَمَنَ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود: ١٧]، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينَ ﴾ أي عند ظهور الإسلام وانتشاره، ودخول الناس فيه أفواجاً أفواجاً، من صحة خبره، وإنه الحق والصدق. وهذا من أجلّ معجزات القرآن، لأنه من الغيوب التي ظهر مصداقها، إذ كان زمن الإخبار به زمن قلة من المؤمنين، وخوف من المشركين. فلم يمض ردح من الزمن حتى أبدل الله قلتهم كثرة، وضعفهم قوّة، وخوفهم أمناً، وكمونهم ظهوراً وانتشاراً. فصدق الله العظيم، وصدق نبيّه الكريم، وحقت كلمة الله على الكافرين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الزُّمر

سميت بها لاشتمالها على الآية التي ذكر فيها زمر الفريقين، المشيرة إلى تفصيل الجزاء وإلزام الحجة وبطلان المعذرة. وهذا من أعظم مقاصد القرآن. قاله المهايميّ. وهي مكية، واستثنى بعضهم ثلاث آيات ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾ [الزمر:٥٣]، الخ ذهاباً إلى أنها نزلت في وحشي قاتل حمزة على ما روي. قيل، ورابعة وهي ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣]، حكاه ابن الجوزيّ، وتقدم الكلام في مثل هذا. وآياتها خمس وسبعون.

أخرج النسائيّ[١] عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم.

وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

---

(١) أخرجه في: الصيام، ٣٤- باب الاختلاف على محمد بن إبراهيم فيه.

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

﴿ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾ أي هذا تنزيل. أو تنزيله كائن من اللّه. وقرئ ﴿ **تَنزيلَ** ﴾ بالنصب على إضمار فعل.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾

﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ** ﴾ أي عن شعوب الشرك والرياء، بإمحاض التوحيد وتصفية السر.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

﴿ **أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ أي الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة، لانفراده بالألوهية ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ** ﴾ أي بالمحبة. للتقرب والتوسل بهم إلى اللّه تعالى ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ أي يقولون ذلك احتجاجاً على ضلالهم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ أي عند حشر معبوداتهم معهم، فيقرن كلاً منهم مع من يتولاه، من عابد ومعبود. ويدخل المبطل النار مع المبطلين، كما يدخل المحق الجنة مع المحقين ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** ﴾ لا يوصله إلى النجاة ومقرّ الأبرار.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

﴿لَوْ أَرادَ اللَّهُ أن يَتَّخذَ وَلَداً لأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وهُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ اي نزهه عن المماثلة والمجانسة. واصطفاء الولد. لكون الوحدة لازمة لذاته وقهره بوحدانيته لغيره. فلا تماثل في الوجود، فكيف في الوجوب؟

القول في تأويل قوله تعالى:

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

﴿خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي بإذهاب أحدهما وتغشية الآخر مكانه. كإنما البسه ولفّ عليه ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأجلٍ مُسَمَّى﴾ وهو منتهى دوره، أو منقطع حركته ﴿ألاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جعلَ مِنهَا﴾ اي من نفسها ونوعها ﴿زَوْجَهَا وَأنزلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أزْواجٍ﴾ أي ذكراً وانثى. من الإبل والبقر والضان والمعز ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أمهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ اى متقلبين في أطوار الخلقة ﴿في ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ يعني البطن والرحم والمشيمة ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي الخالق لصوركم. المكوّر أي المصرف بقدرته، المسخر بسلطانه، المنشي للكثرة من نفس واحدة بحكمته، المنزل للنعم بنعمته ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ فَأنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي عن عبادته إلي عبادة غيره.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

﴿إنْ تَكفُروا فَإنَّ اللَّهَ غَنيٌّ عنكُمْ﴾ اي عن إيمانكم ﴿ولاَ يَرضى لِعبادِهِ الْكُفْرَ﴾ اى لأنه سبب هلاكهم ﴿وَإن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ اي وإن تستعملوا ما انعم به عليكم فيما خلق له ، يقبله منكم، لأنه دينه، ويثيبكم ثواباً حسناً لطاعتكم.

تنبيه :

في الإكليل: استدل بقوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ** ﴾ على أنه تعالى لا يرضى الكفر والمعاصي. وعلى أن الرضا غير الإرادة. وهو أحد قولي أهل السنة. والقول الثاني وحكاه الآمدي عن الجمهور، أن الرضا والإرادة سيان، وحملوا (العباد) في الآية على المخلصين. ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** ﴾ أي لا تحمل حاملة حمل أخرى، أي ما عليها من الذنوب، أو لا تؤخذ نفس بذنب أخرى، بل كلٌّ مأخوذ بذنبه ﴿ **ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ** ﴾ أي بعد الموت ﴿ **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ أي بما في القلوب من الخير والشر.

القول في تأويل قوله تعالى :

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

﴿ **وَإِذَا مَسَّ** ﴾ أي أصاب ﴿ **الإِنْسَانَ ضُرٌّ** ﴾ أي شدة وبلاء ﴿ **دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيه** ﴾ أي ابتهل إليه برفع الشدة والبلاء عنه، مقبلاً إليه بالدعاء والتضرع ﴿ **ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ** ﴾ أي أعطاه ﴿ **نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ** ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه من قبل النعمة. وقيل: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه. فـ(ما) بمعنى (من) أقيمت مقامها لقصد الدعاء الوصفيّ، ولما في (ما) من الإبهام والتفخيم، ﴿ **وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِه** ﴾ أي يصد الناس عن دينه وطاعته ﴿ **قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ** ﴾ أي عش به ﴿ **قَلِيلاً** ﴾ أي يسيراً في الدنيا ﴿ **إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً** ﴾ أي متعبداً في ساعاته يقطعها في السجود والقيام ﴿ **يَحْذَرُ الآخِرَةَ** ﴾ أي عقابها ﴿ **وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ** ﴾ أي جنته ورضوانه، أي: أهذا أفضل أم ذاك الكافر الجاحد الناسي لربه؟ ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ** ﴾ أي توحيده وأمره ونهيه في الثواب والطاعة ﴿ **وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ أي لا يستويان.

تنبيهات :

الأول – في الآية استحباب قيام الليل. قال ابن عباس: آناء الليل: جوف الليل. وقال الحسن: ساعاته أوله ووسطه وآخره.

الثاني – في قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الآخِرةَ ويَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّه﴾ ردّ على من ذمّ العبادة خوفاً من النار أو رجاء الجنة. وقال ﷺ (حولها ندندن)[1].

الثالث – في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ الآية مدح العلم ورفعة قدره. وذمّ الجهل ونقصه. وقد يستدل به على أن الجاهل لا يكافئ العالمة، كما أنه لا يكافئ بنت العالم، أفاده في (الإكليل).

وفي الآية أيضاً إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم، إذ عبر عنهم أولاً بـ (القانت) ثم نفى المساواة بينه وبين غيره، ليكون تأكيداً له، وتصريحاً بأن غير العالم كأن ليس بعالم.

قال القاشاني: وإنما كان المطيع هو العالم، لأن العلم هوالذي رسخ في القلب وتأصل بعروقه في النفس، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته، بل سيط باللحم والدم، فظهر أثره في الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه، وأما المرتسم في حيز التخيل، بحيث يمكن ذهول النفس عنه وعن مقتضاه، فليس بعلم. إنما هو أمر تصوريّ وتخيل عارض لا يلبث، بل يزول سريعاً. لا يغذو القلب ولا يسمن ولا يغني من جوع ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي يتعظ بهذا الذكر ﴿أُولُواْ الأَلْبَابِ﴾ أي العقول الصافية عن قشر التخيل والوهم، لتحققها بالعلم الراسخ الذي يتأثر به الظاهر. وأما المشوبة بالوهم فلا تتذكر ولا تتحقق بهذا العلم ولا تعيه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي للذين أحسنوا بالطاعات في الدنيا، مثوبة حسنة في الآخرة، لا يكتنه كنهها ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ أي بلاده كثيرة. فمن تعسر عليه التوفر على الإحسان في وطنه، فليهاجر إلى حيث يتمكن منه. قال الشهاب: وجه إفادة هذا التركيب هذه المعاني الكثيرة. أوضحه شراح الكشاف بأن قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ مستأنف لتعليل الأمر بالتقوى،

---

(١) أخرجه أبو داود في: الصلاة، ١٢٤– باب في تخفيف الصلاة، حديث رقم ٧٩٢، عن بعض أصحاب النبي ﷺ.

ولذا قيد بالظرف. لأن الدنيا مزرعة الآخرة، فينبغي أن يلقى في حرثها بذر المثوبات. وعقب بهذه الجملة لئلا يعتذر عن التفريط بعدم مساعدة المكان، ويتعلل بعدم مفارقة الأوطان، فكان حثاً على اغتنام فرصة الأعمار، وترك ما يعوق من حب الديار، والهجرة فيما اتسع من الأقطار، كما قيل:

إذا كان أصلي من ترابٍ فكلُّها بلادِي وكُلُّ العَالَمِينَ أقَارِبي

انتهى. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ أي على مشاق الطاعة من احتمال البلاء. ومهاجرة الأوطان لها ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير مكيال. تمثيل للكثرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ أي عن الالتفات إلى غيره.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾

﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأمرت بذلك، لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة. لأن إخلاصه ﷺ أتمّ من إخلاص كل مخلص. وعلى هذا، فالأولية في الشرف والرتبة. أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من أمته. فالأولية زمانية على ظاهرها. ويجوز أن تجعل اللام مزيدة. كما في (أردت لأن أفعل) فيكون أمراً بالتقدم في الإخلاص.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي بترك الإخلاص له ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ﴾ أي أخصه بالعبادة ﴿مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ عن شوب الغير.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ

أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِن دُونِه قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي أهلكوا أنفسهم بالضلال، وأهليهم بالإضلال. أو خسروا أنفسهم بالهلاك وأهليهم به أيضاً. إن كانوا مثلهم، أو بفقدهم فقداً لا اجتماع بعده، إن كانوا من أهل الجنة ﴿أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

﴿لَهُمْ مِن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي أطباق من النار ﴿ذَلِكَ﴾ أي العذاب المتوعد به ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي بعدم التعرض لما يوجب السخط. قال الزمخشري: وهذه عظة من اللّه تعالى، ونصيحة بالغة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ يعني الأوثان. و(فعلوت) للمبالغة ﴿وَأَنَابُوآ إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ أي بالثواب ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي أيثاراً للأفضل واهتماماً بالأكمل. قال الزمخشري: أراد أن يكونوا نقاداً في الدين، يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل. ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك، وأقواها عند السبر، وأبينها دليلاً وأمارة. وأن لا تكون في مذهبك كما قال القائل:

* ولا تكن مِثْلَ عَيْرٍ قِيدَ فَانْقَادا *

يريد المقلد. انتهى ويدخل تحته أيضاً إيثار الأفضل من كل نوعين، اعتراضاً. كالواجب مع الندب. والعفو مع القصاص. والإخفاء مع الإبداء في الصدقة، وهكذا ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ أي أفأنت تنقذه منها؟ أي: لا يمكن إنقاذه أصلاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

﴿لَكِنِ الَّذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ من فوقِها غُرَفٌ مَبْنيَّةٌ تجري من تَحتِها الأنْهَارُ وَعْدَ اللَّه لا يُخْلفُ اللَّهُ الْميعادَ ألَمْ ترَ أنَّ اللَّه أنزلَ من السَّمآء مآءً فَسلَكهُ ينابيعَ في الأرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ به زرْعاً مُخْتَلفاً ألْوانُهُ ثُمَّ يهيجُ﴾ أي يتم جفافه **﴿فَتراهُ مُصْفراً ثُمَّ يجعَلُهُ حُطاماً﴾** أي فتاتاً **﴿إنَّ في ذَلكَ لَذكْرَى لأُولي الألْبابِ﴾** أي لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لا بد من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير، لا عن تعطيل وإهمال. ويجوز أن يكون مثلاً للدنيا كقوله تعالى: ﴿إنَّمَا مَثَلُ الْحيَاة الدُّنْيا﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿واضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحيَاة الدُّنْيا﴾ [الكهف: ٤٥]، أفاده الزمخشري.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

﴿أفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ للإسْلامِ﴾ أي وسعه لتسليم الوجه إليه وحده، ولقبول دينه وشرعه بلطفه وعنايته وإمداده سبحانه **﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ من ربِّه﴾** أي على بينة ومعرفة. واهتداء إلى الحق. واستعارة النور للهدى والعرفان، شهيرة، كاستعارة الظلمة لضد ذلك. وخبر (من) محذوف دلّ عليه قوله تعالى: **﴿فويْلٌ للْقاسيَة قُلوبُهُم مّن ذكْرِ اللَّه﴾** أي من قبول ذكره لشدة ميلها إلى اللذات البدنية، وإعراضها عن الكمالات القدسية، أو من أجل ذكره. فـ (من) للتعليل والسببية.. وفيها معنى الابتداء لنشئها عنه. قال الشهاب: إذا (قيل قسا منه) فالمراد أنه سبب لقسوة نشأت منه. وإذا قيل (قسا عنه) فالمعنى أن قسوته جعلته متباعداً عن قبوله . وبهما ورد استعماله. وقد قرئ بـ (عن) في الشواذ. لكن الأول أبلغ. لأن قسوة القلب تقتضي عدم ذكر الله. وهو معناه إذا تعدى بـ (عن). وذكره تعالى مما يلين القلوب. فكونه سبباً للقسوة، يدل على شدة الكفر الذي جعل سبب الرقة، سبباً لقسوته **﴿أولَئكَ في ضلالٍ مُبينٍ﴾** أي عن طريق الحق.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً** ﴾ أي يشبه بعضه بعضاً. في الصحة والإحكام والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق ووجوه الإعجاز ﴿ **مَّثَانِيَ** ﴾ جمع (مُثَنًّى) بمعنى مردّد ومكرر، لما ثني من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظة ﴿ **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** ﴾ تمثيل لإفراط خشيتهم. أو حقيقة لتأثرهم عند سماع آياته وحكمه ووعيده، بما يرد على قلوبهم منها ﴿ **ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ أي بالانقياد والطاعة والسكينة لأمره ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي الكتاب، أو الكائن من الخشية والرجاء ﴿ **هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ** ﴾ أي من زاغ قلبه ﴿ **فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ **أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ أي فمن يجعل وجهه وقاية لشدة العذاب ذلك اليوم، أي قائماً مقامها في أنه أول ما يمسه المؤلم له. لأن ما يتقى به هو اليدان، وهما مغلولتان. ولو لم تغلا كان يدفع بهما عن الوجه، لأنه أعز أعضائه. وقل: الاتقاء بالوجه كناية عن عدم ما يتقى به، لأن الوجه لا يتقى به. وخبر (من) محذوف كنظائره. أي: كمن أمن العذاب ﴿ **وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ** ﴾ أي: وباله.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

﴿ **كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ** ﴾ أي لا يحتسبون أن الشر يأتيهم منها.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

﴿**فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ أي الذل والصغار ﴿**وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ**﴾ أي بيَّنا لهم في هذا القرآن، الذي هو دليل في نفسه من إعجازه، من كل مثل يحتاج إليه. من يستدل بنظره على حقيته وأحقيته ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ أي به ما يهمهم من أمور دينهم، وما يصلحهم من شؤون سعادتهم. فيفسروا المعقول بالمحسوس.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

﴿**قُرْءَاناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**﴾ أي مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ أي العذاب والخزي يوم الجزاء، بالاتقاء من الأفعال القبيحة والأخلاق الرديئة. والاعتقادات الفاسدة. ومن أجلّ تلك الأمثال . ما مثل به ليتقي من أعظم المخوفات، وهو الشرك، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً**﴾ أي للمشرك والموحد رجلين مملوكين ﴿**رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ**﴾ أي سيئو الأخلاق، يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المختلفة، لا يزال متحيراً متوزع القلب، لا يدري أيهم يُرضي بخدمته، وعلى أيهم يعتمد في حاجته ﴿**وَرَجلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ**﴾ أي: خلص ملكه له، لا يتجه إلا إلى جهته، ولا يسير إلا لخدمته، فهمّه واحد. وقلبه مجتمع ﴿**هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً**﴾ أي : صفة وحالاً. أي في حسن الحال وراحة البال؟ كلا. وهكذا حال من يثبت آلهة شتى. لا يزال متحيراً خائفاً لا يدري أيهم يعبد ، وعلى ربوبية أيهم يعتمد. وحال من لم يعبد إلا إلهاً واحداً. فهمّه واحد. ومقصده واحد. ناعم البال. خافض العيش والحال. والقصد أن توحيد المعبود فيه توحيد الوجهة ودرء الفرقة. كما قال تعالى حكاية عن يوسف

عليه السلام ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾** قال أبو السعود: تقرير لما قبله من نفي الاستواء بطريق الاعتراض، وتنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية بتوفيق اللّه تعالى. وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته. أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل، أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء. صنع جميل ولطف تام منه عزَّ وجلَّ، مستوجب لحمده وعبادته. وقوله تعالى: **﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور، إلى بيان أن أكثر الناس، وهم المشركون، لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره، فيبقون في ورطة الشرك والضلال، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة. وقرئ (مائت ومائتون) وقيل: كانوا يتربصون برسول اللّهﷺ موته. أي إنكم جميعاً بصدد الموت.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي مالك أموركم **﴿تَخْتَصِمُونَ﴾** أي فتحتج أنت عليهم بأنك بلّغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التي من جملتها ما في تضاعيف هذه الآيات. واجتهدت في الدعوة إلى الحق حق الاجتهاد، وهم قد لجّوا في المكابرة والعناد.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي افترى عليه بنسبة الشريك والولد **﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾** أي بالأمر الذي هو عين الحق **﴿إِذْ جَاءَهُ﴾** أي حضر عنده دليله وبرهانه، فرفضه ورده على قائله، أي لا أحد من المتخاصمين أظلم ممن حاله ذلك. لأنه أظلم من كل ظالم **﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾** أي لهؤلاء الذين افتروا على اللّه سبحانه، وسارعوا إلى التكذيب بالحق.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾

﴿ **وَالَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ** ﴾ أي جاء بدليل التوحيد وآمن به فلم يعتد بشبهة تقابله، يعني النبيّ ﷺ ومن تبعه ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ أي الموصوفون بالتقوى التي هي أجل الرغائب. ولذا كان جزاؤهم أن يقيهم اللّه ما يكرهون، كما قال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

﴿ **لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ أي الذين أحسنوا أعمالهم وأصلحوها ﴿ **لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ أي نبيّه ﷺ أن يعصمه من كل سوء، ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف ﴿ **وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ** ﴾ يعني الأوثان التي عبدوها من دونه تعالى. وهذه تسلية لرسول اللّه ﷺ عما قالت له قريش: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، ويصيبك مضرتها لعيبك إياها. كما قال قوم هود ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ [هود:٥٤]، ﴿ **وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ** ﴾ أي من غفل عن كفايته تعالى وعصمته له عليه الصلاة والسلام. وخوفه بما لا ينفع ولا يضر أصلاً: ﴿ **فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ** ﴾ أي يصرفه عن مقصده، أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه. إذ لا راد لفضله ولا معقب لحكمه ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ** ﴾ أي ينتقم من أعدائه لأوليائه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾

. ﴿ولئِن سألْتهم مَنْ خلقَ السَّموات والأرْض ليَقولُنَّ اللَّهُ﴾ لما تقرر في الفطر والعقول من استيقان ذلك. ولوضوح الدليل عليه ﴿قُلْ﴾ أي تبكيتاً لهم ﴿أفرءيتُمْ مَّا تدْعُونَ من دُونِ اللَّه إنْ أرادنِيَ اللَّهُ بِضرٍّ هلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّه أوْ أرادنِي برحْمةٍ هلْ هُنَّ مُمْسكاتُ رحْمَتِه﴾ أي نفعه وخيره. كلا. فإنها لا تضر ولا تنفع ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عليه يتوكَّلُ الْمُتوكِّلُونَ﴾ أي في جميع أمورهم، لا على غيره. لعلمهم بأن كل ما سواه تحت قهره.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَـٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي حالتكم التي أنتم عليها، من العدواة ومناصبة الحق ﴿إنّي عَامِلٌ﴾ أي على مكانتي، فحذف للاختصار، والمبالغة في الوعيد ، والإشعار بأن حاله لا تزال تزداد قوة، بنصر اللَّه عزَّ وجلَّ وتأييده. ولذلك توعدهم بكونه منْصوراً عليهم في الدارين، بقوله تعالى: ﴿فَسوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتيه عَذابٌ يُخْزيه ويَحلُّ عَلَيْه عذَابٌ مُّقيمٌ﴾ أي دائم. وقد أخزاهم اللَّه يوم بدر ﴿ولَعَذابُ الآخرَةِ أَشَدُّ وأَبْقَى﴾ [طه:١٢٧].

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

﴿إنَّآ أنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ للنَّاسِ بالْحَقِّ﴾ أي لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه وافتقارهم إلى بيان مراشدهم ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ أي بدلائله ﴿فَلنَفْسه ومَن ضَلَّ فإنَّما يَضلُّ عَلَيْهَا، ومَآ أنتَ عَلَيْهم بوَكيلٍ﴾ أي لتجبرهم على الهدى. إذ ما عليك إلا البلاغ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤].

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

﴿اللّه يَتَوَفَّى الأنفسَ حينَ مَوْتِهَا﴾ أي مفارقتها لأبدانها، بإبطال تصرفها فيها بالكلية ﴿وَالّتِي لَمْ تَمُتْ في مَنَامها﴾ أي ويتوفى التي لم يحن موتها في منامها، بإبطال تصرفها بالحواس الظاهرة ﴿فَيُمْسكُ التّي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتُ﴾ أي فلا يردها إلى بدنها إلى يوم القيامة ﴿وَيُرْسلُ الأخْرَى إلى أجَلٍ مُسَمّىً﴾ أي وهو نوم آخر أو موت ﴿إنَّ في ذَلكَ﴾ أي فيما ذكر من التوفي على الوجهين﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ﴾ أي في كيفية تعلقها بالأبدان، وتوفيها عنها.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

﴿أم اتَّخذُواْ مِن دُونِ اللّه شُفَعَاء قُلْ أولَوْ كَانُوا لاَ يَمْلكُونَ شيئاً وَلاَيَعْقلُونَ قُلْ للّه الشَّفَاعَةُ جَميعاً﴾ أي هو مالكها لا يستطيع أحد شفاعة ما، إلا أن يكون المشفوع له مرتضى، والشفيع مأذوناً له، وكلاهما مفقود ها هنا ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوات وَالأرْض ثُمَّ إلَيْه تُرْجَعُونَ وَإذَا ذُكرَ اللّهُ وَحْدَهُ﴾ أي دون آلهتم ﴿اشْمَأزّتْ قُلُوبُ الّذينَ لاَ يُؤْمنُونَ بالآخرَة وَإذَا ذُكرَ الّذينَ من دُونه﴾ أي فرادى، أو مع ذكر اللّه تعالى: ﴿إذَا هُمْ يَسْتَبْشرُونَ﴾ أي يفرحون بذلك . لفرط افتتانهم بها، ونسيانهم حق اللّه تعالى. ولقد بولغ في الأمرين حيث بيّن الغاية فيهما. فإن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه. والاشمئزاز أن يمتلئ غماً حتى ينقبض أديم وجهه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

﴿قُلِ اللّهُمَّ فَاطرَ السَّمَوات وَالأرْضِ عَالم الْغَيْب وَالشَّهَادَة أنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عبَادكَ في مَا كَانُواْ فيه يَخْتَلفُونَ﴾ أي التجئ إلى اللّه بالدعاء بأسمائه الحسنى، وقل: أنت وحدك تقدرعلى الحكم بيني وبينهم. والمقصود بيان حالهم ووعيدهم وتسلية حبيبه الأكرم. وأن جدّه وسعيه معلوم مشكور عنده تعالى. وتعليم العباد الالتجاء إلى اللّه تعالى. والدعاء بأسمائه الحسنى، والاستعانة بالتضرّع والابتهال على دفع كيد العدوّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)

﴿ ولَو أنَّ للَّذين ظَلَموا ما في الأرض جميعاً ومِثْلَهُ معَهُ لافْتَدَوا به من سُوءِ العَذاب يومَ القيامَة وبَدا لَهُم مِّنَ اللَّه ما لَمْ يكُونوا يحْتَسِبُونَ وبَدَا لَهُمْ سيِّئاتُ ما كَسَبُوا وحاقَ بِهِم مَّا كانُوا بِهِ يسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي نزل بهم جزاؤه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠)

﴿ فإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعَانا ثُمَّ إذا خوَّلْناهُ نعْمَةً مِّنَّا قالَ إنَّما أُوتيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ أي مني بوجوه الكسب والتحصيل ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أي ابتلاء له ، أيشكر تلك النعمة، فيصرفها فيما خلقت له، فيسعد. أو يكفرها فيشقى ﴿ ولَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ قَدْ قَالَهَا الَّذينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي كما قال قارون ﴿ إِنَّمَا أوتيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِندي ﴾ [القصص: ٧٨] ﴿ فَمَآ أغْنَى عَنهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي فما دفع عنهم ماكسبوه بذلك العلم من متاع الدنيا.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

﴿ فأصابَهُمْ سيِّئاتُ ما كَسَبُواْ والَّذينَ ظَلَمُوا منْ هؤلاء سَيُصيبُهُمْ سيِّئاتُ ما كَسَبُواْ ومَا هُمْ بِمُعْجِزينَ أو لَمْ يعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشاءُ ويَقْدِرُ، إنَّ في ذَلكَ لآياتٍ لقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي بأن الكل منه سبحانه، ومن آياته في ذلك - كما قال المهايمي - أنه تعالى قوي بذاته، له تقويه من يشاء وتضعيف من يشاء. ومنها أنه فيّاض بذاته لا

يتوقف فيضه على الشفعاء. ومنها أنه فاعل بذاته لا يتوقف فعله على سبب وواسطة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾

﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ على أنفُسِهِمْ**﴾ أي جنَوا عليها بالإسراف في المعاصي والكفر ﴿**لاَ تَقْنَطُواْ**﴾ قرئ بفتح النون وكسرها ﴿**من رَّحْمَةِ اللَّه**﴾ أي لا تيأسوا من مغفرته بفعل سبب يمحو أثر الإسراف ﴿**إنَّ اللَّه يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**﴾ أي لمن تاب وآمن. فإن الإسلام يجبّ ما قبله ﴿**إنَّهُ هُوَ الغفورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُواْ إلى رَبِّكُمْ**﴾ أي توبوا إليه ﴿**وَأَسْلِمُواْ لَهُ**﴾ أي استسلموا وانقادوا له. وذلك بعبادته وحده وطاعته وحده، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ﴿**من قَبْلِ أن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إليْكُم مِن رَّبِّكُم من قَبْلِ أن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وأنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ أن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتى على مَا فَرَّطَتُ**﴾ أي قصرت ﴿**في جَنبِ اللَّه**﴾ أي في جانب أمره ونهيه، إذ لم أتبع أحسن ما أنزل ﴿**وَإن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ**﴾ أي المستهزئين بمن يتبع الأحسن. و﴿**أن تَقُولَ**﴾ مفعول له بتقدير مضاف. أي: فتداركوا كراهة أن تقول. أو تعليل لفعل يدل عليه ما قبله. أي أنذركم وآمركم باتباع أحسن القول كراهة. وتفصيله في شروح (الكشاف).

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾

﴿**أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَاني**﴾ أي للإسلام ﴿**لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ أي: من هذا الكفر. أي تقول هذا النوع من التحسر ولتعلل بما لا يجدي.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

﴿**أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً**﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿**فَأَكُونَ مِنَ**

الْمُحْسِنِينَ﴾ أي في الإيمان والعمل الصالح. ثم ردَّ تعالى على تلك النفس بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿بَلَى قَدْ جاءَتْكَ ءاياتي فكَذَّبْتَ بِهَا واَسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِين ويَوْمَ الْقِيامة تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي بنسبة ما يستحيل عليه من الولد والشريك، وتجويز ما يمتنع عليه من رضاه بما هم عليه، وأمره لهم،وغير ذلك من إفكهم **﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾** أي لما ينالهم من الشدة التي تغير ألوانهم. فالسواد حقيقيّ. أو لما لحقهم من الكآبة، ويظهر عليهم من آثار الهيئات الظلمانية ورسوخ الرذائل النفسانية في ذواتهم. فالسواد مجاز بالاستعارة **﴿أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوىً لِّلْمُتَكَبِّرِين﴾** أي عن الإيمان والهدى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾

﴿وَيُنَجّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي بفوزهم وفلاحهم لإتيانهم بأسباب الفوز، من الاعتقادات المبنية على الدلائل والأعمال الصالحة **﴿لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾** أي يتولى التصرف فيه كيف شاء.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ﴾ أي هو وحده يملك أمرها وخزائن غيوبها

وأبواب خيرها وبركتها ﴿وَالَّذين كفروا بآيات الله أولئك هُمُ الخاسرون قُلْ أفغير الله تأمروني أعبُدُ أيُّها الجاهلون ولقد أُوحي إليك وإلى الَّذين من قبلك لئن أشركتَ ليحبطنَّ عملُك ولتكونَنَّ من الخاسرين بَلِ الله فاعبُدْ﴾ أي خصّه بالعبادة ﴿وكُن مِّنَ الشَّاكِرين﴾ أي الصارفين ما أنعم به عليهم، إلى ما خلق لأجله.

قيل: كان الظاهر (لو أشركت) لأن (أن) تقتضي احتمال الوقوع. وهو هنا مقطوع بعدمه. فالجواب: أن هذا الكلام وارد على سبيل الفرض. والمحالات يصح فرضها لأغراض. والمراد به تهييج الرسل وإقناط الكفرة والإيذان بغاية قبح الإشراك. وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره، فكيف بمن عداه؟ وإطلاق الإحباط هنا يستدل به من ذهب إلى أن الردة مبطلة للعمل مطلقاً، كالحنفية. وغيرهم يرى الإحباط مقيداً بالاستمرار عليه إلى الموت، وأنه هو المحبط في الحقيقة. وأنه إنما ترك التقييد به اعتماداً على التصريح به في آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يومَ القِيامَةِ والسَّموات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمينه سُبْحَانَهُ وَتَعالى عمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي ما قدروا عظمته تعالى حق عظمته، ولا عرفوا جلاله حق معرفته. حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لايليق بشؤونه الجليلة. مع أن عظمته وكمال قدرته تتحير فيها الأوهام. فإن تبديل الأرض غير الأرض. وطي السموات كطي السجل، أهون شيء عليه، وفي (القبضةواليمين) مذهبان معروفان. مذهب السلف، وهو إثبات ذلك من غير تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا إزالة للفظ الكريم عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتأويل. يجرون على الظاهر ويكلون علمه إليه تعالى ويقرون بأن تأويله (أي ما يؤول إليه من حقيقته) لايعلمه إلا الله. وهكذا قولهم في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن، ووردت بها الأخبار الصحاح.

المذهب الثاني - القول بأن ذلك من المجاز المعروف نظيره في كلام العرب. وإن الإطلاق لا ينحصر في الحقيقة. ثم من ذاهب إلى أن المجاز في المفردات،

استعيرت (القبضة) للملك أو التصرف و(اليمين) للقدرة، وذاهب إلى أنه في المركب، بتمثيل حال عظمته ونفاذ قدرته، بحال من يكون له قبضة فيها الأرض، ويمين بها تطوى السموات، وهذا ما عول عليه الزمخشري وبسطه أحسن بسط.

ثم أشار إلى أن من عظيم قدرته تعالى، أنه جعل النفخ في الصور سبب موت الكل تارة، وحياتهم أخرى، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾

﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ** ﴾ أي هلك ﴿ **مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللَّهُ** ﴾ أي من خواص الملائكة، أو من الشهداء. روي ذلك عن بعض التابعين. وقال قتادة: قد استثنى اللّه، واللّه أعلم، إلى ما صار ثُنْيَتُهُ. وهذا هو الوجه. إذ لا يصار إلى بيان المبهمات إلا بقاطع ﴿ **ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾ أي وقوف، يقلبون أبصارهم دهشاً وحيرة. أو ينتظرون ما يحل بهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ **وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا** ﴾ أي لأنه يتجلى لهم سبحانه لإقامة العدل والجزاء ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ** ﴾ أي عرض كتب الأعمال على أهلها ليقرأ كل واحد عمله في صحيفته. أو ﴿ **الْكِتَابُ** ﴾ مجاز عن الحساب وما يترتب عليه من الجزاء، ووضعه ترشيح له. والمراد بوضعه الشروع فيه، أو هو تمثيل. وجوه نقلها الشهاب ﴿ **وَجِيْءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ** ﴾ أي الذين يشهدون للأمم وعليهم، من الحفظة والأخيار المطلعين على أحوالهم. أي أحضروا للشهادة لهم أو عليهم لاطّلاعهم على أحوالهم. وجوّز إرادة المستشهدين في سبيل اللّه تعالى، تنويهاً بشأنهم ، وترفيعاً لقدرهم، بضمهم إلى النبيين في الموقف. ولا يبعد ﴿ **وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ أي فتوزن أعمالهم بميزان العدل، ويوفّون جزاء أعمالهم، لا ينقص منها شيء، كما قال:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿**وَوُفِّيَتْ كُلُّ نفسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يفْعَلُونَ وَسِيقَ الَّذين كَفَرُوا إلى جَهَنَّم زُمَراً**﴾ أي أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض، على تفاوت ضلالهم وغيهم، رعاية للعدل في التقديم والتأخير ﴿**حَتَّى إذَا جآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ أي ليدخلوها ، ولكل فريق باب ﴿**وَقَالَ لَهُمْ خزنَتُهَا**﴾ أي الموكلون بتعذيبهم ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ**﴾ أي من جنسكم تعرفون صدقهم وأمانتهم ﴿**يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لقاءَ يَوْمِكُمْ هذَا**﴾ أي وقتكم أو يوم القيامة، حرصاً على صلاحكم وهدايتكم ﴿**قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ**﴾ أي وجبت ﴿**كَلمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ أي حكمه عليهم بالشقاوة، وأنهم من أهل النار ﴿**قِيلَ ادْخُلُوا أبوابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِين وَسِيق الَّذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إلى الْجَنَّةِ**﴾ أي مساق إعزاز وتشريف، للإسراع بهم إلى دار الكرامة ﴿**زُمَراً**﴾ أي متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل ﴿**حَتَّى إذَا جآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ**﴾ أي من دنس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا ﴿**فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾ قال السمين: في جواب ﴿**إذَا**﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها - قوله: ﴿**وَفُتِحَتْ**﴾ والواو زائدة. وهو رأي الكوفيين والأخفش. وإنما جيء هنا بالواو دون التي قبلها، لأن أبواب السجون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له، ثم تغلق عليه. فناسب ذلك عدم الواو فيها. بخلاف أبواب السرور والفرح، فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها.

والثاني - أن الجواب قوله: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ خزَنَتُهَا**﴾ على زيادة الواو أيضاً.

الثالث - أن الجواب محذوف. قال الزمخشري: وحقه أن يقدر بعد خالدين:

أي لأنه يجيءُ بعد متعلقات الشرط ما عطف عليه. والتقدير: اطمأنوا. وقدره المبرد: سعدوا. وعلى هذين الوجهين، فتكون الجملة من قوله: ﴿ **وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** ﴾ في محل نصب على الحال، والواو واو الحال. أي جاءوها مفتحة أبوابها. كما صرح بمفتحة حالاً من ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ ﴾ وهو قول المبرد والفارسي وجماعة. وزعم بعضهم أنّ هذه الواو تسمى واو الثمانية. لأن أبواب الجنة ثمانية. وردّه في (المغني) بأنه لو كان لواو الثمانية حقيقة، لم تكن الآية منها. إذ ليس فيها ذكر عدد البتة، وإنما فيها ذكر الأبواب، وهي جمع لايدل على عدد خاص. ثم الواو ليست داخلة عليه، بل على جملةٍ هو فيها. انتهى.

أي وهي – على قول مثبتها – الداخلة على لفظ الثمانية على سرد العدد. ذهاباً إلى أن بعض العرب إذا عدّوا قالوا: ستة سبعة وثمانية. إيذاناً بأن السبعة عدد تامّ، وأن ما بعده عدد مستأنف، فأشبهت واو الاستئناف.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿ **وَقَالُواْ الْحَمْدُ للَّه الَّذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ** ﴾ أي بإيصالنا إلى ما وعدنا وأنبأنا عنه على ألسنة رسله ﴿ **وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ** ﴾ أي أرض الآخرة. شبه نيلهم بأعمالهم لها، بإرثهم من آبائهم. فكأن الأعمال آباؤهم. كما قيل:

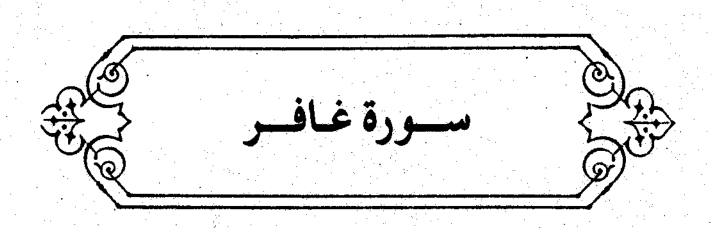
* وأبي الإسلامُ لا أَبَ لِي سِوَاهُ *

وكما يقال (الصدق يورث النجاة) ﴿ **نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّة حَيْثُ نَشَاءُ** ﴾ أي يتبوأ كل من جنته الواسعة ، أيّ مكان أراده ﴿ **فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ أي الذين عملوا بما علموا ﴿ **وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ** ﴾ أي الملائكة السماوية حافين في جنة الفردوس حول عرش الرحمن، محدقين به. وتقدم في تفسير آية ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الأعراف: ٥٤] في الأعراف، كلام في حملة العرش، فتذكره ﴿ **يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** ﴾ أي بين الخلائق ﴿ **بِالْحَقِّ** ﴾ أي بالعدل ﴿ **وَقِيلَ الْحَمْدُ للَّه ربِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أي على ما قضى بينهم بالحق، وأنزل كلاً منزلته التي هي حقه. والقائل:

إما الحق جل جلاله، أو الملائكة الحافون، أو المؤمنون ممن قضي بينهم. أو الكل، فله الحمد عز وجل.

عن قتادة قال: افتتح اللّه أول الخلق بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّه﴾ فقال ﴿الْحَمْدُ للَّه الَّذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ وَجَعَل الظُّلمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وختم بالحمد فقال ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم



وسميت (المؤمن) قال المهايميّ: سميت به لاشتمالها على كلمات مؤمن آل فرعون، المتضمنة دلائل النبوة ورفع الشبه عنها، والمواعظ والنصائح وسلامته عن أعدائه. وعما أخذوا به، وهي من أعظم مقاصد القرآن. وتسمى سورة غافر وسورة الطَّول. وهي مكية وآيها ثمانون وخمس.

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾

﴿حم تنزيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الكلام في مفتتح هذه السورة وتاليه، كالذي سلف في (الم السجدة).

القول في تأويل قوله تعالى:

غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾

﴿غافِرِ الذَّنبِ وقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ أي المن والفضل ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع والجزاء ﴿ما يجادلُ في ءايات اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ما يخاصم في حجج اللّه وأدلته علي وحدانيته بالإنكار لها، إلا الذين جحدوا توحيده، قال الزمخشريّ: سجل على المجادلين في آيات اللّه بالكفر. والمراد الجدال بالباطل، من الطعن فيها والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور اللّه. وقد دل على ذلك قوله ﴿وَجَادَلُواْ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر:٥]. فأما الجدال فيها، لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقارحة أهل العلم في استنباط معانيها، ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل اللّه. وقوله ﷺ[١] (جدال في القرآن كفر) وإيراده منكراً، تمييز منه بين جدال وجدال. انتهى ﴿فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ أي للتجارات، وتمتعهم بالتجوال والترداد، فمآلهم إلى الزوال والنفاد.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/٢٥٨. والحديث رقم ٧٤٩٩.

﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُم قَوْمُ نُوحٍ وَالأحْزَابُ** ﴾ أي الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم ﴿ **من بَعْدِهِمْ** ﴾ أي من بعد سماع أخبارهم ومشاهدة آثارهم ﴿ **وَهَمَّتْ كُلُّ أمَّةٍ بِرَسُولِهِم لِيَأْخُذُوهُ** ﴾ أي ليتمكنوا منه، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل. من (الأخذ) بمعنى الأسر. والأخيذ الأسير ﴿ **وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ** ﴾ أي قابلوا حجج الرسل بالباطل من جدالهم ﴿ **لِيدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ** ﴾ أي ليزيلوا به الأمر الثابت بالحجة الصحيحة. لكنه لايندحض وإن كثرت الشبه. لما أنه الثابت في نفسه المتقرر بذاته ﴿ **فَأَخذتُهمْ** ﴾ أي بالعذاب الدنيويّ المعروف أخباره. المشهود آثاره ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ أي في هذه الدار. فيعتبر به عقاب تلك الدار.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

﴿ **وكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أنَّهُمْ أصْحَابُ النَّارِ** ﴾ قال ابن جرير: أي وكما حق على الأمم التي كذبت رسلها، التي قصصت عليك، يا محمد، قصصها، وحل بها عقابي. كذلك وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك، الذين يجادلون في آيات الله. لأنهم أصحاب النار. ثم نوّه بالمؤمنين، وبما أعدّ لهم، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾

﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ** ﴾ أي من الملائكة. وقد سبق في تفسير آية ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الأعراف:٥٤]، في الأعراف ، كلام في حملة العرش، فراجعه ﴿ **وَمَنْ حَوْلَهُ** ﴾ يعني الملائكة المقرَّبين ﴿ **يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ** ﴾ أي: ويقرون بأنه

لا إله لهم سواه. ويشهدون بذلك لا يستكبرون عن عبادته. وفائدة التصريح بإيمانهم، مع جلائه، هو إظهار فضيلة الإيمان وإبراز شرف أهله، والإشعار بعلة دعائهم للمؤمنين. حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فإن المشاركة في الإيمان أقوى المناسبات وأتمها، وأدعى الدواعي إلى النصح والشفقة. وفي نظم استغفارهم لهم في سلك وظائفهم المفروضة عليهم، من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم، إيذان بكمال اعتنائهم به، وإشعار بوقوعه عند الله تعالى في موقع القبول ﴿ رَبَّنَا ﴾ أي يقولون ربنا ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ أي شملت رحمتك وأحاط بالكل علمك ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ أي صراطك المستقيم بمتابعة نبيّك في الأقوال والأعمال والأحوال ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أي عمل صالحاً منهم، ليتم سرورهم بهم ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي: عقوبتها وجزاءها ﴿ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي: لَبُغْضُهُ الشديد لكم، أعظم من بغض بعضكم لبعض. وتبرؤ كل من الآخر ولعنه حين تعذبون كما قال تعالى: ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، أو أعظم من مقتكم أنفسكم وذواتكم. فقد يمقتون أنفسهم حين تظهر لهم هيئاتها المظلمة وصفاتها المؤلمة، وسواد الوجه الموحش وقبح المنظر المنفّر ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ أي تدعون على ألسنة الرسل عليهم السلام، إلى الإيمان به سبحانه، فتكفرون كبراً وعتواً.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ أي أنشأتنا أمواتاً مرتين. وأحييتنا في النشأتين كما قال تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨]، قال قتادة: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، فأحياهم الله في الدنيا. ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها. ثم أحياهم للبعث يوم القيامة. فهما حياتان وموتتان ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ أي: فاقررنا بما عملنا من الذنوب في الدنيا. وذلك عند وقوع العقاب المرتب عليها. وامتناع المحيص عنه ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي: فهل

إلى خروجنا من النار، من سبيل، لنرجع إلى الدنيا فنعمل غير الذي كنا نعمل. قال الزمخشريّ: وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط. وإنما يقولون ذلك تعللاً وتحيراً. ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك. وهو قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب، وأن لا سبيل إلى خروج قط ﴿بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي بسبب إنكاركم أن الألوهة له خالصة، وقولكم ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهاً وَاحِداً﴾ [ص: ٥]، وإيمانكم بالشرك ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي فالقضاء له وحده لا للغير. فلا سبيل إلى النجاة لعلوّه وكبريائه. فلا يمكن أحداً ردّ حكمه وعقابه ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءايَاتِه﴾ أي من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ رِزْقاً﴾ أي مطراً. وإفراده بالذكر من بين الآيات، لعظم نفعه، وتسبب حياة كل شيء عنه ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾ أي. وما يتعظ بآياته تعالى، إلا من يرجع إليه بالتوبة والإنابة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾

﴿فَادْعُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي فاعبدوه مخلصين له الدين، عن شوب الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي غاظهم ذلك ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أي رفيع درجات عرشه كقوله ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٣]، وهي مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش. وهي دليل على عزته وملكوته. أو هو عبارة عن رفعة شأنه وعلوّ سلطانه وكمالاته، غير المتناهية ﴿ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ﴾ أي الوحي والعلم اللدنيّ الذي تحيا به القلوب الميتة ﴿مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي أهل عنايته الأزلية، واختصاصه للرسالة والنبوة ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ﴾ أي يوم القيامة الكبرى، الذي يتلاقى فيه العبد بربه ليحاسبه على أعماله، أو العباد.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾

﴿**يوم هم بارزون**﴾ أي من قبورهم. أو ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو بناء ﴿**لا يخفى على الله منهم شيء**﴾ أي من أعمالهم وأعيانهم وأحوالهم. وقوله ﴿**لمن الملك اليوم**﴾ ينادي به الحق سبحانه، عند فناء الكل. أو وقت التلاقي والبروز. فيجيب هو وحده ﴿**لله الواحد**﴾ أي المتفرد بالملك ﴿**القهار**﴾ أي الذي قهر بالغلبة كل ما سواه ﴿**اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إنه الله سريع الحساب**﴾ أي بإيصال ما يستحق كل منهم إليه، من تبعات سيئاته وثمرات حسناته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾

﴿**وأنذرهم يوم الأزفة**﴾ أي الواقعة القريبة ﴿**إذ القلوب لدي الحناجر**﴾ أي من أهواله ترتفع القلوب عن مقارّها. فتصير لدى الحلوق ﴿**كاظيمين**﴾ أي ممتلئين غمّا، بما أفرطوا من الظلم ﴿**ما للظالمين من حميم**﴾ أي قريب بهتمّ لشانهم، فيخفف عنهم غمومهم ﴿**ولا شفيع يطاع**﴾ أي من يشفع في تخفيفها عنهم. إذ لا تقبل شفاعة فيهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ ﴾ أي نظراتها الخائنة. وهي الممتدة إلى ما لا يحلّ ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ أي تكنّه من الضمائر والأسرار ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ أي بالعدل ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ من دُونه لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ أي لأنهم لا يقدرون على شيء ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ ﴾ يعني حصونهم وقصورهم وعددهم ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أي بآيات نبوته ﴿ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ أي: قالوا أعيدوا عليهم القتل، كالذي كان أولاً. واستبقوا نسائهم للخدمة ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ أي: وما مكرهم في دفع ما أراد اللّه من ظهور دينه، إلا في ضياع. إذ هو كالغثاء الذي يقذفه تيار الحق.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ، إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أي ما أنتم عليه من عبادة الأصنام ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ أي فساد مملكتي. إذ يتفق الكل على متابعته وإجراء أحكامه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي التجأت إليه وتوكلت عليه، فهو ناصر دينه ومعزّ أهله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ أي من فرعون وملئه ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ أي من عذاب الدنيا إن تعرضتم له. وقد أشار الزمخشري إلى ما في طي هذا القول من اللطائف والأسرار، بما ملخصه: إن هذا المؤمن استدرجهم في الإيمان باستشهاده على صدق موسى، بإحضاره عليه السلام من عند مَنْ تنسب إليه الربوبية، بيناتٍ عدة لا بينة واحدة. وأتى بها معرّفة. معناه البينات العظيمة التي شهدتموها وعرفتموها على ذلك، ليلين بذلك جماحهم، ويكسر من سورتهم. ثم أخذهم بالاحتجاج بطريق التقسيم، فقال: لايخلو من أن يكون صادقاً أو كاذباً. فإن يك كاذباً فضرر كذبه عائد عليه. أو صادقاً فيصبكم، إن تعرضتم له، بعض الذي يعدكم. وإنما ذكر (بعض) في تقدير أنه نبي صادق، والنبيّ صادق في جميع ما يَعِدُ به، لأنه سلك معهم طريق المناصحة لهم والمداراة. فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم، وأدخل في تصديقهم له، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه صحته. وذلك أنه حين فرضه صادقاً، فقد أثبت أنه صادق في جميع مايَعِدُ. ولكنه أردفه ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، ليريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وأثنى عليه، فضلاً عن أن يكون متعصباً له. وتقديم (الكاذب) على (الصادق) من هذا القبيل.

قال الناصر: ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا، قوله تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف:٢٦ – ٢٧]، فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف، وإن كان الصادق هو يوسف، دونها، لرفع التهمة وإبعاد الظن، وإدلالاً بأن الحق معه ولايضره التأخير لهذه الفائدة. وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة، ما في قصة يوسف مع أخيه. إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه. انتهى. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَمُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ قال الزمخشري: يحتمل أنه إن كان مسرفاً كذاباً، خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر، فتتخلصون منه. وأنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله للنبوة، ولما عضده بالبينات.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي عالين وقاهرين، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم بأنفسكم، ولا تعرضونا لعذابه تعالى: ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى ﴾ أي ما أشير عليكم إلا ما أستصوبه من قتله. إذ البأس السماوي من أجل قتله، أمر متوهم. فاتباعه غلط ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ ﴾ أي بإراءة رأي قتله ﴿ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وهو دفع تبدل دينكم وإظهار الفساد في الأرض، بإظهار أحكامه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم ﴾ أي من قتله ﴿ مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴾ أي الطوائف الهالكة بالتكذيب ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي جزائهم من الغرق ﴿ وَعَادٍ ﴾ أي من الريح العقيم ﴿ وَثَمُودَ ﴾ أي الصيحة ﴿ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي من الأمم المكذبة، مما يدل على أن الهلاك سنة مستمرة لأهل التكذيب، إذ لم يكن لهم ذنب آخر يوجبه ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ أي فلا يعاقبهم بغير ذنب.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾

﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ يعني يوم القيامة، أي عذابه. سمي بذلك لما جاء في حديث «إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك، ذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضا» أي: من هول فزع النفخة. وقال قتادة: ينادي كل قوم بأعمالهم. ينادي أهلُ الجنة أهلَ الجنة وأهلُ النار أهلَ النار. وقيل لمناداة أهل الجنة أهل النار ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقاً قَالُوا نَعَمْ ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ومناداة أهل النار أهل الجنة ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠]، واختار البغوي وغيره؛ أنه سُمّي لمجموع ذلك. أي لوقوع الكل فيه.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي ذاهبين فراراً من الفزع الأكبر ﴿ كَلا لا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ

يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١-١٢]، ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي من عذابه، من مانع، لتقرر الحجة عليكم ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ أي بزيغة عن صراط ربه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي من حجة ولا مرشد إلى النجاة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي من قبل مجيء موسى بالحجج البينة والبراهين النيرة، على وجوب عبادته تعالى وحده. كقوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ أي مع ظهور استقامته الكافية في الدلالة على صحة ما جاءكم به، فلم يزل يقررها ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ﴾ أي مات ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي يقرر حججه. فقطعتم من عند أنفسكم، بعدم إرسال اللّه الرسول، مع الشك في إرسال من أعطاه البينات،من فرط ضلالكم ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أي في التشكيك عند ظهور البراهين القطيعة ﴿مُّرْتَابٌ﴾ أي شاكّ مع ظهور لوائح اليقين.

القول في تأويل قوله تعالى:

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي برهان﴿أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي بطر للحق، لا يقبل الحجة. جبار في المجادلة. ألدّ فيصدر عنه أمثال ما ذكر، من الإسراف والارتياب والمجادلة في الباطل لطمس بصيرته، فلا يكاد يظهر له الحق.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابنِ لي صَرحاً﴾ أي قصراً عالياً ظاهراً لكل أحد ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ أي طرقها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ أي لأسأله عن إرساله، أو لأقف على كنهه ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ قال ابن جرير: أي لأظن موسى كاذباً فيما يقول ويدّعي، من أن له في السماء ربًّا أرسله إلينا ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي سبيل الرشاد لما طبع على قلبه، من كبره وتجبّره وإسرافه وارتيابه ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا فِي تَبَابٍ﴾ أي خسار وهلاك، لذهاب نفقته على الصرح سدى، وعدم نيله، مما أراده من الاطلاع، شيئاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾

﴿وَقَالَ الَّذِي ءامَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي طريق الصواب الذي ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه. ثم أشار إلى تفصيل ما أجمله بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أي تمتع يسير، لسرعة زوالها ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ﴾ التي يوصل إليها سبيلي ﴿هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي الاستقرار والخلود.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير تقدير وموازنة بالعمل. بل أضعافاً مضاعفة. قال الزمخشري: قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ واقع في مقابلة ﴿إلاَّ مِثْلَهَا﴾ يعني أن جزاء السيئة له حساب وتقدير، لئلا يزيد على الاستحقاق. فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب، بل ما شئت من الزيادة والكثرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي بوجوده علم، إذ لاوجود له ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ﴾ أي الغالب الذي يقهر من عصاه ﴿الْغَفَّارِ﴾ أي الذي يستر ظلمات نفوس مَن أطاعه، بأنواره.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾

﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ﴾ أي الذي تدعونني إلى عبادته، ليس له دعوة في الدنيا لدفع الشدائد والأمراض ونحوها،ولا في الآخرة لدفع أهوالها، على ما قاله المهايمي. أو لا دعوة له في الدارين لعدمه بنفسه، واستحالة وجوده فيهما، على ماقاله القاشانيّ. وقال الشهاب: عدم الدعوة عبارة عن جماديتها وأنها غير مستحقة لذلك. وسياق ﴿لا جَرَمَ﴾ عند البصريين أن يكدن (لا) ردّاً لما دعاه إليه قومه و﴿جَرَمَ﴾ بمعنى كسب. أي وكسب دعاؤهم إليه بطلان دعوته. أي ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته. ويجوز أن يكون ﴿لا جَرَمَ﴾ نظير (لابد) من الجرم وهو القطع. فكما أنك تقول (لابد لك أن تفعل) والبد من التبديد الذي هو التفريق، ومعناه لا مفارقة لك من فعل كذا، فكذالك ﴿لا جَرَمَ﴾ معناه لا انقطاع لبطلان دعوة الأصنام. بل هي باطلة أبداً. هذا ما يستفاد من (الكشاف).

وفي (الصحاح): قال الفرّاء: ﴿لا جَرَمَ﴾ كلمة كانت في الأصل بمنزلة لامحالة، ولا بد فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم، وصارت بمنزلة (حقاً) فلذلك يجاب عنها باللام. الا تراهم يقولون ﴿لاجرم لآتينك﴾ وقد حقق الكلام فيها ابن هشام في (المغني) في بحث. والجلال في (همع الهوامع) أثناء بحث إن والقسم، فانظرهما. ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي في الضلالة والطغيان وسفك الدماء ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي من النصح عند معاينة الأهوال وما يحيق بكم ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي وأسلم أمري إليه وأجعله له وأتوكل عليه، فإنه الكافي من توكل عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي فيعلم المطيع منهم والعاصي، ومن يستحق المثوبة والعقوبة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾

﴿**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ**﴾ أي فرفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون، بإيمانه وتصديق رسوله موسى، مكروهَ ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه، من العذاب والبلاء، فنجاه منه ﴿**وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ**﴾ أي بفرعون وقومه ﴿**سُوءُ الْعَذَابِ**﴾ يعني الغرق أو النار. وعلى الأول، فقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾

﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾ جملة مستأنفة مبينة لكيفية نزول العذاب بهم. على أن ﴿**النَّارُ**﴾ مبتدأ وجملة ﴿**يُعْرَضُونَ**﴾ خبره. وعلى الثاني، فالنار خبر لمحذوف وهو خبر العذاب السيِّء. أو هي بدل من ﴿**سُوءُ الْعَذَابِ**﴾. والمراد عرض أرواحهم عليها دائماً. واكتفى بالطرفين المحيطين- الغدوّ والعشيّ- عن الجميع. وبه يستدل على عذاب القبر والبرزخ. وقاناه الله تعالى، بمنه.

قال السيوطي: وفي (العجائب) للكرماني: في هذه الآية أدل دليل على عذاب القبر. لأن المعطوف غير المعطوف عليه. يعني قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ**﴾ أي هذا العرض ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعة يقال لهم ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ وهو عذاب جهنم. لأنه جزاء شدة كفرهم ﴿**وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ**﴾ أي يتخاصمون فيها، الأتباع والمتبوعون ﴿**فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً**﴾ أي أتباعاً كالمكرهين ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا**﴾ أي نحن وأنتم. فكيف نغني عنكم؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا ﴿**إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ**﴾ أي بأن أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النارَ، ولا معقب لحكمه. أو بأن قَدّر عذاباً لكل منا لا يدفع عنه، ولا يتحمله عنه غيره، قال الشهاب: وهذا أنسب بما قبله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

﴿وقَالَ الَّذينَ في النَّارِ لخزَنَة جهنَّمَ﴾ أي لما أيسوا من التخفيف عند المحاجّة ﴿ادعُوا ربَّكُم يُخفِّفْ عنَّا يوماً مِّنَ العذابِ﴾ أي يدفع عنا يوماً من أيام العذاب، أو ألمَ يوم وشدته.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

﴿قَالُوا أوَلَمْ تكُ تأتيكُم رُسُلُكُمْ بالْبيِّنَاتِ﴾ أي المتكاثرة على صدقهم، المنذرة بهذه الشدة ﴿قَالُوا بلَى﴾ أي جاءوا بها وأخبروا مع البينات ﴿قَالُوا فادْعُوا﴾ أي إن كان ينفعكم، وهيهات ﴿ومَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إلاَّ في ضَلالٍ﴾ أي في ضياع لا يجاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾

﴿إنَّا لَننصرُ رُسُلَنَا والَّذين ءامَنُوا في الْحيَاةِ الدُّنْيَا ويَوْمَ يقُومُ الأشْهَادُ﴾ أي لننصرهم في الدارين. أما في الدنيا، فبإهلاك عدوّهم واستئصاله عاجلاً، أو بإظفارهم بعدوّهم وإظهارهم عليه، وجعل الدولة لهم والعافية لأتباعهم. وأما في الآخرة، فبالنعيم الأبدي والحبور السرمدي. و﴿الأشْهَادُ﴾ جمع شاهد، وهم من يشهد على تبليغ الرسل وتكذيبهم ظلماً. أو جمع شهيد، كأشراف وشريف.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾

﴿يوْمَ لاينفعُ الظَّالمينَ معْذِرَتُهُمْ، ولَهُمْ اللَّعْنَةُ ولَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ قال ابن جرير: ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم، لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل. وذلك أن الله قد أعذر إليهم في الدنيا، وتابع عليهم الحجج فيها، فلا حجة لهم في الآخرة إلا الاعتصام بالكذب، بأن يقولوا: ﴿واللَّهِ ربِّنَا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ولذا

كانت لهم اللعنة، وهي البعد من رحمة الله وشر ما في الدار الآخرة من العذاب الأليم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾. أي ما يهتدي به. فكذب به فرعون وقومه كما كذبت قريش ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي وتركنا عليهم بعده من ذلك التوراة.

القول في تأويل قوله تعالى:

هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾

﴿هُدًى﴾ أي بياناً لأمر دينهم وما ألزمناهم من شرائعها ﴿وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ أي لذوي الحجى والعقول منهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾

﴿فَاصْبِرْ﴾ أي إذا تلوت ما قصصناه عليك للناس، فاصبر على أذى المشركين واصدع بما تؤمر ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي بنصرك على من خالف، لا خلف له وهو منجزه. واذكر نبأ موسى وفرعون ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ أي سله غفرانه وعفوه ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩].

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي يدفعون الحق بالباطل، ويردّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة، بلا برهان ولاحجة من الله ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ﴾ أي: إلا تكبّر عن الحق وتعظم عن التفكر، وغمط لمن جاءهم به،حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله، والكرامة التي أكرمك بها من النبوة ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ قال ابن جرير: أي الذي حسدوك عليه أمر ليسوا بمدركيه ولا نائليه.

لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وليس بالأمر الذي يدرك بالأماني. وقد قيل: إن معناه إن في صدورهم إلا عظمة، ما هم ببالغي تلك العظمة، لأن الله مذلُّهم ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّه﴾ قال ابن جرير: أي فاستجر باللّه يا محمد، من شر هؤلاء الذين يجادلون في آيات اللّه بغير سلطان، ومن الكبر أن يعرض في قلبك منه شيء ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي لما يقولون وبما يعملون، فسيجازيهم.

تنبيه:

قال كعب وأبو العالية: نزلت هذه الآية في اليهود. وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملكون به الأرض. فأمر ﷺ أن يستعيذ باللّه من فتنته. قال ابن كثير: وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد. وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم. ولم يذكره ابن جرير، على ولعه بالغريب والضعيف.

وفي (الإكليل): ليس في القرآن الإشارة إلى الدجال إلا في هذه الآية، أي على صحة هذه الرواية.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ أي: لإنشائهما وابتداعهما من غير شيء، أعظم من خلق البشر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا ينظرون ولا يتأمّلون لغلبة الجهل عليهم. ولذا يجعلون إعادة الشيء أعظم من خلقه عن عدم، مع أنه أهون وأيسر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي ما يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، وهو مثل الكافر الذي لا يتأمل حجج اللّه بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها، فيعلم وحدانيته وقدرته على خلق ما شاء. ويؤمن به – والبصير الذي يرى بعينيه ما شخص لهما ويبصره. وذلك مثل للمؤمن الذي يرى بعينيه حجج اللّه فيتفكر فيها ويتعظ، ويعلم

ما دلت من توحيد صانعه وعظيم سلطانه ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي ولا يستوي أيضاً المؤمنون بالله ورسوله، المطيعون لربهم ﴿وَلاَ الْمُسِيءُ﴾ وهو الكافر بربه، العاصي له، المخالف أمره ﴿قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي حججه تعالى. فيعتبرون ويتعظون. أي لو تذكّروا آياته واعتبروا بها، لعرفوا خطأ ما هم مقيمون عليه، من إنكار البعث، ومن قبح الشرك.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا﴾ أي فايقنوا بمجيئها وأنكم مبعوثون ومجازون بأعمالكم، فتوبوا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون بمجيئها. يعني المشركين.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي اعبدوني أُثبكم. قال الزمخشري: والدعاء بمعنى العبادة، كثير في القرآن. ويدلّ عليه قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين أذلاّء. قال الشهاب: إطلاق الدعاء على العبادة مجاز، لتضمن العبادة له، لأنه عبادة خاصة أريد به المطلق. وجعل الإثابة لترتبها عليها استجابة، مجازاً أو مشاكلة. وإنما أوّل به لأن ما بعده يدل عليه. والمقام يناسبه الأمر بالعبادة. وقد جوّز أن يراد بالدعاء والاستجابة ظاهرهما. ويراد بالعبادة الدعاء مجازاً، لأنه باب من العبادة عظيم، وفرد من أفرادها فخيم. قال الشهاب: ولو قيل لا حاجة إلى التجوّز، لأن الإضافة المراد بها العهد هنا، فيفيد ما ذكر من غير تجوّز - لكان أحسن. انتهى.

وعلى الوجه الثاني - وهو أن المراد بالدعاء السؤال - اقتصر كثير من المفسرين. قال المهايميّ ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ لأن الدعاء من العبد غاية في التذلل لربه، وهو محبوب لربه. فإذا أتى العبد بمحبوب الرب عظمه بالاستجابة. وإذا لم يستجب له في الدنيا عوّضه في الآخرة. ولحبه التذلل أمر العباد بالعبادة، فإن استكبروا كان

لهم غاية الإذلال. وقال القاشانيّ: الآية في دعاء الحال. لأن الدعاء باللسان مع عدم العلم بأن المدعوّ به خير له أم لا، دعاء المحجوبين. وأما الدعاء الذي لا تتخلف عنه الاستجابة، فهو دعاء الحال بأن يهيئ العبد استعداده لقبول مايطلبه. ولا تتخلف الاستجابة عن هذا الدعاء. كمن طلب المغفرة، فتاب إلى اللّه، وأناب بالزهد والطاعة. انتهى.

وتقدم في آية ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فوائد تناسب هذا المقام، فلتراجع.ثم أشار تعالى إلى أنه كيف لا يلزم العبادعبادته، وقد أنعم عليهم بمايقتضي شكره بالعبادة، مما أجلاه منافع الليل والنهار، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾

﴿ **اللّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فيه** ﴾ أي اللّه الذي لا تصلح الألوهيةإلا له. ولا تنبغي عبادة غيره، هو الذي جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه، فتستردوا بالراحة فيه، ما فاتكم من القوى في العمل بالنهار ﴿ **وَالنَّهارَ مُبصِراً** ﴾ أي أن يبصر فيه أو به لتتحركوا لتحصيل الأكساب الدينية والدنيوية. فقد تفضل اللّه عليكم بهما وبما فيهما ﴿ **إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ** ﴾ أي ليشكروه بعبادته ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِ شَيءٍ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأنَّى تُؤْفَكُونَ** ﴾ أي عن طاعته إلى إثبات الشريك وعبادته.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾

﴿ **كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ أي من الأمم المتقدمة الهالكة. أي فسلكتم أنتم معشر قريش مسلكهم، وركبتم محجتهم في الضلال.

القول في تأويل قوله تعالى:

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً﴾ أي تستقرون عليها وتسكنون فوقها ﴿وَالسَّمَآءَ بِنَاءً﴾ أي مبنية مرفوعة فوقكم بغير عمد ترونها لمصالحكم وقوام دنياكم. وقد فسّر (البناء) بالقبة المضروبة. لأن العرب تسمّي المضارب (أبنية).

فهو تشبيه بليغ، وهو إشارة إلى كرّيتها. قاله الشهاب ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي يجعل كل عضو في مكان يليق به، ليتم الانتفاع بها، فتستدلوا بذلك على كمال حكمته ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي لذيذات المطاعم والمشارب لتشكروه وحده ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الذي لا تصلح الربوبية إلا له.

القول في تأويل قوله تعالى:

هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ أي الذي لا يموت، الدائم الحياة، وكل شيء سواه فمنقطع الحياة غير دائمها ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي مفردين له الطاعة، لاتشركوا في عبادته شيئاً ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الثناء والشكر لله، مالك جميع أجناس الخلق، لا للأوثان التي لا تملك شيئاً، ولا تقدر على ضرر ولانفع.

قال ابن جرير: وكان جماعة من أهل العلم يامرون من قال ﴿لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ﴾ أن يتبع ذلك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تأولاً منهم هذه الآية، بانها أمر من الله بقيل ذلك. ثم أسنده عن ابن عباس وابن جبير.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي من الآلهة والأوثان ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ أي الآيات الوضحات من عنده، على وجوب وحدته وتفرده بالعبادة ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أخضع له بالطاعة دون غيره من الأشياء.

القول في تأويل قوله تعالى:

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ أي مما يرجع إليه . أو خلق أباكم آدم منه ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ أي يبقيكم لتبلغوا أشدكم، فتتكامل قواكم ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ﴾ أي إذا تناهى شبابكم وتمام خلقكم ﴿ شُيُوخاً ومِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل أن يصير شيخًا ﴿ وَلِتَبْلُغُوا ﴾ أي ونفعل ذلك لتبلغوا ﴿ أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ أي ميقاتاً محدوداً لحياتكم، وهو وقت الموت . أولجزائكم وهو يوم القيامة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي ولكي تعقلوا حجج الله عليكم بذلك، وتتدبروا آياته، فتعرفوا بها أنه لا إله غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي يكوّنه من غير كلفة ولامعاناة .وقد تقدم في (البقرة) الكلام على هذه الآية مطولاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ أي عن الرشد إلى الغيّ ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ ﴾ أي بكتاب الله، وهو القرآن ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ﴾ أي الماء الحارّ. قال المهايميّ : لدفعهم برد اليقين من دلائل الكتاب والسنة ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ أي يحرقون . قال المهايميّ : لإحراقهم الأدلة العقلية والنقلية .

القول في تأويل قوله تعالى :

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي غابوا فلم نعرف مكانهم. وهذاقبل أن يقرنوا معهم. أو ضلالهم استعارة لعدم نفعها لها. فحضورهم كالعدم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئاً﴾ أي ماكنا مشركين. وكذبوا

لحيرتهم واضطرابهم. أو بمعنى: تبين لنا أنا لم نكن نعبد شيئاً. قال القاشاني: لاطلاعهم على أن ماعبدوه وضيعوا أعمارهم في عبادته، ليس بشيء، فضلاً عن إغنائه عنهم شيئاً ﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾ أي أهل الكفر به، عنه وعن رحمته، فلا يخفف عنهم العذاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾

﴿**ذلكم**﴾ أي العذاب ﴿**بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون**﴾ أي بسبب فرحكم في الدنيا، بغير ما أذن الله لكم به، من الباطل والمعاصي، وبمرحكم فيها. و (المرح) هو الأشر والبطر والخيلاء. وبين (الفرح) و(المرح) تجنيس بديع.

القول في تأويل قوله تعالى:

ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

﴿**ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين**﴾ أي منزل المتعظمين عن الإيمان والتوحيد، جهنم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

﴿**فاصبر إن وعد الله حق**﴾ أي فاصبر على جدال هؤلاء المتكبرين في آيات الله، وعلى تكذيبهم، فإن وعد الله إياك بالظفر عليهم، حق ثابت ﴿**فإما نرينك بعض الذي نعدهم**﴾ أي من العذاب والنقمة ﴿**أو نتوفينك**﴾ أي قبل أن يحل بهم مايحل ﴿**فإلينا يرجعون**﴾ أي فنحكم بينهم بالحق، وهو الخلود في النار، لمناسبة نفوسهم الكدرة الظلمانية، البعيدةعن الحق، واستحكام ملكات رذائلهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

﴿ وَلَقَد أَرْسَلْنا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنهُم مَّن قَصَصْنا عَلَيكَ ﴾ أي لتقف على ماوفينا لهم من وعد النصر إياهم في الدنيا ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُص عَلَيْكَ ﴾ أي لمكان الطول. مع أن في نبئهم مايشاكل نبأ المذكورين. والشيء يعتبر بشكله ﴿ وَما كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بآيَةٍ إلا بإِذنِ اللّه ﴾ أي بأمره. وهذا رد لمقترحهم وتعنتهم في طلب ماقص عنهم من آية ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفجُرَ لَنا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ [الإسراء: ٩٠] الآية، بأن الإتيان بذلك مردّه مشيئة اللّه تعالى وإرادته به. وقدشاء أن تكون الآية العظمى تنزيله، الأكبر من كل آية، والأعظم من كل خارقة. فهو خيرالآيات وأحسنها وأقوم المعجزات وأمتنها. كما قال تعالى: ﴿ مَانَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾[البقرة: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتابَ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، ﴿ فَإذَا جَاءَ أَمرُ اللّه ﴾ أي عند عدم الإيمان بالآية المقترحة، بعد إتيانها ﴿ قُضِيَ بِالحَقِّ ﴾ أي من المؤاخذة، بعد تقرير الحجة المقترحة لهم ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي في دعواهم الشريك، وافترائهم الكذب.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

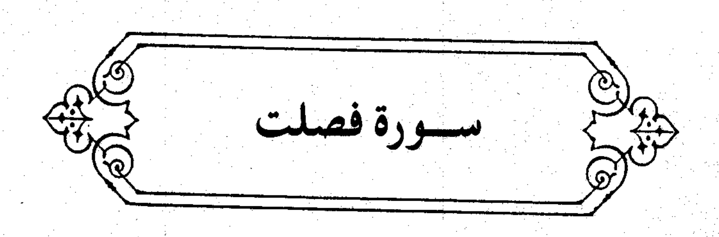
﴿ اللّهُ ﴾ أي الذي لاتصلح الألوهية إلا له ﴿ الّذي جَعلَ لَكُمُ الأنْعامَ ﴾ أي مسخرة ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنهَا وَمِنهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ من الجلود والأوبار والأصواف ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً في صُدُورِكُمْ ﴾ أي بالمسافرة عليها ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلكِ ﴾ أي في طريق البحر ﴿ تُحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ ءاياته ﴾ أي دلائله الدالة على فرط رحمته وكمال قدرته ﴿ فَأيَّ ءَايَات اللّه تُنكِرُونَ أَفَلَمْ يَسيرُوا في الأرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكثَرَ مِنْهُمْ وَأشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً في الأَرْضِ ﴾ أي من الحصون والقصور والمباني والعدد والعدد ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي مما لايدفع به العذاب الأرضيّ ولا السماويّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالْبَيِّنات فَرِحُوا بِمَا عندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ** ﴾ أي الخالي عن نور الهداية والوحي، ورضوا بها عن قبول هداية الرسل ومعارفهم. واستهزأوا برسلهم لاستصغارهم بما جاءوا به، في جنب ماعندهم من العلم الوهمي ﴿ **وَحَاقَ بِهِم** ﴾ أي من عذاب اللّه ﴿ **مَّاكَانُوا به يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ أي جزاؤه ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا باللّه وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللّه التي قَدْ خَلَتْ في عبَاده** ﴾ أي مضت في خلقه، أن لايقبل توبة ولا إيماناً في تلك الحال ﴿ **وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ أي وهلك، عند مجيء بأسه تعالى، الكافرون بربهم الجاحدون توحيد خالقهم. ففاتتهم سعادة الأبد، والعيش الرغد. نسأله تعالى المعافاة من غضبه وعقابه، والموافاة مع زمرة أحبابه. آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم



(حمٓ السجدة)

سميت بها لاشتمالها على آية سجدة. تدل على بطلان عبادة المظاهر بالكلية. وأن الله يستحق بذاته أجلّ العبادات. وهذا من أعظم مقاصد القرآن. قاله المهايميّ. وهي مكية. وآيها أربع وخمسون.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾

﴿حمٓ تنزيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم﴾ قال أبو السعود: إن جعل (حمٓ) اسماً للسورة، فهو إما خبر مبتدأ محذوف، وهو الأظهر، أو مبتدأ خبره ﴿تَنزِيلٌ﴾ وهو على الأول خبر بعد خبر. وخبر لمبتدأ محذوف، إن جعل مسروداً على نمط التعديد. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم﴾ متعلق به، مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية، بالفخامة الإضافية. أو خبر آخر. أو ﴿تَنزِيلٌ﴾ مبتدأ لتخصصه بالصفة، خبره.

القول في تأويل قوله تعالى:

كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

﴿ كِتَابٌ﴾ وهو على الوجوه الأول بدل منه، أوخبر آخر، أو خبر لمحذوف. ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم، للإيذان بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية، واقع بمقتضى الرحمة الربانية، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ﴿فُصِّلَتْ ءاياتُهُ﴾ أي بينت بالاشتمال على جميع المطالب الدينية، مع الدلائل العقلية ﴿ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً﴾ أي بلسان عربيّ يتيسر فيه من جميع الفوائد ما لا يتيسر في غيره. وانتصاب ﴿ قُرْءَانًا﴾ على المدح، أو الحالية من ﴿كِتَابٌ﴾ لتخصصه بالصفة، أو من ﴿ءَايَاتُهُ﴾ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي مقداره ومعانيه. أو لأهل العلم والنظر.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾

﴿بَشِيراً﴾ أي للعاملين به، الناظرين فيه، والمستخرجين منه، بالنعيم المقيم ﴿وَنَذِيراً﴾ أي للمعرضين عنه بخلود الأبد في نار جهنم ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي أكثر

هؤلاء القوم، الذين أنزل هذا القرآن بشيراً ونذيراً لهم، فلم يتدبروه ﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يصنعون له، عتوّاً واستكباراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾

﴿وقَالُوا قُلُوبُنَا في أَكِنَّة مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ﴾ أي أغطية متكاثفة، لا يصل إليها شيء مما تدعونا إليه، من التوحيد وتصديق مافي هذا القرآن من الأمر والنهي والوعد والوعيد ﴿وفي ءاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي صمم، لا نسمع ذلك، استثقالاً له وكراهية ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي فلا تواصل ولا تلاقي على ماندعي إليه ﴿فَاعْمَلْ﴾ أي على ماتدعو إليه، وانصب له ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ أي على ماألْفينا عليه آباءنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِليَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُواْ إِلَيْهِ﴾ أي بالتوحيد وإخلاص العبادة، من غير انحراف إلى الباطل والسبل المتفرقة ﴿واسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي بالتوبة من الشرك ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لايُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي لايزكون أنفسهم بطاعة الله، أو لا ينفقون من أموالهم زكاتها. وهذا مارجحه ابن جرير، ذهاباً إلى أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة. لا سيما مع ضميمة الإيتاء. وفيه إشارة إلى أن من أخص صفات الكفار هو منع الزكاة، ليحذر المؤمنون من ارتكابه. وعن قتادة: إن الزكاة قنطرة الإسلام. فمن قطعها نجا، ومن تخلف عنها هلك. قال ابن جرير: وقد كان أهل الردة، بعد نبي الله، قالوا: أما الصلاة فنصلي. وأما الزكاة، فوالله! لاتُغْصَب أموالنا. قال فقال أبو بكر: والله! لاأفرق بين شيء جمع الله بينه. والله! لو منعوني عقالاً مما فرض الله ورسوله، لقاتلناهم عليه ﴿وَهُم بالآخِرَةِ﴾ أي بإحيائهم بعد مماتهم للمجازاة ﴿هُم كافِرُونَ إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحات لَهُم أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي عليهم. أو غير منقوص. أو غير منقطع. أو غير محسوب.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠)﴾

﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ**﴾ أي في مقدارهما. وعلمهم بصلة الموصول، إما لما تلقوه خلفاً عن سلف، فاستفاض بينهم. أو لما سمعوه من الكتب السالفة، كالتوراة، فأذعنت بذلك نفوسهم، حتى صار معهوداً لها ﴿**وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً**﴾ أي أكفاء ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ ﴿**ذَلِكَ**﴾ أي الذي خلق الأرض في يومين ﴿**رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي**﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿**مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا**﴾ أي أكثر خيرها ﴿**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ**﴾ أي مستوية بالامتزاج والاعتدال، للطالبين للأقوات والمعايش. أي قدرها لهم، أو لمن سأل عن مبلغ الأجل الذي خلق اللّه فيه الأرض، وجعل فيها الرواسي والبركة، وتقدير الأقوات. فحدّه، كما أخبرتعالى، أنه أربعة أيام.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾

﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّماءِ**﴾ أي قصد إلى إيجادها. و(ثم) للتفاوت بين الخلقين في الإحكام وعدمه، واختلافهما في الجهة والجوهر، لا للتراخي في الزمان، إذ لازمان هناك. قاله القاشانيّ.

وقال ابن جرير: أي ثم ارتفع إلى السماء، أي بلا تكليف ولاتمثيل ﴿**وَهِيَ دُخَانٌ**﴾ قال القاشاني: أي جوهر لطيف بخلاف الجواهر الكثيفة الثقيلة الأرضية. وقال القاضي: (دخان) أمر ظلمانيّ. ولعله أراد به مادتها. أوالأجزاء المصغرة التي ركبت منها. وأصله للرازي حيث قال: لما خلق تعالى الأجزاء التي لاتتجزأ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء، كانت مظلمة عديمة النور، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمساً وقمراً، وأحدث صفة الضوء فيها، فحينئذ صارت مستنيرة. فثبت أن تلك الأجزاء، حين قصد اللّه تعالى أن يخلق منها السماوات والشمس والقمر،

كانت مظلمة. فصح تسميتها بالدخان. لأنه لامعنى للدخان إلا أجزاء متفرقة، غير متواصلة، عديمة النور. ثم قال: فهذا ماخطر بالبال في تفسير الدخان. والله أعلم بحقيقة الحال. انتهى.

وقال بعض علماء الفلك في تفسير هذه الآية ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾: أي ذرات، أي غازت أي سديم. ثم تجاذبت كما يجتمع السحاب فصارت كتلة واحدة. مصداقاً لقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً﴾ [الأنبياء: ٣٠]. أي كتلة واحدة. فدارت ثم تقطعت وتفصلت بالقوة الدافعة، فتكونت الأرض والسماوات، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أي فصلناهما، فصارتا كرات من الماء في يومين. أي ألفي سنة. لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وفي هذا الوقت كان عرشه على الماء . أي كان ملكه وسلطانه على الماء، والله أعلم. انتهى والله أعلم ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ قال القاشاني: أي تعلق أمره وإرادته بإيجادهما، فوجدتا في الحال معاً. كالمأمور المطيع، إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع لم يلبث في امتثاله. وهو من باب التمثيل. إذ لا قول ثمة. انتهى.

وقال ابن جرير: أي قال الله جل ثناؤه للسماء والأرض: جيئا بماخلقت فيكما. أما أنت ياسماء، فاطلعي ماخلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم. وأما أنت يا أرض فاخرجي ماخلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات. وتشققي عن الأنهار ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي جئنا بما أحدثت فينا من خلقك، مستجيبين لأمرك، لا نعصي أمرك. انتهى. يعني أن إثبات المقاولة مع السماء والأرض من المجاز. إما بالاستعارة المكنية. كما تقول (نطقت الحال) فتجعل الحال كإنسان يتكلم في الدلالة، ثم يتخيل له النطق الذي هو لازم المشبه به، وينسب إليه. وإما بالاستعارة التمثيلية بأن شبه فيه حالة السماء والأرض التي بينهما وبين خالقهما، في إرادة تكوينهما وإيجادهما، بحالة أمير ذي جبروت له نفاذ في سلطانه، وإطاعة مَن تحت تصرفه من غير تردد. وقد ردّ غير واحد قول من ذهب إلى أن في الجمادات تمييزاً ونطقاً على ظاهر أمثال هذه النصوص. منهم ابن حزم. قال في (الفصَل): وأما قوله تعالى ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فقد علمنا بالضرورة والمشاهدة أن القول في اللغة التي نزل بها القرآن، إنما هو دفع آلات الكلام من أنابيب الصدر والحلق والحنك واللسان والشفتين والأضراس، بهواء يصل إلى آذان السامع، فيفهم به مرادات القائل. فإذ لا

شك في هذا، فلكل من لا لسان له ولا شفتين ولا أضراس ولا حنك ولا حلق، فلا يكون منه القول المعهود منا. هذا مما لا يشك فيه ذوعقل. فإذ هذا هكذا كما قلنا بالعيان، فكل قول ورد به نصّ ولفظ مخبر به عمن ليست هذه صفته، فإنه ليس هو القول المعهود عندنا. لكنه معنى آخر. فإذ هذا كما ذكرنا، فبالضرورة صح أن معنى قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ إنما هو على نفاذ حكمه عز وجل وتصريفه لهما. انتهى.

وكذا الحال في ﴿ائْتِيَا طَوْعاً أَوْكَرْهاً﴾ فإنهما لما نزلا... وهما من الجمادات – منزلة العقلاء، إذ أُمرا وخوطبا على طريق المكنية أو التمثيلية، أثبت لهما ما هو من صفات العقلاء من الطوع والكره ترشيحاً. وهما مؤولان بـ (طائع وكاره) لأن المصدر لا يقع حالاً بدون ذلك، ويجوز كونهما مفعولاً مطلقاً. وإنما قال ﴿طَآئِعِينَ﴾ بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء الذكور. وكان مقتضى الظاهر (طائعات) أو (طائعتين) نظراً إلى الخطاب والإجابة والوصف بالطوع والكره.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

﴿فَقضاهُنَّ سَبْعَ سَماوَات فِي يوْمَيْنِ﴾ أي أحكمهن بإزالة رخاوة الدخان.

قال المهايميّ ولم يجعل لمادتها يوماً. لأنها كمادة الأرض. فدخلت في يومها ﴿وأَوْحَى فِي كُلِّ سمَآءِ أمْرَهَا﴾ أي ما أمر به فيها ودبّره من الملائكة والخلق الذي فيها، وما لا يعلم ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصابِيحَ﴾ فإنها كالسقف المرفوع المزين بمصابيح معلقة به، ما يدعو إلى الاستدلال بها على قدرة صانعها وحكمته ﴿وَحِفْظاً﴾ أي من الشياطين أن تسترق أخبارها ﴿ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾

﴿فَإِنْ أعْرَضُواْ﴾ أي عن هذا الاستدلال، وعن الإيمان بهذا العزيز الغالب على كل شيء، الذي اقتضى علمه ترتيب بعض الأمور ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ لأنكم مثلهما في العناد، ومثل عاد في الاستكبار، ومثل ثمود في استحباب العمى على الهدى.

قال ابن جرير: قد بينا فيما مضى أن معنى الصاعقة كل ما أفسد الشيء وغيَّره عن هيئته. وقيل في هذا الموضع: عُنِيَ بها وقعة من اللّه وعذاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾

﴿**إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ**﴾ قال الزمخشريّ: أي أتوهم من كل جانب، واجتهدوا بهم، وأعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا العتوّ والإعراض كما حكى اللّه تعالى عن الشيطان ﴿لأتِيَنَّهُمْ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]، يعني لآتينهم من كل جهة. ولأعلمن فيهم كل حيلة، وتقول (استدرت بفلان من كل جانب، فلم يكن لي فيه حيلة). وحاصله جعل الجهتين كناية عن جميع الجهات، علي ما عرف في مثله. والمراد بإتيانهم من جميع الجهات، بذل الوسع في دعوتهم على طريق الكناية. ويحتمل أن المعنى: جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما جرى فيه على الكفار، ومن جهه المستقبل وما سيجري عليهم. فالمراد بما بين أيديهم الزمن الماضي، وبما خلفهم المستقبل. ويجوز فيه العكس، كما ذكر في آية الكرسيّ ﴿**ألاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا**﴾ أي إرسال رسول ﴿**لأنزلَ مَلائكَةً**﴾ أي من السماء بما تدعوننا إليه ﴿**فإنَّا بمآ أُرْسِلْتُم به**﴾ أي من عبادة اللّه وحده ﴿**كافِرُونَ فَأمَّا عادٌ فاستَكْبَرُواْ في الأَرْضِ بغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ منَّا قُوَّةً**﴾ أي حتى نخاف عذابه، لو تركنا عبادته، أو عبدنا معه غيره ﴿**أولَمْ يَرَواْ أنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً**﴾ أي فيجب أن يحذر عقابه ويتقى عذابه ﴿**وكَانُوا بآيَاتنا**﴾ أي التي هي أقوى الدلائل ﴿**يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ**﴾ أى لعتوّهم بالقوة ﴿**رِيحاً صَرْصَراً**﴾ أي شديدة الصوت في هبوبها ﴿**فِي أيَّامٍ نَّحِسَاتٍ**﴾ أي مشؤومات عليهم ﴿**لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرة أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ**﴾ أى في الآخرى. كما لم ينصروا في الدنيا.

تنبيه:

قال الرازيّ: استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون نحساً وبعضها قديكون سعداً. لأن النحس يقابله السعد، والكدر يقابله الصافي. ثم أطال الرازيّ في الجواب والإيراد. ولا يخفى أن السعد والنحس إنما هو أمر إضافيّ لا ذاتيّ. وإلا لكان اليوم الذي يراه المنجمون نحساً، مشؤوم الطالع على كل ما أشرقت عليه الشمس. وكذا ما يرونه سعداً. والواقع بخلاف ذلك. إذ اليوم النحس عند زيد، قديكون سعداً عند بكر. بل الساعة بل الدقيقة. فأين تلك الدعوى؟ والقرآن أتى على أسلوب العرب البديع. ومن لطائفهم تسمية وقت الشدّة والبؤس بالنحس، ومقابلها بالسعد. فالنحس نحس على صاحبه. والسعد سعد على صاحبه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾

﴿**وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ**﴾ أي بيّنّا لهم سبيل الحق وطريق الرشد. ونهيناهم أن يتبعوا الضلالة. وأمرناهم أن يقتفوا الهدى ﴿**فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فأخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾ أي من الآثام، بكفرهم بالله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

﴿**وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وكَانُواْ يَتَّقُونَ**﴾ أي يخشون ربهم ويخافون وعيده. وذلك بالإيمان به وحده وتصديق رسله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾

﴿**وَيومَ يُحشَرُ أَعْدَآءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُم يُوزَعُونَ**﴾ أي يوم يجمع، لمزيد الفضيحة، بين الأولين والآخرين، أعداء الله المشركون والجاحدون، إلى النار فيجيء أولهم على آخرهم، ليتم إلزام الحجة عليهم بين جميعهم، فلا يبقى لهم مقال لهم لأنهم لا يزالون يجادلون عن أنفسهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾

﴿**حَتَّىٰ إِذَا مَا جَآءُوهَا**﴾ أي فبالغوا في إنكار المخالفة ﴿**شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ**﴾ أي بأنهم سمعوا الحجج فأعرضوا عنها، وسمعوا الشبه فاتبعوها، وسمعوا الفواحش فاستحسنوها ﴿**وَأَبْصَارُهُمْ**﴾ أي بأنهم رأوا الآيات فلم يعتبروها، ورأوا القبائح فاختاروها ﴿**وَجُلُودُهُم**﴾ أي بأنهم باشروا المعاصي، فوصل أثرها إلى القوة اللامسة منهم، فيشهد كل عضو وجزء ﴿**بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾

﴿**وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ**﴾ أي المدركة ألم العذاب الذي لا يدركه السمع والبصر ﴿**لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا**﴾ أي بما يوجب إيلامكم ﴿**قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ**﴾ أي بهذه الشهادة ﴿**الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ أي أنطق كل شيء من الحيوان. فهو من العامّ الذي خصه العقل، كقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، أي كل شيء من المقدورات. هذا، على أن النطق على ظاهره وحقيقته. وقيل المراد ظهور علامات على الأعضاء دالة على ماكانت متلبسة به في الدنيا، بتغير أشكالها ونحوه. مما يلهم اللّه من رآه أنه صدر عنه ذلك، لارتفاع الغطاء في الآخرة. فالنطق مجاز عن الدلالة. قال القاشانيّ: معنى ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ أي غيرت صور أعضائهم، وصُورت أشكالها على هيئة الأعمال التي ارتكبوها، وبدلت جلودهم وأبشارهم فتنطق بلسان الحال، وتدل بالأشكال على ما كانوا يعملون. ولنطقها بهذا اللسان قالت ﴿**أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ إذ لا يخلو شيء ما من النطق. ولكن الغافلين لا يفهمون. انتهى. لكن قال الرازيّ: تفسير هذه الشهادة، بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء، دالة على صدور تلك الأعمال منهم، عدول عن الحقيقة إلى المجاز. والأصل عدمه.

ثم قال: وهذه الآية يحسن التمسك بها في بيان أن البنية ليست شرطاً للحياة، ولا لشيء من الصفات المشروطة بالحياة. فاللّه تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء. واللّه أعلم.

تنبيه:

قال الرازيّ: نقل عن ابن عباس أنه قال: المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج، وإنه من باب الكنايات كما قال ﴿وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً﴾ [البقرة: ٢٣٥] وأراد النكاح. وقال: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ الْغَائِطِ﴾ [النساء: ٤٣] و[المائدة: ٦]، والمراد قضاء الحاجة. فتكون الآية وعيداً شديداً في الزنى. انتهى.

وقد أشار الإمام ابن الأثير في (المثل السائر) إلى ترجيح هذا المعنى. حيث ذكر هذه الآية في الترجيح الذي يقع بين معنيين، يدل عليهما لفظ واحد، يكون حيقفة في أحدهما، مجازاً في الآخر، وعبارته: الجلود ههنا تفسّر حقيقة ومجازاً. أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقاً، وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة، وهذا هو المانع البلاغيّ الذي يرجح جانب المجاز على الحقيقة، لما فيه من لطف الكناية عن المكنى عنه. وقد يسأل ههنا في الترجيح بين الحقيقة والمجاز، عن غير الجانب البلاغيّ. ويقال: ما بيان هذا الترجيح؟ فيقال: طريقة لفظ الجلود عامّ، فلايخلو إما أن يراد به الجلود مطلقاً أو يراد به الجوارح التي هي أدوات الأعمال خاصة. ولا يجوز أن يراد به الجلود على الإطلاق، لأن شهادة غير الجوارح التي هي الفاعلة، شهادة باطلة. إذ هي شهادة غيرشاهد. والشهادة هنا يراد بها الإقرار. فتقول اليد: أنا فعلت كذا وكذا. وتقول الرِّجل: أنا مشيت إلى كذا وكذا. وكذلك الجوارح الباقية تنطق مقرّة بأعمالها. فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح. وإذا أريد به الجوارح، فلا يخلو إما أن يراد به الكل أو البعض. فإن أريد به الكل، دخل تحته السمع والبصر. ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة. وإن أريد به البعض، فهو بالفرْج أخص منه بغيره من الجوارح ، لأمرين: أحدهما – أن الجوارح كلها قد ذكرت في القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ما عدا الفرْج. فكان حمل الجلد عليه أولى، ليستكمل ذكر الجميع. الآخر – إنه ليس في الجوارح ما يكره التصريح بذكره إلا الفرْج. فكني عنه بالجلد، لأنه موضع يكره التصريح فيه بالمسمى على حقيقته.

فإن قيل: إن تخصيص السمع والبصر بالذكر، من باب التفصيل، كقوله تعالى: ﴿فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]. والنخل والرمان من الفاكهة. قلت في الجواب: هذا القول عليك لا لك. لأن النخل والرمان إنما ذكرا لتفضيلٍ لهما في الشكل أو في الطعم، والفضيلة ههنا في ذكر الشهادة، إنما هي تعظيم لأمر المعصية.

وغير السمع والبصر أعظم في المعصية. لأن معصية السمع إنما تكون في سماع غيبة، أو في سماع صوت مزمار أو وتر، أو ما جرى هذا المجرى. ومعصية البصر إنما تكون في النظر إلى محرم: وكلتا المعصيتين لاحدّ فيها. وأما المعاصي التي توجد من غير السمع والبصر، فأعظم . لأن معصية اليد توجب القطع. ومعصية الفرج توجب جلد مائة أو الرجم. وهذا أعظم. فكان ينبغي أن تخص بالذكر دون السمع والبصر. وإذا ثبت فساد ما ذهبت إليه، فلم يكن المراد بالجلود إلا الفروج خاصة. انتهى كلام ابن الأثير.

وناقشه ابن أبي الحديد في (الفلك الدائر) بما محصله: أن حمل الجلد على الفرج إنما يتعين، إذا كان بين لفظتي الجلد والفرج أو معناهما مناسبة. ولانجد مناسبة إلا أن يكون لأجل أن الجلد جزء من أجزاء ماهية الفرج. فعبر عن الكل بالبعض، وهو بعيد جداً. انتهى.

وأقول: مقصود من أثرعنه إرادةالفروج بالجلود هو إرادة الفرد الأهم والأقوى. وذلك لأن الجلود تصدق على ما حواه الجسم من الأعضاء والعضلات التي تكتسب الجريمة. ولا يخفى أن أهمها بالعناية وأولاها بالإرادة هو الفروج. لأن معصيتها تربى على الجميع. وقد عهد في مفسري السلف اقتصارهم في التأويل من العامّ على فرده الأهم. كقصرهم (سبيل الله) على الجهاد، مع أن (سبيل الله) يصدق على كل مافيه خير وقربة ونفع ومعونة، على الطاعة. إلا أن أهم الجميع هو جهاد الذين يصدون عن الحق. فذكر الجهاد لا ينفي غيره. وهذه فائدة ينبغي أن يحرص على فهمها كل من له عناية بالتفسير. فإنها من فوائده الجليلة. وينحل بها إشكالات ليست بالقليلة، والله الموفق. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إما من تمام كلام الجلود، أو مستانف من كلامه تعالى: وعلى كلٍّ، فهو مقرر لما قبله، بأن القادر على الخلق أول مرة، قادر على إنطاق كل شيء.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أن يَشْهَدَ عَلَيْكُم سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ﴾ أي وما كنتم تستترون عند فعلكم الفواحش والمنكرات ، مخالفة أو كراهة أن يشهد عليكم

ما ذكر. أي ليس استتارهم للخوف مما ذكر، بل من الناس. فـ ﴿أنَ يَشْهَدَ﴾ مفعول له، بتقديرمضاف. أو من أن يشهد أو عن أن يشهد. أو أنه ضمن معنى الظن، فهو في محل نصب. وفي الآية تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يتحقق، أنه لا يمر عليه حال إلا وعليه رقيب، كما قال أبو نُواسَ:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً، فلا تَقُلْ خلوتُ. ولكن قل: علي رقيبٌ
ولا تحسبنَّ اللّهَ يَغفُلُ ساعـــةً ولا أن ما يخفى عليك، يغيبُ

﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي ما ظننتم أن اللّه يعلم فينطق الجوارح، ولكن ظننتم أنه لا يعلم كثيراً، وهو ما عملتم خفية. فما استترتم عنها واجترأتم على المعاصي. وإذا كان ﴿أن يَشْهَدَ﴾ مفعولاً له، فالمعنى ما استترتم بالحجب، لخيفة أن تشهد عليكم الجوارح. فلذا ما استترتم عنها. لكن لأجل ظنكم أن اللّه لا يعلم كثيراً، فلذا سعيتم في الاستتار عن الخلق، لا عن الخالق، ولا عما تنطق به الجوارح.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أرْداكُمْ﴾ أي أهلككم بالجراءة على مخالفته في الدنيا، ومجادلته في القيامة ﴿فَأصْبَحْتُم مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي لأعمال النجاة. والدرجات في الآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

﴿فَإن يَصْبِرُوا﴾ أي على النار ﴿فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ أي منزل ومسكن ﴿وَإن يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي يسألوا العتبى وهي الرجعة إلى الذين يحبون ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي المجابين إليه، فلا يخفف عنهم العذاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ أي بعثنا لهم نظراء من الشياطين اقترنوا بهم ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي حسّنوا لهم أعمالهم كلها، الحاضرة والمستقبلة. فالطرفان كناية عن الجميع، أوما بين أيديهم من جرائم الدنيا، وما خلفهم من التكذيب بالمعاد. قال الشهاب: وتفسير أمور الدنيا بما بين أيديهم، لحضورها عندهم، كالشيء الذي بين يديك تقلّبه كيف تشاء. والآخرة بما خلفهم، لعدم مشاهدتها، كالشيء الذي خلفك، أو لكونها ستلحق بهم. وقد يعكس فيجعل ما بين أيديهم الآخرة لأنها مستقبلة، وما خلفهم الدنيا لمضيّها وتركها كما مرّ قريباً.

وقال القاشاني في تفسير الآية: أي قدرنا لهم أخداناً وأقراناً من شياطين الإنس أو الجن، من الوهم والتخيل، لتباعدهم من الملأ الأعلى، ومخالفتهم بالذات للنفوس القدسية والأنوار الملكوتية، بانغماسهم في المواد الهيولانية. واحتجابهم بالصفات النفسانية، وانجذابهم إلى الأهواء البدنية والشهوات الطبيعية. فناسبوا النفوس الأرضية الخبيثة والكدرة المظلمة. وخالفوا الجواهر القدسية. فجعلت الشياطين أقرانهم وحجبوا عن نورالمكلوت ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ما بحضرتهم من اللذات البهيمية والسبعية، والشهوات الطبيعية في ﴿وَمَاخَلْفَهُمْ﴾ أي من الآمال والأماني التي لا يدركونها ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ اي في القضاء الإلهي. بالشقاء الأبدي ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ من المكذّبين بأنبيائهم، الضالين المضلين ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ستروا زينة أدلة القرآن عن اتباعهم. الذين زينوا لهم شبهاتهم الواهية ﴿لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي إذا قرأه، ولا تصغوا له، كيلا يؤثر عليكم وعظه ﴿وَالْغَوْاْ فِيهِ﴾ أي ائتوا باللغو عند قراءته، ليختلط. فلا يمكنه القراءة. والمراد باللغو ما لا أصل له. أو ما لا معنى له ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي تصدُّونَ من أراد استماعه، عن استماعه، فلا يسمعه. وإذا لم يسمعه، ولم يفهمه، لم يتبعه. فتغلبون بكيدكم هذا حججه، التي يغلب بها عقولكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُم أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَآءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي المكث الأبدي. وفي النظم الكريم من البديع، التجريد. وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة، آخر مثله، مبالغة فيها. لأنها نفسها دار

الخلد. ويجعلهُ للظرفية الحقيقية، تكلفٌ لا داعي له. مع أن المذكور أبلغ. قاله الشهاب ﴿ جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ أي ينكرون أو يلغون. وذكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

﴿ وقالَ الذينَ كفرُوا ربَّنا أرِنا اللَّذيْنَ أضلاَّنَا من الجنِّ والإنس نجعَلْهُما تحْتَ أقدامِنا ﴾ أي ندوسهما انتقاماً منهما ﴿ ليكُونَا منَ الأسفَلِينَ ﴾ قال القاشاني: أي حنق المحجوبون واغتاظوا على من أضلهم من الفريقين، عند وقوع العذاب. وتمنوا أن يكونوا في أشد من عذابهم وأسفل من دركاتهم، لما لقوا من الهوان وألم النيران وعذاب الحرمان والخسران، بسببهم. وأرادوا أن يشفوا صدورهم برؤيتهم في أسوأ أحوالهم، وأنزل مراتبهم. كما ترى من وقع في البلية، بسبب رفيق أشار إليه بما أوقعه فيها، يتحرّد عليه ويتغيّظ، ويكاد أن يقع فيه، مع غيبته ويتحرّق. انتهى.

القول في تأويل قول تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ إنَّ الذينَ قَالُوا ربُّنا اللهُ ﴾ أي وحّدوه بنفي غيره، وعرفوه بالإيقان حق معرفته ﴿ ثُمَّ استَقامُوا ﴾ أي في أخلاقهم وعقائدهم وأعمالهم. وذلك بالسلوك في طريقه تعالى، والثبات على صراطه، مخلصين لأعمالهم، عاملين لوجهه، غير ملتفتين بها إلى غيره ﴿ تتنزلُ عليهِمُ الملائكةُ ﴾ أي في الدنيا، بإلهامهم. أو عند الموت، أو حين البعث ﴿ ألاَّ تخافُوا ﴾ أي ما تقدمون عليه بعد مماتكم ﴿ ولاَ تحزَنُوا ﴾ أي على ما خلفتم من دنياكم، من أهل وولد. فإنا نخلفكم في ذلك كله. أو من الفزع الأكبر وهوله، فإنكم آمنون لآية ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائكَةُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، والتنزيل يفسر بعضه بعضاً. أو الآيتان في مقامين وبشارتين. وفضله تعالى أوسع، وجوده أعم وأشمل. قال القاشاني: وإنما تنزلت الملائكة عليهم للمناسبة الحقيقية بينهم في التوحيد الحقيقي، والإيمان اليقيني، والعمل الثابت على منهاج

الحق والاستقامة في الطريقة إليه. غير ناكثين في عزيمة، ولا منحرفين عن وجهة، ولا زائغين في عمل. كما ناسبت نفوس المحجوبين من أهل الرذائل الشياطين، بالجواهر المظلمة والأعمال الخبيثة. فتنزلت عليهم. انتهى. وقوله تعالى: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي في الدنيا، حال الإيمان بالغيب.

القول في تأويل قوله تعالى:

نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ أي أحباؤكم في الدارين. للتناسب بيننا وبينكم. كما أن الشياطين أولياء الكافرين، لما بينهم من الجنسية والمشاركة في الظلمة والكدورة. قال ابن كثير: أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا قرناءكم في الحياة الدنيا.نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر اللّه. وكذلك نكون معكم في الآخرة. نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور. ونؤمنكم يوم البعث والنشور. ونجاوزكم الصراط المستقيم. ونوصلكم إلى جنات النعيم. وقال الرازي: معنى كونهم أولياء للمؤمنين، أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية. كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح، بإلقاء الوساوس فيها، وتخييل الأباطيل إليها. وبالجملة، فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة، حاصل من جهات كثيرة معلومة، لأرباب المكاشفات والمشاهدات. فهم يقولون: كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا، فهي تكون باقية في الآخرة. فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غيرقابلة للزوال. بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى. وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة. وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر. والتعلقات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة. كما قال ﷺ[1]: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢ / ٣٥٣. عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: ليلة أسري بي، لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوقي فإذا أنا برعد وبرق وصواعق. قال، فأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات، ترى من خارج بطونهم. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا.
فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات. فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب.

بني آدم، لنظروا إلى ملكوت السموات. فإذا زالت العلائق الجمسانية، والتدبيرات البدنية، فقد زال الغطاء والوطاء، فيتصل الأثر بالمؤثر، والقطرة بالبحر، والشعلة بالشمس». انتهى.

وهو مشرب صوفيّ ومنزع فلسفيّ، فيه شية من الرقة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ أي من الروح والريحان والنعيم المقيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي تتمنون ﴿نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي إكراماً معداً لكم، من غفور لذنوبكم، ورحيم بتفضله وتطوله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَآ إِلى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالَحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي لا أحد أحسن مقالاً ممن دعا الناس إلى عبادته تعالى، وكان من الصالحين المؤتمرين، والمسْلمين وجوههم إليه تعالى في التوحيد.

لطائف:

الأولى – قال القاشاني: وإنما قدم الدعوة إلى الحق والتكميل، لكونه أشرف المراتب، ولاستلزامه الكمال العلمي والعملي. وإلا لما صحت الدعوة. انتهى.

الثانية – في الآية إشارة إلى ترغيبه ﷺ في الإعراض عن المشركين، وعما كانوا يقولونه من اللغو في التنزيل، مما قصه تعالى عنهم فيما تقدم. وإرشاده إلى المواظبة على التبليغ، والدعوة، ببيان أن ذلك أحسن الطاعات ورأس العبادات. فهذا هو سر انتظام هذه الآية في إثر ما سبق. وثمة وجه آخر. وهو أن مراتب السعادات اثنان: كاملٍ وأكمل. أما الكامل فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملاً في ذاته. فإذا فرغ من هذه الدرجة، اشتغل بعدها بتكميل الناقصين. فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠] و [الأحقاف: ١٣]، إشارة إلى المرتبة الأولى. وهي اكتساب الأحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها. فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة، وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية، وهي الانتقال بتكميل الناقصين. وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق. وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً﴾ الآية

واعلم أن من آتاه اللّه قريحة قوية، ونصيباً وافياً من العلوم الإلهية، عرف أنه لا

ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن، أفاده الرازي.

الثالثة – يدخل في الآية كل من دعا إلى الله بطريق من الطرق المشروعة، وسبيل من السبل المأثورة. لأن الدعوة الصحيحة هي الدعوة النبوية. ثم ما انتهج منهجها في الصدع بالحق، وإيثاره على الخلق.

الرابعة – في الآية دليل على وجب الدعوة إلى الله تعالى – على ما قرره الرازي – لأن الدعوة إلى الله أحسن الأعمال. وكل ما كان أحسن الأعمال، فهو واجب.

الخامسة – احتج من جوز قول (أنا مسلم) بدون تعليق على المشيئة بهذه الآية. وقال: إطلاقها يدل على أن ذلك هو الأولى. والمسألة معروفة بسطها الغزالي في (الإحياء).

وللإمام ابن حزم في (الفِصَل) تحقيق لطيف لا بأس بإيراده. قال رحمه الله: اختلف الناس في قول المسلم (أنا مؤمن) فروينا عن ابن مسعود وجماعة من أصحابه الأفاضل ومن بعده من الفقهاء، أنه كره ذلك . وكان يقول (أنا مؤمن إن شاء الله) وقال بعضهم: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله. وكانوا يقولون: من قال أنا مؤمن، فليقل إنه من أهل الجنة.

ثم قال ابن حزم: والقول عندنا في هذه المسألة، أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه. فإن كان يدري أنه مصدق بالله عزَّ وجلَّ، وبمحمد ﷺ وبكل ما أتى به عليه السلام. وأنه يقر بلسانه بكل ذلك، فواجب عليه أن يعترف بذلك. كما أمر تعالى، إذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ولا نعمة أوكد ، ولا أفضل ولا أولى بالشكر، من نعمة الإسلام. فواجب عليه أن يقول (أنا مسلم قطعاً عند الله تعالى، وفي وقتي هذا) ولا فرق بين قوله (أنا مؤمن مسلم) وبين قوله (أنا أسود وأنا أبيض). وهكذا سائر صفاته التي لا يشك فيها. وليس هذا من باب الامتداح والتعجب في شيء. لأنه فرض عليه أن يحصن دمه بشهادة التوحيد. قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَآ أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقول ابن مسعود عندنا صحيح. لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما في اللغة، إلى جميع البر والطاعات. فإنما منع ابن مسعود من القول بأنه (مسلم مؤمن) على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات. وهذا صحيح. ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك. وما منع رضي الله عنه من أن

يقول المرء (إني مؤمن) بمعنى مصدق. كيف؟ وهو يقول (قل آمنت بالله ورسله) أي صدقت. وأما من قال فقل إنك في الجنة، فالجواب أننا نقول: إن متنا على ما نحن عليه الآن، فلا بد لنا من الجنة بلا شك. وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن والسنة والإجماع، أن من آمن بالله ورسوله ﷺ وبكل ما جاء به، ولم يأت بما هو كفر، فإنه في الجنة. إلا أننا لا ندري ما يفعل بنا في الدنيا، ولا نأمن من مكر الله تعالى. ولا إضلاله، ولا كيد الشيطان، ولا ندري ماذا نكسب غداً. ونعوذ بالله من الخذلان. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾

﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ**﴾ أي لكون الأولى من مقام العقل تجرّ صاحبها إلى الجنة ومصاحبة الملائكة. والثانية من مقام النفس تجر صاحبها إلى النار ومقارنة الشياطين ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ أي ادفع السيئة حيث اعترضتك، بالتي هي أحسن منها، وهي الحسنة. على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقاً. أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات. وإنما عدل من مقتضى الظاهر وهو (ادْفَعْ بالحسنة) إلى الأبلغ - لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما دونه. وهذا الكلام أبلغ في الحمل والحث على ما ذكر. لأنه يومئ إلى أنه مهم ينبغي الاعتناء به والسؤال عنه. قال القاشاني: أي إذا أمكنك دفع السيئة من عدوك بالحسنة، التي هي أحسن، فلا تدفعها بالحسنة التي دونها، فكيف بالسيئة؟ فإن السيئة لا تندفع بالسيئة، بل تزيد وتعلو ارتفاع النار بالحطب. فإن قابلتها بمثلها كنت منحطاً إلى مقام النفس، متبعاً للشيطان، سالكاً طريق النار، ملقياً لصاحبك في الأوزار، وجاعلاً له ولنفسك من جملة الأشرار، متسبباً لازدياد الشر، معرضاً عن الخير. وإن دفعتها بالحسنة، سكّنت شرارته، وأزلت عداوته، وتثبت في مقام القلب على الخير، وهديت إلى الجنة وطردت الشيطان وأرضيت الرحمن، وانخرطت في سلك الملكوت، ومحوت ذنب صاحبك بالندامة، ثم أشار تعالى إلى علة الأمر وثمرته بقوله: ﴿**فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ**﴾ أي صديق أو قريب ﴿**حَمِيمٌ**﴾ أي شديد الولاء. وأصل الحميم الماء الشديدة حرارته. كنى به عن الولي المخلص في وده، لما يجد في نفسه من حرارة الحب والشوق والاهتمام نحو مواليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

﴿وَمَا يُلَقَّاهَآ﴾ أي هذه الخصلة الشريفة، والفضيلة العظيمة، وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي على تجرع الشدائد. أو على طاعته تعالى وأمره، تخلقاً بالعلم والعفو ﴿وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي من الخير وكمال النفس. ومن اللّه تعالى بالتخلق بأخلاقه. ومن الثواب وكمال العقل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي وإما يلقين الشيطان في نفسك وسوسة من حديث النفس، إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة، والانتقام منه، فاستجر باللّه واعتصم من خطواته، بالرجوع إلى جنابه تعالى، واللجأ إلى حضرته، من شره ووسوسته ونزغه. قال ابن كثير: قدمنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف وهو قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:١٩٩-٢٠٠]، وفي سورة المؤمنون وهو قوله سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٦ - ٩٨].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي حججه تعالى على خلقه، ودلالته على وحدانيته وعظيم سلطانه ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ أي اختلافهما، ومعاقبة كل واحد منها صاحبه ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي نورهما وإشراقهما وتقدير منازلهما، واختلاف سيرهما في سمائهما، لبقاء صلاح الكون ﴿لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَلِلْقَمَرِ﴾ لأنهما مسخران بتسخير خالق قادر عليم، فهما مخلوقان ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي تفردونه بالعبادة. فإن من طاعته أن تخلصوا له العبادة، ولا تشركوا في طاعته أحداً. لأنها لا تنبغي لأحد سواه.

تنبيه:

استدل بالآية الشيخ أبو إسحاق في (المهذب) على صلاة الكسوف. قال: لأنه لا صلاة تتعلق بالشمس والقمر غيرها. وأخذ من ذلك تفضيلها على صلاة الاستسقاء، لكونها في القرآن، بخلافها. كذا في (الإكليل).

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾

﴿**فَإِن اسْتَكْبَرُوا**﴾ أي عن عبادته كبراً وعتواً ﴿**فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ**﴾ أي من الملائكة ﴿**يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ**﴾ أي لا يملّون عبادته، لأنها قرة أعينهم وحياة أنفسهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾

﴿**وَمِن آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً**﴾ أي ساكنة لا حركة لعشب فيها ولا نبات ولا زرع ﴿**فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾ أي اهتزت بالنبات وتحركت بزينته، وربت بارتفاعه على سطحها، أي صارت ربوة مرتفعة ﴿**إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا**﴾ أي هذه الأرض الدارسة، فأخرج منها النبات، وجعلها تهتز بالزرع من بعد يبسها ﴿**لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا**﴾ أي يميلون عن حججنا وأدلتنا، ويزيغون عنها تكذيباً لها وجحوداً لها ﴿**لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا**﴾ أي لإحاطة علمه بهم، وكونه بالمرصاد لهم، فسيجزيهم.

تنبيه:

شملت الآية من يضع الكلام في الآيات على غير مواضعه، كما فسّرها ابن عباس. قال في (الإكليل): ففيها الرد على من تعاطى تفسير القرآن بما لا يدل عليه

جوهر اللفظ، كما يفعله الباطنية والاتحادية والملاحدة وغلاة المتصوفة ﴿أَفَمنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أم مَّن يَأْتِي ءَامِناً يَومَ الْقِيَامَة اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ﴾ أي بهذا القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي فهم هالكون. فالخبر محذوف. أو الجملة بدل من جملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أي منيع محمي عن التغيير والتبديل، وعن محاكاته بنظير.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

﴿لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي لا يتطرق إليه البطلان من جهة من الجهات.

قال القاشاني: لا من جهة الحق فيبطله بما هو أبلغ منه وأشد إحكاماً في كونه حقاً وصدقاً. ولا من جهة الخلق فيبطلونه بالإلحاد في تأويله ، ويغيرونه بالتحريف لكونه ثابتاً في اللوح محفوظاً من جهة الحق، كما قال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وفيه تمثيل لتشبيهه بشخص حمي من جميع جهاته. فلا يمكن أعداءه الوصول إليه لأنه في حصن حصين من حماية الحق المبين. هذا على أن ما بين يديه وما خلفه، كناية عن جميع الجهات. كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله. أو المعنى: لا يتطرق إليه باطل في كل ما أخبر عنه من الأخبار الماضية والآتية. والماضية ما بين يديه، والآتية ما خلفه. أو العكس كما مرّ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٌ حَمِيدٍ﴾ قال ابن جرير: أي هو تنزيل من عند ذي حكمة، بتدبير عباده وصرفهم فيما فيه مصالحهم، محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أي ما يقول لك كفار قومك، إلا مثل ما قال للرسل كفارُ قومهم، من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة. أي فاصبر كما صبروا ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي لذنوب التائبين إليه من ذنوبهم، بالصفح عنهم ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي لمن أصرّ على كفره وذنوبه، ومات قبل التوبة منها.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَاناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُواْ لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ اي بيّنت ادلته وما فيه، بلسان نعرفه لنفهم ما فيه. قال الزمخشري: كانوا لتعنتهم يقولون: هلا نزل القرآن بلغة العجم؟ فقيل: لو كان كما يقترحون، لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا: لولا فصلت آياته؟ أي بيّنت ولخصت بلسان نفقهه ﴿ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ الهمزة همزة الإنكار، يعني: لأنكروا وقالوا: أقرآن أعجميّ ورسول عربي؟ أو مرسَل إليه عربيّ؟ والمعنى: إن آيات اللّه على أي طريقة جاءتهم، وجحدوا فيها متعنتاً. لأن القوم غير طالبين للحق. وإنما يتعبون أهواءهم. انتهى.

قال الشهاب: والأعجمي أصله (أعجم). ومعناه من لا يفهم كلامه للكنة او لغرابة لغته وزيدت الياء للمبالغة. كما في أحمري. ويطلق على كلامه مجازاً. لكنه اشتهر حتى الحق بالحقيقة. وأما العجمي فالمنسوب إلى العجم. وهم مَنْ عدا العرب وقد يخص بأهل فارس ولغتهم العجمية أيضاً. فبين الأعجمي والعجمي عموم وخصوص وجهي. انتهى. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًىً وَشِفَآءٌ﴾ أي: هو للمؤمنين بالغيب هداية تهديهم إلى الحق، وتبصّرهم بالمعرفة. وشفاء يزيل أمراض قلوبهم من الرذائل. كالنفاق والشك، أي تبصّرهم بطريق النظر والعمل، فتعلمهم وتزكيهم ﴿وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً﴾ اي لا يسمعونه ولا يفهمونه. بل يشتبه عليهم لاستيلاء الغفلة عليهم، وسد الغشاوات الطبيعية طرق أسماع قلوبهم وابصارها. فلا ينفذ فيها ولا يتنبهوا بها ولا يتيقظوا ﴿أوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مُّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي مثلهم في عدم قبولهم الحق، واستماعهم له، مثل من يُصَيَّحُ به من مسافة شاطة، لا يسمع من مثلها الصوت، فلا يسمع النداء. وذلك لبعدهم عن منبع النور الى يدرك به الحق ويرى. وانهماكهم في ظلمات الهيولى. قال الشهاب: وجعل النداء من مكان بعيد، تمثيلاً لعدم فهمهم وانتفاعهم بما دُعُوا له. يقال: أنت تنادى من مكان بعيد، أي لا تفهم ما أقول. وقيل: إنه على حقيقته، وإنهم يوم القيامة ينادون كذلك، تفضيحاً لهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيه** ﴾ قال ابن جرير: أي فاختلف في العمل بما فيه الذين أوتوه من اليهود. وقال ابن كثير: أي كذب وأوذي ، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴿ **وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ** ﴾ وهي العدة بالقيامة وفصل الخصومة حينئذ. أي لولا أنه تعالى قدر الجزاء في الآخرة ﴿ **لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** ﴾ أي بتعجيل العذاب ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِه مَوْئِلاً ﴾ [الكهف: ٥٨]، ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦]، ﴿ **وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيب** ﴾ أي موقع للريب والاضطراب لأنفسهم وأتباعهم، لعمى بصائرهم وتبلد عقولهم. وإلا فالحق أجلى من أن يخفى. وقال ابن كثير: أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم، لما قالوا. بل كانوا شاكّين فيما قالوه، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجهّه ابن جرير. وهو محتمل. واللّه أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

﴿ **مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِه** ﴾ أي من عمل بطاعة اللّه، فائتمر لأمره وانتهى عما نهاه، فلنفسه نفعه. لأنه يجازى عليه جزاءه الحسن ﴿ **وَمَنْ أَسَاءَ** ﴾ أي عمل السيّء وعصى ﴿ **فَعَلَيْهَا** ﴾ ضرّه. لأنه جنى على نفسه بذلك، ما أكسبها سخط اللّه تعالى والعقاب الأليم و﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيد** ﴾ أي لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يعذّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾

﴿ **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَة** ﴾ أي لا يعلمها إلا هو. أو المعنى: إذا سئل عنها يقال: اللّه عالم بها ﴿ **وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا** ﴾ أي أوعيتها ﴿ **وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا**

تَضَعُ إلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ أي مقروناً بعلمه. قال الزمخشري: يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك ﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي** ﴾ أي الذين كنتم تشركونهم في عبادتي ﴿ **قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَامِنَّا مِن شَهِيدٍ** ﴾ أي أعلمناك ما منا من يشهد لهم بالشركة ويقرّ بها الآن. فـ ﴿ **شَهِيدٍ** ﴾ فعيل من الشهادة ونفي الشهادة كناية عن التبرؤ منهم. أو هو منهم إنكار لعبادتها. فيكون كذباً، كقولهم: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

﴿ **وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ** ﴾ أي يعبدون من الأوثان، فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئاً ﴿ **وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ** ﴾ أي وأيقنوا يومئذ مالهم من ملجأ يلجأون إليه من عذاب الله.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾

﴿ **لاَّ يَسْئَمُ الإنسَانُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ** ﴾ أي لا يمل من مسألته ربه بالخير، كالمال وصحة الجسم ﴿ **وَإِن مَسَّهُ الشَّرُّ** ﴾ أي الضرّ في نفسه من سقم أو جهد في معيشته ﴿ **فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ** ﴾ أي من روح الله ورحمته، ومن أن يكشف ما نزل به. قال الزمخشري: بولغ فيه من طريقين: من طريق بناء (فعول) ومن طريق التكرير. والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾

﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ** ﴾ أي بتفريجها عنه ﴿ **لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي** ﴾ أي حقي نلته بعملي، لا بفضل من الله. جحداً للمنعم ﴿ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى** ﴾ أي للحالة الحسنى من الكرامة. حرصاً ورجماً

بالغيب ، وتلاعباً بما شاء الهوى ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلوا ﴾ أي فلنخبرن هؤلاء المتمنين على الله الأباطيل، بحقيقة أعمالهم. ولنبصرنّهم عكس ما اعتقدوا فيها ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو تخليدهم في النار.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَ بِجَانِبِهِ﴾ أي إذا كشفنا ما به من ضر، ورزقناه غنى وصحة وسعة، أعرض عما دعي إليه من الطاعة. وتكبر وشمخ بأنفه عن الإجابة. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي كثير. يديم تضرعه، ويستغرق في الابتهال أنفاسه. وقد استعير (العرض) لكثرة الدعاء. كما يستعار له (الطول) أيضاً. فيقال: أطال فلان الدعاء، إذا أكثر. وكذلك أعرض دعاءه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم إِن كَانَ﴾ أي القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ أي من غير نظر واتباع دليل ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي من أضل منكم. فوضع الموصول موضع الصلة، شرحاً لحالهم وتعليلاً لمزيد ضلالهم. والشقاق الخلاف. لكون المخالف في شق وجانب ممن خالفه. قال الشهاب: الآية رجوع لإلزام الطاعنين والملحدين. وختم السورة بما يلتفت لفت بدئها، وهو من الكلام المنصف . وفيه حث على التأمل، واستدراجٌ للإقرار. مع ما فيه من سحر البيان. وحديثُ الساعة وقع في البين تتميماً للوعيد. وتنبيهاً على ما هم عليه من الضلال البعيد.

القول في تأويل قوله تعالى:

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ﴾ يعني وقائع النبيّ ﷺ بنواحي بلد المشركين من أهل مكة وأطرافها . وظهوره على الناس تصديقاً للوعد ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي من

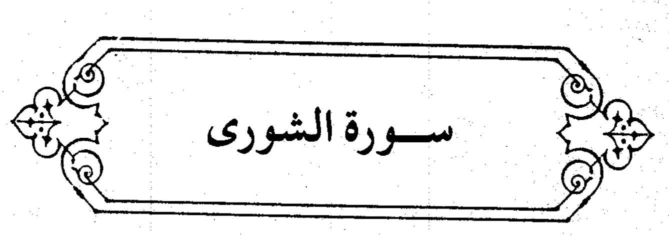
غلبتهم وقهرهم وكسر شوكتهم. وكما وقع في بدر وفتح مكة ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي أن هذا القرآن، بوعده ووعيده، هو الحق الثابت، إذا لا برهان بعد عيان. فقد نصر اللَّهُ رسوله وصحبه، وخذل الباطل وحزبه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيءٌ ما، مما يفعله خلقه، وهو مجازيهم عليه. ففيه وعد ووعيد.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي في شك عظيم من البعث بعد الممات، ومعادهم إلى ربهم ﴿أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي فلا يخرج عن إحاطته شيء ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الشورى

سميت بالشورى، لإشعار آياتها بذلة الدنيا وعزة الآخرة، وصفات طالبيها، مع اجتماع قلوبهم بكل حال. وهذا من أعظم مقاصد القرآن. قاله المهايمي: وهي مكية. وقيل إن فيها مدنياً. ومرّ مراراً تحقيق ذلك، وآيها ثلاث وخمسون.

بسم الله الرّحمن الرّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾

﴿**حم عسق**﴾ قد روى بعض المفسرين ها هنا، في تفسير ﴿**حم عسق**﴾ آثاراً واهية جداً لايعول عليها. بل هي، كما قال ابن كثير منكرة، وقد قدمنا أن الصواب أن هذه الحروف، أوائل السور الكريمة، أسماء لها. و﴿**حم عسق**﴾ اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما، وعُدَّا آيتين. وقيل اسم واحد، والفصل ليناسب سائر الحواميم، فيكون آية واحدة. وهو الوجه عندي لاشتهارها بهما معاً. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾

﴿ **كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ كلام مستأنف، وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما في تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرسل المتقدمة في الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق. أو أن إيحاءها مثل إيحائها، بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شانها. والكاف في حيز النصب على أنه مفعول لـ (يُوحِي) على الأول - وعلى أنه نعت لمصدرمؤكد له، على الثاني و(ذَلِكَ) على الأول إشارة إلى ما فيها. وعلى الثاني إلى إيحائها. وما فيه من معنى البعد، للإيذان بعلوّ رتبة المشار إليه وبعد منزلته في الفضل. أي مثل ما في هذه السورة من المعاني، أوحى إليك في سائر السور، وإلى من قبلك من الرسل في كتبهم. على أن مناط المماثلة ما أشير إليه من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد. أو مثل إيحائها، أوحى إليك عند إيحاء سائر السور. وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم. لا إيحاءً مغايراً له. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ [النساء: ١٦٣] الآية. على أن مدار المثلية كونه بواسطة الملك. وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية،

للإيذان باستمرار الوحي، وأن إيحاء مثله عادته. وفي جعل مضمون السورة أو إيحاءها مشبهاً به، من تفخيمها ما لا يخفى. وكذا في وصفه تعالى بوصفي العزة والحكمة. وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل. مع ما فيه من التشويق. وقرئ (يوحى) على البناء للمفعول، على أن (كذلك) مبتدأ (ويوحى) خبره المسند إلى ضميره، أو مصدره و (يوحي) مسند إلى (إليك) . و(اللّه) مرتفع بما دل عليه (يوحي) كأنه قيل: من يوحي؟ فقيل: اللّه. ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ صفتان له، أو مبتدأ، كما في قراءة (نوحي)، والعزيز وما بعده خبران له. أو العزيز الحكيم صفتان له. وقوله تعالى:

القول في تأويل قول تعالى:

لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِي الْعَظِيمُ ﴾ خبران له. وعلى الوجوه السابقة، استئناف مقرر لعزته وحكمته. أفاده أبو السعود.

القول في تأويل قوله تعالى:

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي يتشققن لتأثرهن من تجليات عظمته، ويتلاشين من علوّ قهره وسلطنته، يدل عليه مجيئه بعد ﴿ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ أو من دعائهم له ولداً، كما في سورة مريم ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي يسألون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين به ﴿ أَلاَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي شركاء وأنداداً ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي رقيب على أفعالهم يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها يوم القيامة ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي بموكل لحفظ أعمالهم. وإنما أنت منذر ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءاناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أي أهلها، وهي مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي من العرب وسائر الناس ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي يوم القيامة الذي تكون فيه الفضيحة أعظم، لأنه يجمع فيه الخلائق ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي منهم فريق في الجنة، وهم الذين آمنوا بالله، واتبعوا ما جاءهم به رسول الله ﷺ. وفريق في السعير، أي النار الموقدة المسعورة على أهلها. وهم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به رسوله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي أهل دين واحد وملة واحدة ﴿وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي ولكن لم يفعل ذلك فيجعلهم أمة واحدة، لمنافاة ذلك ما يقتضيه حكمة خلق الإنسان من تنوع أفراده المستلزم اختلاف أميالهم ومشاربهم. ولذا شاء ما اقتضاه خلقهم واستعدادهم. فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون. فأدخل من شاء في رحمته وهم المؤمنون، وفي عذابه ، الكافرين. قال أبو السعود: ولاريب في أن مشيئته تعالى لكل من الإدخالين، تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله ﴿وَالظَّالِمُونَ مَالَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ أي والكافرون بالله مالهم من وليّ يتولاهم يوم القيامة، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله فينقذهم من عذابه ، لأنه يدخلهم في قهره. وتوصيفهم بالظالمين، إشارة إلى عدل المؤمنين في باب الاعتقادات والأخلاق والأعمال والأفعال، وأنه تعالى يواليهم وينصرهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

﴿أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي يتولونهم. مع أنه لا ولاية لهم في الحقيقة، إذ لا قدرة ولا قوة ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أي هو الذي يجب أن يتولى وحده، ويعتقد أنه المولى والسيد دون غيره، لتوليه سبحانه كل شيء، وسلطانه وحكمه. والفاء جواب

شرط مقدر. كأنه قيل بعد إنكار كل وليّ سواه: إن أرادوا وليا بحق، فاللّه هو الوليّ بالحق، لا وليّ سواه ﴿وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو المحي القادر، فكيف تستقيم ولاية غيره، وقوله ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ تمهيد لما يأتي بعد، من الأمر بإقامة الدين وعدم التفريق فيه، الذي هو وصية اللّه تعالى لأنبيائه، وشرعته لخلقه، وتنبيه على أن خلاف من خالف من المشركين والكافرين، إنما مردّه إلى اللّه تعالى وحكمه وقضائه. وأنه لا دين إلا دينه، ولا عبادة إلاّ عبادته، ولا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، والقصد الرد على مشركي مكة وأمثالهم، في تشريعهم مالم يأذن به اللّه، وتحكيمهم إتباع الآباء وأفانين الأهواء. فإن السورة مكية. ومع ذلك، فتدل الآية على أن ما اختلف فيه المختلفون وتنازعوا في شيء من الخصومات، يجب أن يكون التحاكم فيه إلى رسول اللّه ﷺ، وأن لا يوثر على حكومته حكومة غيره. كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، وتدل أيضاً على الرجوع إلى المحكم من كتاب اللّه، والظاهر من سنة رسول اللّه ﷺ، إذا اختلفوا في تأويل آية واشتبه عليهم. وعلى تفويض مالم تصل إلي دركه العقول، إلى اللّه تعالى، بأن يقال: اللّه أعلم. كما في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ بتقدير (قل) أو هو حكاية لقوله ﷺ. أي الذي هذه الصفات صفاته، ربيّ لا آلهتكم التي تدعون من دونه، التي لا تقدر على شيء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي في أموري كلها ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع في المعاد، أومن الذنوب، أو في الأمور المعضلة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي نساء ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي أصنافاً مختلفة، أو ذكوراً وإناثاً ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يكثركم. من (الذرء) وهو البث. يقال: ذرأ اللّه الخلق. بثهم كثّرهم. وفسر بـ(يخلقكم). وضمير (فيه) للبطن أو الرحم. وقال الزمخشريّ: أي في هذا التدبير، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل. والضمير في ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يرجع إلى المخاطبين والأنعام، مغلباً فيه المخاطبون العقلاء

على الغيّب مما لا يعقل. فإن قلت: ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير؟ وهلا قيل: يذرؤكم به؟ قلت: جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير. انتهى.

وقيل (في) مستعارة للسببية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ قال ابن جرير: فيه وجهان: أحدهما أن يكون معناه: ليس هوكشيء. وأدخل المثل في الكلام، توكيداً للكلام، لكونهما بمعنى واحد. والآخر أن يكون معناه: ليس مثله شيء. وتكون الكاف هي المدخلة في الكلام. انتهى.

وبقي ثالث وهو أن المثل بمعنى الصفة. اي ليس كصفته صفة. ورابع – وهو ما عول عليه المحققون – أن المراد من ﴿مِثْلِهِ﴾ ذاته. كما في قولهم: مثلك لا يبخل. على قصد المبالغة في نفيه عنه. فإنه إذا نفي عمن يناسبه.كان نفيه عنه أولى. ثم سلكت هذه الطريقة في شأن من لامثل له سبحانه ووجه المبالغة أن الكناية من باب دعوى الشيء ببيّنة. وقد بينت الكناية في الآية بوجه آخر أشار إليه الشُّمُنّي. وهو أنه نفي للشيء بنفي لازمه. لأن نفي اللازم يستلزم نفي الملزوم. كما يقال: ليس لأخي زيد أخ. فأخو زيد ملزوم. والأخ لازمه.لأنه لا بد لأخي زيد من أخ هو زيد. فنُفي هذا اللازم. والمراد نفي ملزومه. اي ليس لزيد أخ. إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ. هو زيد. فكذا نفي أن يكون لمثل الله مثل. والمراد نفي مثله تعالى – إذ لو كان له مثل، لكان هو تعالى مثل مثله، لتحقق المماثلة من الجانبين. فلا يصح نفي مثله (أي نفي مثل ذلك المثل) وبالجملة، فاطلق نفي مثل المثل، وأريد لازمه من نفي المثل. قال بعض الأفاضل: طالما كنت أجد في نفسي من هذا شيئاً. وذلك أن محصل هذا أن نفي المثل لازم لحقيقة الآية. وقد تقرر أولاً أنها تقتضي إثباته. ولذا أوّلوها بالأوجه المذكورة. فكيف يعقل أن إثبات الشيء ونفيه يلزمان معاً لشيء واحد؟ مع تصريحهم بأن تنافي اللوازم يقتضي تنافي الملزومات. وبفرض صحة أن كلاً منهما لازم لها، فقصرها على هذا دون ذاك تحكم. مع أن القصد إبطال دلالتها على المحال. ولا يكفي فيه قولنا إنه غير مراد كما لا يخفى. ثم ظهر أن إثبات المثل ليس لازماً لحقيقة الآية قطعاً. بل هو محتمل فقط. كما تحتمل نفيه. وإن كان الأول أقرب، لكن عارضه في خصوص هذه المادة. أنه لو كان له مثل الخ. فبطل ذلك الاحتمال من أصله. فالتعويل في نفي المثل على هذه المقدمة القطعية بخلاف المثال فافهم ذلك. وقال العصام: هذا – أي كون الآية من باب الكناية – وجه تلقاه الفحول بالقبول. ورجّحوه بأن الكناية أبلغ من التصريح. وعدم الزيادة أحق بالترجيح. وفيه بحث، وهو أن نفي مثل المثل لا يستلزم نفي

المثل. لأن الشيء ليس مثل مثله. بل المثل المشارك للشيء في صفةٍ، منع كون الشيء أقوى منه فيها وبمنزلة الأصل. والمثل بمنزلة الملحق به المتقارب. انتهى.

ورده السيلكوتي فقال: ما قيل إن نفي مثل المثل لا يستلزم نفي المثل لأن مثل الشيء أضعف منه، فتوهم محض. لأن المماثلة هي الشركة، في أخص الصفات والمساواة في جميع الوجوه مما به المماثلة. صرّح به في (شرح العقائد النسفية) انتهى. ومثل هذه اللطائف الأدبية مما تتحلى به أجياد الأفهام. وتتشعب في أودية بدائعه عيون محاسن الكلام.

تنبيه:

قال السيوطي في (الإكليل): في الآية ردّ على المشبهة . وأنه تعالى ليس بجوهر ولا بجسم ولا عرض ولا لون ولا حالّ في مكان ولا زمان. انتهى.

وكان حقه أن يتم الاستنباط. فكما أن صدر الآية فيه رد على المشبهة. فكذا تتمتها وهو قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ رد على المعطلة. ولذا كان أعدل المذاهب مذهب السلف. فإنهم أثبتوا النصوص بالتنزيه من غير تعطيل ولا تشبيه. وذلك أن المعطلين لم يفهموا من أسماء اللّه تعالى وصفاته إلا ماهو اللائق بالمخلوق. ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فجمعوا بين التمثيل والتعطيل. فمثلوا أولاً وعطلوا آخراً. فهذا تشبيه وتمثيل منهم، للمفهوم من أسمائه وصفاته تعالى، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم. فعطلوا مايستحقه سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات اللائقة به عزَّ وجلَّ. بخلاف سلف الأمة وأجلاء الأئمة. فإنهم يصفون اللّه سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصف به نبيّه ﷺ. من غير تحريف ولاتشبيه. قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ فرد على المشبهة بنفي المثلية، ورد على المعطلة بقوله: ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ قال الحافظ ابن عبد البرّ: أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة في الكتاب والسنة،وحملها على الحقيقة لا على المجاز. إلا أنهم لم يكيّفوا شيئاً من ذلك. وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج، فكلهم ينكرها ولا يحمل منها شيئاً على الحقيقة. ويزعمون أن من أقرّ بها مشبه، وهم عند من أقرّ بها نافون للمعبود. انتهى.

قال الذهبي: صدق واللّه! فإن من تأول سائر الصفات، وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام، أدَّاه ذلك السلب إلى تعطيل الرب وأن يشابه المعدوم. كما نقل عن حماد بن زيد أنه قال: مثل الجهمية كقوم قالوا: في دارنا نخلة. قيل: لها سعف؟

قالوا: لا. قيل لها كرَبَ؟ قالوا: لا. قيل لها رطب؟ قالوا: لا. قيل: فلها ساق؟ قالوا: لا. قيل: فما في داركم نخلة. قلت: كذلك هؤلاء النفاة قالوا إلهنا اللَّه تعالى. وهو لا في زمان ولا في مكان ولا يرى ولا يسمع، ولا يبصر ولا يتكلم، ولا يرضى ولا يريد، ولا ولا. وقالوا: سبحان المنزه عن الصفات. بل نقول: سبحان اللَّه العظيم السميع المريد، الذي كلم موسى تكليماً، واتخذ إبراهيم خليلاً. ويُرى في الآخرة، المتصف بما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، المنزه عن سمات المخلوقين وعن جحد الجاحدين. ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وقال الذهبي رحمه اللَّه أيضاً: مقال متأخري المتكلمين، أن اللَّه تعالى ليس في السماء ولا على العرش ولا على السموات ولا في الأرض ولا داخل العالم ولا خارج العالم ولا هو بائن عن خلقه ولا متصل بهم. وقالوا: جميع هذه الأشياء صفات الأجسام واللَّه تعالى منزه عن الجسم. قال لهم أهل السنة والأثر: نحن لا نخوض في ذلك ونقول ما ذكرناه اتباعاً للنصوص ولا نقول بقولكم. فإن هذه السلوب نعوت للمعدوم. تعالى اللَّه جلَّ جلاله عن العدم. بل هو موجود متميز عن خلقه، موصوف بما وصف به نفسه، من أنه فوق العرش بلا كيف. انتهى.

وقال الإمام ابن تيمية في (الرسالة التدمرية) في القاعدة الأولى: إن اللَّه سبحانه موصوف بالإثبات والنفي. فالإثبات كإخباره بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك. والنفي كقوله تعالى: ﴿لاتأْخُذُهُ سنةٌ ولا نَوْمٌ﴾ وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال، إلا إذا تضمن إثباتاً. وإلا فجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال. لأن النفي المحض عدم محض. والعدم المحض ليس بشيء. وما ليس بشيء فهو كما قيل ليس بشيء، فضلاً عن أن يكون مدحاً أو كمالاً. ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع. والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال. فلهذا كان عامة ما وصف اللَّه به نفسه من النفي متضمناً لإثبات مدح، كقوله: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولاَ نَوْمٌ﴾، إلى قوله: ﴿وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾[البقرة:٢٥٥]، فنفي السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم وكذلك قوله: ﴿وَلاَ يؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي لا يكرثه ولا يثقله. وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها. بخلاف المخلوق القادر، إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة، فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته. وكذلك قوله: ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمَاوَاتِ وَلا في الأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السماوات

والأرض. وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فإن نفي مس اللغوب، الذي هو التعب والإعياء، دل على كمال القدرة ونهاية القوة. بخلاف المخلوق الذي يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه. وكذلك قوله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، إنما نفى الإدراك الذي هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء، ولم ينف مجرد الرؤية. لأن المعدوم لا يرى، وليس في كونه لا يرى مدح. إذ لوكان كذلك لكان المعدوم ممدوحاً. وإنما المدح في كونه لايحاط به، وإن رُئِيَ. كما أنه لا يحاط به وإن علم، فكما أنه إذا علم لايحاط به علماً، فكذلك إذا رئي لايحاط به رؤية.فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته، ما يكون مدحاً وصفة كمال. وكان ذلك دليلاً على إثبات الرؤية لا على نفيها. لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة. وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها. وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفي لا يستلزم ثبوتاً، هو مما لم يصف الله به نفسه. فالذين لا يصفونه إلا بالسلوب، لم يثبتوا في الحقيقة إلهاً محموداً، بل ولا موجوداً. وكذلك من شاركهم في بعض ذلك. كالذين قالوا لا يتكلم أو لا يرى أو ليس فوق العالم أو لم يستو على العرش. ويقولون: ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا مباين للعالم ولا مجانب له، إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعدوم، وليست هي صفة مستلزمة صفة ثبوت. ولهذا قال محمود بن سبكتكين لمن ادعى ذلك في الخالق؛ ميزّ لنا بين هذا الرب الذي نثبته وبين المعدوم. وكذلك كونه لا يتكلم أو لا ينزل، ليس في ذلك صفة مدح ولا كمال. بل هذه الصفات فيها تشبيه له بالمنقوصات أو المعدومات. فهذه الصفات منها ما لا يتصف به إلا المعدوم ومنها ما لا يتصف به إلا الجمادات والناقص. فمن قال لا هو مباين للعالم ولا مداخل للعالم، فهو بمنزلة من قال لا هو قائم بنفسه ولا بغيره ولا قديم ولا محدث ولا متقدم على العالم ولا مقارن له. ومن قال إنه ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا متكلم، لزمه أن يكون ميتاً أصم أعمى أبكم. فإن قال العمى عدم البصر عما من شأنه أنه يقبل البصر، وما لم يقبل البصر كالحائط لا يقال له أعمى ولا بصير، قيل له هذا اصطلاح اصطلحتموه. وإلا فما يوصف بعدم الحياة والسمع والبصر والكلام يمكن وصفه بالموت والعمى والخرس والعجمة. وأيضاً فكل موجود يقبل الاتصاف بهذه الأمور ونقائضها. فإن الله قادر على جعل الجماد حيّاً كما جعل عصا موسى حية ابتلعت الحبال والعصي. وأيضاً فالذي لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات أعظم نقصاً مما يقبل الاتصاف بها مع اتصافه بنقائضها. فالجماد الذي لا يوصف

بالبصر ولا العمى ولا الكلام ولا الخرس، أعظم نقصاً من الحي الأعمى الأخرس. فإن قيل إن البارئ لا يمكن اتصافه بذلك، كان في ذلك من وصفه بالنقص أعظم مما إذا وصف بالخرس والعمى والصمم ونحو ذلك. مع أنه إذا جعل غير قابل لها كان تشبيهاً له بالجماد الذي لا يقبل الاتصاف بواحد منها. وهذا تشبيه بالجمادات لا بالحيوانات. فكيف من قال ذلك على غيره مما يزعم أنه تشبيه بالحيّ. وأيضاً فنفس نفي هذه الصفات نقص، كما أن إثباتها كمال. فالحياة من حيث هي هي، مع قطع النظر عن تعيين الموصوف بها، صفة كمال. وكذلك العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والعقل ونحو ذلك. وما كان صفة كمال فهو سبحانه أحق أن يتصف به من المخلوقات. فلو لم يتصف به مع اتصاف المخلوق به، لكان المخلوق أكمل منه.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي مفاتيح الأرزاق وخزائن الملك والملكوت **﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾** أي يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ويغنيه، ويقتّر على آخرين **﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾** اعلم أنه تعالى لما عظّم وحيه إلى النبيّ ﷺ بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى:٣]، ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك، وهو ما شرعه له ولهم من الاتفاق على عبادته وحده لا شريك له كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وفي الحديث[1]: نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد. يعنى: عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم. كقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: ٤٨]. وتخصيص هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم

---

(١) أخرجه البخاري في: الأنبياء، ٤٨- باب ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾، حديث رقم ١٦١٧، عن أبي هريرة.
وأخرجه مسلم في: الفضائل، حديث رقم ١٤٥.

عليهم السلام، بالذكر، لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة. ولاستمالة قلوب الكفرة، لاتفاق الكل على نبوّة بعضهم. وابتدأ بنوح عليه السلام لأنه أول الرسل. والمعنى: شرع لكم من الدين ما وصى به جميع الأنبياء من عهد نوح عليه السلام إلى زمن نبينا عليه الصلاة والسلام. والتعبير بالتوصية فيهم والوحي له، للإشارة إلى أن شريعته ﷺ هي الشريعة الكاملة. ولذا عبر فيه بـ (الَّذي) التي هي أصل الموصولات. وأضافه إليه بضمير العظمة، تخصيصاً له ولشريعته بالتشريف وعظم الشأن وكمال الاعتناء. وهو السر في تقديمه على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي من إخلاص العبادة للّه وإفراده بالألوهية والبراءة مما سواه من الأوثان ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ وهو من صرف اختياره إلى ما دعي إليه ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي يوفق للعمل لطاعته واتباع رسله من يقبل إلى طاعته ويتوب من معاصيه. ثم أشار إلى حال أهل الكتاب، إثر بيان حال المشركين، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

﴿وَمَا تَفَرَّقُواْ﴾ أي في دينهم وصاروا شيعاً ﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي الدلائل الصحيحة والبراهين اليقينية على حقية ما لديهم ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ أي ظلماً وتعدياً وطلباً للرئاسة ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمّىً﴾ وهو تأخير العذاب إلى يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي باستئصالهم، لاستيجاب جناياتهم لذلك ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُواْ الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ وهم أهل مكة الذين مَّن اللّه عليهم بالكتاب العزيز ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي موقع لأتباعهم في الشك، لكثرة ما يبثونه من الوساوس الصادّة عن سبيل اللّه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾ أي فلأجل ما ذكر من التفرق والشك المريب، فادع الناس كافة إلى إقامة الدين لمقاومة الباطل ودحره، وهتك وساوسه ﴿ وَاسْتَقِمْ ﴾ أي على الدعوة إليه والصدع به ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أي أوحي إليك ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ﴾ أي: أيّ كتاب كان، لا كالذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض. وفيه تحقيق للحق، وبيان لاتفاق الكتب في الأصول، وتأليف لقلوب أهل الكتابين، وتعريض بهم. أفاده أبو السعود ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي لأسوّي بينكم في دعوة واحدة كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية. ثم أشار إلى أن ما وراء الأمر المذكور والتبليغ به من الحساب، فهو إليه تعالى. فقال ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي لاخصومة ولا محاجة بعد هذا. لأن الحق قد ظهر. ولم يبق للمحاجة حاجة، ولا للمخالفة محل سوى المكابرة. والحجة في الأصل مصدر بمعنى الاحتجاج. كما ذكره الراغب. وتكون بمعنى الدليل. والمراد هو الأول دون الثاني. وهو ظاهر ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أي يوم القيامة، فيقضي بالحق فيما اختلفنا فيه ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي المعاد والمرجع للجزاء.

تنبيهان:

الأول – تفسير العدل بما ذكرناه، لأنه الذي يقتضيه سياق الكلام لا سيما والسورة مكية. ولم يكن مظهره صلوات الله عليه بها فصل الخصومات والقضاء في الحكومات. نعم من ذهب إلى ذلك فإنما وقف مع عمومها. ومنه قول قتادة: أُمِر النبيّ ﷺ أن يعدل حتى مات. والعدل ميزان الله في الأرض. به يأخذ للمظلوم من الظالم. وللضعيف من الشديد. وبالعدل يصدق الله الصادق ويكذب الكاذب. وبالعدل يرد المعتدي ويوبخه.

الثاني – قال ابن كثير: اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات. كل منها منفصلة عن التي قبلها. حكم برأسها. قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي. فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه. انتهى

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾ أي يخاصمون في دينه الذي ابتعث به خاتم أنبيائه،

وهم الذين أورثوا الكتاب، المذكورون قبل، ليصدوا عن الهدى طمعاً في عود الجاهلية ﴿مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي استجاب له الناس. أي بالاستسلام والانقياد لدينه حسبما قادهم إليه العقل السليم والنظر الصحيح وسيرة الداعي وهديه وحسن دعوته وتصديق الكتب المنزلة له وسلامة الفطرة ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ أي زائلة لأنها في باطل. والباطل لا بقاء له مع قوة الحق ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي في حكمه وقضائه وتقديره. قال أبو السعود: وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة، مجاراة معهم على زعمهم الباطل ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي عظيم، لمكابرتهم الحق بعد ظهوره ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وهو عذاب النار.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي متلبساً به في أحكامه وأخباره ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي وأنزل الميزان وهو العدل الذي يوزن به الحقوق ويسوّى به الخلاف ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ قال أبو السعود: أي شيء قريب. أو قريب مجيئها. أو الساعة بمعنى البعث. والمعنى أنها على جناح الإتيان. فاتبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذي توزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون منها. قال ابن جرير: لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم فيها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي المتحقق وجوده لا محالة ﴿أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي لإنكارهم عدل الله وحكمته.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ أي يلطف بهم في تدبير إيصال ما يفتقرون من خير الدين والدنيا ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾.

قال الزمخشري: سمي ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة والزكاء، حرثاً على المجاز - أي بتشبيهه بالزرع من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا. ولذلك قيل (الدنيا مزرعة الآخرة) وفرق بين عمل العاملين بأن من عمل للآخرة، وفّق في عمله وضوعفت حسناته. ومن كان عمله للدنيا أعطي شيئاً منها، لا ما يريده ويبتغيه، وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه، وما له نصيب قط في الآخرة. ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب على أن رزقه المقسوم له، واصلٌ إليه لا محالة - للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب. انتهى.

وهذه الآية كآية ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ ﴾ [الإسراء: ١٨]، الخ.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ (أَمْ) منقطعة، فيها معنى (بل والهمزة) ولا بد من سبق كلام، خبراً أو إنشاء، يضرب عنه ويقرر ما بعده. وما سبق قوله ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً ﴾ [الشورى: ١٣]، الخ فهو معطوف عليه، وما بينهما من تتمة الأول. والمراد بشركائهم، إما شياطينهم لأنهم شاركوهم في الكفر وحملوهم عليه. وإما أوثانهم. وإضافتها إليهم لأنهم متخذوها

شركاء وإن لم تكن كذلك في الحقيقة. وعلى الثاني، فإسناد الشرع إليها، لأنها سبب ضلالهم وافتتانهم بما تدينوا به. أو لأنها على صورة المشرّع الذي سنّ هذا الضلال لهم. ويجوز كون الاستفهام المقدّر حينئذ للإنكار. أي ليس لهم شرع ولا شارع. كما في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء:٤٣]، **﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾** أي القضاء السابق بأن الجزاء في القيامة لا في الدنيا. أو لولا ما وعدهم الله به من أنه يفصل بينهم ويبيّن في الآخرة. فالفصل بمعنى البيان **﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾** أي لفرغ من الحكم بين الكافرين والمؤمنين، بتعجيل العذاب للكافرين **﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ تَرَى الظَّالِمِينَ﴾** أي يوم البعث **﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾** أي من السيئات **﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾** أي نازل بهم لا محالة **﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾** أي لا أسألكم على دعايتكم إلى ما أدعوكم إليه من الحق الذي جئتكم به، والنصيحة التي أنصحكم، ثواباً وجزاء وعوضاً من أموالكم تعطونيه **﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾** أي أن تودوني في القرابة التي بيني وبينكم، وتصلوا الرحم التي بيننا. ولا يكن غيركم، يامعشر قريش، أولى بحفظي ونصرتي ومودتي منكم.

قال الشهاب: المودة مصدر مقدر بـ (أن والفعل). والقربى مصدر كالقرابة. و(في) للسببية. وهي بمعنى اللام لتقارب السبب والعلة. والخطاب، إما لقريش أو لجميع العرب، لأنهم أقرباء في الجملة. انتهى. والاستثناء منقطع. ومعناه نفي الأجر أصلاً. لأن ثمرة مودتهم عائدة إليهم، لكونها سبب نجاتهم. فلا تصلح أن تكون أجراً له. وقيل: المعنى أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم. وقيل (الْقُرْبَى) التقرّب إلى الله تعالى. أي إلا أن تتوددوا إلى الله فيما يقربكم إليه. والمعنى الأول هو الذي عوّل عليه الأئمة. ولم يرتض ابن عباس رضي الله عنه، غيره. ففي البخاري[1] عنه؛ أنه سئل عن قوله تعالى: **﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾** فقال سعيد ابن جبير: القربى آل محمد. فقال ابن عباس: عجلت. إن النبيّ ﷺ ، لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة. فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

قال ابن كثير: انفرد به البخاري – أي عن مسلم – ورواه الإمام أحمد. وهكذا

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٤٢– سورة الشورى، ١٠– باب قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، حديث رقم ١٦٤٣.

روى الشعبي والضحاك وعليّ بن أبي طلحة والعوفي ويوسف بن مهران وغير واحد عن ابن عباس، رضي الله عنهما، مثله. وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسّدّي وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم. وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله ﷺ: لاأسالكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي، لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم. وروى الإمام أحمد[١] عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: لاأسالكم على ما أتيتكم به من البينات والهدى أجراً، إلا أن تودّوا الله تعالى، وأن تقرّبوا إليه بطاعته. وهكذا روي عن قتادة والحسن البصريّ مثله. وأما رواية أنها نزلت بالمدينة فيمن فاخر العباس من الأنصار، فإسناده ضعيف. على أن السورة مكية. وليس يظهر بين الآية وتلك الرواية في هذا السياق مناسبة. وكذا ما رواه ابن أبي حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله! من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: فاطمة وولدها رضي الله عنهم، فإن في إسناده مبهماً لا يعرف، عن شيخ شيعي، وهو حسين الأشقر، فلا يقبل خبره في هذا المحل وذكر نزول الآية في المدينة بعيد. فإنها مكية. ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضي الله عنها أولاد بالكلية. فإنها لم تتزوج بعليّ رضي الله عنه إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة. والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما، كما رواه عنه البخاري. ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم. فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً. ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية. كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه وعليّ وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين وقد ثبت في الصحيح[٢] أن رسول الله ﷺ قال في خطبته: إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي. وإنهما لم يفترقا حتى يردا عليّ الحوض. وروى الإمام أحمد[٣] عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله! إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن. وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها. قال فغضب النبيّ ﷺ غضباً شديداً وقال: والذي نفسي بيده! لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله. هذا ملخّص ما أورده ابن

---

(١) أخرجه في المسند ١ /٢٦٨. والحديث رقم ٢٤١٥.

(٢) أخرجه مسلم في: فضائل الصحابة، حديث رقم ٣٦.

(٣) أخرجه في المسند ١ /٢٠٧، والحديث رقم ١٧٧٢.

كثير رحمه الله تعالى، وسبقه في الإيساع في ذلك تقيّ الدين ابن تيمية في (منهاج السنة) من أوجه عديدة.

قال في الوجه الثالث: إن هذه الآية في سورة الشورى. وهي مكية باتفاق أهل السنة. بل جميع آل حم مكيات. وكذلك آل طس. ومن المعلوم أن علياً إنما تزوج فاطمة بالمدينة بعد غزوة بدر. والحسن ولد في السنة الثالثة من الهجرة. والحسين في السنة الرابعة فتكون هذه الآية قد نزلت قبل وجود الحسن والحسين بسنين متعددة. فكيف يفسر النبيّ ﷺ الآية بوجوب مودة قرابة لا تعرف ولم تخلق.

ثم قال: الوجه الرابع – إن تفسير الآية الذي في الصحيحين عن ابن عباس يناقض ذلك. فهذا ابن عباس ترجمان القرآن وأعلم أهل البيت، بعد عليّ، يقول: ليس معناها مودة ذوي القربى. ولكن معناها لا أسألكم يا معشر العرب ويا معشر قريش عليه أجراً. لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم. فهو سأل الناس الذين أرسل إليهم أوّلاً، أن يصلوا رحمه فلا يعتدوا عليه حتى يبلّغ رسالة ربه.

الوجه الخامس – أنه قال: ﴿ لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ لم يقل إلا المودة للقربى ولا المودة لذوي القربى. فلو أراد المودة لذوي القربى لقال المودة لذوي القربى كما قال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقال ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ [الحشر: ٧]، وكذلك قوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقوله: ﴿ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهكذا في غير موضع. فجميع ما في القرآن من التوصية بحقوق ذوي قربى النبيّ ﷺ، وذوي قربى الإنسان ، إنما قيل فيها (ذوي القربى) . لم يقل (في القربى) . فلما ذكر هنا المصدر دون الاسم، دل على أنه لم يرد (ذوي القربى) .

الوجه السادس – أنه لو أريد المودة لهم لقال: المودّة لذوي القربى، ولم يقل في القربى، فإنه لايقول من طلب المودة لغيره: أسألك المودة في فلان، ولا في قربى فلان. ولكن أسألك المودة لفلان، والمحبة لفلان. فلما قال المودة في القربى، علم أنه ليس المراد لذوي القربى.

الوجه السابع – أن يقال إن النبيّ ﷺ لا يسأل على تبليغ رسالة ربه أجراً البتة. بل أجره على الله كما قال: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]، وقوله: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور: ٤٠] و[القلم:

٤٦] وقوله: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ [سبأ: ٤٧]، ولكن الاستثناء هنا منقطع، كما قال: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٥٧]، ولا ريب أن محبة أهل بيت النبيّ ﷺ واجبة. لكن لم يثبت وجوبها بهذه الآية، ولا محبتهم أجر للنبيّ ﷺ. بل هو مما أمرنا الله به كما أمرنا بسائر العبادات. وفي الصحيح[1] عنه أنه خطب أصحابه بغدير يدعى (خما) بين مكة والمدينة فقال (أذكركم الله في أهل بيتي) وفي السنن[2] عنه أنه قال (والذي نفسي بيده! لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتي) فمن جعل محبة أهل بيته أجراً له يوفيه إياه، فقد أخطأ خطأً عظيماً. ولو كان أجراً له نُثَبْ عليه نحن، لأنا أعطيناه أجره الذي يستحقه بالرسالة. فهل يقول مسلم مثل هذا؟؟؟.

الوجه الثامن - إن (القربى) معرفة باللام. فلا بد أن يكون معروفاً عند المخاطبين الذين أمر أن يقول لهم ﴿ لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ وقد ذكر أنها لما نزلت، لم يكن قد خلق الحسن والحسين، ولا تزوج عليّ بفاطمة. فالقربى التي كان المخاطبون يعرفونها، يمتنع أن تكون هذه. بخلاف القربى التي بينه وبينهم، فإنها معروفة عندهم، كما تقول (لاأسالك إلا المودة في الرحم التي بيننا) وكما تقول (لاأسالك إلا العدل بيننا وبينكم) (ولا أسالك إلا أن تتقي الله في هذا الأمر). انتهى ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أي يكتسب طاعة ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ أي بمضاعفته ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ أي لمن تاب وأناب ﴿ شَكُورٌ ﴾ لسعيهم بتضعيف جزاء حسناته.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ أي بدعوى النبوة والوحي ﴿ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ قال ابن كثير: أي: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون، يختم على قلبك. أي: يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن. كقوله جل جلاله ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ

---

(١) أخرجه مسلم في: فضائل الصحابة، حديث رقم ٣٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١ /٢٠٨، الحديث رقم ١٧٧٧.

الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، أي لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه. انتهى.

وهذا تفسير بالأشباه والنظائر من الآيات، يؤثره كثير من الأئمة، ما وجد إليه سبيلاً. فإن التنزيل يفسّر بعضه بعضاً. ومآل الآية على هذا المعنى، كما أوضحه أبو السعود، هو الاستشهاد على بطلان ما قالوا، ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى، لمنعه من ذلك قطعاً، فختم على قلبه بحيث لم يخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرف من حروفه. وحيث لم يكن الأمر كذلك. بل تواتر الوحي حيناً فحيناً، تبين أنه من عند الله تعالى.

وقال الزمخشري: فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم، حتى تفتري عليه الكذب. فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله، إلا من كان في مثل حالهم. وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله، وإنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في الجملة المختوم على قلوبهم. ومثل هذا أن يخوّن بعض الأمناء فيقول: لعل الله خذلني. لعل الله أعمى قلبي. وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب. وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله، والتنبيه على أنه رُكب من تخوينه أمرٌ عظيم. انتهى.

قال الشهاب: فمعناه؛ إن يشأ الله يختم على قلبك كما فعل بهم. فهو تسلية له صلوات الله عليه، وتذكير لإحسانه إليه وإكرامه، ليشكر به ويترحم على من ختم على قلبه، فاستحق غضب ربه، ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر. ولذا أتى (بأن) في موضع (لو) إرخاء للعنان، وتلميحاً للبرهان. على أنه لا يتصور وصفه بما ذكروه. فالتفريع بالنظر للمعنى المكني عنه، وحاصله أنهم اجترؤوا على هذا المحال، لأنه مطبوعون على الضلال. انتهى ﴿**وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ استئناف مقرر لنفي الافتراء عما يقوله ﷺ، فإنه لو كان مفترى لمحقه. إذ من سنته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه. فليس (يمح) مجزوماً بالعطف على الجزاء، بل معطوف على مجموع الجملة والكلام السابق. ولذا أعيد لفظ الجلالة ورفع (يحق). قال الزمخشري: ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ، بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب، ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن، وبقضائه الذي لا مردّ له من نصرتك عليهم. إن الله عليم بما في صدرك وصدورهم، فيجري الأمرعلى حسب ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ أي يقبل رجوعه إذا راجع توحيد الله وطاعته، من بعد كفره ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أي معاصيه التي تاب منها ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي من خير أو شر، وهو مجازيكم عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ أي يستجيب لهم. فحذف اللام كما حذف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين:٣]، أي يثيبهم على طاعتهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّنْ فَضْلِهِ﴾ أي على ثوابهم، منةً منه وطَوْلاً ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأَرْضِ﴾ أي تجاوزوا الحدّ الذي حدّه لهم إلى غيره، بركوبهم ما حظره عليهم. لأن الغنى مَبْطَرَةٌ مَأْشَرَة ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦-٧]، ﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ أي ولكن ينزل من رزقه ما يشاؤه بقدرٍ، لكفايتهم ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ قال الزمخشري: أي يعرف ما يؤول إليه أحوالهم، فيقدّر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم، فيُفْقر ويُغني، ويمنع ويعطي، ويقبض ويبسط، كما توجبه الحكمة الربانية. ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم لهلكوا.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه وآثاره من الخصب والرخاء ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي الذي يتولى الخلق بإحسانه، والمحمود على أياديه عندهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

﴿وَمِنْ آيَاته خَلْقُ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا من دَابَّة وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ أي حشرهم يوم القيامة ﴿إذَا يَشَاءُ قَديرٌ﴾ أي متمكن منه، لا يتعذر عليه وإن تفرقت أوصالهم.

تنبيه:

ذهب بعض الباحثين في آيات القرآن الفلكية والعوالم العلوية إلى معنى آخر في هذه الآية. وعبارته: يفهم من هذه الآية أن اللّه تعالى خلق في السموات دواب، ويستدل من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّة مِّن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنه وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [النور: ٤٥]، أن هذه الدواب ليست ملائكة كما قال المفسرون، بل حيوانات كحيوانات الأرض. ولا يبعد أن يكون بينهم حيوان عاقل كالإنسان، ويلزم لحياة تلك الحيوانات أن يكون في السموات نباتات وأشجار وبحار وأنهار كما تحقق في هذا العصر لدى علماء الرصد.

ثم قال: لعمري، إن هذه الآية التي نزلت على محمد ﷺ قبل ألف وثلاثمائة وعشرين سنة، لآية لأهل هذا العصر وأيّة آية، آية لأهل العلم والفلسفة الذين يبذلون الأموال والأرواح بلا حدّ ولا حساب، ليتوصلوا إلى معرفة سر من أسرار الكائنات. ومع هذا الجد العنيف والجهد المتواصل منذ ثلاثمائة سنة، لم يتوصلوا إلا بالظن إلى ما أنبأت به هذه الآية. وجل ما توصلوا إليه بالبرهان العقلي، إن الأرض أصغر من الشمس وأنها تدور حولها. وإن الكواكب السيارات كريّات. وأن النجوم الثوابت شموس، ولها سيارات تدور حولها. ولما ثبت لديهم جميعاً وجود الماء والهواء، وحصول الصيف والشتاء في هذه السيارات، ظنوا أنه يوجد فيها عالم كعالم الأرض. وبدأ البعض منهم يفكرون بإيجاد الوسائل للمخابرة بالكهربائية مع سكان المريخ الذي هو أقرب السيارات إلينا. وليس ذلك بالمستحيل فنّاً. ويستدل على إمكانيته من آخر الآية نفسها وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إذَا يَشَاءُ قَديرٌ﴾ فلا يبعد أن يتخابرا ويجتمعا فكراً، إذا لم يجتمعا جسماً. فلينظر الفلكيون إلى ما حوته هذه الآية المكنوزة في القرآن. وليعلم المعجبون منا بالعلوم العصرية، الضاربون صفحاً عن العلوم الإسلامية، ما في كتاب اللّه من الحكمة والبيان.

وقال أيضاً: لا يخفى أن القرآن العظيم نزل لبيان الحق وتعليم الدين، أولاً وبالذات. لكن، تمهيداً لهذه السبيل، أتى بشذرات من العلوم الفلكية والطبيعية، وصرف بصائر الناس إلى التفكر في خلق السموات والأرض، وما هن عليه من الإبداع. فوجه أبصارهم إلى التأمّل في خلق الإنسان وما هو عليه من التركيب العجيب، إلى غير ذلك من الأمور الفلكية والطبيعية في أكثر من ثلاثمائة آية. فالمفسرون رحمهم اللّه، لما فسروا هذه الآيات، شرحوا معانيها على مقدار محيط علمهم بالعلوم الفلكية والطبيعية. ولا يخفى ما كانت عليه هذه الآلات في زمنهم من النقصان. لا سيما علم الفلك. فهم معذرون إذا لم يفهموا معاني هذه الآيات التي تحيّر عقول فلاسفة هذا العصر، المتضلعين بالعلوم العقلية. لذلك لم يفسروا هذه الآيات حق تفسيرها، بل أوّلوها وصرفوا معانيها عن الحقيقة إلى المجاز أو الكناية. انتهى كلامه.

وقال عالم فلكي أيضاً: يقول العلماء إنه من المحقق أن هذه السيارات مسكونة بحيوانات تشبه الحيوانات التي على أرضنا هذه، ويكون كل كوكب منها أرضاً بالنسبة لحيواناته. وباقي الكواكب سماوات بالنسبة لها.

قال: والظاهر أن القول بوجود الحيوانات في هذه الكواكب صحيح. لأن اللّه تعالى يقول في كتابه **﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾** ويقول: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]،

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي فبسبب معاصيكم وما اجترمتم من الآثام. **﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾** أي من الذنوب فلا يعاقب عليها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾

﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أي بمعجزين ربكم إن أراد عقوبتكم، لأنكم في قبضة تصرّفه **﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾** أي إذا أراد عذابكم. فاتقوه واخشوه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

﴿ **وَمِنْ آيَاته الْجوَارِ** ﴾ أي السفن الجارية ﴿ **فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلام** ﴾ أي الجبال ﴿ **إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رواكدَ على ظَهْرِهِ** ﴾ أي فيبقين ثوابت على ظهر البحر ﴿ **إنَّ فِي ذَلكَ** ﴾ أي في جري هذه الجواري في البحر، بتسخير اللّه تعالى الريح لجريها ﴿ **لآيات** ﴾ أي لعبرة وعظة وحجة بيّنة على القدرة الأزلية ﴿ **لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ أي لكل مؤمن. وإنما آثر وصفيه المذكورَيْن، تذكيراً بما ينبغي أن يكون المؤمن عليه من وفرة الصبر وكثرة الشكر. إذ لا يكمل الإيمان بدونهما (والإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر).

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

﴿ **أَوْ يُوبِقْهُنَّ** ﴾ أي أو يهلكهن بالغرق ﴿ **بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتنا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ** ﴾ عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم ﴿ **وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ** ﴾ أي يخاصمون الرسول في آياته على توحيده أنهم ما لهم من محيد عن عذابه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾

﴿ **فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ** ﴾ أي مما زيّن للناس حبه من الشهوات ﴿ **فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ أي فهو متاع لكم. تتمتعون به في الدنيا. وليس من الآخرة ﴿ **وَمَا عِندَ اللَّهِ** ﴾ أي من ثوابه الأخروي ﴿ **خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ وذلك لخلوصه عن الشوائب ودوامه ﴿ **لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ أي في أمورهم وقيامهم بأسبابهم ﴿ **وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ** ﴾ أي يصفحون عمن أساء إليهم ﴿ **وَالَّذِينَ**

استَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي حينما دعاهم إلى توحيده، والبراءة من عبادة غيره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه. وذلك من فرط تدبّرهم وتيقظهم، وصدق تآخيهم في إيمانهم وتحابّهم في اللّه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي فيؤدّون ما فرض عليهم من الحقوق لأهلها، من زكاة ونفقة. وما ندبوا إليه من مواساة وصدقة ومعونة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي بالعدالة. احترازاً عن الذلة والانظلام، لكونهم في مقام الاستقامة، قائمين بالحق والعدل الذي ظلّه في نفوسهم. قاله القاشاني. وقال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في الباغي الذي حمد تعالى ذكرَه، المنتصر منه بعد بغيه عليه. فقال بعضهم:هو المشرك إذا بغى على المسلم. وقال آخرون: بل هو كل باغ بغى فحمد المنتصر منه. وإليه ذهب السدّي حيث قال: ينتصرون ممن بغى عليهم من غير أن يعتدوا.

قال ابن جرير: وهذا القول الثاني أولى من ذلك بالصواب. لأن اللّه لم يخصص من ذلك معنى دون معنى. بل حمد كل منتصر بحقٍّ ممن بغى عليه.. فإن قال قائل: وما في الانتصار من المدح؟ قيل: إن في إقامة الظالم على سبيل الحق، وعقوبته بما هو له أهل، تقويماً له. وفي ذلك أعظم المدح. انتهى. وكذا قال الزمخشري. فإن قلت: أهم محمودون في الانتصار؟ قلت: نعم. لأن من أخذ حقه غير متعد حد اللّه وما أمر به فلم يسرف في القتل، إن كان وليّ دم، أو ردّ على سفيه محاماة على عرضه وردعاً له، فهو مطيع. وكل مطيع محمود. قال النخعي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفسّاق. ثم أشار تعالى إلى أن الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ أي وجزاء سيئة المسيء ما ماثلها. إذ النقصان

حيف والزيادة ظلم. ثم بيّن تعالى أن العفو أولى ، فقال ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ أي بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي ثوابه عليه. وفي إبهامه، ما يدل على عظمه. حيث جعل حقاً على العظيم الكريم ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي البادئين بالسيئة والمعتدين في الانتقام ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِه﴾ أي بعد ما ظلم. فالمصدر مضاف لمفعوله، أو هو مصدر المبنيّ للمفعول ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي للمعاقب، ولا للعاتب والعائب. لأنهم انتصروا منهم بحق. ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك عليه، ولم يتعد ولم يظلم، فكيف يكون عليه سبيل؟ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ أي يبدءوهم بالظلم والإضرار، أو يعتدون في الانتقام ﴿وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي يتكبرون فيها ويفسدون ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: بسبب ظلمهم وبغيهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ أي على الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ أي لمن ظلمه ولم ينتصر ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ أي التي ندب الله عباده، وعزم عليهم العمل بها.

تنبيه:

نقل السيوطي في (الإكليل) عن الكيا الهراسيّ أنه قال: قد ندب الله إلى العفو في مواضع من كتابه، وظاهر هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أن الانتصار أفضل. قال، وهو محمول على من تعدى وأصرّ ، لئلا يتجرأ الفساق على أهل الدين.وآيات العفو فيمن ندم وأقلع. انتهى. وعجيب فهمه الأفضلية من الآية، فإنها لا تدل عليه، عبارة ولا إشارة. فإنه تعالى لم يرغب في الانتصار. وإنما بين أنه مشروع لهم إذا شاءوا. ثم بين بعده أن مشروعيته بشرط رعاية المماثلة. ثم بين أن العفو أولى، وهو الذي انتهى إليه الكلام، وتم به السياق. وكذلك لاحاجة إلى حمل الانتصار على من تعدى. وذلك لأن الانتصار بالمثل من فروع علم العقوبات والجزاء المشروعة لإقامة الحق والعدل، ودفع الظلم عن النفس والصغار، ورفع الأحقاد والأضغان. وأما العفو والصفح، فذاك من فروع علم الأخلاق وتهذيب النفوس. لأنه من باب المسامحة بالحق وإسقاط المستحق، رغبة في تزكية النفس وهضماً لها وحرصاً على خير الأمرين وأوفر الأجرين. وكلاهما من محاسن الشريعة الحنيفية، وتوسطها بين الاقتصاص البتة والعفو كلياً؛ لأن العقل السليم يرى فيهما إفراطاً

وتفريطاً. والدين دين الفطرة. وهي تتقاضى القصاص بالمثل، وتراه حقاً لها بجبلّتها والقضاء الأدبيّ والوازع الرحمانيّ يرشدها إلى ما هو أمثل إن شاءت، ويبرهن لها أمثليته، مما لا يبعد، إذا راجعت نفسها وثابت إلى رشدها، أن تؤثره ولا تؤثر عليه. كيف؟ وقد دل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ كما قال الزمخشريّ، على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء، خصوصاً في حال الحرد والتهاب الحمية. فربما كان المجازى من الظالمين وهو لا يشعر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِن وليٍ مِّن بَعْدِه﴾ أي: ومن خذله عن الرشاد، فليس له من وليّ يليه، فيهديه لسبيل الصواب، ويسدده من بعد إضلال اللّه إياه **﴿وترى الظَّالِمينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يقُولُونَ هَلْ إِلَى مَردٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾** أي رجعة إلى الدنيا. وذلك استعتاب منهم في غير وقته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾

﴿وتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي النار **﴿خَاشعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾** أي من طرف قد خفي من ذله وصغاره **﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسرِينَ الَّذِينَ خَسرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يوْمَ الْقِيامَة﴾** أي بالتعريض للعذاب المخلد، وتفويت النعيم المؤبد **﴿ألاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِياءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللّه وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ اسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُمْ﴾** أي أجيبوا أيها الناس داعي اللّه وآمنوا به **﴿مِّن قَبْلِ أن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّه﴾** أي لا يرده اللّه بعد ما حكم به فـ «من» صلة (مَرَدَّ) أو هي صلة (يَأْتِي) أي من قبل أن ياتي يوم اللّه لا يمكن ردّه **﴿مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ**

وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي إنكار لما اقترفتموه، لأنه محصيّ عليكم. أو نكير ينكر على الله في مؤاخذتكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ أي رقيباً تحفظ عليهم أعمالهم وتحصيها ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ أي إبلاغهم ما أرسلت به، فإذا فعلت فقد قضيت ما عليك ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي جحودٌ نعمَ ربه، فلا يذكر إلا البؤس والبلاء، ولا يتفكر إلا فيما أنزله به من الفساد والشقاء.

القول في تأويل قوله تعالى:

لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي إنه تعالى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة. وتقديمُ الإناث، إما لأنها أكثر لتكثير النسل، أو لتطييب قلوب آبائهن، تنبيهاً بأنهن سبب لتكثير مخلوقاته، فلا يجوز الحزن من ولادتهن وكراهتهن، كما يشاهد من بعض الجهلة. وقال الثعالبي: إنه إشارة إلى ما في تقدم ولادتهن من اليمن (ومن يمن المرأة تبكيرها بأنثى).

قال الشهاب: والضمير في ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾ للأولاد، وما بعده حال منه، أو مفعول ثان إن ضمّن معنى التصيير، يعني يجعل أولاد من يشاء ذكوراً وإناثاً مزدوجين. كما يفرد بعضهم بالذكور وبعضهم بالإناث. ويجعل بعضهم لا أولاد له أصلاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلاَّ وَحْياً﴾ أي إلهاماً وقذفاً في القلب منه، بلا واسطة ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَاب﴾ أي يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه، كما كلم موسى عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ أي من ملائكته كجبريل ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أي فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه، ما يشاء إيحاءه، من أمر ونهي وغير ذلك، على سبيل الإلقاء والنفث في الروع والإلهام، أو الهتاف أو المنام ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ﴾ أي من أن يواجه ويخاطب. بل يفنى ويتلاشى من يواجهه، لعلوّه من أن يبقى معه غيره، أو يحتمل شيء حضوره. قاله القاشاني.

وقال المهايمي: أي لا يبلغ البشر حد مكالمته شفاهاً، ولا يحتمل سماع كلامه مع رؤيته. انتهى. ﴿حَكِيمٌ﴾ أي يدبر بالحكمة وجوه التكليم، ليظهر علمه في تفصيل المظاهر، ويكمل به عباده، ويهتدوا إليه ويعرفوه. وقال المهايمي: أي حكيم في تبليغ كلامه العلي إلى البشر الضعيف.

تنبيه:

في (الإكليل): استدلت بالآية، عائشة رضي الله عنها، على أن النبيّ ﷺ لم ير ربه. واستدل مالك بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ على أن من حلف لا يكلم زيداً، فأرسل إليه رسولاً أو كتاباً، أنه يحنث. لأنه تعالى استثناه من الكلام، فدل على أنه منه. انتهى. وفيه بعد. إذ لا يقال لمن ألهمه الله، إنه كلمه إلا مجازاً. فلا يكون الاستثناء متصلاً. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾

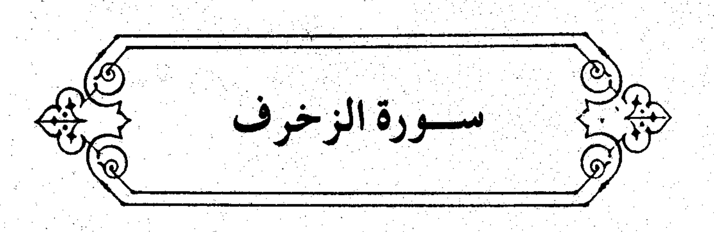
صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء على الطرق الثلاثة ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي وحياً من أمرنا. وسمّاه روحاً لأنه تحيا به القلوب الميتة. قال الشهاب:

فهو استعارة أو مجاز مرسل، لما فيه من الهداية والعلم الذي هو كالحياة. وقيل: هو جبريل.

و ﴿أَوْحَيْنَا﴾ مضمن معنى (أَرْسَلْنَا). والمعنى: أرسلناه إليك بالوحي ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي الروح أو الكتاب أو الإيمان ﴿نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي بالتوفيق للقبول والنظر فيه ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي خلقاً وملكاً ﴿أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ أي في الآخرة. فيقضي بينهم بالعدل. إذ لا حاكم سواه، فيجازي كلاً بما يستحقه من ثواب أو عقاب. نسأله تعالى أن يحسن لنا المآب. إنه الكريم الوهاب.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الزخرف

سميت به لدلالة آيته على أن الدنيا في غاية الخسة في نفسها، وغاية العداوة مع ربّها بحيث لا تليق بالأصالة إلا لأعدائه. وهذا من أعظم مقاصد القرآن. أفاده المهايميّ. وهي مكية. قيل: إلا آية ﴿وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وآيها تسع وثمانون.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

﴿حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرءَاناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي معانيه ومواعظه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ﴾ أي رفيع القدر، بحيث لا رفعة وراءها ﴿حَكِيمٌ﴾ أي ذو الحكمة الجامعة.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾ أي أنهملكم ونصرف عنكم الذكر لإسرافكم. وإنما كانت الحاجة إلى الذكر للإسراف، إذ لو كانوا على السيرة العادلة والطريقة الوسطى لما احتيج إلى التذكير. بل التذكير يجب عند الإفراط والتفريط. ولهذا بعث الأنبياء في زمان الفترة. قاله القاشاني.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِن نَبِيٍّ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً﴾ أي قوة ﴿وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ أي سلف في القرآن في غير موضع منه، ذكر قصتهم وحالهم في تكذيبهم وتعذيبهم وما مثلناه لهم. أي فليتوقع هؤلاء المستهزئون من العقوبة مثل ما حلّ بسلفهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً** ﴾ أي مهاداً تستقرون عليها ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً** ﴾ أي طرقاً تتطرقونها من بلدة إلى بلدة، لمعايشكم ومتاجركم ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ أي بتلك السبل إلى حيث أردتم من القرى والأمصار.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾

﴿ **وَالَّذي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ** ﴾ أي بمقدار الحاجة إليه. فلم يجعله طوفاناً يهلك، ولا رذاذاً لا ينبت، بل غيثاً مغيثاً ﴿ **فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً** ﴾ أي أحيينا به بلدة ميتاً من النبات، قد درست من الجدب وعفت من القحط ﴿ **كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** ﴾ أي من بعد فنائكم ومصيركم بالأرض.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

﴿ **وَالَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا** ﴾ أي خلق كل شيء فزوّجه، فجعل منه الذكر والأنثى ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ والأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ** ﴾ أي من السفن والبهائم ما تركبونه ﴿ **لِتَسْتَوُواْ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الَّذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** ﴾ أي مطيقين ﴿ **وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ** ﴾ أي لصائرون إليه، وراجعون بعد مماتنا.

تنبيه:

في (الإكليل): في الآية استحباب هذا الذكر عند ركوب الدابة والسفينة. وكان ﷺ يقوله كلما استوى على راحلته أو دابته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ﴾ أي جعل هؤلاء المشركون للّه من خلقه نصيباً. وذلك قولهم للملائكة (هم بنات الله) قال القاشانيّ: أي اعترفوا بأنه خالق السموات والأرض ومبدعهما وفاطرهما. وقد جسموه وجزأوه بإثبات الولد له، الذي هو بعض من الوالد، مماثل له في النوع، لكونهم ظاهريين جسمانيين، لا يتجاوزون عن رتبة الحس والخيال، ولا يتجردون عن ملابس الجسمانيات، فيدركون الحقائق المجردة والذوات المقدسة، فضلاً عن ذات اللّه تعالى. فكل ما تصوروا وتخيلوا، كان شيئاً جسمانياً. ولهذا كذبوا الأنبياء في إثبات الآخرة والبعث والنشور، وكل ما يتعلق بالمعاد. إذ لا يتعدى إدراكهم الحياة الدنيا، وعقولهم المحجوبة عن نور الهداية، أمورَ المعاش. فلا مناسبة أصلاً بين ذواتهم وذوات الأنبياء، إلا في ظاهر البشرية. فلا حاجة إلى ما وراءها. انتهى ﴿ إِنَّ الإنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ أي لجحودٌ نعَمَ ربه، التي أنعمها عليه. يبين كفرانه لمن تدبر حاله.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾

﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ أي: بل اتخذ. والهمزة للإنكار تجهيلاً لهم. وتعجيباً من شانهم، حيث لم يرضوا بأن جعلوا للّه من عباده جزءاً، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين وهو الإناث دون الذكور. على أنهم أنفر خلق اللّه عن الإناث، وأمقتهم لهن. ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهن. كانه قيل: هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة، فرضاً وتمثيلاً، أما تستحيون من الشطط في القسمة، ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما، ترك له شرهما وأدناهما؟ قاله الزمخشري.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ﴾ أي من البنات ﴿ ظَلَّ وجهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ أي من الكآبة والغم والحزن ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مملوء قلبه من الكرب.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾

﴿**أَوَ مَن يُنَشَّؤُاْ فِي الْحِلْيَةِ**﴾ أي تربى في الزينة، يعني البنات ﴿**وَهُوَ فِي الْخِصَامِ**﴾ أي في المجادلة ﴿**غَيْرُ مُبِينٍ**﴾ أي لمن خاصمة ببرهان وحجة، لعجزه وضعفه. والمعنى: أوَ من كان كذلك جعلتموه جزءاً لله من خلقه، وزعمتم أنه نصيبه منهم؟.

تنبيه:

قال الكيا الهرّاسي: في دليل على إباحة الحلي للنساء. وسئل أبو العالية من الذهب للنساء، فلم يَرَ به بأساً، وتلا هذه الآية.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَعَلُواْ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾

﴿**وَجَعَلُواْ الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً**﴾ أي جعلوا ملائكة الله الذين هم عنده، يسبحونه ويقدسونه، إناثاً. فقالوا (هم بنات الله) جهلاً منهم بحق الله سبحانه، وجراءة منهم على قيل الكذب.

قال القاشاني: لما سمعوا من أسلافهم قول الأوائل من الحكماء في إثبات النفوس الملكية وتأنيثهم إياها، إما باعتبار اللفظ وإما باعتبار تأثرها وانفعالها عن الأرواح المقدسة العقلية، مع وصفهم إياها بالقرب من الحضرة الإلهية - توهموا أنوثتها في الحقيقة، التي هي بإزاء الذكورة في الحيوان مع اختصاصها بالله. فجعلوها بنات. وقلما يعتقدها العاميّ إلا صوراً إنسية لطيفة في غاية الحسن. انتهى. ﴿**أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ**﴾ أي أحضروا خلق الله إياهم فوصفوهم بذلك لعلمهم بهم وبرؤيتهم إياهم؟ وهو تجهيل لهم، وتهكم بهم ﴿**سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ**﴾ أي على الملائكة بما هم مبرّءون عنه ﴿**وَيُسْئَلُونَ**﴾ أي عنها يوم القيامة، بان يأتوا ببرهان على حقيقتها، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلاً. وفيه من الوعيد ما فيه. لأن كتابتها، والسؤال عنها، يقتضي العقاب والمجازاة عليها، وهو المراد.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُواْ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ هذا بيان لضلال لهم آخر، في جدلهم وخصامهم وتعنتهم. وقد استدل المعتزلة بظاهر الآية في أنه تعالى لا يشاء الشرور والمعاصي. وأهل السنة تأوّلوا الآية بما يلاقي العقد الصحيح. وهو عموم مشيئته تعالى لكل شيء، الناطق به غير ما آية. ولما كانت هذه الآية وأخواتها من معارك الأنظار قديماً وحديثاً آثرت أن أنقل هنا ما لمحققي المفسرين، جرياً على قاعدتنا في التقاط نفائس ما للمتقدم، وتحلية مصنفاتنا بها، فنقول: قال القاشاني: لما سمعوا من الأنبياء تعليق الأشياء بمشيئة اللّه تعالى، افترضوه وجعلوه ذريعة في الإنكار. وقالوا ذلك لا عن علم وإيقان، بل على سبيل العناد والإفحام.. ولهذا ردّهم اللّه تعالى بقوله: ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ إذ لو علموا ذلك لكانوا موحدين، لا ينسبون التأثير إلا إلى اللّه. فلا يسعهم إلا عبادته دون غيره. إذ لا يرون حينئذ لغيره نفعاً ولا ضراً ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ لتكذيبهم أنفسهم في هذا القول بالفعل، حين عظموهم وخافوهم وخوّفوا أنبياءهم من بطشهم، كما قال قوم هود ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤] ،ولمّا خوّفوا إبراهيم عليه السلام كيدهم، أجاب بقوله ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾ [الأنعام: ٨٠]، إلى قوله ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام: ٨١]، انتهى.

وفي البيضاوي وحواشيه: إن هذا القول استدلال منهم على امتناع النهي عن عبادة غيره تعالى أو على حسنها. يعنون أن عبادتهم الملائكة بمشيئته تعالى. فيكون مأموراً بها أو حسنة. ويمتنع كونها منهياً عنها أو قبيحة. وهذا الاستدلال باطل. لأن المشيئة لا تستلزم الأمر أو الحسن، لأنها ترجيح بعض الممكنات على بعض، حسناً كان أو قبيحاً. ولذلك جهلهم في استدلالهم هذا. والحاصل أن الإنكار متوجه إلى جعلهم ذلك دليلاً على امتناع النهي عن عبادتهم، أو على حسنها: لا إلى هذا القول. فإنه كلمة حق أريد بها باطل. انتهى.

وقال الناصر في (الانتصاف): نحن معاشر أهل السنة نقول: إن كل شيء بمشيئته تعالى، حتى الضلالة والهدى، اتباعاً لدليل العقل، وتصديقاً لنص النقل. في أمثال قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣] و[فاطر: ٨]، وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيداً، ولا تفيده إلا تصويباً وتسديداً. فنقول: إذا قال الكافر (لو شاء اللّه ما كفرت) فهذه كلمة حق أراد بها باطلاً، أما كونها كلمة حق، فلما مهدناه. وأما كونه أراد بها باطلاً، فمراد الكافر

بذلك أن يكون له الحجة على الله، توهماً أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل، أن لا يعاقبه على ذلك. لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته.

ثم قال: فإذا وضح ما قلناه، فإنما رد الله عليهم مقالتهم هذه. لأنهم توهموا أنها حجة على الله. فدحض الله حجتهم، وأكذب أمنيتهم، وبين أن مقالتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض، فقال: ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ و﴿إِنْهُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير. وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨]، فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسل، والإشراك بالله، اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] فشبه تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال، بحال أوائلهم. ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلّب وخيال مكذب، فقال ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨]، ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقالتهم حجة على الله، أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٩]، ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك. لا لأن المقالة في نفسها كذب. فقال ﴿فَلَوْ شاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩]، وهو معنى قولهم ﴿لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ من حيث إن (لو) مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة. فدلت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم. بل شاء ضلالتهم. ولو شاء هدايتهم لما ضلوا. فهذا هو الدين القويم، والصراط المستقيم، والنور اللائح والمنهج الواضح. والذي يدحض به حجة هؤلاء، مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم، هو أنه تعالى جعل للعبد تأتياً وتيسراً للهداية وغيرها. من الأفعال الكسبية. حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف. لأنها اختيارية. يفرق بالضرورة بينها وبين العوارض القسرية. فهذه الآية أقامت الحجة. ووضحت، لمن اصطفاه الله للمعتقدات الصحيحة، المحجة. ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنتظم في سلك الأفهام الكثيفة. فلا جرم أن أفهامهم تبددت. وأفكارهم تبدلت. فغلت طائفة القدرية واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه. وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار. وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطراب. أما أهل الحق فمنحهم الله من هدايته قسطاً.

وأرشدهم إلى الطريق الوسطى. فانتهجوا سبل السلام. وساروا ورائد التوفيق لهم إمام. مستضيئين بأنوار العقول المرشدة، إلى أن جميع الكائنات بقدرة الله تعالى ومشيئته. ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة. لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة. لكنها قدرة تقارن بلا تأثير. وتميز بين الضروري والاختياري في التصوير. فهذا هو التحقيق. والله ولي التوفيق. انتهى.

وقد سبق في آية (الأنعام) نقولٌ عن الأئمة في الآية مسهبة: فراجعها إن شئت. وقوله تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِن قَبْلِهِ﴾ اي من قبل هذا القرآن ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ اي يعملون به ويدينون بما فيه ويحتجون به عليك. نظير قوله تعالى في الآية الاخرى ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ يعني بالعلم كتاباً موحى فيه ذلك. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

﴿بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُهْتَدُونَ﴾ اي لا حجة لهم إلا تقليد آبائهم، الجهلة مثلهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ من نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُقْتَدُونَ﴾ اي كما فعل هؤلاء المشركون من دفاع الحجة بالتقليد، فعل مَن قبلهم من اهل الكفر بالله.

قال القاضي: وفيه تسلية له ﷺ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم، وأن مقلديهم أيضاً لم يكن لهم سند منظور فيه. وتخصيص المترفين، إشعار بأن النعم وحب البطالة، صرفهم عن النظر إلى التقليد.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿قَالَ﴾ وقرئ قل ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي جاحدون منكرون، وإن كان أهدى. إقناطاً للنذير من أن ينظروا أو يتفكروا فيه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي بعذاب الاستئصال ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي آخر أمرهم، مما أصبح مثلاً وعبرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ قال القاضي: أي اذكر وقت قوله هذا، ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسّك بالدليل. أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بدٌّ من التقليد، فإنه أشرف آبائهم ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي بريء من عبادتكم أو معبودكم. و ﴿بَرَاءٌ﴾ بفتح الباء الموحدة كما هو قراءة العامة، مصدر كالطلاق والعتاق، أريد به معنى الوصف مبالغة. فلذا أطلق على الواحد وغيره. وقرئ بضم الباء وهو اسم مفرد صفة مبالغة، كطوال وكرام، بضم الطاء والكاف. وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء منقطع أو متصل. على أن (ما) يعمّ أولي العلم وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام. أو (إلاّ) بمعنى (غير) صفة لـ (ما). أي إنني بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني. أي خلقني ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ أي للدين الحق، واتباع سبيل الرشد. والسين إما للتأكيد، ويؤيده آية الشعراء ﴿يَهْدِينِ﴾ بدونها. والقصة واحدة، والمضارع في الموضعين للاستمرار. وإما للتسويف والاستقبال، والمراد هداية زائدة على ما كان له أولاً. فيتغاير ما في الآيتين من الحكاية أو المحكي، بناء على تكرر قصته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ **وَجَعَلَهَا** ﴾ أي شهادة التوحيد ﴿ **كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ** ﴾ أي موصي بها، موروثة متداولة محفوظة. كقوله تعالى ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ [البقرة:١٣٢]، ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ أي لكي يرجعوا إلى عبادته، ويلجأوا إلى توحيده في سائر شؤونهم. أو لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحّد منهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾

﴿ **بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ** ﴾ يعني أهل مكة ﴿ **وَءَابَاءَهُمْ** ﴾ أي من قبلهم بالحياة، فلم أعاجلهم على كفرهم ﴿ **حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ أي دعوة التوحيد أو القرآن ﴿ **وَرَسُولٌ مُبِينٌ** ﴾ أي ظاهر الرسالة بالآيات والحجج التي يحتج بها عليهم في دعوى رسالته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُواْ هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ أي جاحدون. فازدادوا في ضلالهم، لضمهم إلى شركهم، معاندة الحق.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾

﴿ **وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ** ﴾ أي من إحداهما، مكة والطائف. فالتعريف للعهد ﴿ **عَظِيمٍ** ﴾ أي بالجاه والمال. فإن الرسالة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم عندهم. قال القاضي: ولم يعلموا أنها رتبة روحانية. تستدعي عظيم النفس، بالتحلّي بالفضائل والكمالات القدسية، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكار، فيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم فيما لا يتولاه إلا هو تعالى. والمراد بالرحمة النبوّة ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي فجعلنا بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ﴾ أي بالغنى ﴿فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم﴾ يعني الغني ﴿بَعْضاً﴾ يعني الفقير ﴿سُخْرِيّاً﴾ أي مسخراً في العمل، وما به قوام المعايش، والوصول إلى المنافع. لا لكمال في الموسّع عليه، ولا لنقص في المقتّر عليه بل لحاجة التضامّ والتآلف، التي بها ينتظم شملهم. وأما النفحات الربانية، والعلوم اللدنية، فليست مما يستدعي سعة ويساراً. لأنها اختصاص إلهي، وفيض رحماني، يمنّ به على أنفس مستعديه، وأرواح قابليه. و(السخريّ) بالضم منسوب إلى السخرة بوزن (غرفة) وهي الاستخدام والقهر على العمل. ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعني أن النبوّة خير مما يجمعون من الحطام الفاني. أي: والعظيم من أعطيها وحازها، وهو النبيّ ﷺ. لا من حاز الكثير من الشهوات المحبوبة. ثم أشار تعالى إلى حقارة الدنيا عنده، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

﴿وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي متفقة على الكفر بالله تعالى. اي لولا كراهة ذلك ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي لتكثير النعم عليه، مع كفره بالمنعم فيزداد عذاباً ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل من ﴿لِمَن﴾ ﴿سُقُفاً﴾ بفتح السين وسكون القاف، وبعضمهما، جمعاً ﴿مِن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي مصاعد من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يرتقون ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً﴾ أي من فضة ﴿وَسُرُراً﴾ أي من فضة ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفاً﴾ أي: ولجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً، أي زينة من ذهب وجواهر فوق الفضة. ثم أشار إلى ان لا دلالة في ذلك على فضيلتهم بقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: وما كل هذه الأشياء التي ذكرت، من السقف من الفضة والمعارج والأبواب والسرر من الفضة، الزخرف، إلا متاع يستمتع به أهل الدنيا في الدنيا ﴿وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وزين الدار الآخرة وبهاؤها عند ربك للمتقين، أي الذين اتقوا الله فخافوا عقابه. فجدّوا في طاعته وحذروا معاصيه خاصة دون غيرهم. قال المهايمي: يعني لا خصوصية في ذاك المتاع، بحيث يدل عدمه على عدم

منصب النبوة، وإنما الذي يدل عدمه على عدم النبوة، التقوى. فالنبوة إنما تكون لمن كمل تقواه. سواء كانت عنده الدنيا أم لا. وإنما كانت الزينة الدنيوية أحق بالكفار، لأنها تثير ظلمة الأهوية المانعة من رؤية الحق. بحيث يصير صاحبها أعشى. انتهى.

تنبيه:

ما قدمناه من أن معنى ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على تقدير (لولا كراهة ذلك) وأن معنى كونهم أمة واحدة اجتماعهم على أمر واحد وهو الكفر، أي أن كراهة الاجتماع على الكفر هي المانعة من تمتيع الكافر بها على الوجه المذكور - هو ما ذكره المفسرون. فورد عليه أنه حين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ فأجيب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضاً، لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا. والدخولُ في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين فكانت الحكمة فيما دبر حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء. وغلب الفقر على الغنى. هذا ما قاله الزمخشري.

وعندي أن لا حاجة لتقدير الكراهة. وأن معنى الآية غير ما ذكروه. وذلك أن المعنى: لولا أن يكونوا خلقوا ليكونوا أمة واحدة، للترافد والتعاون والتضامّ، وما به قوام حياتهم كالجسم الواحد، لجعلنا للناس ما ذكر من الزين والحليّ لدخوله تحت القدرة الكاملة. إلا أن ذلك مبطل للحكمة ومخرب لنظام الوجود. وإنما عبّر عن الناس بمن يكفر بالرحمن، رعاية للأكثر وهم الكفار؛ فإنهم الذين طبقوا ظهر الأرض وملأوا وجهها. وحطّاً لقدر الدنيا وتصغيراً لشأنها، بأن تؤتى لمن هو الأدنى منزلة. والأخس قدراً. وخلاصة المعنى: أن خلقهم أمة واحدة مدنيين بالطبع، مانع من بسط الدنيا عليهم جميعهم. وهذا هو معنى (لولا) المطرد، أن ما بعدها أبداً مانع من جوابها. ولذلك يقولون (حرف امتناع لوجود).

فليس المعنى على ما ذكروه أبداً كما يظهر واضحاً لمن أنعم النظر. وبالجملة، فالآية هذه تتمة لما قبلها، في جواب أولئك الظانين، أن العظمة الدنيوية تستتبع النبوة. فبين تعالى حكمته في تفاوت الخلق في الآية الأولى. وهي التسخير. وفي الثانية حقارة الدنيا عنده وأنه لولا التسخير لآتاها أحط الخلق وأبعدهم منه، مبالغة

في الإعلام بضعتها. وهذا مصداق ما ورد من أن الدنيا لاتزن عند الله جناح بعوضة، وأن ما عنده خير وأبقى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾

﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ** ﴾ أي يعرض عنه، فلم يخفْ سطوته ولم يخش عقابه ﴿ **نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴾ أي نجعل له شيطاناً يغويه ويضله عن السبيل القويم دائماً، لمقارنته له. قال القاشاني: قرئ (يعش) بضم الشين وفتحها: والفرق أن عشا يستعمل إذا نظر نظر العَشَى لعارض أو متعمداً، من غير آفة في بصره. وعَشِيَ إذا إيف بصره. فعلى الأول معناه: ومن كان له استعداد صافٍ وفطرة سليمة لإدراك ذكر الرحمن، أي القرآن النازل من عنده وفهم معناه. وعلم كونه حقاً، فتعامى عنه لغرض دنيوي وبغي وحسد، أو لم يفهمه ولم يعلم حقيقته، لاحتجابه بالغواشي الطبيعية، واشتغاله باللذات الحسية عنه، أو لاغتراره بدينه وما هو عليه من اعتقاده ومذهبه الباطل ﴿ **نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً** ﴾ جنياً فيغويه بالتسويل والتزيين لما انهمك فيه من اللذات، وحرص عليه من الزخارف. أو بالشبه والأباطيل المغوية لما اعتكف عليه بهواه من دينه. أو إنسياً يغويه ويشاركه في أمره ويجانسه في طريقه ويبعده عن الحق. وعلى الثاني معناه. ومن إيف استعداده في الأصل، وشقي في الأزل بعمى القلب عن إدراك حقائق الذكر، وقصّر عن فهم معناه ﴿ **نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً** ﴾ من نفسه أو جنسه، يقارنه في ضلالته وغوايته. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾

﴿ **وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ قال ابن جرير: أي: وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله، عن سبيل الحق، فيزينون لهم الضلالة، ويكرهون لهم الإيمان بالله، والعمل بطاعته. ﴿ **وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ أي يظن هؤلاء المشركون بالله، بتزيين الشياطين لهم ما هم عليه، أنهم على الصواب والهدى.

القول في تأويل قوله تعالى:

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾

﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءَنَا** ﴾ أي العاشي ﴿ **قَالَ** ﴾ أي لشيطانه ﴿ **يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ**

الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي بعد المشرق من المغرب. فغلب المشرق على المغرب، ثم ثني. وقيل المراد مشرقاً الصيف والشتاء. والتقدير من المغربين، فاختصر. **﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾** قال القاشاني: أي حتى إذا حضر عقابنا اللازم لاعتقاده وأعماله، والعذاب المستحق لمذهبه ودينه، تمنى غاية البعد بينه وبين شيطانه الذي أضله عن الحق، وزيّن له ما وقع بسببه في العذاب، واستوحش من قرينه واستذمه، لعدم الوصلة الطبيعية، أو انقطاع الأسباب بينهما بفساد الآلات البدنية.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ قال القاشاني: أي لن ينفعكم التمني وقت حلول العذاب واستحقاق العقاب. إذا ثبت وصح ظلمكم في الدنيا، وتبين عاقبته، وكشف عن حاله. لأنكم مشتركون في العذاب لاشتراككم في سببه. أو ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب من شدته وإيلامه. أي كما ينفع الواقعين في أمر صعب، معاونتهم في تحمل أعبائه.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم. وأراد انه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده تعالى. وقد تكرر في التنزيل التعبير عنهم بالصم العُمْي الضلال، لأنه لا أجمع من ذلك لشرح حالهم، ولا أبلغ منه. إذ سلبوا استماعَ حجج اللّه وهداه، كالأصم. وإبصارَ آيات اللّه والاعتبار بها، كالأعمى. وقصدَ السَّبيل الأمم، كالضالّ الحائر.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي نقبضك قبل أن نظهرك عليهم **﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾** أي بالعذاب الأخروي.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: **﴿فَإِمَّا**

نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر:٧٧]، وفي تعبيره بالوعد، وهو لا يخلف الميعاد، إشارة إلى أنه هو الواقع. وهكذا كان. إذ لم يفلت أحد من صناديدهم، إلا من تحصّن بالإيمان.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾

﴿**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ يعني دين الله الذي أمر به وهو الإسلام. فإنه كامل الاستقامة من كل وجه. قال الشهاب: هذا تسلية له ﷺ وأمر لأمته أو له، بالدوام على التمسّك. والفاء في جواب شرط مقدّر. أي إذا كان أحد هذين واقعاً لا محالة، فاستمسك به.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾

﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ**﴾ أي وإن الذي أوحي إليك لشرف لك ولقومك من قريش. لما خصهم به من نزوله بلسانهم. أو المراد بقومه، اتباعه. أي تنويه بقدرك وبقدر أمتك، لما أعطاه لهم بسببه من العلوم والمزايا والخصائص والشرائع الملائمة لسائر الأحوال والأزمان، وجوّز أن يراد بالذكر الموعظة ﴿**وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**﴾ أي عما عملتم فيه، من ائتماركم بأوامره، وانتهائكم عن نواهيه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

﴿**وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ**﴾ أي: هل حكمنا بعبادة الأوثان؟ وهل جاءت في ملة من مللهم؟ قال القاضي: والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والدلالة على أنه ليس ببدع ابتدعه، فيكذب ويعادى له. انتهى.

والذين أمر بمسألتهم الرسول ﷺ، هم مؤمنو أهل الكتابين التوراة والإنجيل. فالكلام بتقدير مضاف. أي أممهم المؤمنين. أو يجعل سؤالهم بمنزلة سؤال أنبيائهم. لأنهم إنما يخبرونه عن كتب الرسل. فإذا سالهم فكأنه سال الأنبياء.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ اي المصدقة له ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ لينهاه عن الاستعباد ﴿وَمَلَئِهِ﴾ اي لينهاهم عن التعبّد له ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ اي فابان انه لا يستحق العبادة غيره تعالى، وأن ليس لأحد سواه استعباد، لأنها حق الربوبية المطلقة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ فلما اتاهم بالحجج على التوحيد والبراءة من الشرك، إذا فرعون وقومه يضحكون. اي كما ان قومك، مما جئتهم به من الآيات والعبَر، يسخرون. وهذا تسلية من الله عز وجل لنبيّه ﷺ، عما كان يلقى من مشركي قومه. وإعلام منه له أن قومه من أهل الشرك، لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم الذين كانوا على منهاجهم في الكفر بالله وتكذيب رسله. وندب منه نبيّه ﷺ إلى الاستنان بهم، بالصبر عليهم، بسنن أولي العزم من الرسل. وإخبار منه له أن عقبى مَرَدَتِهِم إلى البوار والهلاك. كسنته في المتمردين عليهم قبله، وإظفاره بهم، وإعلائه أمره. كالذي فعل بموسى عليه السلام وقومه الذين آمنوا به. من إظهارهم على فرعون وملئه. أفاده ابن جرير. ثم أشار إلى أن موجب الهزء لم يكن إلا لعنادٍ، لا لقصورها، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ اي السابقة عليها ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ اي الدنيوي كالسنين، مما يلجئ إلى الرجوع، ولا اقل من رجائه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ اي من انه لا يعذّب مَن آمن

بك ليكشف عنا العذاب ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي بما تزعم أنه الهداية ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي العهد الذي عاهدوا عليه، ويتمادون في غيهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ يعني أنهار النيل ﴿أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ أي ما أنا فيه من النعيم والخير، وما فيه موسى من الفقر ﴿أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أي ضعيف لا شيء له من المُلك والأموال ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي الكلام، لمخالفة اللغة العبرانية اللغة القبطية ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي يعينونه ويصدقونه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ أي فاستفزهم بهذه المغالطات، وحملهم على أن يخفّوا له ويصدقوه ﴿فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ فَلَمَّا ءاسَفُونَا﴾ أي أغضبونا بطاعة عدونا وقبول مغالطاته بلا دليل، وتكذيب موسى وآياته، وندائه بالساحر، ونكث العهود ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وذلك لاستغراقهم في بحر الضلال، الأجيال الطوال، وعدم نفع العظة معهم بحال من الأحوال.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً﴾ أي حجة للهالكين بعدهم ﴿وَمَثَلاً﴾ أي عبرة ﴿لِلآخِرِينَ﴾ أي الناجين ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ أي في كونه كآدم، كما أشارت له آية ﴿إِنَّ

مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، والمعنى: لما بين وصفه الحق من أنه عبد مخلوق منعم عليه بالنبوة، عبادته كفر، ودعاؤه شرك، إذ لم يأذن اللّه بعبادة غيره ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ أي من مَثَله المضروب ووصفه المبين ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي يعرضون ولا يعون ﴿وَقَالُواْ آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون بآلهتهم الملائكة الذين عبدوهم، زعماً منهم أنهم بنات اللّه تعالى. كما ذكر عنهم ذلك في أول السورة. أي أنهم خير من عيسى وأفضل، لأنهم من الملأ الأعلى والنوع الأسمى، فإذا جازت عبادة المفضول وهو عيسى، فبالأوْلى عبادة الأفضل وهم الملائكة. كأنهم يقررون على شركهم أصولاً صحيحة. ويبنون على تمسكهم أقيسة صريحة. وغفلوا، لجهلهم، عن بطلان المقيس والمقيس عليه. وأن البرهان الصادع قام على بطلان عبادة غيره تعالى، وعلى استحالة التوالد في ذاته العلية. وإذا اتضح الهدى فما وراءه إلا الضلال، والمشاغبة بالجدال. كما قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً﴾ أي ما ضربوا لك هذا القول إلا لأجل الجدل والخصومة، لا عن اعتقاد، لظهور بطلانه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي شديدو الخصومة بالباطل تمويهاً وتلبيساً. وفي الحديث[1] (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) وما ذكرناه في تفسير هذه الآية، هو الجلي الواضح، لدلالة السياق والسباق فقابل بينه وبين ما حكاه الغير وأنصف. ثم جلى شأن عيسى عليه السلام، بما يرفع كل لبس، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي بالنبوة والرسالة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي آية لهم وحجة عليهم، بما ظهر على يديه، مما أيّد نبوته ورسالته وصدق دعواه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أي بدلكم ﴿مَلاَئِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي يكونون مكانكم. إيعاد لهم بأنهم في قبضة المشيئة في إهلاكهم، وإبدال من هو خير منهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٤٣- سورة الزخرف، عن أبي أمامة.

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٨]، وقيل معنى ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ لولدنا منكم ملائكة، كما ولدنا عيسى من غيرأب، لتعرفوا تميزنا بالقدرة. واللفظ الكريم يحتمله. إلا أن الأظهر هو الأول، لما جرتْ به عادة التنزيل، من خواتم أمثال ما تقدم، بنظائر هذا الوعيد، والله أعلم.
وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ الضمير إما للقرآن كما ذهب إليه قوم، أي وإن القرآن الكريم يعلم بالساعة ويخبر عنها وعن أهوالها. وفي جعله عين العلم، مبالغة. والعلم بمعنى العلامة. وقيل الضمير لعيسى عليه السلام. أي إن ظهوره من أشراط الساعة. ونزوله إلى الأرض في آخر الزمان دليل على فناء الدنيا. وقال بعضهم: معناه أن عيسى سبب للعلم بها. فإنه هو ومعجزاته من أعظم الدلائل على إمكان البعث. فالآية مجاز مرسل علاقته المسببية. إذ أطلق المسبب وهو العلم، وأراد السبب وهو عيسى ومعجزاته. كقولك (أمطرت السماء نباتاً) أي مطراً يتسبب عنه النبات. وقرئ ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ بفتحتين. أي أنه كالجبل الذي يهتدى به إلى معرفة الطريق ونحوه. فبعيسى عليه السلام يهتدى إلى طريقة إقامة الدليل على إمكان الساعة وكيفية حصولها. انتهى.

وهو جيد ﴿فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ﴾ أي اتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي. أو هو أمر للرسول أن يقوله ﴿هَذَا﴾ أي القرآن، أو ما أدعوكم إليه ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي عن الاتباع ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ

فِيهِ﴾ أي من أحكام التوراة وغيرها. كاختلاف اليهود في القيامة، لعدم صراحتها في كتبهم. وقد جاء في نحوها آية ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وقد وضع عن اليهود شيئاً من إصْر التوراة وأغلال الناموس، كما فعل في يوم السبت. خفف شدّة حكمه.

قال بعض المحققين: وإنما لم يقل (ولأبين لكم كل ما تختلفون فيه) لأنه لم يفعل ذلك. بل ترك بيان كثير من الأشياء، كالفساد الذي دخل في أغلب كتبهم للفارقليط (محمد ﷺ) الذي يأتي بعده، لعدم استعداد الناس في زمنه لقبول كل شيء منه. كما قال هو نفسه في (إنجيل يوحنا) في الإصحاح السادس عشر. وخصوصاً إذا تعرّض للطعن في كتبهم، وهي رأس مالهم الوحيد وتراث أجدادهم. ولو فعل ذلك لشكّ فيه الكثيرون منهم وكذّبوه، ولما اتبعه إلا الأقلون أو النادرون، فتضيع الفائدة من بعثته التي بيناها في المتن. وهي التي بعث من أجلها.

وأما قول الله تعالى عن لسانه ﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فالمراد بمثل هذا التعبير، أنه بمجيئه عليه السلام تحققت نبوات التوراة عنه، وبه صحت وصدقت. وكلمة (التوراة) تطلق على كتاب العهد القديم. فالمعنى أن مجيء عيسى كان وفق ما أنبأ به النبيون عنه من قبل. ولولاه لما صدقت تلك النبوات، فإنها لا تنطبق إلا عليه. وليس المراد أن عيسى يقرّ كل ما في التوراة، كما يتوهم النصارى الآن من مثل هذه الآية. وإلا لما قال بعدها مباشرة ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فكيف يقرّها وهو قد جاء ناسخاً لبعض ما فيها؟ فتدبر ذلك ولا تكن كهؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون. ويفسرون ما لا يفهمون. انتهى كلامه. وهو وجيه جداً.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ قال ابن جرير: أي إن الله الذي يستوجب علينا إفراده بالألوهية وإخلاص الطاعة له، ربي وربكم جميعاً. فاعبدوه وحده لا تشركوا معه في عبادته شيئاً. فإنه لا يصح ولا ينبغي أن يعبد شيء سواه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي أمرتكم به، من اتقاء الله وطاعتي، وإفراد الله بالألوهية، هو الطريق القويم. وإذا كان هذا قول عيسى عليه السلام، فلا عبرة بقول الملحدين فيه والمفترين عليه ما لم يقله. ثم أشار إلى وعيد من خالف الحق بعد وضوحه، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾

﴿**فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ**﴾ أي الفرق المتحزبة اختلافاً نشأ ﴿**مِن بَيْنِهِمْ**﴾ أي لا من قوله تعالى، ولا من قول عيسى. بل ظلماً وعناداً ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ**﴾ أي مؤلم من شدة الأهوال وكثرة الفضائح، وظلمهم بترك النظر في الدلائل العقلية والنقلية.

القول في تأويل قوله تعالى:

هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

﴿**هَلْ يَنظُرُونَ**﴾ أي قريش ﴿**إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ**﴾ أي المتخالون على المعاصي والفساد، والصدّ عن الحق يوم القيامة ﴿**بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ أي معاد، يتبرأ كل من صاحبه ﴿**إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ أي المتصادقين في طاعة الله ومحبته. قال القاشانيّ: الخلة إما أن تكون خيرية، أوْ لا. والخيرية إما أن تكون في الله أو لله ومحبته. وغير الخيرية إما أن يكون سببها اللذة النفسانية أو النفع العقليّ. والقسم الأول هو المحبة الروحانية الذاتية المستندة إلى تناسب الأرواح في الأزل، التي قال[1] فيها (فما تعارف منها ائتلف) فهم إذا برزوا في هذه النشأة، وتوجهوا إلى الحق، وتجددوا عن مواد الرجس، فلما تلاقوا تعارفوا، وإذا تعارفوا تحابوا، لتجانسهم الأصلي، وتوافقهم في الوجهة والطريقة، وتشابههم في السيرة والغريزة، وتجردهم عن الأغراض الفاسدة والأعراض الذاتية، التي هي سبب العداوة. وانتفع كل منهم بالآخر في سلوكه وعرفانه. والتذ بلقائه، وتصفى بصفائه، وتعاونوا في أمور الدنيا والآخرة. فهي الخلة التامة الحقيقية التي لا تزول أبداً كمحبة الأنبياء والأصفياء والأولياء والشهداء. والقسم الثاني هو المحبة القلبية المستندة إلى تناسب الأوصاف والأخلاق والسير الفاضلة. ونشأته الاعتقادات والأعمال الصالحة. كمحبة الصلحاء والأبرار فيما بينهم. ومحبة العرفاء والأولياء إياهم. ومحبة الأنبياء أممهم. والقسم الثالث هو المحبة النفسانية المستندة إلى اللذات الحسية والأعراض الجزئية.

---

(١) أخرجه البخاري في: الأنبياء، ٢- باب الأرواح جنود مجندة، الحديث رقم ١٥٧٦، عن عائشة.
وأخرجه مسلم في: ٤٥- البرّ والصلة والآداب، حديث رقم ١٥٩.

كمحبة الأزواج لمجرد الشهوة. ومحبة الفجار والفساق المتعاونين في اكتساب الشهوات واستلاب الأموال. والقسم الرابع هو المحبة العقلية المستندة إلى تسهيل أسباب المعاش، وتيسير المصالح الدنيوية. كمحبة التجار والصناع. ومحبة المحسَن إليه للمحسن. فكل ما استند إلى غرض فانٍ وسبب زائل، زال بزواله، وانقلب عند فقدانه عداوة. لتوقع كل من المتحابين ما اعتاد من صاحبه، من اللذة المعهودة والنفع المألوف. وامتناعه لزوال سببه. ولما كان الغالب على أهل العالم أحد القسمين الأخيرين، أطلق الكلام وقال: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ لانقطاع أسباب الوصلة بينهم، وانتفاء الآلات البدنية عنهم، وامتناع حصول اللذة الحسية والنفع الجسماني وانقلابهما حسرات وآلاماً وضرراً وخسراناً. قد زالت اللذات والشهوات، وبقيت العقوبات والتبعات. فكل يمقت صاحبه ويبغضه. لأنه يرى ما به من العذاب، منه وبسببه. ثم استثنى المتقين المتناولين للقسمين الباقييْن لقلتهم، كما لقال ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، ولعمري، إن القسم الأول أعز من الكبريت الأحمر. وهم الكاملون في التقوى، البالغون إلى نهايتها، الفائزون بجميع مراتبها. ويليهم القسم الثاني. وكلا القسمين، لاشتراكهما في طلب مرضاة الله وطلب ثوابه واجتناب سخطه وعقابه، نسبهم سبحانه إلى نفسه بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾

﴿**يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**﴾ أي لأمنهم من العذاب ﴿**وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾ أي على فوات لذات الدنيا. لكونهم على ألذّ منها وأبهج، وأحسن حالاً وأجمل.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾

﴿**الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِآيَاتِنَا**﴾ أي صدقوا بكتاب الله ورسله، وعملوا بما جاءتهم به رسلهم ﴿**وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ**﴾ أي أهل خضوع لله بقلوبهم، وقبول منهم لما جاءتهم به رسولهم عن ربهم، على دين إبراهيم عليه السلام، حنفاء، لا يهود ولا نصارى ولا أهل أوثان.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿ **ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ** ﴾ أي تُسَرُّون سروراً يظهر حَبَاره، أي أثره على وجوهكم، كقوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المطففين: ٢٤].

القول في تأويل قوله تعالى:

يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾

﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ** ﴾ الصحاف جمع (صحفة) وهي آنية الأكل. والأكواب جمع (كوب) وهو ما يشرب منه كالكوز. إلا أن الكوب ما لا عروة له. قال الشهاب: العروة ما يمسك منه ويسمى أذناً. ولذا قال من ألغز فيه:

وذي أُذُنٍ بلا سمعٍ له قلبٌ بلا قَلْبِ
إذا استولى على صَبٍّ فقل ما شئتَ في الصبِّ

ومن اللطائف هنا ما قيل: إنه لما كانت أواني المأكولات أكثر بالنسبة لأواني المشروب عادة، جمع الأول جمع كثرة، والثاني جمع قلة. ﴿ **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ** ﴾ أي بمشاهدته ﴿ **وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ أي من الخيرات والأعمال الصالحات. وقد شبه ما استحقوه بأعمالهم الحسنة، من الجنة ونعيمها الباقي لهم، بما يخلفه المرء لورّاثه من الأملاك والأرزاق. ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورِّث (على صيغة اسم الفاعل) فهو استعارة تبعية أو تمثيلية.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿ **لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴾ أي ما اشتهيتم. و(من) إما ابتدائية أو تبعيضية. ورجح بدلالته على كثرة النعم، وأنها غير مقطوعة ولا ممنوعة، وأنها مزينة بالثمار أبداً، موقرة بها.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي الذين اجترموا الكفر والمعاصي في الدنيا ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف ولا ينقص ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي مستسلمون يائسون.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي بهذا العذاب ﴿وَلَكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي بكفرهم اللّه وجحودهم توحيده.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾

﴿وَنَادَوْاْ﴾ أي بعد إدخالهم جهنم ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي ليمتنا. أي سله أن يفعل بنا ذلك. تمنوا تعطل الحواس وعدم الإحساس، لشدّة التألم بالعذاب الجسماني. ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ أي لابثون ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أي لا تقبلونه وتنفرون منه، وعبرّ (بالأكثر) لأن من الأتباع من يكفر تقليداً.

لطيفة:

قال القاشاني: سمي خازن النار (مالكاً) لاختصاصه بمن ملك الدنيا وآثرها. لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧- ٣٩] كما سمي خازن الجنة (رضواناً) لاختصاصه بمن رضي اللّه عنهم ورضوا عنه.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي أم أبرم مشركو مكة أمراً فاحكموه، يكيدون به

الحق الذي جاءهم، فإنا محكمون لهم ما يخزيهم ويذلهم، من النكال. كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ أي ما أخفوه من تناجيهم بما يمكرون، فلا نجازيهم عليه لخفائه علينا ﴿بَلَى﴾ أي نسمعهما ونطلّع عليهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ يعني الحفظة ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي ما تكلّموا به ولفظوا من قول. ثم أشار إلى ردّ إفكهم في أن الملائكة بنات اللّه تعالى، ختماً للسورة مما بدئت به، المسمى عند البديعيين (رد العجز على الصدر) فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي لذلك الولد. والأولية بالنسبة إلى المخاطبين، لا لمن تقدّمهم. قال الشهاب: ولو أبقى على إطلاقه، على أن المراد إظهارالرغبة والمسارعة. جاز. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ على نفي التالي. وهو عبادة الولد. أي أوحّده وأنزّهه تعالى عما يصفونه من كونه مماثلاً لشيء. لكونه ربّاً خالقاً للأجسام كلها. فلا يكون من جنسها. فيفيد انتفاء الولد على الطريق البرهاني. وأما دلالته على الثاني فإذا جعل قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ﴾ الخ من كلام اللّه تعالى، لا من كلام الرسول، (أي نزّه رب السماوات عما يصفونه) فيكون نفياً للمقدم ويكون تعليق عبادة الرسول من باب التعليق بالمحال. والمعلق بالشرط عند عدمه فحوى بدلالة المفهوم، أبلغ عند علماء البيان من دلالة المنطوق. كما قال في استبعاد الرؤية ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

﴿ **فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا** ﴾ أي في باطلهم ﴿ **وَيَلْعَبُواْ** ﴾ أي في دنياهم ﴿ **حَتَّى يُلاقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ** ﴾ قال ابن جرير : وذلك يوم يُصْلِيهم اللّه بفريتهم عليه، جهنم، وهو يوم القيامة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾

﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ** ﴾ أي المعبود فيهما بلا شريك ﴿ **وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** ﴾ أي في تدبير خلقه وتسخيرهم لما يشاء بمصالحهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

﴿ **وتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرجَعُونَ وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِه الشَّفَاعَةَ** ﴾ أي الشفاعة لهم عند اللّه، كما زعموا أن أندادهم شفعاء ﴿ **إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ أي من آمن باللّه وأقرّ بتوحيده، وهم يعلمون حقيقة توحيده. أي وحّدوه وأخلصوا له على علم منهم ويقين، كقوله: ﴿ ولاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. قال ابن كثير: هذا استثناء منقطع ، أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده، بإذنه له.

تنبيه:

قال الشهاب: استدل الفقهاء بهذه الآية على أن الشهادة لا تكون إلا عن علم، وأنها تجوز وإن لم يشهد.

وفي (الإكليل) قال إلكيا: يدل قوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ على معنيين: أحدهما - أن الشهادة بالحق غير نافعة إلا مع العلم، وأن التقليد لا

يغني مع عدم العلم بصحة المقالة. والثاني - أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها، أن يكون الشاهد عالماً بها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أي: خلقنا لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

﴿ وَقِيلِهِ ﴾ أي قيل محمد صلوات الله عليه، شاكياً إلى ربه تبارك وتعالى، قومه الذين كذبوه وما يلقى منهم ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ أي الذين أمرتني بإنذارهم، وأرسلتني إليهم لدعائهم إليك ﴿ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر. كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان: ٣٠].

القول في تأويل قوله تعالى:

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿ فَاصْفَحْ ﴾ أي أعرض ﴿ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ أي لكم أو عليكم. أو أمري سلام. أي متاركة فهو سلام متاركة لا تحية.

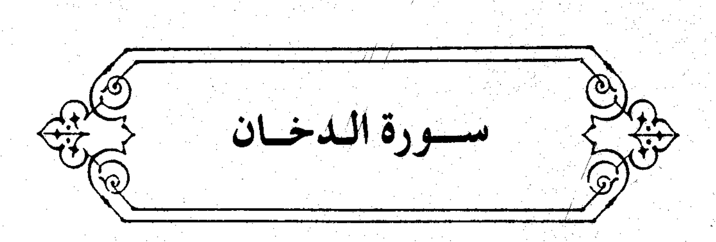
وقال الرازيّ: احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر. ثم قال: إن صح هذا الاستدلال فإنه يوجب الاقتصار على مجرد قوله (سلام) وأن يقال للمؤمن (سلام عليكم) والمقصود التنبيه على التحية التي تذكر للمسلم والكافر.

وفيه نظر، لأنه جمود على الظاهر البحت هنا، والغفلة عن نظائره. من نحو قول إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [مريم: ٤٧]، وآية ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥]، على أن الأكثر على أن الخبر هنا محذوف، أي (عليكم) والمقدر كالمذكور، والمحذوف لعلة كالثابت. فالصواب أن السلام للمتاركة. والله أعلم ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي حقية ما أرسلت به، بسموّ الحق وزهوق الباطل.

تنبيه:

قرئ ﴿ وقيلَه ﴾ بالنصب عطفاً على (سرَّهُم ونجواهم) وضعّف بوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، بما لا يحسن اعتراضاً. أو على محل (الساعة) لأنه في محل نصب، لأنه مصدر مضاف لمفعوله. أو بإضمار فعله. أي وقال قيله. وقرئ بالجر عطفاً على (الساعة) أو الواو للقسم والجواب محذوف. أي لأفعلن بهم ما أريد، أو مذكور وهو قوله ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقرئ بالرفع عطفاً على (علم الساعة) بتقدير مضاف. أي وعنده علم قيله. أو مرفوع بالابتداء، وجملة (يا رب) الخ هو الخبر. أو الخبر محذوف. أي وقيله كيت وكيت، مسموع أو متقبل. وفي (الحواشي) مجازيات جدلية، فازدد بمراجعتها علماً.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الدخان

قال المهايمي: سميت به لدلالة آيته على أنه جزاء غشيان أدخنة النفوس الخبيثة، بصائر قلوب أهلها وأرواحهم. ولذلك رأوا الدلائل شبهات الشياطين. وجعلوا المميز بينهما مجنوناً. وإن القرآن كاشف عنه ككشف الدخان المحسوس عنهم، وهي مكية. وآيها خمسون وتسع. روي [١] الترمذي مرفوعاً. من قرأ (حم الدخان) في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك. ثم قال: غريب. وعمرو بن أبي خثعم راويه، يضعّف. قال البخاري: منكر الحديث. أفاده ابن كثير.

---

(١) أخرجه في: ثواب القرآن، ٨- باب ما جاء في فضل ﴿حمَ الدخان﴾.

بسم الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾

﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ في لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ يعني ليلة القدر التي قدر فيها سبحانه إنزال ذكره الحكيم. وكانت في رمضان. كما قال سبحانه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، قال ابن كثير: ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان، فقد أبعد النجعة. فإن نص القرآن أنها في رمضان. وما روي من الآثار في فضلها، فمثله لا تعارض به النصوص. هذا على فرض صحتها. وإلا فهي ما بين مرسل وضعيف. والبركة اليمن. ولا ريب أنها كانت أبرك ليلة وأيمنها على العالمين، بتنزيل ما فيه الحكمة والهدى، والنجاة من الضلال والردى. قال القاشاني: ووصفها بالمباركة ، لظهور الرحمة والبركة، والهداية والعدالة في العالم بسببها. وازدياد رتبته ﷺ وكماله بها، كما سماها (ليلة القدر) لأن قدره وكماله إنما ظهر بها ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي من خالف مقتضى الحكمة وقوة الدلائل، واختار المذامّ وتذلل للهوى ولم يكتف بهداية الله، ولم يقت روحه بقوت معارفه، وذلك لتقوم حجة الله على عباده.

القول في تأويل قوله تعالى:

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كلُّ أمْرٍ حَكيمٍ﴾ أي يفصل ويبين كل أمر تقتضيه الحكمة، على وجه متين محمود عند الكمل تقتات به أرواحهم، وترحم به نفوسهم. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾

﴿أَمْراً مِنْ عِندِنَا﴾ نصب على الاختصاص. أي أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من

عندنا على مقتضى حكمتنا. وهو بيان لفخامته الإضافية، بعد بيان فخامته الذاتية ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ أي مرسلين إلى الناس رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، رحمة منه تعالى بهم، لمسيس الحاجة إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وجوز كون (رحمة) علة للإنزال. أي رحمة تامة كاملة على العالمين بإنزاله، لاستقامة أمورهم الدينية والدنيوية، وصلاح معاشهم ومعادهم، وظهور الخير والكمال والبركة والرشاد فيهم بسببه. والوجه هو الأول. وهو كونه غاية للإرسال. لإفصاح تلك الآية عنه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ أي لدعوة حقائق الأشياء بمقتضياتها ﴿الْعَلِيمُ﴾ أي بمقادير قابلياتها، فلا يبعد عليه الإرسال والإنزال، قاله المهايمي. وقال القاشاني: أي : السميع لأقوالهم المختلفة في الأمور الدينية الصادرة عن أهوائهم، (العليم) أي بعقائدهم الباطلة وآرائهم الفاسدة وأمورهم المختلة ومعايشهم غير المنتظمة. فلذلك رحمهم بإرسال الرسول الهادي إلى الحق في أمر الدين، الناظم لمصالحهم في أمر الدنيا، المرشد إلى الصواب فيهما، بتوضيح الصراط المستقيم، وتحقيق التوحيد بالبرهان، وتقنين الشرائع وسنن الأحكام لضبط النظام.

القول في تأويل قوله تعالى:

رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ قال أبو مسلم : أي إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا. كقولهم (فلان منجد متْهم) أى يريد نجداً وتهامة. وقيل: معناه إن كنتم موقنين بما تقرون به، من أنه رب الجميع وخالقه ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي بل ليسوا بموقنين في إقرارهم بربوبيته، لأن الإيقان يستتبع قبول البرهان، وإنما هو قول ممزوج بلعب، لغشيان أدخنة أهوية نفوسهم، بصائر قلوبهم وأرواحهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا

الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي انتظر لمجازاتهم ذلك اليوم الهائل. ولا يستعمل (الارتقاب) إلا في أمر مكروه. وللسلف في معنى الدخان ثلاثة أوجه: الأول – قال بعضهم: كان ذلك حين دعا رسول الله ﷺ على قريش أن يؤخذوا بسنين كسني يوسف، فأخذوا بالمجاعة. قالوا: وعنى بالدخان ما كان يصيبهم حينئذ في أبصارهم من شدة الجوع. من الظلمة كهيئة الدخان، روى ابن جرير عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً وهو مضطجع بيننا. فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن: إن قاصاً عند أبواب كندة يقصّ ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام، فقام عبد الله وجلس وهوغضبان، فقال: يا أيها الناس! اتقوا الله. فمن علم شيئاً فليقل بما يعلم . ومن لا يعلم فليقل (اللهُ أعلم). فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم (الله أعلم) وما على أحدكم أن يقول لما لا يعلم (لا أعلم) فإن الله عزَّ وجلَّ يقول لنبيّه ﷺ ﴿قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، إن النبيّ ﷺ لما رأى من الناس إدباراً قال: اللهم سبعاً كسبع يوسف. فأخذتهم سنةٌ حصّت كلِ شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف. ينظر أحدهم إلى السماء فيرى دخاناً ، من الجوع . فأتاه أبو سفيان ين حرب فقال: يا محمد! إنك جئت تأمرنا بالطاعة وبصلة الرحم. وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم. قال الله عز وجل ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان:١٥]، قال: فكشف عنهم ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٦]، فالبطشة يوم بدر. وقد مضت اية الروم وآية الدخان. والبطشة واللزام.

قال ابن كثير: وهذا الحديث مخرج في الصحيحين[١] ورواه الإمام أحمد[٢] في مسنده وهو عند الترمذي[٣] والنسائي في تفسيرهما، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة وقد وافق ابن مسعود رضي الله على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعةٌ من السلف كمجاهد وأبي العالية و وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير.

---

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، ٤٤– سورة الدخان، ٢– باب ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، حديث رقم ٥٧٠، عن عبد الله بن مسعود
وأخرجه مسلم في: صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ٣٩.

(٢) أخرجه في المسند ١ / ٣٨٠. الحديث رقم ٣٦١٣.

(٣) أخرجه في: التفسير، ٤٤– سورة الدخان، ١– باب حدثنا محمود بن غيلان.

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): والظاهر أن مجيء أبي سفيان كان قبل الهجرة. لقول ابن مسعود (ثم عادوا) ولم ينقل أن أبا سفيان قدم المدينة قبل بدر. وعلي هذا فيحتمل أن يكون أبو طالب كان حاضراً ذلك. فلذلك قال:

* وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجْهِهِ *

لكن روي ما يدل على أن القصة المذكورة وقعت بالمدينة، فإن لم يحمل على التعدد، وإلا فهو مشكل جداً. واللّه المستعان. انتهى.

وذكر ابن قتيبة في تفسير الدخان على هذا معنيين: أحدهما – أن في سنة القحط يعظم يبس الأرض بسبب انقطاع المطر، ويرتفع الغبار الكثير، ويظلم الهواء. وذلك يشبه الدخان ولهذايقال لسنة المجاعة (الغبراء) ثانيهما – أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان. فيقولون (كان بيننا أمر ارتفع له دخان). والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه، أظلمت عيناه، فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان. انتهى.

وقال الشهاب: الظاهر أن هذه التسمية استعارة. لأن الدخان مما يتأذى به. فاطلق على كل مؤذٍ يشبهه، أو على ما يلزمه، ولذا قيل:

تريد مهذَّباً لا عيبَ فيهِ وهل عودٌ يفوُح بلا دُخَانِ

الوجه الثاني في الآية – أنه دخان يظهر في العالم. وهو إحدى علامات القيامة، ولم يأت بعد، وهو آت وهو قول حذيفة. ويروى عن عليّ وابن عباس وجمع من التابعين. قال الرازي: واحتج القائلون بهذا القول بوجوه: الأول – أن قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ يقتضي وجود دخان تأتي به السماء. وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة في العين بسبب شدة الجوع، فذاك ليس بدخان أتت به السماء. فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه، عدولا عن الظاهر، لا لدليل منفصل، وإنه لا يجوز. الثاني – أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبيناً. والحالة التي ذكرتموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرض لبعض الناس في أدمغتهم. ومثل هذا لا يوصف بكونه دخاناً مبيناً. والثالث – أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس. وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم، والحالة التي ذكرتموها لاتغشى الناس إلا على سبيل المجاز. وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل. الرابع – ما روي عن النبيّ ﷺ من عدّه الدخان من الآيات المنتظرة.

أما القائلون بالقول الأول، فلا شك أن ذلك يقتضي صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز وذلك لا يجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع، والقوم لم يذكروا ذلك الدليل، فكان المصير إلى ما ذكروه مشكلاً جداً. فإن قالوا: الدليل على أن المراد ما ذكرناه أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون ﴿**رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ**﴾ وهذا، إذا حملناه على القحط الذي وقع بمكة، استقام. فإنه نقل أن التقحط لما اشتد، بمكة مشى إليه أبوسفيان وناشده باللّه وبالرحم، ووعده أنه إن لهم وأزال اللّه عنهم تلك البلية، أن يؤمنوا به. فلما أزال اللّه تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم . أما إذاحلمناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة، لم يصحّ ذلك. لأن عند ظهور علامات القيامة. لا يمكنهم أن يقولوا ﴿**رَبَّنَا اكْشِف عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ**﴾ ولم يصح أيضاً أن يقال لهم ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ والجواب: لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جارياً مجرى ظهور سائر علامات القيامة، في أنه لا يوجب انقطاع التكليف، فتحدث هذه الحالة. ثم إن الناس يخافون جداً فيتضرعون. فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق. وإذا كان هذامحتملاً، فقد سقط ماقالوه، واللّه أعلم. انتهى كلام الرازي.

وهكذا رجح الإمام ابن كثير الوجه الثاني، ذهاباً إلى ما صح عن ابن عباس، ترجمان القرآن ومن وافقه من الصحابة والتابعين، مع الأحاديث المرفوعة الصحاح والحسان وغيرهما، التي أوردوها،مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة، على أن الدخان من الآيات المنتظرة. مع أنه ظاهر القرآن، قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ**﴾ أي بيّن واضح يراه كل أحد. وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي اللّه عنه، إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد. وهكذا قوله تعالى: ﴿**يَغْشَى النَّاسَ**﴾ أي يتغشاهم ويعمّهم. ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿**يغشى النَّاسَ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**هَذَا عَذَابٌ أليمٌ**﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً. كقوله عزَّ وجلَّ ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣- ١٤]، أو يقول بعضهم لبعض ذلك. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ**﴾ أي يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب اللّه وعقابه، سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله جلت عظمته ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وكذا قوله جلَّ وعلا ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوآ أَقْسَمْتُم مِن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. وهكذا قال جلَّ جلاله.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾

﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ أي كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولاً بيّن الرسالة والنذارة. ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه. بل كذبوه وقالوا معلم مجنون. وهذاكقوله جلت عظمته ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ [الفجر: ٢٣] الآية. وكقوله عزَّ وجلَّ ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُواْ فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ: ٥١]. إلى آخر السورة. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾

﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما - أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب. كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَّا بِهِم مِن ضُرٍ لَّلَجُّوا في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله جلت عظمته ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨]، والثاني - أن يكون المراد إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم. كقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخزْيِ في الْحَيَاة الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلى حِينَ ﴾ [يونس: ٩٨]. ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم. بل كان قد انعقد سببه عليهم. ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى، إخباراً عن شعيب عليه السلام، أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿ لَنخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ من قَرِيَتِنآ أَوْ لَتعُودُنَّ في مِلَّتِنا، قَالَ أَلوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا علىَ اللَّه كَذِباً إِنْ عُدْنَا في مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّه مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ٨٨- ٨٩]. وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم. وقال قتادة: ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إلى عذاب اللّه. وقوله عزَّ وجلَّ:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتقِمُونَ ﴾ فسرّ ذلك ابن مسعود رضي اللّه عنه

بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي اللّه عنه على تفسيره الدخان بما تقدم. وروي أيضاً عن ابن عباس رضي اللّه عنهما من رواية العوفي عنه وعن أبي ابن كعب رضي اللّه عنه وجماعة عنه، وهو محتمل. والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً. قال ابن جرير: حدثني يعقوب . حدثنا ابن علية. حدثنا خالد الحذّاء عن عكرمة قال: قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: قال ابن مسعود رضي اللّه عنه: البطشة الكبرى يوم بدر . وأنا أقول هي يوم القيامة. وهذا إسناد صحيح عنه . وبه يقول الحسن البصريّ وعكرمة في أصح الروايتين عنه. واللّه أعلم. انتهى كلام ابن كثير.

فصل:

وممن رجح الوجه الأول، وهو أن المراد بالدخان يوم المجاعة والشدة مجازاً، بذكر المسبّب وإرادة السبب. أو بالاستعارة، العلامة أبو السعود حيث قال: والأول هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم قطعاً. فإن قوله تعالى: ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى ﴾ الخ ، ردّ لكلامهم واستدعائهم الكشف، وتكذيب لهم في الوعد بالإيمان، المنبئ عن التذكر والاتعاظ بما اعتراهم من الداهية، أي كيف يتذكرون؟ أو من أين يتذكرون بذلك ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم؟ ﴿ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ أي والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر. وموجبات الاتعاظ ما هو أعظم منه في إيجابها. حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، وبيّن لهم مناهج الحق، بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة، تخرّ لها صمّ الجبال ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوا عَنْهُ ﴾ عن ذلك الرسول وهو هو، ريثما يشاهدون منه ما شاهدوه من العظائم الموجبة للإقبال عليه ولم يقتنعوا بالتولي ﴿ وَقَالُوا ﴾ في حقه ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ أي قالوا تارة: يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف. وأخرى مجنون، أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا. فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟ وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضعف، وإذا شبع طغى. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ بطريق الالتفات، لمزيد التوبيخ والتهديد. وما بينهما اعتراض. ألى إنا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفا قليلاً، أو زماناً قليلاً. إنكم تعودون إثر ذلك إى ما كنتم عليه من العتوّ والإصرار على الكفر. وتنسون هذه الحالة. وفائدة التقييد بقوله: ﴿ قَلِيلاً ﴾ الدلالة على زيادة خبثهم. لأنهم إذا عادوا قبل تمام الانكشاف، كانوا بعده

أسرع إلى العود. وصيغة الفاعل في الفعلين، للدلالة على تحققهما لا محالة. ولقد وقع كلاهما حيث كشفه اللّه تعالى، بدعاء النبيّ ﷺ فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من العتوّ والعناد. انتهى ما قاله أبو السعود بزيادة.

فصـــل:

وأما الوجه الثالث في الآية، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي. حدثنا جعفر بن مسافر. حدثنا يحيي بن حسان. حدثنا ابن مهيعة. حدثنا عبد الرحمن الأعرج في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال: كان يوم فتح مكة. قال ابن كثير: وهذا القول غريب جداً. بل منكر.انتهى.

اى لأنه لم يرَوَ مرفوعاً ولا موقوفاً على ابن عباس، ترجمان القرآن. أو غيره من الصحب. إلا أن عدم كونه مأثوراً لا ينافي احتمال لفظ الآية له. وصدقها عليه. لا سيما، ويؤيده قوله تعالى في آخر السورة: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ مما هو وعد بظهوره عليهم. وكان ذلك يوم الفتح. وحينئذ، فمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ أي ما ينزل بهم يومئذ، برفع القتل والأسر عنهم. ومعنى ﴿عَائِدُونَ﴾ أي إلى لقاء اللّه ومجازاته.

فصـــل:

يظهر مما نقلناه عن السلف في هذه الآية من الأقوال الثلاثة، أن هذه الآية من الآي اللاتي أخذت من الصحب، عليهم الرضوان، اهتماماً في معناها، وعناية في البحث عن المراد منها. حتى كان ابن مسعود مصراً على وجه، وعليّ وابن عباس وحذيفة على وجه آخر. على ما أسند عنهم من طرق ، ولعمر الحق! إن هذه الآية لجديرة بزيادة العناية. وهكذا كل ما كان من معارك الأنظار للأئمة الكبار. وسبب الاختلاف هو إيجار الأسلوب الكريم، وإيثاره من الألفاظ أرقها، وأوجزها. مما يصدق لبلاغته حقيقة تارة ومجازاً أخرى. هذا أولاً. وثانياً ، لما كان كثير من الأحاديث المروية تتشابه مع الآيات، كان ذلك مما يقرب بينهما ويدعوا إلى اتحاد المراد منهما. لما تقرر من شرح السنة للكتاب، وهذا ما درج عليه المحدثون قاطبة. فترى أحدهم إذا رأى في خبر ما يشير إلى آية، قطع بأنه تفسيرها ووقف عنده ولم يتعده.وأما من فتح للتدبر بابا ومهد للنظر مجالاً، ورأى أن الأثر قد يكون من محمولات الآية وما صدقاتها، وأنها أعم وأشمل، أو إن حمل الخبر عليها اشتباه أفضى إليه التشابه. فذاك وسّع للسالك المسالك، وفتح للمريد المدارك، ورقاه من

حظيره النقل إلى فضاء العقل. ولكلٍّ وجهة.

إذا علمت ذلك، رأيت أن من فسر هذه الآية بالمجاعة التي حصلت لقريش، أمكنه تطبيق الآية عليها مجازاً في بعض مفرداتها، وحقيقة في بقيّتها وفي وقوع مصداقها، في رأيه. ومن فسرها بالدخان المنتظر، المروي من أشراط الساعة، وقف مع المروي ورأى أنه تفسيرها. لأن الأصل التوافق والحمل على المعهود. لأنه الأقرب خطوراً والأسبق حضوراً، ومن فسرها بالظهور عليهم يوم الفتح، رأى أنها من بليغ المجاز وبديع الكناية في ذلك. وأن الوعد بالارتقاب. كثر أشباهه ونظائره في غير ما آية، مراداً به الفتح. كآية ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُم وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ [السجدة:٢٨– ٣٠]، فهذا وأمثاله يبين مآخذ الأئمة ومداركهم في التأويل. وبه يعلم أن أطراف المدارك قد تتجاذب اللفظ فتستوقف الرأي عن التشيع لمدرك دون آخر. ما لم يكن ثمة مايرشح أحدها وقد يظن الواقف على كلام الرازي المتقدّم، واحتجاجه للوجه الثاني بما أطال به، أن لا منتدح، بعد، عنه. مع أن للذاهب إلى غيره أن يجيب عن احتجاجه بما أسلفنا من صحة المجاز. بل وقوّته هنا، لأن المقام مقام إنذار وإيعاد، والذوق أكبر حاكم وإليه مردّ البلاغة. ولا يلزم المتأوّل نكرانه للدخان المنتظر كما قد يتوهم. بل يعترف بأنه آية آتية يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وينقلب هذا النظام إلى نشأة ثانية. وأنه لا يلزم من الاشتراك اللفظي اتحاد المتلوّ والمروي. وبالجملة، فاللفظ الكريم يتناول المعاني الثلاثة. وسببه تحقق مصداق الجميع. وأما تعيين واحد منها للمراد، فصعب جدّاً فيما أراه، لا سيما ولم يتفق الصحب على رأي فيها. هذا ما نقوله الآن. والله العليم. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ** ﴾ أي ابتلينا، قبل هؤلاء المشركين، قوم فرعون، بإرسال موسى عليه السلام إليهم ليؤمنوا. فاختاروا الكفر على الإيمان ﴿ **وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ** ﴾ أي على الله والمؤمنين، أو في نفسه. فعلى الأول كريم بمعنى مكرّم أي معظّم. وعلى الثاني، من الكرم بمعنى الاتصاف بالخصال الحميدة، حسباً ونسباً.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿**أنْ أدُّوا إليَّ عِبَادَ اللَّهِ**﴾ أي أرسلوا معي بني إسرائيل، لأسير بهم إلى بلادنا الأولى. وأطلقوهم من أسركم وحبسكم. فإنهم قوم أحرار، أبوا، للضيم. هذه الديار ﴿**إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أمِينٌ**﴾ أي على وحيه ورسالته، التي حملنيها إليكم. لأنذركم بأسه إن عصيتم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾

﴿**وأن لاّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ**﴾ أي بإنكار ربوبيته، ودعوى الربوبية لأنفسكم، وتكذيب رسوله وغضب عباده ﴿**إنِّي ءَاتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ أي حجة واضحة على ربوبية اللَّه، ونفي ربوبيتكم. وعلى رسالتي. وعلى أن بني إسرائيل عباده الخاصة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿**وإنّي عُذْتُ بِرَبّي ورَبِّكُمْ أن تَرْجُمُونَ**﴾ أي اعتصمت به من رجمكم. يعني القتل، فعصمني، فلا ينالني منكم مكروه، مع أنه لا يعصم من افترى عليه، وقصد بهذه الجملة. إظهار مزيد شجاعته وثباته في موقف تضطراب فيه الأفئدة، وتزلّ الأقدام، خوفاً ورعباً. وما ذاك إلا لإيوائه إلى عصمة اللَّه وتأييده.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾

﴿**وإنْ لَمْ تُؤمِنُوا لي فَاعْتَزِلُونَ**﴾ أي فكونوا بمعزل عني. فلست بموالٍ منكم أحداً.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿**فَدَعَا رَبَّهُ**﴾ أي لما تابوا عن إجابته ﴿**أنَّ هؤلاء قَوْمٌ مُّجرِمُونَ**﴾ أي مشركون مفسدون.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً ﴾ أي فأجاب دعاءه، وأوحى إليه بان سر بقومك ليلاً ﴿ إِنَّكُمْ مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي إن فرعون وقومه من القبط متبعوكم. إذا شخصتم عن بلدهم وأرضهم ليرجعوكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾

﴿ واتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً ﴾ أي فإذا قطعت البحر أنت وأصحابك، فاتركه ساكناً على حاله التي كان عليها حين دخلته، ولا تضربه بعصاك ليدخله القبط فيغرقوا ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ كَمْ تَرَكُوا ﴾ أي بعد هلاكهم بالغرق ﴿ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي بساتين وعيون يسقى منها ويتنعم بالنظر فيها، هذا في التفكة والتنزه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾

﴿ وَزُرُوعٍ ﴾ أي قائمة مزارعهم للقوت ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أي محافل مزينة ومنازل مزخرفة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾

﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ أي متنعمين من نساء وأموال وحشم، وما لا يحصى من المشتهيات.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي أخرجناهم مثل هذا الإخراج. فالكاف، أو الجار والمجرور صفة مصدر مفهوم من الترك. أو هو خبر محذوف. أي الأمر كذلك. والمراد به التأكيد والتقرير ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً ءاخَرِينَ ﴾ يعني من خلفهم بعد مهلكهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ**﴾ قال الزمخشري: إذا مات رجل خطير، قالت العرب في تعظيم مهلكه: بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح وأظلمت له الشمس. قال جرير:

* تَبْكِي عليك نُجومُ الليلِ والقَمَرا *

وقالت الخارجية:

أيا شجَرَ الخابورِ ما لكَ مُورِقاً كأنك لم تَجْزَعْ على ابن طريفِ

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل. مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه، وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنه من بكاء مصلّى المؤمن وآثاره في الأرض، ومصاعد عمله ومهابط رزقه في السماء: تمثيل. ونفي ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ**﴾ فيه تهكم بهم وبحالهم. المنافية لحال من يعظم فقده، فيقال فيه: بكت عليه السماء والأرض، وعن الحسن: فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون، بل كانوا بهلاكهم مسرورين. يعني: فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض ﴿**وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ**﴾ أي مؤخّرين بالعقوبة. بل عوجلوا بها، زيادة سخط عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾

﴿**وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ**﴾ يعني استعباد فرعون وقتله أبناءهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

﴿**مِنَ فِرْعَوْنَ**﴾ بدل من العذاب، على حذف مضاف. أو جعله عذاباً مبالغةً لإفراطه في التعذيب. أو حال من (المهين) بمعنى واقعاً من جهته ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَالِياً**﴾ أي متكبراً على الناس ﴿**مِنَ الْمُسْرِفِينَ**﴾ أي المتجاوزين الحدّ، في العتوّ والشرّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾

﴿ **وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَىَ الْعَالَمِينَ** ﴾ أي فضلناهم لأجل علمٍ معهم، على عالمي زمانهم . أو عالمين بأنهم أحقاء بأن يختاروا ويؤثروا.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

﴿ **وَآتَيْنَاهُم** ﴾ أي زيادة على اختبارهم وتفضيلهم ﴿ **مِّنَ الآيَاتِ** ﴾ أي المعجزات ولكرامات ﴿ **مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ** ﴾ أي نعمة ظاهرة، لأنهم حجة واضحة على أعدائهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾

﴿ **إِنَّ هَؤُلاء** ﴾ أي مشركي قريش ﴿ **لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى** ﴾ أي المتعقبة للحياة. كأنهم أرادوا إلا موتتنا هذه. وليس القصد إلى إثبات ثانية. .قال الإسنوي في (التمهيد) : الأول في اللغة ابتداء الشيء ثم قد يكون له ثان وقد لا يكون. كما تقول : هذا أول ما اكتسبته. فقد تكتسب بعده شيئاً وقد لا تكتسب. كذا ذكره جماعة، منهم الواحدي في تفسيره، والزجاج. ومن فروع المسألة، ما لو قال : إن كان أول ولد تلدينه ذكراً فأنت طالق، تطلق إذا ولدته، وإن لم تلد غيره، بالاتفاق. قال أبو عليّ : اتفقوا على أن ليس من شرط كونه أولاً، أن يكون بعده آخر. وإنما الشرط أن لا تقدم عليه غيره. انتهى.

وما ذكر أظهر مما للزمخشري هنا ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ** ﴾ أي مبعوثين.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾

﴿ **فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ أي في بعثنا بعد بلائنا في قبورنا. قال ابن كثير: وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة. فإن المعاد إنما هو يوم القيامة، لا في دار الدنيا. بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها، يعيد الله العالمين خلقاً جديداً. ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً. ثم أنذرهم تعالى بأسه الذي لا يردّ، كما حلّ بأشباههم من المشركين، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي في القوة والمنعة **﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾** أي أهلكناهم بجرمهم. وهو كفرهم وفسادهم. وهم ماهم. فما بال قريش لا تخاف أن يصيبها ما أصابهم؟ وقوم تبع هم حمير وأهل سبأ. أهلكهم اللّه عزَّ وجلَّ وفرقهم في البلاد شذر مذر. كما تقدم في سورة (سبأ) قال ابن كثير: وقد كانوا عرباً من قحطان. كما أن هؤلاء عرب من عدنان. وكانت حمير كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً. كما يقال (كسرى) لمن ملك الفرس و(قيصر) لمن ملك الروم. و(فرعون) لمن ملك مصر كافراً. و(النجاشي) لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس، لكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند. واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه. واتسعت مملكته وبلاده وكثرت رعاياه، وهو الذي مصّر الحيرة، فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية وذلك في أ يام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار وجعلوا يقْرُونَهُ بالليل. فاستحيا منه وكفّ عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود، كان اقد نصحاه وأخبراه أن لا سبيل له على هذه البلدة. فإنها مهاجر نبيّ يكون في آخر الزمان. فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن. فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة. فنهياه عن ذلك أيضا. وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وأنه سيكون له شأن عظيماً على يدي ذلك النبيّ المبعوث في آخر الزمان، فعظمها وطاف بها وكساها المُلاء والوصائل والحبر. ثم كرّ راجعاً إلى اليمن، ودعا أهلها إلى التهود معه. وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام. فتهود معه عامة أهل اليمن . وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه (السيرة). وترجمة الحافظ ابن عساكر في (تاريخه) ترجمة حافلة ، وذكر أنه ملك دمشق. وساق ما روي في النهي عن سبه ولعنه. قال ابن كثير: وكأنه، واللّه أعلم. كان كافراً ثم أسلم، وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح عليه السلام. وحج البيت في زمن الجرهميين وكساه الملاء، والوصائل من الحرير والحبر. ونحر عنده ستة آلاف بدنة. وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسوطة، عن أبي بن كعب وعبد

اللّه بن سلام وعبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنهم، وكعب الأحبار. وإليه المرجع في ذلك كله، وإلى عبد اللّه بن سلام أيضاً. وهو أثبت وأكبر وأعلم . وكذا روى قصته وهبه بن منبه ومحمد بن إسحاق في (السيرة) كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات، ترجمة تبع هذا، بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل. فإن تبعاً هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه على يديه. ثم لما توفي عادوا بعده إلى عبادة الثيران والأصنام، فعاقبهم اللّه تعالى، كما ذكره في سورة سبأ. وتبع هذا هو تبع الأوسط. واسمه أسعد أبو كرب. ولم يكن في حمير أطول مدة منه. وتوفي قبل مبعث النبيّ ﷺ بنحو من سبعمائة سنة وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة،أن هذه البلدة مهاجر نبيّ في آخر الزمان اسمه أحمد، قال في ذلك شعراً، واستودعه عند أهل المدينة. فكانوا يتوارثونه ويروونه خلفاً عن سلف. وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري، الذي نزل رسول اللّه ﷺ في داره، وهو :

شهدت على أحمد أنه رسولٌ من اللّه بارِي النَّسمْ
فلو مُدَّ عُمْري إلى عُمْرِه لكنُتُ وَزيراً له وابن عَمْ
وجاهدتُ بالسيف أعداءَهُ وفرَّجْتُ عن صَدْرِهِ كُلَّ غَمْ

ثم ساق ابن كثير آثاراً في النهي عن سبه: وبالجملة فإن قصته المذكورة والمروي في شأنه، وإن لم يكن سنده على شرط الصحيح، إلا أن ذلك مما يتحمل التوسع فيه، لكونه نبأ محضاً مجرداً عن حكم شرعي. نعم، لا يشك أن قريشاً كانت تعلم من فخامة نبئه المروي لها بالتواتر، ما فيه أكبر موعظة لها، ولذا طوى نبأه، إحالة على ما تعرفه من أمره، وما تسمر به من شأنه. وما القصد إلا العظة والاعتبار، لا قصّ ذلك خبراً من الأخبار، وسمراً من الأسمار، كما هو السر في أمثال نبئه. وباللّه التوفيق.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعبينَ مَا خلقْنَاهُمَا إلاَّ بالْحَقِّ**﴾ أي الاستدلال على خالقهما، لعبادته وطاعته ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ أي حكمة خلقها ، فيعرضون عنه.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ أي فصل اللّه بين الخلائق وقضاءه عليهم، ليجزيهم بما أسلفوا من خير أو شرّ ﴿ميقَاتُهُمْ أجْمَعِينَ يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شيئاً﴾ أي عليه إثابة أو تحمل عقاب ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ إلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ أي بأن وفقّه للإيمان والعمل الصالح ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب في انتقامه من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي بأوليائه وأهل طاعته.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾

﴿إِنَّ شَجَرة الزقُّوم﴾ أي التي هي أخبث شجرة معروفة في البادية.

القول في تأويل قوله تعالى:

طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾

﴿طَعَامُ الأثِيمِ﴾ أي الفاجر الكثير الآثام.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾

﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو دردي الزيت، أي عكره في قعره ﴿يَغْلِي في الْبطُونِ﴾ أي يضطرب فيها من شدة الحرارة فيقلق القلوب ويحرقها. وقوله ﴿كَغَلْي الْحَمِيم﴾ أي الماء الحارّ الذي انتهى غليانه. وقوله: ﴿في الْبُطُون﴾ كقوله ﴿نَارُ اللَّه الْمُوقَدَةُ الَّتي تَطَّلعُ عَلَى الأَفْئدة﴾ [الهمزة: ٦- ٧]، وهذه الآية كآية الصافات ﴿أَذلكَ خَيْرٌ نُّزلاً أمْ شَجَرَةُ الزقُّوم إنَّا جَعَلْنَاهَا فتْنَةً للظَّالمينَ. إنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرجُ في أصل الْجَحيم طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطين فَإِنَّهُمْ لآكلُونَ منهَا فَمَالئونَ منْهَا الْبُطُونَ ثمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَميمٍ﴾ [الصافات: ٦٢- ٦٧]،

القول في تأويل قوله تعالى:

خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾

﴿خُذُوهُ فاعْتلُوهُ﴾ أي ادفعوه بعنف ﴿إلى سَوَاءِ الْجَحِيم﴾ أي وسطها ومعظمها.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ أي لتستوفي جميع أجزاء بدنه نصيبها.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾

﴿ذُقْ إِنَّكَ أنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي يقال له ذلك، على سبيل الهزؤ والتهكم، فيتم له، مع العذاب الأول، وهو الحسيّ، العذابُ العقلي.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي العذاب أو الأمر ﴿مَا كنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي تشكّون، مع ظهور دلائله. أو تتمارون وتتلاحقون.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾

﴿إِنَّ الْمتَّقِينَ في مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي يأمن صاحبه من الخوف والفزع.

القول في تأويل قول تعالى:

فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾

﴿في جنَّاتٍ وَعيُونٍ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي ما رقّ من الحرير وكثُف ﴿مُتقَابِلِينَ﴾ أي في مجالسهم أو أماكنهم، لحسن ترتيب الغرف، وتصفيف منازلهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

﴿كَذلِكَ وزَوَّجْنَاهمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي قرنَّاهم بما فيه قرة أعينهم واستئناس قلوبهم، لوصولهم بمحبوبهم، وحصولهم على كمال مرادهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾

﴿يَدْعُونَ فيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءامِنِينَ﴾ أي يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه، آمنين من كل ضرر.

القول في تأويل قوله تعالى:

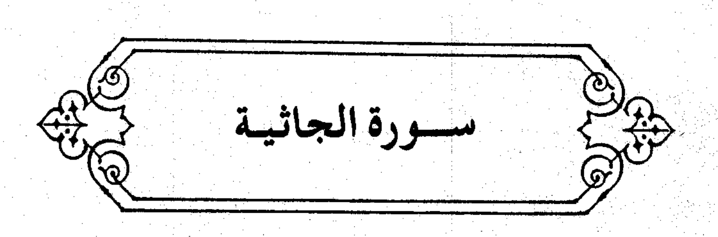
لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأولَى﴾ قال ابن جرير: أي لا يذوق هؤلاء المتقون في الجنة، الموت بعد الموتة الأولى، التي ذاقوها في الدنيا.

وكان بعض أهل العربية يوجه ﴿إلاَّ﴾ هنا بمعنى (سوى) أي سوى الموتة الأولى. انتهى.

يعني أن الاستثناء منقطع، أي لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا ﴿ووَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيم فَضْلاً مِّن رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ فإِنَّما يَسَّرْنَاهُ بلِسَانِكَ﴾ أي سهلناه حيث أنزلناه بلغتك، وهو فذلكة للسورة ﴿لَعَلَّهُم يَتذَكَّرُونَ﴾ أي يتعظون بعبره وعظاته وحججه، فينيبوا إلى طاعة ربهم ويذعنوا للحق ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي ما يحل بهم من زهوق باطلهم ﴿إنَّهُمْ مرْتَقِبُونَ﴾ أي منتظرون عند أنفسهم غلبتك. أو هو قولهم ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ وهذا وعد له ﷺ بالنصرة والفتح عليهم، وتسلية ووعيد لهم. وقد أنجز اللّه وعده، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلبَنَّ انَا وَرُسُلي﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ في الْحَيَاةِ الدُّنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الجاثية

سميت بها لتضمن آيها بيان سبب تأخير البعث إلى يوم القيامة، لأجل اجتماع الأمم محاكمة إلى اللّه تعالى، وفصله بينهم يوم القيامة، وهي من المطالب الشريفة في القرآن. وتسمى (سورة الشريعة) لتضمن آيها وجه نسخ هذه الشريعة، سائر الشرائع، وفضلها عليها. وهو أيضاً من المطالب العزيزة فيه. قاله المهايمي.

وهي مكية. واستثنى بعضهم منها آية ﴿قل لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا﴾ [الجاثية: ١٤]، فإنه قيل إنها مدنية، نزلت في شأن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، كما سيأتي، وآياتها سبع وثلاثون آية.

بسم اللَّه الرَّحمْنِ الرَّحِيم

القول في تأويل قوله تعالى:

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾

﴿ حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم ﴾ قال المهايمي: فعزّته تقتضي إفاضة الحجج التي بها الغلبة على الخصوم، وإفاضة الكمالات التي يعسر الوصول إليها. وأنواع السعادات، وحدة النظر، والحكمة تقتضي محو الشبه وإزالة النقائص وإحراق الشقاوة وتمهيد الفكر. وقد نزله من مقام عزته بمقتضى حكمته، لتكميل القوة النظرية والعملية، ليتوسل بها إلى الكمالات الحقيقية، من الإيمان والإيقان والعقل. وذلك بالنظر إلى أنواع الآيات المتضمنة للحجج ورفع الشبه . فمنها آيات الأجسام.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

﴿ إنَّ في السَّمَاوات والأرضِ لآيات للمُؤمنينَ وَفي خَلقكُمْ وَمَا يَبُثُّ من دآبَّة آياتٌ لقَوم يُوقنُونَ وَاخْتلاَف اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَمَآ أنزلَ اللَّهُ منَ السَّماء من رِّزق ﴾ أي مطر. سمي رزقاً لأنه سببه ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي عن اللَّه، ما وعظهم به ودعاهم إليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

﴿ تلكَ آياتُ اللَّه ﴾ أي الدالة على كمال قدرته وحكمته وإرادته ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأي حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي بعد آياته ودلائله الباهرة. وتقديم اسم اللَّه للمبالغة؛ والتعظيم. كما في قولك (أعجبني زيد وكرمه).

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾

﴿وَيلٌ لِكُلِّ أفاك﴾ أي كذاب يتكلم في حق الله وصفاته على خلاف الدليل ﴿أثيم﴾ أي بترك الاستدلال، لا سيما إذا لم يترك عن غفلة، بل مع كونه،

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢﴾

﴿يَسْمَعُ آيات الله﴾ أي لا بالإخبار عنها بالغيب، بل ﴿تُتْلَى عَلَيْه ثُمَّ يُصرُّ﴾ أي على إنكارها ﴿مُسْتَكْبراً﴾ أي عن قبولها، لا يتأثر بها أصلاً ﴿كَأنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بعَذَاب أَليم وَإذَا عَلم من آياتنا شيْئاً اتَّخذَها هُزُواً﴾ استهانة بها ﴿أولئك لَهُم عَذابٌ مُّهين من ورَآئهم جهَنَّمُ﴾ أي من بعد انقضاء آجالهم، عذابها ﴿ولاَ يُغْني عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ﴾ أي من الأموال والأولاد ﴿شَيْئاً﴾ أي من عذاب الله ﴿ولاَ مَا اتَّخَذُواْ من دُون اللَّه أَوْليَآءَ﴾ يعني آلهتهم التي عبدوها، أو رؤساءهم الذين أطاعوهم في الكفر واتخذوهم نصراء في الدنيا ﴿ولَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ هَذَا﴾ أي القرآن ﴿هُدًى﴾ أي بيان ودليل على الحق، يهدي إلى صراط مستقيم من اتبعه وعمل بما فيه ﴿وَالَّذينَ كَفرُوا بآيات ربِّهمْ لَهُمْ عَذابٌ من رِّجْز أَليمٌ اللَّهُ الَّذي سَخَّرَ لكُمُ البَحْرَ لتَجْري الْفُلْكُ فيه بأمْره﴾ أي بتسخيره ﴿ولتَبْتَغُواْ من فَضْله﴾ أي باستفادة علم وتجارة وأمتعة غريبة، وجهاد وهداية وغوص فيه، لاستخراج لآليه، وصيد منه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ﴾ أي نعمة هذا التسخير، فتعبدوه وحده، وتصرفوا ما أنعم به عليكم ، إلى ما خلقتم له.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي في آيات الله وحججه وأدلته، فيعتبرون بها ويتفكرون. قال المهايميّ: منها أن ربط بعض العالم بالبعض دليل توحيده. وجعل البعض سبب البعض، دليل حكمته، وجعل الكل مسخراً للإنسان، دليل كمال جوده. فمن أنكر هذه الآيات ولم يشكر هذه النعم، استوجب أعظم وجوه الانتقام.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

﴿قُل لِلَّذِينَ ءامَنُواْ﴾ أي صدّقوا بالله واتبعوك ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي لا يخافون بأس الله ونقمه ووقائعه بأعدائه ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي من علمهم. ومنه العفو والتجاوز عن بعض ما يؤذي ويوحش. وقد روي أنها نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد شتمه رجل من غفار، فهمَّ أن يبطش به، فتكون الآية مدنية. قيل: يؤيده ما أورد على كونها مكية. من أن من أسلم بها كانوا مقهورين فلا يمكنهم الانتصار منهم. والعاجز لا يؤمر بالعفو والصفح. وأجيب بأن المراد أنه يفعل ذلك بينه وبين الله بقلبه، ليُثاب عليه. مع أن دوام عجز كل أحد منهم غير معلوم. فالصواب أن الآية مكية كالسورة. ومعنى نزولها في عمر - إن صح - صدقها على قضيته، والاستشهاد بها لسماحه. كما حققنا المراد من النزول، غير ما مرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾ أي لكونه افتكّها من العذاب ﴿وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا﴾ أي أساء عمله بمعصية ربه، فعلى نفسه جنى، لأنه أوبقها بذلك ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي تصيرون. فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي الفهم بالكتاب

والعلم بالسنن التي لم تنزل بالكتاب ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي جعلنا منهم أنبياء ورسلاً إلى الخلق ﴿ورزقْنَاهم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني المنّ والسلوى ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي أهل زمانهم ، بإيتائهم ما لم يؤت غيرهم. كما قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

﴿وآتيْنَاهُم بيِّنَاتٍ مِنَ الأمرِ﴾ أي حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، تأبى الاختلاف، ولكن أبوْا إلا الاختلاف ﴿ فَمَا اخْتَلفُوا إلاَّ من بَعْد مَا جاءَهمُ العلْمُ بغْياً بَيْنهُمْ﴾ أي ظلماً وتعدياً منهم، لطلب الحظوظ العاجلة ﴿إنَّ ربَّكَ يَقْضي بيْنَهم يومَ الْقيامةِ فيمَا كانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ﴾ أي بالمؤاخذة والمجازاة. قال ابن كثير: وهذا فيه تحذير لهذه الأمة، أن تسلك مسلكهم. وأن تقصد منهجهم. ولهذا قال جلَّ وعلا:

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاك عَلى شَريعَةٍ مِن الأمْرِ﴾ أي على طريقة وسنة ومنهاج من أمر الدين، الذي أمَرْنا به من قبلك من رسلنا ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ أي تلك الشريعة الثابتة بالدلائل والحجج ﴿ولاَ تَتَّبِعْ أهْوآءَ الَّذينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني المشركين وما هم عليه من الأهواء التي لا حجة عليها.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

﴿إنَّهُمْ لَن يُغنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي لن يدفعوا عنك من غضبه وعقابه شيئاً ما، ﴿وإنَّ الظَّالِمينَ بَعْضُهُم أوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي أعوان وانصار على المؤمنين وأهل الطاعة. أو في التحزّب والتقوى. ولكن ماذا تغنيهم ولايتهم لبعضهم وقد تخلت عناية اللّه ونصرته عنهم؟ ﴿واللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي من اتقاه بعبادته وحدهُ، وخشيته بكفايته من بغى عليه، وكاده بسوء. والأظهر تفسير الآية بآية ﴿اللَّهُ وَليُّ الَّذينَ آمَنُوا

يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتَ إِلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إِلى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

القول في تأويل قوله تعالى:

هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

﴿ هَذَا ﴾ أي القرآن ﴿ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ أى يبصرون به الحق من الباطل، ويعرفون به سبيل الرشاد. قال الزمخشري: جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع ، بمنزلة البصائر في القلوب كما جعل روحاً وحياة، أي فهو تشبيه بليغ ﴿ وَهُدًى ﴾ أي من الضلالة ﴿ وَرَحمَةً ﴾ أي من العذاب لمن آمن وأيقن ﴿ لِقَومٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي يطلبون اليقين ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئات ﴾ أي اكتسبوا سيئات الأعمال ﴿ أن نَجْعَلَهُمْ كالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى من عدم التفاوت. قال الزمخشري: والمعنى إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محياً. وأن يستووا مماتاً. لافتراق أحوالهم أحياء حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على ركوب المعاصي. ومماتاً حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعدّ لهم. انتهى.

وزد عليه: حيث عاش هؤلاء على الهدى والعلم بالله وسنن الرشاد وطمانينة القلب، وأولئك على الضلال والجهل والعبث بالفساد واضطراب القلب وضيق الصدر، بعدم معرفة المخرج المشار إليه بآية ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ ذِكْرِي فإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ [طه: ١٢٤].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

﴿ وَخَلَقَ اللّه السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ بالحقِّ ﴾ أي بالحكمة والصواب. قال ابن جرير: أي للعدل والحق، لا لما حسب هؤلاء الجاهلون بالله، من التسوية بين الأبرار

والفجار. لأنه خلاف العدل والإنصاف ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قال الزمخشري: معطوف على (بالحق) لأن فيه معنى التعليل. أو على معلل محذوف، تقديره، خلق الله السموات والأرض ليدل بها على قدرته، ولتجزى كل نفس ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أي في جزاء أعمالهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي من ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى، فكأنه يعبده. فجعله إلهاً تشبيه بليغ أو استعارة. قال القاشاني: الإله المعبود، ولما أطاعوا الهوى فقد عبدوه وجعلوه إلهاً. إذ كل ما يعبده الإنسان بمحبته وطاعته، فهو إلهه لو كان حجراً! ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾. أي عالماً بحاله، من زوال استعداده، وانقلاب وجهه، إلى الجهة السفلية. أو مع كون ذلك العابد للهوى عالماً بعلم ما يجب عليه فعله في الدين، على تقدير أن يكون ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ حالاً من الضمير المفعول في ﴿أَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ لا من الفاعل. وحينئذ يكون الإخلال لمخالفته علمه بالعمل، وتخلف القدم عن النظر. لتشرب قلبه بمحبة النفس وغلبة الهوى. أو على علم منه غير نافع. لكونه من باب الفضول. ليس فيه إلى الحق سلوك ووصول ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ أي بالطرد عن باب الهدى، والإبعاد عن محل سماع كلام الحق وفهمه، لمكان الرين وغلظ الحجاب، فلا يعقل منه شيئاً ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أي عن رؤية حجج الله وآياته ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي فمن يوفقه لإصابة الحق بعد إضلال الله إياه ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي ما الحياة أو الحال غير حياتنا هذه التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ﴾ أي بالموت البدني الطبيعي، ﴿وَنَحْيَا﴾ أي الحياة الجسمانية الحسية، لا موت ولا حياة غيرهما ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ أي مرّ الليالي والأيام وطول العمر ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ أي: وما يقولون ذلك عن علم ولكن عن ظن وتخمين. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى نسبة الحوادث إلى الدهر، أو إلى إنكار البعث، أو إلى كليهما قال الزمخشري: كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس. وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح

بأمر اللّه، وكانوا يضيفون كل حادثة وحدث إلى الدهر والزمان. وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان، ومنه قوله ﷺ[1] (لا تسبوا الدهر ، فإن اللّه هو الدهر) أي فإن اللّه هو الآتي بالحوادث لا الدهر. انتهى.

وقال الخطابي، معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التي تنسبونها إلى الدهر. فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور، عاد سبه إلى ربه الذي هو فاعلها. وإنما الدهر زمان جعل ظرفاً لمواقع الأمور. وكان عادتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا (بؤساً للدهر) و (تباً للدهر). انتهى.

قال ابن كثير: وقد غلط ابن حزم. ومن نحا نحوه من الظاهرية، في عدّهم الدهر من الأسماء الحسنى. أخذاً من هذا الحديث. انتهى.

تنبيه:

في هذه الآية ردّ على الدهرية. وهم المعطلة بأن متمسكهم ظن وتخمين. لم يشم رائحة اليقين. وما هذا سبيله، فباب القبول في وجهه مسدود ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً﴾ [يونس: ٣٦].

قال الشهرستاني في معطلة العرب: فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني. وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾. إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي. وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللها.

فالجامع هو الطبع، والمهلك هوالدهر ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾. فاستدل عليهم بضرورات فكرية، وآيات فطرية، في كم آية وسورة فقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا، مَا بِصَاحِبِهِم مِن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٤]. ﴿أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وقال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ [النحل:٤٨]، وقال ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]. وقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١]. فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق. فإنه قادر على الكمال، إبداءً وإعادة. انتهى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥ / ٢٢٩. عن أبي قتادة.

ولي في الرد على الدهريين، وهم الماديون والطبيعيون، كتاب وَسَمْتُه (دلائل التوحيد) فليرجع إليه المريد، فليس وراءه، بحمده تعالى، من مزيد.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥)

﴿**وإذا تُتْلَى عليهم آياتنا بيِّنات**﴾ أي بأن الله باعث خلقه يوم القيامة ﴿**مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إلاَّ أن قالُوا ائتُوا بآبائنا إنْ كنتُم صادقين**﴾ أي انشروهم أحياء، حتى نصدق ببعثنا أحياء بعد مماتنا، وإطلاق الحجة على ذلك، إما حقيقة بناء على زعمهم، فإنهم ساقوه مساق الحجة، أو هو مجاز تهكماً بهم. كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. بمعنى أن لا حجة لهم البتة، وفيه مبالغة لتنزيل التضاد منزلة التجانس.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦)

﴿**قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يجْمَعُكُمْ إلى يوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فيه ولَكنَّ أكثر النَّاس لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ أي قل لهم في جواب قولهم ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْرُ﴾ : قل اللّه يحييكم ثم يميتكم، لا الدهر. لما عرف من وجوب رجوع العالم إلى واجب الوجود، هو سبب الأسباب، ومصدر الكائنات، أو قل لهم (في جواب إنكارهم البعث) : بأن من قدر على الإبداء، قدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للمجازاة، على ما مرّ مراراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢٧)

﴿**ولِلَّه مُلْكُ السَّماوات والأرضِ**﴾ أي فلا مالك غيره، ولا معبود سواه ﴿**ويوْمَ تقُومُ السَّاعةُ يوْمَئذ يَخسرُ المُبْطِلُونَ**﴾ أي الذين أتوا بالباطل في أقوالهم وأفعالهم، وهم عبدة غيره تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٨) ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٩) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (٣٠) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٣١)

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي باركة، مستوفزة على الركب لا حراك بها. شأن الخائف المنتظر لما يكره وذلك غن الحساب أو في الموقف الأول، وقت البعث قبل الجزاء ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي اللوح الذي أثبت فيه أعمالها. ويعطى بيمين من كان سعيداً. وشمال من كان شقياً ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان، وإنما أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه تعالى، لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ أي نستكتب الملائكة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي ما صلح به حالهم في المعاد الجسماني ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي في جنته ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي فيقال لهم ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ أي بكسب الآثام، والكفر بالله، وعدم التصديق بمعاد، ولا الإيمان بثواب وعقاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي: أي شيء هي؟ أي: لا نستيقن بها ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي إنها كائنة وآتية.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي قبائح أعمالهم، أو عقوبات أعمالهم السيئات ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني الجزاء ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي نترككم في العذاب ترك ما يُنسى، كما تركتم التاهب له. فـ﴿نَنسَاكُمْ﴾ استعارة أو مجاز مرسل ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي خدعتكم حتى آثرتموها على الآخرة

وزعمتم أن لا حياة سواها ﴿ **فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا** ﴾ أي من النار ﴿ **وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** ﴾ أي ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه. من (الإعتاب) وهو إزالة العتب. كناية عن الإرضاء. أو: لا هم يردّون إلى الدنيا ليتوبوا ويراجعوا الإنابة، فما بعد الموت مستعتب.

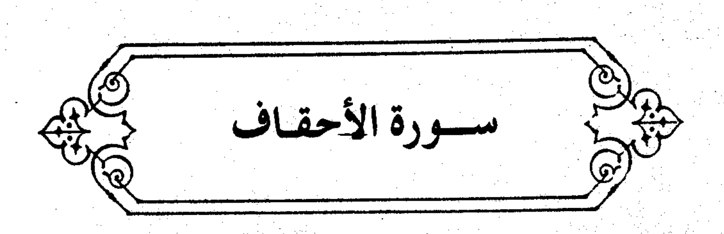
القول في تأويل قوله تعالى:

فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿ **فَلِلَّهِ الْحَمْدُ** ﴾ أي الثناء الكامل. قال ابن جرير: أي فلله الحمد على نعمه وأياديه عند خلقه. فإياه فاحمدوا أيها الناس، فإن كل ما بكم من نعمة فمنه، دون ما تعبدون من دونه، من آلهة ووثن ﴿ **رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ أي الاستعلاء، ونهاية الرفع والكبر على كل شيء، وغاية العلوّ والعظمة باستغنائه عنه وافتقاره إليه ﴿ **وَهُوَ الْعَزِيزُ** ﴾ أي القوي القاهر لكل شيء ﴿ **الْحَكِيمُ** ﴾ قال القاشاني: أي المرتب لاستعداد كل شيء، بلطف تدبيره ، المهيّء لقبوله، لما أراد منه من صفاته ، بدقيق صنعته، وخفي حكمته ﴿ لا إله إلا هو رب العالمين ﴾.

وافق الفراغ من تفسير هذه السورة قبيل ظهر الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة عام ١٣٢٦ بمنزلنا بدمشق الشام. بقلم جامعه جمال الدين القاسمي.

بسم الله الرحمن الرحيم



ســورة الأحقـاف

قال المهايميّ: سميت بها لأن مكانها من حيث قبوله سرعة تأثير ريح العذاب فيه. كالدليل على إنذاره. ففيه إشعار على أن إنذارات القرآن كالدلائل على أنفسها. ثم في قصتهم اتساق الإنذار إلى صيرورة المرجوّ مخوفاً. ففيه إشعار بأن إنذارات القرآن مما يخاف منها صيرورة ما يرجوه الجهال مخوفاً عليهم. وذلك من أعظم مقاصد القرآن. انتهى.

وهي مكية. واستثنى بعضهم منها ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ...﴾ [الأحقاف: ١٧] الآيتين. وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ...﴾ [الأحقاف: ١٠] الآية. ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [الأحقاف:١٥] الأربع الآيات. ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ﴾ [الأحقاف: ٣٥] الآية، فهي مدنية - كذا قيل. وتقدم في طليعة سورة الجاثية تحقيق ذلك. وآيها خمس وثلاثون.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

﴿ حمٓ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ أي: الحكمة وإقامة العدل في الخلق. ﴿ وَأَجَلٍ مُسَمّىً ﴾ أي: وبتقدير أجل معين لكل منها، يفنيه إذا هو بلغه، وهو يوم القيامة. ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّا أُنذِرُواْ ﴾ أي: من هول ذلك اليوم ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ أي: لايؤمنون.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي: من الأوثان التي تعبدونها. ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوَاتِ ﴾ أي أروني ما تأثير ما تعبدونه في شيء أرضيّ بالاستقلال، أو شيء سماويّ بالشركة، حتى تستحق العبادة. ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هٰذَا ﴾ تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقليّ، بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقليّ. أي: ائتوني بكتاب إلهيّ من قبل هذا القرآن الناطق بالتوحيد، وإبطال الشرك، دالّ على صحة دينكم. ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أي: أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين، شاهدة باستحقاقهم للعبادة. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي: في دعواكم، فإنها لا تكاد تصح، ما لم يقم عليها برهان عقليّ، أو سلطان نقليّ. وحيث لم يقم عليها شيء منهما، وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل، تبين بطلانها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ أي: دعاءه لعجزه عنها ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أي: لأنهم إما جمادات، وإما مسخّرون مشغولون بأحوالهم. و(الغفلة) مجاز عن عدم الفائدة فيها. أو هو تغليب لمن يتصور منه الغفلة على غيره.

لطيفة:

قال الناصر: في قوله ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ نكتة حسنة. وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة. ومن شأن الغاية انتهاء المغيّا عندها، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية، لأنهم في القيامة أيضاً لا يستجيبون لهم. فالوجه – والله أعلم – أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها، وإن وافق ما قبلها، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني، حتى كأن الحالتين، وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما، كالشيء وضده. وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة، لا تزيد على عدم الاستجابة. والحالة الثانية التي في القيامة، زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم. فهو من وادي ما تقدم آنفاً في سورة الزخرف في قوله ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ، وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُواْ هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٩–٣٠] انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ أي: جمعوا يوم القيامة لموقف الحساب ﴿كَانُواْ﴾ أي: آلهتهم ﴿لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: لتبرئتهم منهم. قال الشهاب: أعداء استعارة، أو مجاز مرسل للضارّ. ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ قال ابن جرير: أي وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا، بعبادتهم جاحدين، لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرّأنا إليك منهم، ياربنا! أي: فالتكذيب بلسان المقال، قصداً إلى بيان أن معبودهم في الحقيقة الشياطين وأهواؤهم.

وقال القاشانيّ: كانوا أعداء، لأن عبادة أهل الدنيا لسادتهم وخدمتهم إياهم، لاتكون إلا لغرض نفسانيّ.وكذا استعباد الموالي لخدمهم. فإذا ارتفعت الأغراض، وزالت العلل والأسباب، كانوا لهم أعداء، وأنكروا عبادتهم.، يقولون: ما خدمتمونا، ولكن خدمتم أنفسكم. كما قيل في تفسير قوله: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الزخرف: ٦٧]. انتهى.

وقيل: الضمير في ﴿ كَانُواْ ﴾ في الموضعين، للعابدين، لئلا يلزم التفكيك. وفيه نظر: لأنه خلاف المتبادر من السياق، إذ هو لبيان حال الآلهة معهم، لا عكسه، ولأن كفرهم حينئذ إنكار لعبادتهم. وتسميته كفراً، خلاف الظاهر أيضاً. وقد أوضح ذلك آية ﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً، كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيهِمْ ضِداً ﴾ [مريم: ٨١–٨٢]. والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: بادهوه بالجحود أول ما سمعوه، من غير إجالة فكر، ولا إعمال روية. واللام في ﴿ لِلْحَقِّ ﴾ لام الأجل متعلقة بـ ﴿ قَالَ ﴾. وقيل: بمعنى الباء، متعلقة بـ ﴿ كَفَرُواْ ﴾، وعدّي الكفر باللام، حملاً على نقيضه، وهو الإيمان، فإنه يعدى بها نحو ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ [الشعراء: ١١١].

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾

﴿ أَمْ يَقُولُون افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ أي: لا تقدرون أن تدفعوا عني سوءاً، إن أصابني به. و(أم) – على ما قالوا – منقطعة مقدرة بـ (بل) الإضرابية وهمزة الاستفهام، المتجوز به عن الإنكار والتعجيب. ووجه كون الافتراء أشنع من السحر، حتى أضرب عنه، أن الكذب خصوصاً على الله متفق على قبحه، حتى ترى كل أحد يشمئز من نسبته إليه بخلاف السحر، فإنه، وإن قبح، فليس بهذه المرتبة، حتى تكاد تعد معرفته من السمات المرغوبة.

وقال الناصر: هذا الإضراب في بابه مثل الغاية التي قدمتها آنفاً في بابها، فإنه انتقال إلى موافق، لكنه أزيد من الأول، فنزل لزيادته عليه، مع ما تقدمه مما ينقص عنه، منزلة المتنافيين، كالنفي والإثبات اللذين يضرب عن أحدهما للآخر. وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات، أشدّ وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر. فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه. انتهى.

﴿ **هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ** ﴾ أي: تخوضون في حقه من أنه سحر أو إفك ﴿ **كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** ﴾ أي: يشهد لي بالصدق بما يؤيدني به من آياته وصدق مواعيده ﴿ **وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ أي: لمن راجع منكم الكفر وتاب وآمن.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

﴿ **قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ أي: ما كنت أول رسل الله التي أرسلها إلى خلقه. قد كان من قبلي له رسل كثيرة أرسلت إلى أمم قبلكم، فلمَ تستنكرون بعثتي، وتستبعدون رسالتي، كقوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، و(البدع) كالبديع، بمعنى الجديد المبتدأ. قال ابن جرير: ومن البدع قول عديّ بن زيد:

فلاَ أَنَا بِدْعٌ من حَوَادِثَ تَعْتَرِي ... رِجالاً عَرَتْ من بَعْدِ بُؤْسَى وَأَسْعُدِ

ومن البديع قول الأحوص:

فَخَرَتْ فَانْتَمَتْ فَقلتُ: ذَرِيني ... لَيْسَ جَهْلٌ أُتيتِهِ ببديعِ

﴿ **وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ** ﴾ قال أبو السعود: أي: أيّ شيء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان، من أفعاله تعالى، وماذا يقدّر لنا من قضاياه. وعن الحسن رضي الله عنه: ما أدري ما يصير إليه أمري، وأمركم في الدنيا. وقيل: يجوز أن يكون المنفي هو الدراية المفصلة. والأظهر أن (ما) عبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية، دون ما سيقع في الآخرة، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة، وقد ورد به الوحي الناطق بتفاصيل ما يفعل بالجانبين. انتهى.

وهذا الأظهر يقرب من قول الحسن. وهو ما عول عليه ابن جرير. قال ابن كثير: بل لا يجوز غيره. كيف؟ وهو ﷺ جازم بأنه صائر إلى الجنة، هو ومن اتبعه

بإحسان. وأما في الدنيا، فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره، وأمر مشركي قريش، أيؤمنون، أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد[١] عن أم العلاء، وكانت بايعت النبيّ ﷺ، قالت: (طار لنا في السكنى، حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين، عثمان بن مظعون رضي الله عنه، فاشتكى عثمان عندنا، فمرضناه. حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ. فقلت: رحمة الله عليك، أبا السائب! شهادتي عليك لقد أكرمك الله عزّ وجلّ. فقال رسول الله ﷺ: أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير. والله! ما أدري - وأنا رسول الله - ما يفعل بي! قالت: فقلت: والله! لا أزكي أحداً بعده أبداً وأحزنني ذلك. فنمت، فرأيت لعثمان رضي الله عنه عيناً تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: ذاك عمله) فقد انفرد بإخراجه البخاريّ[٢] دون مسلم، وفي لفظ له: ما أدري - وأنا رسول الله ﷺ - ما يفعل به. وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: فأحزنني ذلك. وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعيّن بالجنة، إلا الذي نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسراقة وعبد الله بن عمرو بن حرام (والدجابر) والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة وزيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم. انتهى كلام ابن كثير.

وقال المهايميّ: ﴿**وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ**﴾ أي: فيما لو يوح إليّ. والوحي ببعض الأمور لا يستلزم العلم بالباقي. ولم يكن لي أن أضمّ إلى الوحي كذباً من عندي.

﴿**إِنْ أَتَّبِعُ**﴾ أي: في تقرير الأمور الغيبية ﴿**إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾ أي منذر عقاب الله على كفركم به، أبان لكم إنذاره وأبان لكم دعاءه إلى مافيه صلاحكم وسعادتكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

---

(١) أخرجه في المسند ٦/٤٣٦.

(٢) أخرجه في: الجنائز، ٣- باب الدخول على الميّت بعد الموت إذا أدرج في كفنه، حديث رقم ٦٦٦.

﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ أي: القرآن منزلاً من لدنه، عليّ. لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون ﴿ **وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَاءِيلَ** ﴾ أي: من الواقفين على أسرار الوحي بما أوتوا من التوراة ﴿ **عَلَى مِثْلِهِ** ﴾ أي مثل القرآن، وهو ما في التوراة من الأحكام المصدقة للقرآن من الإيمان بالله وحده، وهو ما يتبعه، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، وقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩]، أو على مثل ما ذكر من كونه من عند الله تعالى. أو على مثل شهادة القرآن، فجعل شهادته على أنه من عند الله، شهادة على مثل شهادة القرآن، لأنه بإعجازه كأنه يشهد لنفسه بأنه من عند الله، أو (المثل) صلة و(الفاء) في قوله تعالى ﴿ **فَآمَنَ** ﴾ للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن، لما علم أنه من جنس الوحي الناطق بالحق ﴿ **وَاسْتَكْبَرْتُمْ** ﴾ أي: عن الإيمان به بعد هذه الشهادة.

وقوله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ استئناف مشعر بأن كفرهم، لضلالهم المسبب عن ظلمهم. ودليل على الجواب المحذوف. مثل: ﴿ أَلَسْتُمْ ظَالِمِينَ ﴾ أو ﴿ فَمَنْ أَضَلُّ مِنْكُمْ ﴾ وذلك عدم الهداية مما ينبئ عن الضلال قطعاً، فيكون كقوله في الآية الأخرى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٥٢].

قال أبو السعود: ووصفهم بالظلم للإشعار بعلة الحكم، فإن تركه تعالى لهدايتهم، لظلمهم.

تنبيه:

روي أن الشاهد هو عبد الله بن سلام، فتكون الآية مدنية مستثناة من السورة، كما ذكره الكواشيّ، لأن إسلامه كان بالمدينة. وأجيب: بأن لا حاجة للاستثناء، وأن الآية من باب الإخبار قبل الوقوع، كقوله ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ ﴾ [الأعراف: ٤٨]. ويرشحه أن ﴿ **شَهِدَ** ﴾ معطوف على الشرط الذي يصير به الماضي مستقبلاً، فلا ضير في شهادة الشاهد بعد نزولها، ويكون تفسيره به بياناً للواقع، لا على أنه مراد بخصوصه منها. هذا ما حققوه. ويقرب مما نذكره كثيراً من المراد من سبب النزول في مثل هذا، وأنه استشهاد على ما يتناوله اللفظ الكريم.

ثم أشار إلى حكاية نوع من أباطيلهم في التنزيل والمؤمنين به، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾

﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ**﴾ أي: الإيمان، أو ما أتى به الرسول ﴿**خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ**﴾ أي: لو كان من عند الله لكنا أولى به، كسائر الخيرات من المال والجاه.

قال ابن كثير: يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضي الله عنهم، وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء. وما ذاك إلاّ لأنّهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة، وله بهم عناية. وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً،وأخطأوا خطأً بيّناً، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] أي: يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا، ولهذا قالوا: ﴿**لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ**﴾، وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضي الله عنهم: هو بدعة. لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. انتهى. ﴿**وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ**﴾ أي: بالقرآن ﴿**فَسَيَقُولُونَ هَذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ**﴾ أي: كذب قديم، كما قالوا: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾. قال ابن كثير: فيتنقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال[1]رسول الله ﷺ: بطر الحق وغمط الناس.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

﴿**وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً**﴾ أي: قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه، ورحمة لمن آمن به، وعمل بما فيه. ﴿**وَهَذَا**﴾ أي الذي يقولون فيه ما يقولون ﴿**كِتَابٌ**

---

(١) أخرجه الترمذيّ في: البرّ والصلة، ٦١– باب ما جاء في الكبر ونصه: عن عبد الله، عن النبيّ ﷺ قال: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. ولا يدخل النار (يعني من في قلبه مثقال ذرة من إيمان).

قال، فقال له رجل: إنه يعجبني أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسنة.

قال: إن الله يحب الجمال. ولكن الكبر مَنْ بَطِرَ الحقَّ وغَمَصَ الناس.

مُصَدِّقٌ ﴾ أي: لكتاب موسى من غير تعلم من أنزل عليه إياه ﴿ **لِسَاناً عَرَبِيّاً** ﴾ أي: بيّناً واضحاً. وفي تقييد الكتاب بذلك، مع أن عربيته أمر معلوم الدلالة، على أن تصديقه لها باتحاد معناه معها، وهي غير عربية. ومثله لا يكون ممن يعرف ذلك اللسان بغير وحي من اللّه تعالى. ﴿ **لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ** ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾

أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ** ﴾ أي: لاغيره. ﴿ **ثُمَّ اسْتَقَامُوا** ﴾ أي: على العمل الصالح. قال القاضي: أي جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في الأمور، التي هي منتهى العمل. و ﴿ **ثُمَّ** ﴾ للدلالة على تأخير رتبة العمل، وتوقف اعتباره على التوحيد ﴿ **فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي: من هول يوم القيامة ﴿ **وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ أي: لا يحزنهم الفزع الأكبر. ﴿ **أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

﴿ **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً** ﴾ وقرئ (حُسْناً) وهذا تمهيد لمن عقهما وعصاهما في الإيمان المذكور، في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١٧] الآية.

﴿ **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً** ﴾ أي: ذات كُرْه، أو حملاً ذا كُرْه، وهو المشقة. ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ** ﴾ أي: حمله جنيناً في بطنها، وفطامه من الرضاع ﴿ **ثَلَاثُونَ شَهْراً** ﴾ أي: تمضي عليها بمعاناة المشاق، ومقاساة الشدائد لأجله، مما يوجب للأم مزيد العناية، وأكيد الرعاية. لا يقال: بقي ثلاثة أشهر، لأن أمد الرضاع حولان، لأنا نقول: إن الحولين أَمَدُ من أراد تمام الأجل، وإلا فأصله أقل منهما، كما ينبئ عنه

قوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]، ولئن سلم أنهما أمدها، فيكون في الآية الاكتفاء بالعقود، وحذف الكسور، جرياً على عرفهم في ذلك، كما ذكروه في حديث أنس في وفاته ﷺ على رأس ستين سنة، مع أن الصحيح أنه توفي عن ثلاث وستين، كما بين في شرح الشمائل. قالوا: إن الراوي للأولى اقتصر فيها على العقود وترك الكسور، وسرّ ذلك هو القصد إلى ذكر المهم، وما يكتفي به فيما سيق له الكلام، لاضبط الحساب، وتدقيق الأعداد.

قال ابن كثير: وقد استدل عليٌّ رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قويّ صحيح، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: استحكم قوته وعقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ أي: بالهداية للتوحيد، والعمل بطاعتك، وغير ذلك. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل الصلاح سارياً في ذريتي، راسخاً فيهم ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: من ذنوبي التي سلفت مني ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المستسلمين لأمرك ونهيك، المنقادين لحكمك.

القول في تأويل قوله تعالى:

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي الموصوفون بالتوبة والاستقامة ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: من الصالحات فنجازيهم عليها ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: فلا نعاقبهم عليها لتوبتهم ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أي: معدودين في زمرتهم ثواباً ومقاماً.

قال الشهاب: والظاهر أنه من قبيل ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] ليدل على المبالغة بعلوّ منزلتهم فيها، إذ قولك (فلان من العلماء) أبلغ من قولك (عالم). ولم يبيّنوه ههنا، ومن لم يتنبه لهذا قال (في) بمعنى (مع). انتهى.

﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي: وعدهم تعالى هذا الوعد، وعدَ الحق

في الدنيا، وهو موفيه لهم في الآخرة، كما قال: ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور: ٢١].

ثم بيّن تعالى نعت من عصى ما وصّى به من الإحسان لوالديه، من كل ولد عاقّ كافر، وما له في مآله، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧)

﴿ **وَالَّذي قَالَ لوَالديْه** ﴾ أي حين دعَواه إلى الإيمان والاستقامة ﴿ **أُفٍّ لَكُمَا** ﴾ أي: من هذه الدعوة ﴿ **أَتعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ** ﴾ أي: أبعث من قبري بعد فنائي ﴿ **وَقَدْ خَلَت الْقُرُونُ من قَبْلي** ﴾ أي: هلكت ولم يرجع أحد منهم ﴿ **وَهُمَا يَسْتَغيثَان اللّه** ﴾ أي: يطلبان الغياث باللّه منه. والمراد إنكار قوله، واستعظامه، كأنهما لجأا إلى اللّه في دفعه، كما يقال (العياذ باللّه)! أو المعنى: يطلبان أن يغيثه اللّه بالتوفيق، حتى يرجع عما هو عليه ﴿ **وَيْلَكَ ءَامنْ** ﴾ أي: صدّق بوعد اللّه، وأقرّ أنك مبعوث بعد موتك. و﴿ **وَيْلَكَ** ﴾ في الأصل معناه الدعاء بالهلاك، فأقيم مقام الحث على فعلٍ أو تركٍ، للإيماء إلى أن مرتكبه حقيق بأن يطلب له الهلاك، فإذا سمع ذلك ترك ما هو فيه، وأخذ ما ينجعه ﴿ **إنَّ وَعْدَ اللّه حَقٌّ** ﴾ أي: إن وعده تعالى لخلقه، بأنه يبعثهم من قبورهم إلى موقف الحساب، لمجازاتهم بأعمالهم، حق لا شك فيه ﴿ **فَيَقُولُ** ﴾ أي: مجيباً لوالديه، وراداً عليهما نصيحتهما، وتكذيباً بوعد اللّه ﴿ **مَا هَذَا إلاَّ أَسَاطيرُ الأَوَّلين** ﴾ أي: أباطيلهم التي كتبوها.

القول في تأويل قوله تعالى:

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨)

﴿ **أُولَئكَ الَّذين حَقَّ عَلَيْهمُ الْقَوْلُ** ﴾ أي: الإلهي، وهو العذاب ﴿ **في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ من قَبْلهمْ مّنَ الجنّ وَالإنْس** ﴾ أي: الذين كذبوا رسل اللّه، وعتوا عن أمره ﴿ **إنَّهُمْ كَانُوا خَاسرينَ** ﴾ أي: ببيعهم الهدى بالضلال، والباقي بالفاني.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩)

﴿وَلِكُلٍّ﴾ أي من الفريقين ﴿دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أي: مراتب من جزاء ما عملوا من صالح وسيّء ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي جزاءها ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ أي بنقص ثواب، ولا زيادة عقاب.

تنبيه:

روى ابن جرير عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في ابنٍ لأبي بكر الصديق. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّيّ قال: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، قال لأبويه - وهما أبو بكر وأم رومان، وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم، فكانا يأمرانه بالإسلام، فكان يرد عليهما ويكذبهما ويقول: فأين فلان، وأين فلان؟ يعني مشايخ قريش ممن قد مات. فأسلم بعدُ، فحسن إسلامه - فنزلت توبته في هذه الآية ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾.

قال الحافظ ابن حجر: لكن نفيُ عائشة أن تكون نزلت في عبد الرحمن وآل بيته، أصح إسناداً وأولى بالقبول. وذلك مارواه البخاري[1] والإسماعيليّ والنسائيّ وأبو يعلى؛ أن مروان كان عاملاً على المدينة، فأراد معاوية أن يستخلف يزيد، فكتب إلى مروان بذلك، فجمع مروان الناس فخطبهم، فذكر يزيدَ، ودعا إلى بيعته وقال: إن اللّه أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً، وإن يستخلفه، فقد استخلف أبو بكر وعمر. فقال عبد الرحمن: ماهي إلا هرقلية! فقال مروان: سنة أبي بكر وعمر. فقال عبد الرحمن: هرقلية! إن أبا بكر، واللّه! ماجعلها في أحد من ولده، ولا في أهل بيته، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده! فقال مروان: خذوه. فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه. فقال مروان: إن هذا الذي أنزل اللّه فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ماأنزل اللّه فينا شيئاً من القرآن، إلا أن اللّه أنزل عذري. ولو شئت أن أسمي من نزلت فيه لسميته، ولكن رسول اللّه لعن أبا مروان، ومروانُ في صلبه.

ومما يؤيده أن ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ هم المخلدون في النار في علم اللّه تعالى، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم. وحاول بعضهم عدم التنافي بأن يقع منه ذلك قبل إسلامه، ثم يسلم بعد ذلك. ومعلوم أن الإسلام يجبّ

---

(١) أخرجه في: التفسير، ٤٦- سورة الأحقاف، ١- باب ﴿والذي قال لوالديه﴾، حديث رقم ٢٠٤٣، عن عائشة.

ما قبله، وأن معنى الوعيد في الآية إنما هو للمصرّين عليه الذين لم يقلعوا، لكثرة ما ورد في العفو عن التائبين. وقد نزل من الوعيد الشديد في أول البعثة آيات لا تحصى، وكلها تنعي على من كان مشركاً آنئذٍ، ولم يقل أحد بشمولها لهم بعد إيمانهم، أو أنَّ فيها ما يحط من أقدارهم، ويجعلها مغمزاً لهم، إلا أن مروان لم يجد لمقاومة ما ألقمه إلا الشغب، وشغل الناس عن باطله بنغمة يطرب لها الجهلة، وقالةٍ يلوكها الرعاع، وهم الذين يهمه أمرهم. ويرحم الله عبد الرحمن! فقد شفى الغلة، وصدع بالحق، في حين أن لاظهير له ولا نصير - والله أعلم - .

قال ابن قتيبة في (المعارف): أربعة رأوا رسول الله ﷺ في نسق: أبو قحافة، وابنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر، وابنه محمد بن عبد الرحمن.

وقال أيضاً: قيل: كان عبد الرحمن من أفضل قريش، ويكنى أبا محمد، وله عقب بالمدينة، وليسوا بالكثير، مات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبلٍ يقرب من مكة، فأدخلته عائشة الحرم ودفنته وأعتقت عنه. انتهى.

وفي دمشق في مقبرة باب الفراديس، المسماة بالدحداح، مزار يقال إنه عبد الرحمن بن أبي بكر، نسب إليه زوراً. وما أكثر المزوّرات في المزارات، كما يعلمه من دقّق في الوَفيات.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ **وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ** ﴾ أي يقال لهم أذهبتم ﴿ **طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا** ﴾ عطف تفسير لقوله ﴿ **أَذْهَبْتُمْ** ﴾ أي فما بقي لكم من اللذائذ شيء لاستيفائكم إياها ﴿ **فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ** ﴾ أي الهوان ﴿ **بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ أي بغير ما أباح لكم وأذن ﴿ **وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ** ﴾ أي عن طاعته، فأبعدكم عن كرامته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هوداً ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ جمع حقف، وهو الرمل المستطيل المرتفع. قال قتادة ذكر لنا أن عاداً كانوا حيّاً باليمن، أهل رمل، مشرفين على البحر. ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: وقد مضت الرسل بإنذار أممها قبله وبعده، متفقين على ﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ﴾ أي لا تشركوا مع الله شيئاً في عبادتكم إياه. وقال كل واحد منهم عليه السلام ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ أي من عبادة غير الله ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي بمقدار هتكهم، عذاب الله بالشرك.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾

﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أي لتصرفنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي من العذاب على عبادتنا إياها ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي في وعدك أنه آت لا محالة. ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي إني وإن علمت إتيانه قطعاً، فلا أعلم وقت مجيئه، لأن العلم بوقته عنده تعالى، فيأتيكم به في وقته الذي قدره له ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾. قال الطبريّ: أي مواضع حظوظ أنفسكم، فلا تعرفون ما عليها من المضرّة بعبادتكم غير الله، وفي استعجال عذابه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي فلما جاءهم عذاب الله الذي استعجلوه، فرأوه عارضاً في ناحية من نواحي السماء، متجهاً نحو مزارعهم ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ﴾ أي سحاب عارض ﴿مُّمْطِرُنَا﴾ أي بغيث نحيا به ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي قال هود بل هو ﴿مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ أي من العذاب ﴿رِيحٌ﴾ أي هي ريح. أو بدل من (ما)، ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، تُدَمِّرُ﴾ أي تهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي من أموالهم وأنفسهم ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي إذنه الذي لا يعارض، فلم تدفع عنهم آلهتهم، بل دمّرتهم ﴿فَأَصْبَحُواْ لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ أي بيوتهم.

ثم أشار إلى أن هذا لا يقتصر على عاد، بل ينتظر لمن كان على شاكلتهم من أهل مكة وغيرها، بقوله: ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي الكافرين إذا تمادوا في غيهم، وطغوا على ربهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ اي مكنا عاداً، وآتيناهم من كثرة الأموال وقوة الأجسام، فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا. على أنَّ (إن) نافية، أوثرت على (ما) لئلا توجب شبه التكرير الثقيل. وقيل (إن) شرطية محذوفة الجواب. والتقدير: ولقد مكناهم في الذي، أو في شيء، إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر. وقيل: هي صلة كما في قوله.

يرجّى المرءُ ما إنْ لا يَراهُ ويَعْرِضُ دونَ أدْناهُ الخطوبُ

قال الزمخشريّ: والوجه هو الأول. ولقد جاء عليه في غير آية في القرآن ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾ [مريم:٧٤]، ﴿ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَاراً ﴾ [غافر:٨٢] وهو أبلغ في التوبيخ، وأدخل في الحث على الاعتبار.

قال الناصر: واختص بهذه الطائفة قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥]، وقوله: ﴿ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦] أي: والأصل توافق المعاني في الآي الواردة في نبأ واحد .على ما فيه أيضاً من سلامة الحذف والزيادة.

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً ﴾ قال الطبريّ: أي جعلنا لهم سمعاً يسمعون به مواعظ ربهم، وأبصاراً يبصرون بها حجج الله، وأفئدة يعقلون بها ما يضرهم وينفعهم، ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ اي لانهم لم يستعملوها فيما خلقت له، بل في خلافه ﴿ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي من العذاب.

قال الطبريّ: وهذا وعيد من الله عزّ وجلّ ثناؤه، لقريش. يقول لهم: فاحذروا

أن يحل بكم من العذاب على كفركم بالله، وتكذيبكم رسله، ما حلَّ بعاد، وبادروا بالتوبة قبل النقمة.

لطيفة:

قال الشهاب: أفرد السمع في النظم، وجمع غيره، لاتحاد المدرك به، وهو الأصوات، وتعددت مدركات غيره، ولأنه في الأصل مصدر، وأيضاً مسموعهم من الرسل متحد.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾

﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ**﴾ أي ما حول قريتكم يا أهل مكة ﴿**مِّنَ الْقُرَى**﴾ أي كحجر ثمود، وأرض سدوم ومأرب ونحوها، فأنذرنا أهلها بالمثلات، وخربنا ديارها، فجعلناها خاوية على عروشها ﴿**وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ**﴾ أي وعظناهم بأنواع العظات، وبيّنا لهم ضروباً من الحجج ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ أي عن الكفر بالله ورسله. قال الطبريّ: وفي الكلام متروك، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه، وهو: فأبوا إلا الإقامة على كفرهم، والتمادي على غيهم، فأهلكناهم، فلم ينصرهم منا ناصر.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

﴿**فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً ءَالِهَةً**﴾ أي: فهلا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم، أوثانُهم التي اتخذوا عبادتها قرباناً يتقربون بها، فيما زعموا، إلى ربهم إذ جاءهم بأسنا، فتنقذهم من عذابنا، إن كانت تشفع لهم عند ربهم، كما قالوا: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

﴿**بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ**﴾ أي غابوا عن نصرهم، وامتنع أن يستمدوا بهم، امتناع الاستمداد بالضالّ ففي ﴿**ضَلُّواْ**﴾ استعارة تبعية ﴿**وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ**﴾ أي ضياع آلهتهم عنهم، وامتناع نصرهم إثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة. ﴿**وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**﴾ أي وإثر افترائهم في أنها شفعاؤهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي أملناهم إليك، وأقبلنا بهم نحوك ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُواْ أَنصِتُواْ﴾ أي ليتم التدبر والتفكر ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي فرغ من قراءته، كمل تأثرهم به، فأرادوا التأثير به، لذلك ﴿وَلَّوْاْ﴾ أي رجعوا ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ أي عما هم فيه من الضلال. ﴿قَالُواْ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى﴾ أي المتفق على تعظيم كتابه. أي وقد علمنا صدقه لكونه ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من هذه الكتب كلها، وقد فُضِّل عليها إذ ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي معرفة الحقائق ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي لا عوج فيه، وهو الإسلام.

قال ابن كثير: أي يهدي إلى الحق في الاعتقاد والأخبار، وإلى طريق مستقيم في الأعمال. فإن القرآن مشتمل على شيئين: خبر وطلب. فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو العلم النافع. ودين الحق هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: يهدي إلى الحق في الاعتقادات، وإلى طريق مستقيم، أي في العمليات.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أي رسول الله محمداً إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله. ﴿وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ﴾ أي بمعجز ربِّه، بهربه إذا أراد تعالى عقوبته، لأنه في قبضته وسلطانه، أنّى اتجه. ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي نصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه. ﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ أي أخذ على غير استقامة.

تنبيهات:

الأول - روى الإمام مسلم[١] عن علقمة قال: سألت ابن مسعود رضي الله عنه: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقيل: استطير، اغتيل! قال: فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم. فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حِراءَ. قال: فقلنا: يارسول الله! فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم. فقال: أتاني داعي الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن، قال: فانطَلَقَ بنا، فأرانا آثارهم.

وروى الإمام أحمد[٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة، فيزيدون فيها عشراً. فيكون ما سمعوا حقّاً، وما زادوا باطلاً. وكانت النجوم لايُرْمى بها قبل ذلك. فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رُمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث. فبثّ جنوده، فإذا بالنبيّ ﷺ يصلّي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض. ورواه الترمذي[٣] والنسائي في كتابي التفسير من سننيهما. وهكذا قال الحسن البصريّ: إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم.

وذكر محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قصة خروج النبيّ ﷺ إلى الطائف، ودعائه إياهم إلى الله عزّ وجلّ، وإبائهم عليه، فذكر القصة بطولها، ثم قال: فلما انصرف عنهم، بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن، فاستمعته الجن من أهل نصيبين. قال ابن كثير: وهذا صحيح، ولكن قوله (إن الجن كان استماعهم تلك الليلة) فيه نظر. فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء، كما دلّ عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما المذكور. وخروجُه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره.

وروى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: هبطوا على النبيّ ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، فأنزل الله عزّ وجلّ عليه ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ**

---

(١) أخرجه في: الصلاة، حديث رقم ١٥٠.

(٢) أخرجه في ١ / ٢٧٤، والحديث رقم ٢٤٨٢.

(٣) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٧٢- سورة الجن.

نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ...﴾ الآية. قال ابن كثير: فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضي الله عنهما، يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً: قوماً بعد قوم، وفوجاً بعد فوج. فأما ما رواه البخاريّ ومسلم[1] جميعاً عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي يقول: سألت مسروقاً: من آذن النبيّ ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدّثني أبوك - يعني ابن مسعود رضي الله عنه - أنه آذنته بهم شجرة، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة، أي أعلمته باجتماعهم، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات والله أعلم.

قال الحافظ البيهقيّ: وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ، وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم، ولم يرهم. ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن، فقرأ، عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ - كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه -.

ثم قال ابن كثير: وأما ابن مسعود رضي الله عنه، فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن، ودعائه إياهم، وإنما كان بعيداً منه، ولم يخرج مع النبيّ ﷺ أحد سواه، ومع هذا، لم يشهد حال المخاطبة. هذه طريقة البيهقيّ. وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم، لم يكن معه ﷺ ابن مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام مسلم. ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى - والله أعلم - كما روى ابن أبي حاتم في تفسير ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من حديث ابن جريج قال: قال عبد العزيز بن عمر: أما الجن الذين لقوه بنخلة فجنّ نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة، فجن نصيبين. وتأوّل البيهقيّ قوله (فبتنا بشرّ ليلة) على غير ابن مسعود، ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن، وهو محتمل، على بُعْدٍ وبالجملة، فقد روي ما يدل على تكرار ذلك. وقد روي عن ابن عباس غير ما روي عنه أولاً من وجه جيّد عن ابن جرير في هذه الآية، قال: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم، فهذا يدلّ على أنه قد روى القصتين. وذكر أبو حمزة الثماليّ أن هذا الحيّ من الجن كانوا أكثر الجن عدداً،

---

(١) أخرجه البخاري في: مناقب الأنصار، ٣٢- باب ذكر الجن وقول الله تعالى: قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن، الحديث رقم ١٨١٠.
وأخرجه مسلم في: الصلاة حديث رقم ١٥٣.

وأشرفهم نسباً. وعن ابن مسعود أنهم كانوا تسعة. ويروى أنهم كانوا خمسة عشر، وروي ستين، وروي ثلاثمائة. وعن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً. قال ابن كثير: فلعل هذا الاختلاف دليل عى تكرر وفادتهم عليه ﷺ. ومما يدلّ على ذلك مارواهُ البخاريّ[(١)] في صحيحه أن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما قال: ما سمعت عمر رضي اللّه عنه لشيء قط يقول: إني لأظنه هكذا، إلا كان كما يظن. بينما عمر بن الخطاب جالس، إذ مرّ به رجل جميل فقال: لقد أخطأ ظني، أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم. عليّ الرجلَ. فدعي له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم. قال: فإني أعزم عليك إلاما أخبرتني! قال: كنت كاهنَهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق، جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت: ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها؟ قال عمر: صدق! بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول: ياجليح! أمر نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا اللّه. قال فوثب القوم. فقلت: لا أبرح حتى أعلم ماوراء هذا. ثم نادى: ياجليح! أمر نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا اللّه. فقمت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبيّ - هذا سياق البخاريّ - وقد رواه البيهقيّ من حديث ابن وهب بنحوه. ثم قال: وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر رضي اللّه عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح. وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر رضي اللّه عنه. وسائر الروايات تدلّ على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه - واللّه أعلم -.

وهذا الرجل هو سواد بن قارب. قال البيهقيّ: وسواد بن قارب يشبه أن يكون هو الكاهن الذي لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح. ثم روى بسنده عن البراء قال: بينما عمر بن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول اللّه ﷺ إذ قال: أيها الناس! أفيكم سواد بن قارب؟ قال، فلم يجبه أحد تلك السنة. فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس! أفيكم سواد بن قارب؟ قال، فقلت: ياأمير المؤمنين! وما سواد بن قارب؟ قال، فقال له عمر: إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً! قال: فبينما نحن كذلك، إذ طلع سواد بن قارب. قال، فقال له عمر: ياسواد! حدثنا ببدء إسلامك كيف كان. قال سواد: فإني كنت نازلاً بالهند، وكان لي رَئِيٌّ من الجن.

---

(١) أخرجه في: مناقب الأنصار، ٣٥- باب إسلام عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، حديث ١٨١٣.

قال: فبينا أنا ذات ليلة نائم إذا جاءني في منامي ذلك، قال: قم فافهم، واعقل إن كنت تعقل! قد بعث رسول من لؤيّ بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجبتُ للجنّ وتَحْسَاسهَا وَشَدِّهَا العيسَ بأحْلاَسهَا
تهوي إلى مكةَ تبغي الهُدَى ما خيِّرُ الجنِّ كأنْجَاسهَا
فانهَضْ إلى الصَّفْوَةِ من هاشمٍ واسمُ بِعَيْنَيْكَ إلى رَاسهَا

قال: ثم أنبهني فافزعني وقال: ياسواد بن قارب! إن اللّه عزّ وجلّ بعث نبيّاً، فانهض إليه تهتدِ وترشد. فلما كان من الليلة الثانية، أتاني فانبهني، ثم أنشأ يقول:

عِجبتُ للجن وتَطلاَبهَا وشدِّهَا العيسَ بَأقْتَابهَا
تهوي إلى مكة تبغي الهدى وليسَ قُدمَاهَا كأَذْنَابهَا
فانهض إلى الصَّفْوَةِ من هاشم واسمُ بعيْنَيك إلى قَابهَا

فلما كان في الليلة الثالثة، أتاني فأنبهني، ثم قال:

عجبتُ للجن وتَخْبَارهَا وشدِّهَا العيسَ بأكْوَارهَا
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ليس ذَوُو الشَّرِّ كأَخْيَارهَا
فانْهَضْ إلى الصَّفْوَةِ من هاشم ما مُؤْمنُو الجنِّ ككُفَّارهَا

قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول اللّه ﷺ ماشاء اللّه. قال: فانطلقت إلى رحلي، فشددته على راحلتي، فما حللت نسعة، ولا عقدت أخرى، حتى أتيت رسول اللّه ﷺ، فإذا هو بالمدينة - يعني مكة - والناس عليه كعرف الفرس، فلما رآني النبيّ ﷺ قال: مرحباً بك ياسواد بن قارب، قد علمنا ماجاء بك. قال: قلت: يارسول اللّه! قد قلت شعراً، فاسمعه مني! قال ﷺ: قل يا سواد، فقلت:

أتَانِي رَئِيِّي بعد لَيْلٍ وَهَجْعَةٍ ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذب
ثلاثَ ليالٍ، قولهُ كلَّ ليلة: أتاكَ رسول من لُؤَيّ بْنِ غالَب
فشمَّرْتُ عن ساقي الإزارَ وَوَسَّطَتْ بي الدِّعْلبُ الوجناءُ بين السباسب
فأشهد أن اللّه لا ربَّ غيرُهُ وأنك مأمونٌ على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلةً إلى اللّه، يا ابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك يا خير مُرْسَلٍ وإن كان فيما جاء شَيْبُ الذَّوَائِب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة سواك بمُغْنٍ عن سَوَادِ بْنِ قارِبِ

قال: فضحك النبيّ ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال لي: أفلحت ياسواد! فقال له عمر رضي اللّه عنه: هل يأتيك رئيّك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتني، ونعم العوض كتاب اللّه عزّ وجلّ من الجن. ثم أسنده البيهقيّ من وجهين آخرين. انتهى كلام ابن كثير.

وقد ساقه الإمام الماورديّ في (أعلام النبوة) مع نظائر له، في الباب السادس عشر، في هتوف الجن، ثم قال: ولئن كانت هذه الهتوف أخبارَ آحاد، عمن لا يرى شخصه، ولا يحج قوله، فخروجه عن العادة نذير، وتأثيره في النفوس بشير، وقد قبلها السامعون. وقبولُ الأخبار يؤكد صحتها، ويؤيد حجتها. فإن قيل: إن كانت هتوف الجن من دلائل النبوة، جاز أن تكون دليلاً على صحة الكهانة، فعنه جوّابان:

أحدهما: أن دلائل النبوة غيرها، وإنما هي من البشائر بها، وفرق بين الدلالة والبشارة إخباراً.

والثاني: أن الكهانة عن مغيّب، والبشارة عن معين، فالعيان معلوم، والغائب موهوم. انتهى.

التنبيه الثاني:

قال الماورديّ: في صرف الجن المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ ﴾ [الأحقاف:٢٩]، وجهان:

أحدهما – أنهم صرفوا عن استراق سمع السماء، برجوم الشهب، ولم يصرفوا عنه بعد عيسى إلا بعد بعث رسول اللّه ﷺ فقالوا: ما هذا الحادث في السماء، إلا لحادث في الأرض، وتخيلوا به تجديد النبوة، فجابوا الأرض، حتى وقفوا على رسول اللّه ﷺ ببطن مكة عامداً إلى عكاظ، وهو يصلي الفجر، فاستمعوا القرآن، ورأوه كيف يصلي ويقتدي به أصحابه، فعلموا أنه لهذا الحادث، صرفوا عن استراق السمع برجوم الشهب. وهذا قول ابن عباس رضي اللّه تعالى عنه.

أقول: وعليه فتكون (إلى) في (إليك) بمعنى لام التعليل. وذُكر في (المغني) أنها تأتي مرادفة اللام، نحو ﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ [النمل: ٣٣]. وفيه تكلف وبُعدٌ، لنبوّه عما يقتضيه سياق بقية الآية.

ثم قال الماورديّ: وحكى عكرمة أن السورة التي كان يقرؤها ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١].

أقول: سيأتي مرفوعاً عن جابر أنها سورة الرحمن.

ثم قال الماورديّ:

والوجه الثاني - أنهم صرفوا عن بلادهم بالتوفيق، هداية من اللّه تعالى، حتى أتوا نبيّ اللّه ببطن نخلة، فنزل عليه جبريل بهذه الآية، وأخبره بوفود الجن، وأمره بالخروج إليهم، فخرج ومعه ابن مسعود، حتى جاء الحجون. قال ابن مسعود: فخط عليٍّ خطّاً وقال: لا تجاوزه.

فعلى الوجه الأول، لم يعلم بهم حتى أتوه. وعلى الوجه الثاني، أعلمه جبريل قبل إتيانهم. واختلف أهل العلم في رؤيته لهم، وقراءته عليهم. فحكى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول اللّه ﷺ لم يرهم، ولم يقرأ عليهم، وإنما سمعوا قراءته حين مروا به مصلياً. وحكى ابن مسعود أنه رآهم. وقرأ عليهم القرآن.

أقول: تقدم لابن كثير ما فيه كفاية -.

ثم قال الماورديّ: وفي قوله ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُواْ﴾ [الأحقاف:٢٩] وجهان:

أحدهما - فلما حضروا قراءته القرآن قالوا: أنصتوا لسماعه.

والوجه الثاني: فلما حضروا رسول اللّه ﷺ قالوا: أنصتوا لسماع قوله. انتهى.

قال ابن كثير: وهذا - أي قولهم أنصتوا - أدب منهم. وقد روى البيهقيّ عن جابر قال: قرأ رسول اللّه ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، ثم قال: مالي أراكم سكوتاً؟ لَلْجنُّ كانوا أحسن منكم رداً. ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٢]، إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد، ورواه الترمذي[1] وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد ابن مسلم عن زهير.

الثالث - دل قوله تعالى ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣٢]، على أن رسول اللّه ﷺ كان عامّ الرسالة إلى الإنس والجن.

قال ابن كثير: لأنه دعا الجن إلى اللّه تعالى، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهي سورة الرحمن، ولهذا قال ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في: التفسير، ٥٥- سورة الرحمن، باب حدثنا عبد الرحمن بن واقد.

قال الماورديّ: لم يختلف أهل العلم أنه يجوز أن يبعث إليهم رسولاً من الإنس، واختلفوا في جواز بعثة رسول منهم، فجوزه قوم لقول اللّه تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، ومنع آخرون منه. وهذا قول من جعلهم من ولد إبليس، وحملوا قوله ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ على الذين لما سمعوا القرآن، ولّوْا إلى قومهم منذرين. انتهى.

أقول: ونظيره تسمية رسل عيسى عليه السلام رسلاً في آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ [يس: ١٤].

الرابع – استدل بقوله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة. إذ لو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا، لأوشك أن يذكروه.

قال الماورديّ: فأما كفارهم فيدخلون النار، وأما مؤمنوهم، فقد اختلفوا في دخولهم الجنة ثواباً على إيمانهم. فقال الضحاك: ومن جوز أن يكون رسلهم منهم، يدخلون الجنة. وحكى سفيان عن ليث أنهم يثابون على الإيمان بأن يُجازوا على النار خلاصاً منها، ثم يقال: لهم: كونوا تراباً كالبهائم. انتهى.

والحق – كما قال ابن كثير – أن مؤمنهم كمؤمن الإنس، يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف. وقد استدل بعضهم لهذا بقوله عزّ وجلّ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦و٧٤]، وفي هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله جلّ وعلا ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦–٤٧]، فقد امتنَّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة. وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القوليّ أبلغ من الإنس، فقالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد. فلم يكن تعالى ليمتنَّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم. وأيضاً، فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار، وهو مقام عدل، فلأَن يجازي مؤمنهم بالجنة، وهو مقام فضل، بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضاً على عموم ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٧]، وما أشبه ذلك من الآيات. وما ذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان، من تكفير الذنوب، والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة، لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار. فمن أجير من النار دخل الجنة لا

محالة، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع، أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة، وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به، واللّه أعلم. وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤] ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة، فكذلك هؤلاء . وقد حكي فيهم أقوال غريبة. فعن عمر بن عبد العزيز أنهم لا يدخلون بحبوحة الجنة، وإنما يكونون في ربضها وحولها وفي أرجائها. ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم، ولا يرون بني آدم بعكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون في الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس، عوضاً عن الطعام والشراب، كالملائكة، لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها. انتهى.

الخامس – قيل: سر التبعيض في قوله ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أن من الذنوب ما لايغفر بالإيمان، كذنوب المظالم، أي: حقوق العباد. وفيه نظر، لأن الحربيّ لو نهب الأموال المصونة، وسفك الدماء المحقونة، ثم حسن إسلامه، جبّ الإسلام عنه إثم ما تقدم. بلا إشكال. ويقال: إنه ما وعدُ المغفرة للكافر على تقدير الإيمان في كتاب اللّه تعالى إلا مبعضة، والسر فيه أن مقام الكافر قبض لا بسط، فلذلك لم يبسط رجاؤه كما في حق المؤمن – أفاده الناصر – .

السادس – قال ابن كثير: جمعوا في دعواهم قومهم بين الترغيب والترهيب، ولهذا نجع في كثير منهم، وجاءوا إلى رسول اللّه ﷺ وفوداً وفوداً، كما تقدم بيانه.

السابع – قال الماورديّ: الجن من العالم الناطق المميز، يأكلون ويتناكحون ويتناسلون ويموتون، وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار، وإن تميزوا بأفعال وآثار، إلا أن اللّه يخص برؤيتهم من يشاء. وإنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية، وما تخيلوه من آثارهم الخفية.

وقال القاشاني: الجن نفوس أرضية تجسدت في أبدان لطيفة مركبة من لطائف العناصر، سماها حكماء الفرس (الصور المعلقة). ولكونها أرضية متجسدة في أبدان عنصرية، ومشاركتها الإنس في ذلك، سميا (ثقلين). وكما أمكن الناسَ التهدّي بالقرآن أمكنهم. وحكاياتهم من المحققين وغيرهم أكثر من أن يمكن رد الجميع، وأوضح من أن يقبل التأويل. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى** ﴾ إي بإعادة الروح إلى الجسد، بعد مفارقتها إياه، وإخراجهم من قبورهم كهيئتهم قبل وفاتهم.

وفي ابن جرير بحث نحويّ في دخول الباء في ﴿ **بِقَادِرٍ** ﴾ بديعٌ. ويذكر في مباحث زيادة الباء، في مطولات العربية.

﴿ **بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أي من إعادة المعدوم، ولو فني الجسد وغيره.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ **وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا** ﴾ أي الإحياء إحياء ﴿ **بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ فَاصْبِرْ** ﴾ أي على تبليغ الرسالة وتكذيبهم وإيذائهم ﴿ **كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ أي: أولو الثبات والجد منهم، فإنك منهم. والعزم - في اللغة - كالعزيمة، ما عقدت قلبك عليه من أمر. والعزم أيضاً القوة على الشيء والصبر عليه. فالمراد به هنا المجتهدون، المجدّون، أو الصابرون على أمر الله فيما عهده إليهم، وقدره وقضاه عليهم. ومطلق الجد والجهد والصبر موجود في جميع الرسل، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكثير من الأولياء. فلذا ذهب جمهور المفسرين في هذه الآية إلى أنهم جميع الرسل، وأن (من) بيانية لا تبعيضية، فكل رسول من أولي العزم، فإن أريد به معنى مخصوص ببعضهم،فلا بد من بيانه ليظهر وجه التخصيص. ومنشأ الاختلاف في عددهم إلى أقوال: أحدها - أنهم جميع الرسل. والثاني - أنهم أربعة: نوح وإبراهيم وموسى ومحمد. والثالث - أنهم خمسة بزيادة عيسى، كما قيل:

أولي العزمِ نوحٌ والخليلُ الممجَّدُ وموسَى وعيسَى والنبيُّ محمدُ

والرابع - أنهم ستة، بزيادة هارون أو داود. والخامس - أنهم سبعة بزيادة آدم. والسادس - أنهم تسعة، بزيادة إسحاق ويعقوب ويوسف. وقد يزاد وينقص.

وتوجيه التخصيص أن المراد بهم من له جد وجهد تام في دعوته إلى الحق، وذبه عن حريم التوحيد، وحمى الشريعة، بحيث يصبر على ما لا يطيقه سواه من عوارضه النفسية والبدنية، وأموره الخارجية، كمبارزة كل أهل عصره، كما كان لنوح. أو لملك جبار في عصره، وانتصاره عليه من غير عدة دنيوية، كنمروذ إبراهيم، وجالوت داود، وفرعون موسى. ولكل موسى فرعون، ولكل محمد أبو جهل. وكالابتلاء بأمور لا يصبر عليها البشر بدون قوة قدسية، ونفس ربانية، كما وقع لأيوب عليه الصلاة والسلام. ومن هنا كشف برقع الخفاء عن وجه التخصيص، وهذا مما كشفت بركاتهم سره - أفاده الشهاب - ﴿**وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ**﴾ أي ولا تستعجل بمساءلتك ربك العذاب لهم، فإن ذلك نازل بهم لا محالة، وإن اشتد عليك الأمر من جهتهم. ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ**﴾ أي من عذاب الله ونكاله وخزيه الذي ينزل بهم في الدنيا أو في الآخرة ﴿**لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً**﴾ ﴿**مِّن نَّهَارٍ**﴾ أي لأنه ينسيهم شدة ما ينزل بهم من عذابه، قدر ما كانوا في الدنيا لبثوا، ومبلغ ما فيها مكثوا.

وقوله تعالى ﴿**بَلاَغٌ**﴾ قال ابن جرير: فيه وجهان:

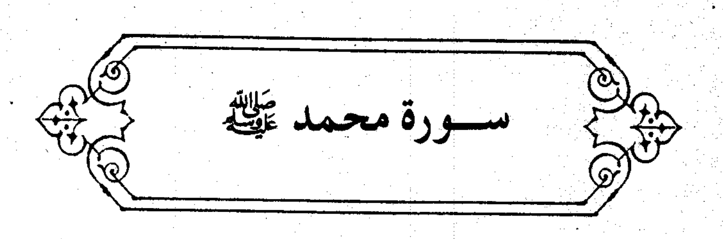
أحدهما - أن يكون معناه: لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، ذلك لبث بلاغ، بمعنى: ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى أجلهم، ثم حذف (ذلك لبث)، وهي مرادة في الكلام اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليها.

والآخر - أن يكون معناه: هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية، إن فكروا واعتبروا، فتذكروا. انتهى.

وأشار المهايميّ إلى معنى آخر فقال: ليس من حق الرسل الاستعجال، بل حقهم بلاغ.

﴿**فَهَلْ يُهْلَكُ**﴾ أي بعذاب الله إذا أنزله بمقتضى العدل والحكمة ﴿**إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ أي الذين خالفوا أمره، وخرجوا من طاعته. نعوذ بالله من غضبه، وأليم عقابه.

بسم الله الرحمن الرحيم



سميت به، لما فيها من أن الإيمان بما نزل على محمد متفرقاً، أعظم من الإيمان بما نزل مجموعاً على سائر الأنبياء عليهم السلام. وهو من أعظم مقاصد القرآن. وتسمى سورة (القتال)، لدلالتها على ارتفاع حرمة نفوس الكفار المانعة من قتالهم، وما يترتب على القتال وكثرة فوائده – قاله المهايميّ –.

وهي مدنية. وحكى النسفيّ قولاًغريباً، أنها مكية. وآيها ثمان وثلاثون.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾

﴿الَّذينَ كفَرُواْ﴾ أي: جحدوا توحيد الله، وعبدوا غيره ﴿وَصَدُّواْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أعرضوا وامتنعوا عن الإقرار لله بالوحدانية، ولنبيه بالرسالة. أو صدوا غيرهم عن ذلك. ﴿أضلَّ أعْمَالَهُمْ﴾ أي جعلها على غير هدى ورشاد.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾

﴿وَالَّذينَ ءامَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ أي الطاعات فيما بينهم وبين ربهم.

وقوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ أي بما أنزل الله به جبريل على محمد ﷺ. وإنما خصه بالذكر، مع دخوله فيما قبله، تعظيماً لشأنه وتعليماً، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به، إذ يفيد بعطفه أنه أعظم أركانه، لإفراده بالذكر. وقد تأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ﴾ أي الثابت بالواقع ونفس الأمر. ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي ستر بإيمانهم وعملهم الصالح، ما كان منهم من الكفر والمعاصي، لرجوعهم عنها وتوبتهم ﴿وأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالهم وشأنهم، وعملهم في الدنيا بالتأييد والتوفيق.

قال الشهاب: (البال) يكون بمعنى الحال والشأن. وقد يخص بالشأن العظيم، كقوله ﷺ[1] «كل أمر ذي بال». ويكون بمعنى الخاطر القلبيّ، ويتجوز به عن القلب. ولو فسر به هنا كان حسناً أيضاً. وقد فسره السفاقسيّ بالفكر، لأنه إذا صلح قلبه وفكره، صلحت عقيدته وأعماله.

---

(١) أخرجه ابن ماجة في: النكاح، ١٩- باب خطبة النكاح، حديث ١٨٩٤.

وقال ابن جرير: البال كالمصدر، مثل الشأن، لا يعرف منه فعل، ولا تكاد العرب تجمعه إلا في ضرورة شعر، فإذا جمعوه قالوا: (بالات) .

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي المذكور من فعله تعالى بالفريقين ما فعله كائن ﴿ بِأَنَّ الَّذِينَ ﴾ أي بسبب أن الذين ﴿ كَفَرُواْ اتَّبَعُواْ الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُواْ الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أي يشبه لهم الأشباه، فيلحق بكل قوم من الأمثال أشكالاً .

قال الزمخشريّ: فإن قلت: أين ضرب الأمثال؟ قلت: في أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار. واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين. أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ لما كان طليعة هذه السورة تمهيداً لجهاد المشركين الساعين في الأرض بالفساد، الصادّين عن منهج الرشاد، وبعثاً على الصدق في قتالهم، كسحاً لعقبة باطلهم، عملاً بما يوجبه الإيمان ويفرضه الإيقان، وتمييزاً لأولياء الرحمن من أولياء الشيطان، تأثر تلك الطليعة بهذه الجملة. ولذا قال أبو السعود: الفاء لترتيب ما في حيّزها من الأمر على ما قبلها. فإن ضلال أعمال الكفرة وخبثهم، وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم،مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام. أي: فإذا كان الأمر كما ذكر، فإذا لقيتموهم في المحاربة، فضرب الرقاب. وأصله: فاضربوا الرقاب ضرباً. فحذف الفعل، وقدم المصدر، وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول. وفيه اختصار وتأكيد بليغ. والتعبير به عن القتل، تصوير له بأشنع صورة، وتهويل لأمره، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون

منه ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي غلبتموهم، وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ بفتح الواو، وقرئ بكسرها. وهو ما يوثق به، أي يربط ويشد، كالقيد والحبل. أي فامسكوهم به كيلا يقتلوكم فيهربوا منكم ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أي فإما تمنون بعد ذلك عليهم، فتطلقونهم بغير عوض، لزوال سبعيّتهم، وإما تفدون فداءً، فتطلقونهم بعوض مال، أو مسلم أسروه فيتقوى به المسلمون، أو يتخلص أسيرهم.

قال المهايميّ: ولم يذكر القتل اكتفاء بما مر من قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وذلك فيمن يرى فيه الإمام بقاء السبعية بالكمال. ولم يذكر الاسترقاق، لأنه في معنى استدامة الأسر، وذلك فيمن يرى فيه نوع سبعية. ولا تزالوا كذلك ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: إلى انقضاء الحرب و(الأوزار) كالأحمال وزناً ومعنى. استعير لآلات الحرب التي لا تقوم إلا بها، استعارة تصريحية أو مكنية، بتشبيهها بإنسان يحمل حملاً على رأسه أو ظهره، وأثبت له ذلك تخييلاً. وقد جاء ذكرها في قول الأعشى:

وَأعددتَ للحرب أَوزارَها: رماحاً طِوالاً وخيلاً ذُكُوراً

وقيل: أوزارها آثامها. يعني: حتى يترك أهل الحرب – وهم المشركون – شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا.

تنبيهات:

الأول – قال في (الإكليل): في الآية بيان كيفية الجهاد.

الثاني – للسلف قولان في أن الآية: منسوخة أو محكمة.

فروي عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسدّي أنها منسوخة بقوله تعالى ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، قالوا: فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة بعد براءة، وانسلاخ الأشهر الحرم.

وروي عن ابن عمر وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز، أن الآية محكمة ليست منسوخة، وأنه لا يجوز قتل الأسير، وإنما له المن أو الفداء.

ووجه من ذهب إلى الأول تعارض الآيتين عنده بادئ بدء، فلم يبق إلا القول بإحداهما وهي المطلقة.

ومدرك الثاني أن الأمر بقتلهم المجمل في آيات، محمول على المفصل في

مثل هذه الآية، أي إن القتل عند اللقاء، ثم بعد انقضاء الحرب المن أو الفداء لاغير، إلا أن تبدو مصلحة في القتل، فتلك من باب آخر.

وثم قول ثالث: وهو كون الآية محكمة مع تفويض الأمر إلى الإمام، وأن ذكر المن والفداء لاينافي جواز القتل، لعلمه من آيات أخر، لاسيما ومرجع الأمر إلى المصلحة. وهذا القول هو الذي أختاره. وإذا دار الأمر في الآي بين الإحكام والنسخ. فالأول هو المرجح. وقد لايتعارض قول من قال بالنسخ مع الذاهب إلى الإحكام، لما قدمناه في مقدمة التفسير، من تغاير اصطلاح السلف والأصوليين في النسخ.

ثم رأيت ابن جرير سبقني في ترجيح ذلك، وعبارته:

والصواب من القول عندنا في ذلك، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة. وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ، أنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة، أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر. وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة، وإن لم يكن القتل مذكوراً في هذه الآية، لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى، وذلك قوله تعالى ﴿ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥]، الآية. بل ذلك كذلك، لأن رسول اللّه ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيراً في يده من أهل الحرب، فيقتل بعضاً، ويفادي ببعض، ويمن على بعض، مثل يوم بدر: قتل عقبة بن أبي معيط، وقد أتي به أسيراً. وقتل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد، وصاروا في يده سلماً، وهو على فدائهم والمن عليهم قادر، وفادى بجماعة، أسارى المشركين الذين أسروا ببدر. ومنَّ على ثمامة بن أثال الحنفيّ، وهو أسير في يده. ولم يزل ذلك ثابتاً من سيره في أهل الحرب، من لدن أذن اللّه له بحربهم، إلى أن قبضه إليه ﷺ دائماً ذلك فيهم. وإنما ذكر جل ثناؤه في هذه الآية المنَّ والفداء في الأسارى، فخص ذكرهما فيها، لأن الأمر بقتلهم والإذن منه بذلك، قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكرراً، فأعلَمَ نبيه ﷺ بما ذكر في هذه الآية من المن والفداء، ما له فيهم مع القتل. انتهى كلام ابن جرير.

الثالث – من فوائد الآية أيضاً جواز تخلية سبيل المشركين، إذا ضعفت شوكتهم، وأمنت مفسدتهم، لأن ذلك من لوازم المن وقبول الفداء، والقول بإبادة خضرائهم من غير تفصيل، ينافيه نص هذه الآية، وقبول النبيّ ﷺ الجزية من مجوس هجر وهم مشركون، فتفهّم.

وبالجملة، فالذي عول عليه الأئمة المحققون رضي اللّه عنهم، أن الأمير يخيّر، بعد الظفر تخيير مصلحة لا شهوة في الأسراء المقاتلين، بين قتال واسترقاق، ومنّ وفداء. ويجب عليه اختيار الأصلح للمسلمين، لأنه يتصرف لهم على سبيل النظر، فلم يجز له ترك ما فيه الحظ، كوليّ اليتيم، لأن كل خصلة من هذه الخصال قد تكون أصلح في بعض الأسرى. فإن منهم من له قوة ونكاية في المسلمين، فقتله أصلح. ومنهم الضعيف ذو المال الكثير، ففداؤه أصلح ومنهم حسن الرأي في المسلمين، يرجى إسلامه، فالمنّ عليه أولى. ومن ينتفع بخدمته، ويؤمن شرّه، استرقاقه أصلح - كما في (شرح الإقناع) - .

الرابع - تُسَنُّ دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن بلغته الدعوة، قطعاً لحجته. ويحرم القتال قبلها لمن لم تبلغه الدعوة، لحديث[١] بُرَيْدَة بن الحُصَيْب قال: كان النبيّ ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أمره بتقوى اللّه تعالى في خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين. وقال: إذا لقيت عدوّك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث، فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فادعهم إعطاء الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن أبوا فاستعن باللّه وقاتلهم - رواه مسلم - .

وقيد الإمام ابن القيّم وجوب الدعوة واستحبابها، بما إذا قصدهم المسلمون. أما إذا كان الكفار قاصدين المسلمين بالقتال، فللمسلمين قتالهم من غير دعوة، دفعاً عن نفوسهم وحريمهم وأمرُ الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، لأنه أعرف بحال الناس، وبحال العدوّ، ونكايتهم وقربهم وبعدهم - كما في (شرح الإقناع) - .

وقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ**﴾ خبر لمحذوف. أي الأمر ذلك. أو مفعول لمقدّر ﴿**وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ**﴾ أي: لانتقم منهم بعقوبة عاجلة، وكفاكم ذلك كله. ﴿**وَلَكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ**﴾ أي ليختبركم بهم، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين فيثيبهم، ويبلوهم بكم، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم حتى ينيب إلى الحق. ﴿**وَالَّذِينَ قُتِلُواْ**﴾ أي استشهدوا. وقرئ (قاتلوا) ﴿**فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُم**﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم في: الجهاد، حديث رقم ٣ .

القول في تأويل قوله تعالى:

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

﴿ **سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** ﴾ أي بيّنها لهم في كثير من آياته، تعريفاً يشوق كل مؤمن أن يسعى لها.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

﴿ **يا أيُّها الَّذينَ ءامَنُواْ إن تنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ** ﴾ أي الظفر والتمكين في الأرض، وإرث ديار العدوّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

﴿ **والَّذينَ كفَرُواْ فتَعْساً لَهُمْ** ﴾ أي خزياً وشقاءً. وأصله من السقوط على الوجه، كالكبِّ. ﴿ **وأَضَلَّ أعْمالَهُمْ** ﴾ أي جعلها على غير هدى واستقامة. ﴿ **ذلكَ بأَنَّهُم كَرِهُواْ ما أنزَلَ اللَّهُ** ﴾ أي من الحق، وشايعوا ما ألفوه من الباطل. ﴿ **فأَحْبَطَ أعْمالَهُمْ** ﴾ كعبادتهم لأوثانهم، حيث لم تنفعهم، بل أوبقهم بها فأصلاهم سعيراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾

﴿ **أَفلَمْ يَسيرُواْ في الأرْضِ فَينظُرُواْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذينَ من قَبْلِهِمْ** ﴾ أي من الأمم المكذّبة رسلها، الرادة نصائحها. ﴿ **دمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي ما اختص بهم، وكان لهم، يقال: دمّره بمعنى أهلكه. ودمّره عليه: أهلك ما يختص به من المال والنفس. فالثاني أبلغ، لما فيه من العموم، لجعل مفعوله نسياً منسيّاً، فيتناول نفسه وكل ما يختص به. والإتيان بـ (على) لتضمنه معنى (أطبق عليه) أي أوقعه عليهم محيطاً بهم، أو هجم الهلاك عليهم. ﴿ **ولِلْكافِرينَ** ﴾ يعني المكذّبين رسول الله ﷺ ﴿ **أمْثالُها** ﴾ أي أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءامَنُواْ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب، إذا حاق بهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾ أي غير مفكّرين في المعاد، ولا معتبرين بسنة اللّه، كغفلة الأنعام عن النحر والذبح، فلا همّ لهم إلا الاعتلاف دون غيره. ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي مأواهم بعد مماتهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾

﴿وَكَأَيِّن﴾ أي: وكم ﴿مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ يعني مكة، على حذف مضاف ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ، أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي على برهان وحجة وبيان من أمر ربه، والعلم بوحدانيته، فهو يعبده على بصيرة منه. ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي فأراه إياه الشيطان حسناً، فهو مقيم عليه. ﴿وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي متغيّر الريح ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي من القذى، وما يوجد في عسل الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُواْ مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي من فرط حرارته.

لطيفة:

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ ﴾ بتقدير حرف إنكار ومضاف. أي: أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد. أو أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد. فلفظ الآية، وإن كان في صورة الإثبات، هو في معنى الإنكار والنفي، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار وانسحاب حكمه عليه، وهو قوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ.. ﴾ الخ، وليس في اللفظ قرينة على هذا، وإنما هو من السياق، وإن فيه جزالة المعنى. وثم أعاريب أخر، هذا أمتنها.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أي ومن هؤلاء الكفار ﴿ مَّن ﴾ أي كافر منافق ﴿ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ ﴾ أي من الصحابة، استهزاء بما سمعوه من المتلوّ، وتهاوناً به ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفاً ﴾ أي الساعة. هل فيه هدى؟ فإن بينوه لم يستفيدوا منه شيئاً. ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي فلا يدخلها الهدى لإبائهم عنه ﴿ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي آراءهم، لا مايدعو إليه البرهان.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ ﴾ أي باتباع الحق، والمشي مع الحجة ﴿ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ أي بياناً لحقيقة ما جاءهم ﴿ وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أي أعانهم عليها. أو آتاهم جزاء تقواهم. أو بيّن لهم ما يتقون.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ قال ابن كثير: أي أمارات اقترابها، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى، أَزِفَتِ الأَزِفَةُ ﴾

[النجم: ٥٦–٥٧]، وكقوله جلت عظمته ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّه فَلاَ تَسْتَعْجِلُوه ﴾ [النحل: ١]، وقوله جلّ وعلا ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]. فبعثة رسول اللّه ﷺ من أشراط الساعة، لأنه خاتم الرسل، الذي أكمل اللّه تعالى به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه، بما لم يؤته نبيّ قبله، كما هو مبسوط في موضعه.

وقال الحسن البصريّ: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة، وهو كما قال. ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه نبيّ التوبة، ونبيّ الملحمة، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبيّ.

روى البخاريّ[1] عن سهل بن سعد رضي اللّه عنه قال: رأيت رسول اللّه ﷺ قال بإصبعيه هكذا – بالوسطى والتي تليها –: بعثت أنا والساعة كهاتين.

﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ أي ذكرى ما قد ضيعوا وفرّطوا فيه من طاعة اللّه إذا جاءتهم الساعة. يعني: أن ليس ذلك بوقت ينفعهم فيه التذكر والندم، لأنه وقت مجازاة، لا وقت استعتاب واستعمال.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ قال ابن جرير: أي فاعلم يامحمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة ويجوز لك وللخلق عبادته، إلا اللّه الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيء. يدين له بالربوبية كل ما دونه. والفاء فصيحة في جواب شرط معلوم، مما مر من أول السورة إلى هنا، من حال الفريقين.

قال السيوطي: وقد استدل بالآية من قال بوجوب النظر، وإبطال التقليد في العقائد، ومن قال بأن أول الواجبات، المعرفةُ قبل الإقرار.

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ قال ابن جرير: أي وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء.

---

(١) أخرجه البخاري في: الرقاق، ٣٩– باب قول النبي ﷺ «بعثت أنا والساعة كهاتين» حديث رقم ٢٠٦٨.

قال الشهاب: وإنما أعيد الجار، لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنب النبيّ ﷺ، فإن ذنوبهم معاص كبائر وصغائر، وذنبه ترك الأَوْلى.

وقال السيوطي: استدل بالآية من أجاز الصغائر على الأنبياء. انتهى.

والمسألة مبسوطة بأقوالها، وما لها وما عليها في (الفِصَل) لابن حزم، فارجع إليه.

وفي الصحيح[١] أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطاياي وعمدي، وكل ذلك عندي».

وفي الصحيح[٢] أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني. أنت إلهي لا إله إلا أنت».

وفي الصحيح[٣] أنه قال: «يا أيها الناس! توبوا إلى ربكم، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي متصرّفكم فيما تتصرفون فيه، وإقامتكم على ما تقيمون عليه من الأقوال والأعمال، فيجازيكم عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار. ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ أي مبيّنة لا تقبل نسخاً ولا تأويلاً، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في: الدعوات، ٦٠- باب قول النبي ﷺ «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت» حديث رقم ٢٤٠٤، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) أخرجه البخاري في: التهجد، ١- باب التهجد بالليل، حديث رقم ٦١٣، عن ابن عباس.

(٣) أخرجه البخاري في: الدعوات، ٣- باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، حديث ٢٣٩٠، عن أبي هريرة.

أي الأمر بقتال المشركين ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك في الدين وضعف في اليقين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء. شبه نظرهم بنظر المحتضر الذي لا يطرف بصره ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ قال الشهاب: اختلف فيه، بعد الاتفاق على أن المراد به التهديد والوعيد، على أقوال:

فذهب الأصمعيّ إلى أنه فعل ماض بمعنى قارب. وقيل: قرّب بالتشديد، ففاعله ضمير يرجع لما علم منه، أي: قارب هلاكهم. والأكثر أنه اسم تفضيل من الولي، بمعنى القرب. وقال أبو عليّ: إنه اسم تفضيل من الويل. والأصل (أويل) فقلب، فوزنه أفلع. وردّ بأن الويل غير متصرف، وأن القلب خلاف الأصل، وفيه نظر. وقد قيل: إنه فَعلى، من آل يؤول. وقال الرضي: إنه علم للوعيد، وهو مبتدأ و (لهم) خبره. وقد سمع فيه (أولاة) بتاء تأنيث. وهو كما قيل، يدل على أنه ليس بأفعل تفضيل، ولا أفعل فُعلى، وأنه علم وليس بفعل، بل مثل أرمل وأرملة، إذا سمي بهما، فلذا لم ينصرف. ولا اسم فعل، لأنه سمع فيه (أولاةٌ) معرباً مرفوعاً، ولو كان اسم فعل بني. وفيه أنه لا مانع من كون (أولاة) لفظاً آخر بمعناه، فلا يرد شيء منه عليهم أصلاً، كما جاء (أوّل) أفعل تفضيل، واسم ظرف كـ (قبل) وسمع فيه (أوّلة) - كما نقله أبو حيان - فلا يرد النقض به كما لا يخفى. انتهى.

قال السمين: إذا قلنا باسميته. ففيه أوجه:

أحدها - أنه مبتدأ، و (لهم) خبره، تقديره: فالهلاك لهم.

والثاني - أنه خبر مبتدأ مضمر، تقديره: العقاب أو الهلاك أولى لهم، أي أقرب وأدنى، ويجوز أن تكون اللام بمعنى الباء. أي أولى وأحق بهم.

الثالث - أنه مبتدأ، و (لهم) متعلق به، واللام بمعنى الباء، و (طاعة) خبره، والتقدير: فأولى بهم طاعة دون غيرها، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ فيه أوجه:

أحدها - أنه خبر (أولى) على ما تقدم.

الثاني - أنها صفة السورة. أي: فإذا أنزلت سورة محكمة طاعة، أي: ذات طاعة، أو مطاعة. ذكره مكيّ وأبو البقاء. وفيه بعد، لكثرة الفواصل.

الثالث - أنها مبتدأ، و (قول) عطف عليها، والخبر محذوف. تقديره: أمثل بكم من غيرهما. وقدره مكيّ: منا طاعة، فقدّره مقدماً.

الرابع – أن يكون خبر مبتدأ محذوف. أي أمرنا طاعة.

الخامس – أن (لهم) خبر مقدم و(طاعة) مبتدأ مؤخر. والوقف والابتداء يعرفان مما قدمته، فتأمل – أفاده السمين –.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾ أي: جدّ الحال، وحضر القتال: قال أبو السعود: أسند العزم، وهو الجد، إلى الأمر، وهو لأصحابه، مجازاً. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧]، وعامل الظرف محذوف. أي خالفوا وتخلفوا. وقيل ناقضوا. وقيل: كرهوا. وقيل: هو قوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ اللّهَ﴾ على طريقة قولك: إذا حضرني طعام، فلوجئتني لأطعمتك. أي: فلو صدقوه تعالى فيما قالوه من الكلام المنبئ عن الحرص على الجهاد، بالجري على موجبه ﴿لَكَانَ﴾ أي الصدق ﴿خَيْراً لَهُمْ﴾ أي في عاجل دنياهم، وآجل معادهم. قيل: فلو صدقوه في الإيمان، وواطأت قلوبهم في ذلك ألسنتهم. وأيّاً ما كان، فالمراد بهم الذين في قلوبهم مرض، وهم المخاطبون بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن تنزيل اللّه تعالى، وفارقتم أحكام كتابه، وما جاء به رسوله ﴿أَن تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ﴾ أي بالتغاور والتناهب ﴿وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ﴾ أي تعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم من التشتت والتفرق، بعد ما جمعكم اللّه بالإسلام، وألف به بين قلوبكم، وأمركم بالإصلاح في الأرض، وصلة الأرحام. وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال، وبذل الأموال. وقد ساق ابن كثير هنا من الأحاديث في صلة الرحم لباب اللباب.

القول في تأويل قوله تعالى:

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ﴾ أي عن استماع الحق لتصامّهم عنه بسوء اختيارهم ﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ أي لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾

﴿**أفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ**﴾ قال ابن جرير: أي أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه السلام، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون. ﴿**أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ أي فلا يصل إليها ذكر، ولا ينكشف لها أمر. وتنكير (القلوب) للإشعار بفرط جهالتها ونُكرها، كأنها مبهمة منكورة. و(الأقفال) مجاز عما يمنع الوصول. وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميز لها عما عداها؛ وللإشارة إلى أنها لا تشبه الأقفال المعروفة، إذ لا يمكن فتحها أبداً.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾

﴿**إنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِهِم**﴾ أي عادوا لما كانوا عليه من الكفر ﴿**مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى**﴾ أي الحق بواضح الحجة.

﴿**الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ**﴾ أي زين لهم ارتدادهم وحملهم عليه ﴿**وَأَمْلَى لَهُمْ**﴾ أي ومدّ لهم في الآمال والأمانيّ، أو أمهلهم الله تعالى، فمد في آجالهم، ولم يعاجلهم بالعقوبة. والمعنى: الشيطان سول لهم، والله أملى لهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾

﴿**ذَلِكَ**﴾ إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم، ﴿**بِأَنَّهُمْ**﴾ أي بسبب أنهم ﴿**قَالُوا**﴾ أي المنافقون ﴿**لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَانَزَّلَ اللَّهُ**﴾ أي لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ ﴿**سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ**﴾ أي بعض أموركم، أو ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد، والتظاهر على الرسول، أو الخروج معهم إن أخرجوا، كما أوضح ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافقوا يَقُولُون لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيع فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾[الحشر: ١١]، وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادّونهم.

﴿**واللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ**﴾ أي: إخفاءهم لما يقولونه لليهود.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

﴿**فَكَيْفَ**﴾ أي: يفعلون ويدفعون ضرر الردة عليهم ﴿**إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ**﴾ أي: التي ولوها عن الله إلى أعدائه ﴿**وَأَدْبَارَهُمْ**﴾ أي التي ولوها عن الأعداء إلى الله.

﴿**ذَلِكَ**﴾ أي التوفي الهائل ﴿**بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُواْ مَا أَسْخَطَ اللَّهَ**﴾ أي من إطاعة أعدائه، ﴿**وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ**﴾ أي في معاداتهم، فأدى بهم إلى الردة ﴿**فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾ أي التي كانت تفيدهم النجاة من ذلك الضرب، ومن الفضائح الدنيوية.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾

﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾ أي نفاق تفرع منه أضغان على رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿**أَن لَّن يُخْرِجَ**﴾ أي يظهر ﴿**اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ**﴾ أي أحقادهم لرسوله وللمؤمنين، فتبقى أمورهم مستورة. والمعنى: أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

﴿**وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ**﴾ أي لعرّفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية ﴿**فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ**﴾ أي بعلامتهم التي نسمهم بها ﴿**وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ أي أسلوبه وما يرومون من غير إيضاح به.

قال في (الإكليل): استدل بالآية من جعل التعريض بالقذف موجباً للحد.

﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ**﴾ أي فيجازيكم بحسب قصدكم.

﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ**﴾ أي أهل المجاهدة في سبيل الله، والصبر على المشاق ﴿**وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ**﴾ أي أفانين أقوالكم، وضروب

بياناتكم، وأعمال قوة ألسنتكم في نشر الحق والصدع به والدأب عليه، هل هو متمحض لذلك، أم فيه ما فيه من المحاباة خيفة لوم اللائم.

قال القاشانيّ: علمُ اللّه تعالى قسمان: سابقٌ على معلوماته إجمالاً في لوح القضاء، وتفصيلاً في لوح القدر، وتابع إياها في المظاهر التفصيلية من النفوس البشرية، والنفوس السماوية الجزئية. فمعنى ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ حتى يظهر علمنا التفصيليّ في المظاهر الملكوتية والإنسية، التي يثبت بها الجزاء - واللّه أعلم -.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقُّواْ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي فتذهب سدى، لا تثمر لهم نفعاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ﴾ أي لكن يعذبهم ويعاقبهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾

﴿فَلاَ تَهِنُواْ﴾ أي فلا تضعفوا أيها المؤمنون باللّه عن جهاد الذين اعتدوا عليكم، وصدوا عن سبيل اللّه، ﴿وَتَدْعُواْ إِلَى السَّلْمِ﴾ أي الصلح والمسالمة ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أي الأغلبون، فإن كسح الضلال من طريق الحق لامتندح عنه، ما تيسرت أسبابه، وقهرت أربابه ﴿وَاللّهُ مَعَكُمْ﴾ أي بنصره ما تمسكتم بحبله ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لن ينقصكم ثوابها ويضيعها.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي فلا تدعكم الرغبة في الحياة إلى ترك الجهاد ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي لأنه غنيّ عنكم، وإنما يريد منكم التوحيد، ونبذ الأوثان، والطاعة لما أمر به ونهى عنه.

قال بعض المفسرين: أي لا يسألكم جميع أموالكم، بل يقتصر منكم على جزء يسير، كربع العشر وعشره. إشارة إلى إفادة الجمع المضاف للعموم، وهو معطوف على الجزاء. والمعنى: إن تؤمنوا لا يسألكم الجميع، أي: لايأخذه منكم، كما يأخذ من الكفار جميع أموالهم. ولا يخفى حسن مقابلته لقوله ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي يعطكم كل الأجور، ويسألكم بعض المال - هذا ما قاله الشهاب -.

والظاهر أن المراد بيان غناه تعالى عن عباده، وأن طلب إنفاق الأموال منهم، لعود نفعه إليهم لا إليه، لاستغنائه المطلق، فإن في الصدقات دفع أحقاد صدور الفقراء عنهم، وفي بذله للجهاد دفع غائلة الشرور والفساد، وكله مما يعود ثمرته عليهم.

ثم أشار تعالى إلى حكمته ورحمته في عدم سؤاله إنفاق أموالهم كلها، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ أي فيجهدكم بالمسألة، ويلح عليكم بطلبها منكم، تبخلوا بها وتمنعوها، ضناً منكم بها، ولكنه علم ذلك منكم، ومن ضيق أنفسكم، فلم يسألكموها.

قال الزمخشريّ: الإحفاء المبالغة، وبلوغ الغاية في كل شيء. يقال (أحفاه في المسألة) إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح، و (أحفى شاربه) إذا استأصله.

﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ أي أحقادكم، وكراهتكم لدينٍ يذهب بأموالكم. وضمير (يخرج) لله تعالى، ويعضده القراءة بنون العظمة. أو للبخل لأنه سبب الأضغان.

وقرئ (يخرج) من الخروج، بالياء والتاء، مسنداً إلى الأضغان.

القول في تأويل قوله تعالى:

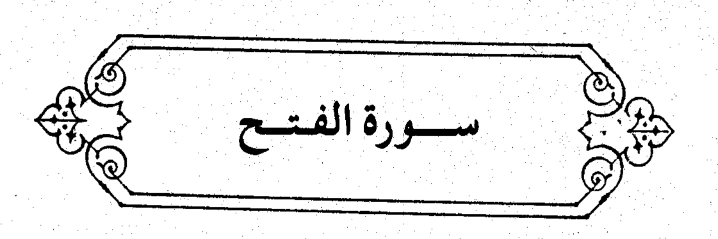
هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

﴿ هَا أَنْتُمْ هؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي في جهاد أعدائه، ونصرة دينه ﴿ فَمِنْكُمْ مَّن يَبْخَلُ ﴾ أي بالنفقة فيه. ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي يمسكه عنها، لأنه يحرمها الأجر، ويكسبها الوزر ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أي: عن كل ماسواه، وكلُّ شيءٍ فقير إليه. ولهذا قال سبحانه ﴿ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ أي بالذات إليه. فوصفُه بالغنى وصفٌ لازم له، ووصفُ الخلق بالفقر وصف لازم لهم، لا ينفكون عنه، أي وإذا كان كذلك، فإنما حضكم في النفقة في سبيله ليكسبكم بذلك، الجزيلَ من ثوابه. وليعلم أن سبيل اللّه يشمل كل ما فيه نفع وخير، وفائدة وقربة ومثوبة. وإنما اقتصرَ المفسرون على الجهاد لأنه فرده الأشهر، وجزئيّه الأهم، وقت نزول الآيات، وإلا فلا ينحصر فيه.

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾ أي عما جاءكم به محمد ﷺ ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ أي يهلككم ثم يأتي بقوم آخرين غيركم، بدلاً منكم، يؤمنون به، ويعملون بشرائعه.

﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أي لا يبخلوا بما أُمروا به من النفقة في سبيل اللّه، ولا يضيعون شيئاً من حدود دينهم، ولكنهم يقومون بذلك كله، على ما يؤمرون به.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الفتح

سميت به لدلالتها على فتح البلاد والحجج والمعجزات والحقائق، وقد ترتب على كل واحد منها المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر العزيز. وكل هذه أمور جليلة – أفادة المهايميّ –.

وآيها تسع وعشرون، وهي مدنية. نزلت مرجعَ رسول اللّه ﷺ من الحديبية سنة ست من الهجرة، عِدَةً له بالفتح. قال أنس: لما رجعنا من الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نسكنا، فنحن بين الحزن والكآبة، فنزلت. واختلف في المكان الذي نزلت فيه، فوقع عند محمد بن سعد (بضَجْنَان) وهي بفتح المعجمة وسكون الجيم ونون خفيفة .وعند الحاكم في – الإكليل – بكراع الغميم. وعن أبي معشر (بالجحفة).

قال الحافظ ابن حجر: والأماكن الثلاثة متقاربة. وروى البخاريّ أن النبيّ ﷺ قال – وهو في بعض أسفاره – لعمر: لقد أنزلت عليّ الليلةَ سورة، لهي أحبّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس.

وأخرج أيضاً عن عبد اللّه بن مغفّل قال: قرأ النبيّ ﷺ يوم فتح مكة سورة الفتح، فرجّع فيها.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ قال الرازيّ: في الفتح وجوه:

أحدها – فتح مكة، وهو ظاهر.

وثانيها – فتح الروم وغيرها.

وثالثها – المراد من الفتح، صلح الحديبية.

ورابعها – فتح الإسلام بالحجة والبرهان، والسيف والسنان.

وخامسها – المراد منه الحكم، كقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقوله ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ [سبأ: ٢٦]. انتهى.

ولا يخفى أن الوجوه المذكورة كلها، مما يصدق عليها الفتح الربانيّ، وجميعها مما تحقق مصداقه. إلا أن سبب نزول الآية، الذي حفظ الثقات زمنه، يبين المراد من الفتح بياناً لا خلاف معه، وهو أنه الوجه الثالث المذكور.

قال الإمام ابن كثير: نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول اللّه ﷺ من الحديبية، في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، ليقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا، ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك، على تكرّهٍ من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب، رضي اللّه عنهم، كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء اللّه تعالى. فلما نحر ﷺ هديه حيث أُحْصِرَ ورجع، أنزل اللّه عز وجل هذه السورة، فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً، باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روي عن ابن مسعود رضي اللّه عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. وعن جابر رضي اللّه عنه قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم

الحديبية. روى البخاريّ[١] عن البراء رضي الله عنه قال: (تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان، يوم الحديبية).

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: نزلت على النبيّ ﷺ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية. قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت عليّ آية أحب إليّ مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبيّ صلّى الله عليه وسلم – أخرجاه في الصحيحين[٢] من رواية قتادة به –.

وروى الإمام أحمد[٣] عن مجمّع بن جارية الأنصاريّ رضي الله عنه – وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن – قال: شهدنا الحديبية، فلما انصرفناعنها، إذا الناس ينفرون الأباعر. فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نرجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً**﴾.

قال، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أي رسولَ الله! أو فتح هو؟ قال ﷺ: أي والذي نفس محمد بيده! إنه لفتح. ورواه أبو داود في الجهاد.

ثم قال ابن كثير: فالمراد بقوله ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً**﴾ – أي بيناً ظاهراً – هو صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وأمِن الناس، واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان. انتهى.

وقال الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد) في الكلام على ما في غزوة الحديبية من الفقه واللطائف، ما مثاله:

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم، أمِنَ الناس به، وكلّم بعضهم بعضاً، وناظره في الإسلام، وتمكّن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه، والدعوة إليه، والمناظرة عليه، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام. ولهذا سماه الله فتحاً في قوله ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً**﴾ نزلت في الحديبية، فقال عمر: يارسول الله! أو فتح هو؟ قال: نعم. وأعاد سبحانه ذكر كون ذلك فتحاً قريباً. وهذا شأنه سبحانه أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها،

---

(١) أخرجه البخاري في: المغازي، ٣٥– باب غزوة الحديبية، حديث ١٦٨٦.

(٢) أخرجه مسلم في: الجهاد، حديث ٩٧.

(٣) أخرجه في المسند ٣/ ٤٢٠.

المنبئة لها وعليها، كما قدم بين يدي قصة المسيح وخلقه من غير أب، قصة زكريا، وخلق الولد له، مع كونه كبيراً، لا يولد لمثله. وكما قدم بين يدي نسخ القبلة، قصة البيت وبنائه وتعظيمه والتنويه به، وذكر بانيه، وتعظيمه ومدحه. ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ وحكمته المقتضية له، وقدرته الشاملة له. وهكذا ما قدم بين يدي مبعث رسول الله ﷺ من قصة الفيل، وبشارات الكهان به، وغير ذلك. وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول الله ﷺ كانت مقدمة بين يدي الوحي في اليقظة. وكذلك الهجرة، كانت مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد. ومن تأمّل أسرار الشرع والقدر، رأى من ذلك ما تبهر حكمته أولي الألباب. انتهى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ قال أبو السعود: غاية للفتح، من حيث إنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام في إعلاء كلمة الله تعالى، بمكابدة مشاقّ الحروف، واقتحام موارد الخطوب. ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي جميع ما فرط منك، من ترك الأوْلى. وتسميته ذنباً، بالنظر إلى منصبه الجليل.

قال ابن كثير: هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره. وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال كغيره، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبرّ والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين، ولا من الآخرين. وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله تعالى لله، وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه، قال حين بركت به الناقة: حبسها حابس الفيل. ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده! لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها، فلما أطاع الله في ذلك، وأجاب إلى الصلح، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً...﴾ الآيات».

وقوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي بإظهاره إياك على عدوّك، ورفعه ذكرك. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ أي ويرشدك طريقاً من الدين لا عوج فيه. قال أبو السعود: أصل الاستقامة، وإن كانت حاصلة قبل الفتح، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه، ما لم يكن حاصلاً قبلُ.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣﴾

﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ أي قوياً منيعاً، لا يغلبه غالب، ولا يدفعه دافع، للبأس الذي يؤيدك الله به، والظفر الذي يمدك به.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٤﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي السكون والطمأنينة إلى الإيمان والحق. ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي يقيناً منضماً إلى يقينهم.

قال القاشاني: السكينة نور في القلب يسكن به إلى شاهده ويطمئن. وهو من مبادئ عين اليقين، بعد علم اليقين، كأنه وجدانٌ يقينيّ معه لذة وسرور.

﴿وَللَّه جُنُودُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ﴾ أي أنصار ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي في تقديره وتدبيره.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا ٥﴾

واللام في قوله تعالى ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ متعلق بمحذوف، نحو: أمر بالجهاد ليُدخل... الخ. أو دبّر ما دبّر مما ذكر لذلك، أو متعلق بـ﴿فَتَحْنَا﴾ على تعلق الأول به مطلقاً، وهذا مقيداً، أو بقوله ﴿لِيَزْدَادُوا﴾. ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٦﴾

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أي ظن الأمر السوء، وهو أن لاينصر تعالى رسوله والمؤمنين. ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ أي بالتعذيب في الدنيا بأنواع الوقائع، كالقتل والإهانة والإذلال. وقرئ ﴿ دَائِرَةُ السُّوْءِ ﴾ بالضم، وهما لغتان من (ساء) كالكُرْه والكَرْه. ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بالقهر والحجب. ﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ أي بالطرد والإبعاد في الآخرة. ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّموَاتِ والأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ قيل في سر التكرير: إنه ذكر سابقاً على أن المراد به أنه المدبر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته، فلذلك ذيله بقوله ﴿ عَلِيماً حَكِيماً ﴾، وهنا أريد به التهديد بأنهم في قبضة قدرة المنتقم، فلذا ذيله بقوله ﴿ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ فلا تكرار. وقيل: إن الجنود جنود رحمة، وجنود عذاب، وأن المراد هنا الثاني، ولذا تعرّض لوصف العزة. وقال القاشاني: كررها ليفيد تغليب الجنود الأرضية على السماوية في المنافقين والمشركين، بعكس ما فعل بالمؤمنين. وبدّل ﴿ عَلِيماً ﴾ بقوله ﴿ عَزِيزاً ﴾ ليفيد معنى القهر والقمع، لأن العلم من باب اللطف، والعزة من باب القهر.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ أي على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه ﴿ وَمُبَشِّراً ﴾ أي لمن استجاب لك بالجنة ﴿ وَنَذِيراً ﴾ أي لمن خالفك بالنار.

القول في تأويل قوله تعالى:

لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

﴿ لِتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي تؤيدوا دينه وتقرّوه ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي تعظّموه ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أي غدوة وعشياً - على ظاهره - أو دائماً، بجعل طرفي النهار كناية عن الجميع، كما يقال (شرقاً وغرباً) لجميع الدنيا. والضمائر كلها - على ما ذكرنا - للّه، وجوّز إعادة الأولين للرسول، والأخير للّه إلا أن فيه تفكيكاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أي على قتال قريش تحت الشجرة، وأن لا يفرّوا عند لقاء العدوّ، ولا يولوهم الأدبار. ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أي لأن عقد الميثاق مع رسول اللّه، كعقده مع اللّه، من غير تفاوت، لأن المقصود من توثيق العهد مراعاة أوامره تعالى ونواهيه. ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد لما قبله. أي أن يد اللّه عند البيعة فوق أيديهم، كأنهم يبايعون اللّه ببيعتهم نبيّه ﷺ. وقال القاشاني: أي قدرته البارزة في يد الرسول، فوق قدرتهم البارزة في صور أيديهم، فيضرهم عند النكث، وينفعهم عند الوفاء.

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أي نقض عهده ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِه﴾ أي لعود ضرر ذلك عليه خاصة. ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيه أَجْراً عَظِيماً﴾ وهو الجنة.

تنبيه:

هذه البيعة هي بيعة الرضوان. وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية. وكان الصحابة الذين بايعوا رسول اللّه ﷺ يومئذ ألفاً وأربعمائة، وقيل: وثلاثمائة، وقيل: خمسمائة. والأول أصح - على ما قاله ابن كثير - وقد اقتص سيرتها غير واحد من الأئمة. ولما كانت هذه السورة الجليلة كلها في شأنها، لزم إيرادها مفصلة.

قال ابن إسحاق: خرج النبيّ ﷺ في ذي القعدة معتمراً، لا يريد حرباً. واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدّوه عن البيت. فأبطأ عليه كثير من الأعراب. وخرج رسول اللّه ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت، ومعظماً له.

وقال الإمام ابن القيّم: قصة الحديبية كانت سنة ست في ذي القعدة. وكان معه ألف وخمسمائة. هكذا في الصحيحين[1] عن جابر. وفيهما [2]عن عبد اللّه بن

---

(١) أخرجه البخاري في: المغازي، ٣٥- باب غزوة الحديبية، حديث ١٦٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في: المغازي، ٣٥- باب غزوة الحديبية، حديث ١٨٩٤.

أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاثمائة. وعن جابر فيهما[١]: كانوا ألفاً وأربعمائة – والقلب إلى هذا أميل – وهو قول البراء بن عازب، ومعقل بن يسار، وسلمة بن الأكوع. ثم لما كانوا بذي الحليفة قلّد رسول الله ﷺ الهدي وأشعر وأحرم بالعمرة، وبعث عيناً له بين يديه من خزاعة، يخبره عن قريش، حتى إذا كان قريباً من عسفان، أتاه عينه فقال: إني تركت كعب بن لؤيّ، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت. واستشار النبيّ ﷺ أصحابه وقال: أترون أن نميل إلى ذراريّ هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا يكن عُنُق قطعها الله؟ أم ترون أن نؤم البيت، فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم! إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد. ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبيّ ﷺ: فروحوا إذن. فراحوا، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبيّ ﷺ: إن خالد بن الوليد بالغميم، في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين، فوالله! ما شعر بهم خالد حتى إذا هو بعترة الجيش. فانطلق يركض نذيراً لقريش. وسار النبيّ ﷺ حتى إذا كان بالثنيَّة التي يهبط عليهم، بركت راحلته. فقال الناس: حَلْ حَلْ، فألحّت: فقالوا: خلأت القصواء! خلأت القصواء! فقال النبيّ ﷺ: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلُق، ولكن حبسها حابس الفيل! ثم قال: والذي نفسي بيده! لا يسالوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتموها. ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء إنما يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه. قال، فوالله! ما زال يجيش لهم بالريّ، حتى صدروا عنه. وفزعت قريش لنزوله عليهم، فاحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم، فقال: يا رسول الله! ليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوذيت، فأرسلْ عثمان بن عفان فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش وقال: أخبرهم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عمّاراً، وادعهم إلى الإسلام. وأَمَرَهُ أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم، ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عزّ وجلّ مظهرٌ دينَه بمكة، حتى لا يستخفي فيها بالإيمان. فانطلق عثمان، فمر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ونخبركم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عمّاراً. فقالوا:

---

(١) أخرجه البخاري في: المغازي، ٣٥- باب غزوة الحديبية، حديث ١٦٨٥.

قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك. وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه. فحمل عثمانَ على الفرس وأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة. وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به. فقال رسول الله ﷺ: ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون! فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله، وقد خلص قال: ذاك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معاً. واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم. وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل. فدعا إلى البيعة، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا. فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال: هذه عن عثمان. ولما تمت البيعة رجع عثمان. فقال المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت؟ فقال: بئس ما ظننتم بي! والذي نفسي بيده! لو مكثت بها سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية، ما طفت بها، حتى يطوف بها رسول الله ﷺ. ولقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت! فقال المسلمون: رسول الله ﷺ كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً. وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم، إلا الحرّ بن قيس، وكان معقل بن يسار آخذاً بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ. وكان أول من بايعه أبو سنان الأسديّ، وبايعه سَلَمَة بن الأكوع ثلاث مرات، في أول الناس وأوسطهم وآخرهم. فبينا هم كذلك إذ جاء بديل ورقاء الخزاعيّ في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال: إني تركت كعب بن لؤيّ وعامر بن لؤيّ نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت. قال رسول الله ﷺ: إنا لم نجئ لقتال أحد. ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم: فإن شاؤوا أُماددهم ويخلّوا بيني وبين الناس. وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمّوا. وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده! لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره قال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعته يقول قولاً، فإن شئتم عرضته عليكم. فقال سفهاؤهم: لاحاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته. قال سمعته يقول كذا وكذا. فقال عروة بن مسعود الثقفيّ: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آته. فقالوا: ائته. فأتاه، فجعل يكلمه. فقال النبيّ ﷺ نحواً من

قوله لبديل. فقال له عروة عند ذلك: أي محمد! أرأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن أخرى، فوالله إني لأرى وجوهاً، وأرى أوشاباً من الناس، خليقاً أن يفروا ويدعوك! فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات! أنحن نفر عنه وندعه! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده! لولا يد كانت لك عندي لم أُجْزِكَ بها، لأجبتك! وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما كلمه أخذ بلحيته. والمغيرة بن شعبة على رأس النبيّ ﷺ ومعه السيف، وعليه المغفر. فكلما أهوى عروة إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال: أخّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غُدَر! أو لست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية. فقتلهم، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبيّ ﷺ: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء.

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ. فو الله! ما تنخم النبيّ ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها جلده ووجهه، وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيماً له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم! لقد وفدت على المَلوك: على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمداً. واللهَ! إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيماً له. وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبيّ ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: هذا فلان، وهو من قوم يعظّمون البُدْن، فابعثوها له، فبعثوها له، واستقبله القوم يلبّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت، فرجع إلى أصحابه فقال: رأيت البُدْن قد قُلّدَت وأُشْعِرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبيّ ﷺ: هذا مكرز بن حفص، وهو رجل فاجر فجعل يكلّم رسول الله ﷺ، فبينا هو يكلّمه، إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبيّ ﷺ: قد سهل لكم من أمركم، فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً. فدعا الكاتب، فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبيّ ﷺ: اكتب: باسمك اللهم. ثم

قال: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: فوالله! لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبيّ ﷺ: إني رسول الله وإن كذبتموني! اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبيّ ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل: والله! لا تتحدث العرب أننا أُخذْنا ضغطةً، ولكن لك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا. فقال المسلمون سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين، وقد جاء مسلماً؟! فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل ابن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين. فقال سهيل: هذا يا محمد أول من قاضيتك عليه أن ترده، فقال النبيّ ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد، فقال: فوالله! إذن لا أصالحك على شيء أبداً. فقال النبيّ ﷺ: فاجره لي قال: ما أنا بمجيره لك، قال: بلى، فافعل. قال ما أنا بفاعل. قال مكرز: قد أجزناه لك. فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين! أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت – وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله – قال عمر ابن الخطاب: والله! ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله! ألست نبيّ الله؟ قال: بلى! قلت: ألسنا على الحق، وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى! فقلت: على مَ نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه. قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى! أفأخبرتك أنك تأتيه العامَ؟ قلت: لا! قال: فإنك آتيه، وتطوف به! قال فأتيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، وردّ عليه أبو بكر كما ردّ عليه رسول الله ﷺ سواءً، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت فوالله! إنه لعلى الحق. قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً. فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ: قوموا وانحروا ثم احلقوا. فوالله! ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سَلَمَة، فذكر لها مالقي من الناس، فقالت أم سلمة: يارسول الله! أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بُدنك، وتدعو حالقك فيحلق لك. فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم، حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً. ثم جاءت نسوة مؤمنات.، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠]، حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك. فتزوج إحداهما معاوية، والأخرى صفوان بن أمية.

ثم رجع إلى المدينة، وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ...﴾ الآيات. فقال لعمر: أفتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: نعم! فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله! فمالنا! فأنزلنا الله عزَّ وجلَّ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ....﴾ [الفتح:٤]، الآية. ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير - رجل من قريش - مسلما، فأرسلوا في طلبه رجلين، وقالوا: العهد الذي جعلت لنا! فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به، حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت. فقال أبو بصير أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفرّ الآخر يعدو، حتى بلغ المدينة، فدخل المسجد، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعراً. فلما انتهى إلى النبيّ ﷺ قال: قُتل، والله! صاحبي، وإني لمقتول. وجاء أبو بصير فقال: يانبيّ الله! قد أوفى الله ذمتك، وقد رددتني إليهم، فأنجاني الله منهم. فقال النبي ﷺ: ويل أمّه! مِسْعَرَ حرب لو كان له أحد. فلما سمع ذلك علم أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيف البحر، وتفلّت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله! لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. وأرسلت قريش إلى النبيّ ﷺ تناشده الله والرحم لَمَّا أرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن، فأنزل الله عز وجلّ ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [الفتح: ٢٤] الآية. وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض، وأن يرجع عنهم عامهم ذلك، حتى إذا كان العام المقبل، قدمها، وخلّوا بينه وبين مكة، فأقام بها ثلاثاً، وأنه لا يدخلها إلا سلاح الراكب، والسيوف في القرب، وأن من أتانا من أصحابكم لم نردّه عليك، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا، وأن بيننا وبينك عَيْبَةً مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال. فقالوا: يارسول الله! نعطيهم هذا؟ فقال: من أتاهم منا، فأبعده الله، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم، جعل الله له فرجاً ومخرجاً.

هذا ولينظر تتمة ما في فوائد هذه الغزوة ولطائفها في (زاد المعاد).

القول في تأويل قوله تعالى:

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ قال مجاهد: هم أعراب المدينة، كجهينة ومزينة، استتبعهم رسول الله ﷺ لخروجه إلى مكة، فقالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاؤوه، فقتلوا أصحابه، فنقاتلهم. فاعتلوا بالشغل. أي سيقولون لك إذا عاتبتهم على التخلف عنك: شغلنا عن الخروج معك معالجة أموالنا، وإصلاح معايشنا، والخوف على أهلنا من الضيعة، فاستغفر لنا ربنا.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم، وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون، وإنما هو الشك في الله، والنفاق. وكذا طلبهم للاستغفار أيضاً، ليس بصادر عن حقيقة، لأنه بغير توبة منهم. ولا ندم على ما سلف منهم من معصية التخلف. وفيه إيذان بأن اللسان لا عبرة به، ما لم يكن مترجماً عن الاعتقاد الحق.

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَراً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ أي لا أحد يمنعه تعالى من ذلك، لأنه لا يغالبه غالب. إشارة إلى عدم فائدة استغفاره لهم، مع بقائهم على كذبهم ونفاقهم، ولذا هددهم بقوله سبحانه ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ أي فيجازيكم عليه.

لطيفة:

قال الناصر: لا تخلو الآية من الفن المعروف عندعلماء البيان باللف. وكان الأصل – والله أعلم –: فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً. لأن مثل هذه النظم يستعمل في الضر. وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطرداً، كقوله: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّه شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿وَمَن يُرِدْ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّه شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّه شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٨]. ومنه قوله ﷺ في بعض الحديث[1]: إني لا أملك لكم شيئاً – يخاطب عشيرته – وأمثاله كثيرة. وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام، ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه، وليس كذلك حرمان المنفعة، فإنه ضرر عائد عليه، لا له. فإذا ظهر ذلك، فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه، لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع المقدر من خير

(١) أخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٣٥٠.

وشر، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة. وخص عبارة دفع الضر، لأنه هو المتوقع لهؤلاء، إذ الآية في سياق التهديد، أو الوعيد الشديد. وهي نظير قوله: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، فإن العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة. فهاتان الآيتان يرامان في التقرير الذي ذكرته - والله أعلم -.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أن لَن ينقَلِبَ﴾ أي اعتقدتم أنه لن يرجع **﴿الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبداً﴾** أي بل تستأصلهم قريش. **﴿وَزُيِّنَ ذَلِكَ في قُلُوبكُمْ﴾** أي حسَّن الشيطان ذلك وصححه، حتى حبب لكم التخلف. **﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾** وهو عدم نصر الرسول، وعدم رجوعهم من سفرهم هذا. **﴿وكُنتُمْ قَوْماً بُوراً﴾** هالكين، مستوجبين لسخط الله، أو فاسدين في أعمالكم ونياتكم.

﴿وَمَن لَمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً﴾ أي: من النار تسعتر عليهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ قال ابن جرير: هذا من الله جل ثناؤه حثٌّ لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله ﷺ، على التوبة والمراجعة إلى أمر الله، في طاعة رسوله ﷺ. يقول لهم: بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله ﷺ، فإن الله يغفر للتائبين، لأنه لم يزل ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومعاصيهم من عباده، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

﴿**سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ**﴾ أي بعذر الاشتغال بأموالهم وأهليهم بعد طلبهم الاستغفار لهم ﴿**إِذَا انطَلَقْتُمْ**﴾ أي قصدتم السير ﴿**إِلَى مَغَانِمَ**﴾ أي أماكنها. قال ابن جرير: وذلك ما كان وعد الله أهل الحديبية من غنائم خيبر ﴿**ذَرُونَا**﴾ أي اتركونا في الانطلاق إليها ﴿**نَتَّبِعْكُمْ**﴾ أي نشهد معكم قتال أهلها ﴿**يُرِيدُونَ**﴾ أي بعد ظهور كذبهم في الاعتذار، وطلب الاستغفار ﴿**أَن يُبَدِّلُواْ كَلامَ اللَّهِ**﴾ قال ابن جرير: أي وعد الله الذي وعد أهل الحديبية، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم، ووعدهم ذلك عوضاً من غنائم أهل مكة، إذ انصرفوا عنها على صلح، ولم يصيبوا منهم شيئاً.

وقال آخرون: بل عنى بقوله: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلامَ اللَّهِ**﴾ إرادتهم الخروج مع نبيّ الله ﷺ في غزوة. وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة التوبة: ﴿فَاسْتَئْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً﴾ [التوبة: ٨٣]، والأكثرون على الأول. وذلك أن النبيّ ﷺ رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية، ففتحها وغنم أموالاً كثيرة، فخصها بهم.

قال الشراح: وكان ذلك بوحي. ثم كانت غزوة تبوك بعد فتح خيبر، وبعد فتح مكة أيضاً. وفي منصرفه من تبوك نزل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَئْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ...﴾ [التوبة: ٨٣] الآية. فكيف يحمل على ما كان في غزوة الحديبية، وقد نزل بعدها بكثير؟ - والله أعلم -.

﴿**قُلْ لَّن تَتَّبِعُونَا**﴾ أي إلى خيبر إذا أردنا السير إليهم. وهو نفي في معنى النهي. قال الشهاب: فالخبر مجاز عن النهي الإنشائي، وهو أبلغ.

﴿**كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ**﴾ قال ابن جرير: أي من قبل مرجعنا إليكم. إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا، ولستم ممن شهدها، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر، لأن غنيمتها لغيركم ﴿**فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا**﴾ أي أن نصيب معكم مغنماً إن نحن شهدنا معكم، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم. قال الشهاب: وهو

إضراب عن كونه بحكم الله. أي بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً.

﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أي عن الله تعالى ما لهم وعليهم من أمر الدين ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي فهماً قليلاً، وهو ما كان في أمور الدنيا، كقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم:٧].

القول في تأويل قوله تعالى:

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

﴿ قُلْ لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ ﴾ أي عن المسير معك ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي يفوق قتال من أقاتلهم، بحيث لا دخل للصلح والأمن فيه، بل ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ أي يدخلون في الدنيا من غير حرب ولا قتال. وقرئ شاذاً ﴿ أو يسلموا ﴾ بمعنى إلا أن يسلموا، أو حتى يسلموا. ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً ﴾ يعني الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ أي عن الحديبية ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي لتضاعف جرمكم.

ثم خص من هذا الوعيد أصحاب الأعذار، وإن حدثت بعد التخلف الأول، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ قال المهايمي: وإن أمكنة القتال بإحساس صوت مشي العدوّ، ومشي فرسه، لكن يصعب عليه حفظ نفسه عنه. ﴿ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ أي وإن أمكنه القتال قاعداً، لكن لا يمكنه الكرّ والفرّ، ولا يقوى قوة القائم ﴿ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ أي فإنه وإن أمكنه الإبصار والقيام، فلا قوة له في دفع العدوّ، فضلاً عن الغلبة عليه.

ثم أشار تعالى إلى أن هؤلاء، وإن فاتهم الجهاد، لا ينقص ثوابهم إذا أطاعوا الله ورسوله، بقوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي عن إطاعتهما، وإن كان أعْمى أو أعرج أو مريضاً ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي بالمذلة دنيا، والنار أخرى.

تنبيه:

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين هم (أُولو بَأْسٍ شديد) – على أقوال:

أحدها – أنهم هوازن.

الثاني – ثقيف، وكلاهما غزاه النبيّ ﷺ.

الثالث – بنو حنيفة الذين تابعوا مسيلمة الكذاب، وغزاهم أبو بكر رضي الله عنه.

الرابع – أهل فارس والروم، الذين غزاهم عمر رضي الله عنه.

ومثار الخلاف هو عموم ظاهر الآية، وشمول مصداقها لكل الغزوات المذكورة. ولو عدّ من الأوجه كفار مكة، لم يبعد، بل عندي هو الأقرب، لأن السين للاستقبال القريب، فإن هذه السورة نزلت عِدَةً بفتح مكة، منصرفه ﷺ من الحديبية، وعلى أثرها كانت غزوة الفتح الأعظم، التي لم يتخلف عنها من القبائل الشهيرة أحد، إذ دعاهم النبيّ ﷺ إلى قتال قريش أو يسلموا، فكان ما كان من إسلامهم طوعاً أو كرهاً – والله أعلم –.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني بيعة أصحاب رسول الله ﷺ بالحديبية، حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب، وعلى أن لا يفرّوا، ولا يولوهم الدبر، تحت شجرة هناك.

وقد أجمع الرواة في الصحاح على أن الشجرة لم تُعْلَمْ بعدُ. ففي الصحيحين[1] من حديث أبي عوانة عن طارق، عن سعيد بن المسيّب قال: كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا من قابل حاجّين، فخفي علينا مكانها، وإن كان بينت لكم، فأنتم أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في: المغازي، ٣٥– باب غزوة الحديبية، حديث ١٨٩٨.

وفيهما أيضاً عن سفيان قال: إنهم اختلفوا في موضعها.

وروى ابن جرير عن قتادة، عن سعيد بن المسيّب قال: كان جدي يقال له (حزن)، وكان ممن بايع تحت الشجرة، فأتيناها من قابل، فَعُمِّيَتْ علينا.

ثم قال ابن جرير: وزعموا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال: أين كانت؟ فجعل بعضهم يقول: هنا، وبعضهم يقول: ها هنا! فلما كثر اختلافهم قال: سيروا، هذا التكلّف، فذهبت الشجرة، وكانت سمرة، إما ذهب بها سيل، وإما شيء سوى ذلك. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح): روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع؛ أن عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة، فيصلّون عندها، فتوعّدهم، ثم أمر بقطعها، فقطعت!.

ولا ينافي ما تقدم، لاحتمال أن هؤلاء علموا مكانها، أو توهّموها، فاتخذوها مسجداً، ومكاناً مقدساً، فقطعها عمر حالتئذ، صوناً لعقيدتهم من الشرك، لأن الاجتماع على العبادة حولها يفضي إلى عبادتها بعدُ، كما أفضى نصب الأوثان إلى عبادتها، وكان أول أمرها لتعظيم مسمياتها، وإجلال مثال أصحابها.

وقال في (الفتح) أيضاً في شرح حديث ابن عمر، وقوله: رجعنا من العام المقبل، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها. كانت رحمة من الله، ما مثاله:

وقد وافق المسيّب بن حزن، والد سعيد، ماقاله ابن عمر من خفاء الشجرة. والحكمة في ذلك أن لا يحصل بها افتتان، لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجّهال لها، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضر، كما نراه الآن مشاهداً فيما هو دونها. وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله (كانت رحمة من الله) أي كان خفاؤها عليهم، بعد ذلك، رحمة من الله تعالى. انتهى.

وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان، سميت لهذه الآية، وتقدمت قصتها مفصلة.

﴿فَعَلِمَ مَافِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من الصدق والعزيمة على الوفاء بالعهد **﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾** أي في الصبر والطمأنينة والوقار. **﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾** قال ابن جرير: أي وعوّضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة، بقتالهم أهلها، **﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾**، وذلك – فيما قيل – فتح خيبر.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وهي مغانم خيبر، وكانت أرضاً ذات عقار وأموال، فقسمها رسول الله ﷺ على أهل بيعة الرضوان خاصة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ أي ذا عزة في انتقامه من أعدائه، وحكمة في تدبير خلقه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ يعني ما يفيء عليهم من غنائم الكفار في سبيل الجهاد. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ يعني غنائم خيبر. وأما الغنائم المؤخرة فسائر فتوح المسلمين بعد ذلك الوقت، إلى قيام الساعة. وقيل: المعجلة هي صلح الحديبية. والصواب هو الأول، كما قاله ابن جرير، لأن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها، من فتح خيبر وغنائمها. ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي أيدي أهل خيبر، فانتصرتم عليهم، أو أيدي المشركين من قريش عنكم في الحديبية. واختار ابن جرير الأول. قال: لأن الثاني سيذكر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ...﴾ الآية. أي والتأسيس خير من التأكيد. ولك أن تقول: لا مانع من التأكيد، لاسيما في مقام التذكير بالنعم، والتنويه بشأنها. وتكون الآية الثانية بمثابة التفسير للأولى، والتبيين لمطلقها - والله أعلم -.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولتكون تلك الكفة أو الغنيمة عبرة للمؤمنين، يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان، وأنه ضامن نصرهم، والفتح لهم. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ أي ويزيدكم بصيرة ويقيناً وثقة بفضل الله. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ معطوف على ﴿هَٰذِهِ﴾ أي فعجّل لكم هذه المغانم، ومغانم أخرى، وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، لأنه قال: ﴿لَمْ

تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ وهذا يدل على ما تقدم محاولة لها. وقال الحسن: هي فارس والروم. قال القرطبيّ: وكونها معجلة، وإن كانت لم تحصل إلا في عهد عمر، بالنسبة لما بعدها من الغنائم الإسلامية.

وعن قتادة: هي مكة. قال ابن جرير: وهذا القول الذي قاله قتادة، أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل. وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها. ومعقول أنه لا يقال لقوم، لم يقدروا على هذه المدينة، إلا أن يكونوا قد راموها فتعذرت عليهم. فأما وهم لم يروموها فتتعذر عليهم، فلا يقال إنهم لم يقدروا عليها. فإذا كان ذلك كذلك، وكان معلوماً أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه، خيبَر لحرب، ولا وجّه إليها لقتال أهلها جيشاً ولا سرية، عُلم أن المعنى بقوله ﴿ وأُخرَى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ غيرها، وأنها هي التي عالجها ورامها فتعذرت، فكانت مكة وأهلها كذلك. وأخبر الله تعالى نبيّه والمؤمنين، أنه أحاط بها وبأهلها. وأنه فاتحها عليهم. انتهى.

وقال القرطبي: معنى ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ أي أعدها لكم، فهي كالشيّء الذي أحيط به من جميع جوانبه، فهو محصور لا يفوت. فأنتم، وإن لم تقدروا عليها في الحال، فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم. وقيل: ﴿ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ علم أنها ستكون لكم، كما قال ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾. وقيل: حفظها الله عليكم، ليكون فتحها لكم. انتهى.

وقد جوّز في ﴿ أُخرَى ﴾ أن تكون معطوفة على ﴿ مَغَانِمَ ﴾ المنصوب بـ ﴿ وَعَدَكُمُ ﴾ وأن تكون مرفوعة بالابتداء و ﴿ لَمْ يَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ صفتها و ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ خبر. وأوجه أخر.

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ أي: لا يبعد عليه إذا شاءه.

ثم أشار تعالى إلى تبشير أهل بيعة الرضوان بالظفر والنصر المستمر، لصدق إيمانهم إخلاصهم في ثباتهم، وإيثارهم مرضاة الله ورسوله على كل محبوب، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ﴾ أي بعد هذا الفتح والنصر المعجل ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُاْ الأَدْبَارَ ﴾

أي ولوكم أعجازهم في الحرب، فعل المنهزم من قرنه في الحرب. ﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ أي من يواليهم على حربكم، وينصرهم عليكم.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي مضت في كفار الأمم السالفة مع مؤمنيها. ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ أي تغييراً.

قال ابن جرير: بل ذلك دائم. للإحسان جزاؤه من الإحسان، وللإساءة والكفر العقاب والنكال.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي قضى بينهم وبينكم المُكافَّةَ والمحاجزة، بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة. إشارة إلى منة الصلح ونعمته في الحديبية، وأن ذلك عناية منه تعالى بما حفظ من أنفسهم وأموالهم، ولطف بهم يومئذ لما ادخر لهم بعده.

وقد ذهب بعضهم إلى أنه عنى بهذا الكف، ما كان يوم الفتح. ونظر فيه بأن السورة نزلت قبله.

وقال ابن إسحاق: حدثني من لاأتهم عن عكرمة مولى ابن عباس؛ أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أوخمسين، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أخذاً، فأخذوا أخذاً. فاتى بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلى سبيلهم. وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل. قال ابن إسحاق: ففي ذلك قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ...﴾ الآية.

وروى ابن جرير عن مجاهد قال: أقبل معتمراً نبيُّ الله ﷺ. فأخذ أصحابه ناساً من أهل الحرم غافلين، فأرسلهم النبيّ ﷺ. فذلك الإظفار ببطن مكة.

قال قتادة: بطن مكة، الحديبية.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ أي فيجازيكم عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي هؤلاء المشركون من قريش، هم الذي جحدوا توحيد الله ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ﴾ أي وصدوا الهدي أيضاً، وهو ما يهدى إلى مكة من النعم ﴿مَعْكُوفاً﴾ أي محبوساً. قال السمين: يقال: عكفت الرجل عن حاجته إذا حبسته عنها. وأنكر الفارسي تعدية (عكف) بنفسه، وأثبتها ابن سيده والأزهريّ وغيرهما، وهو ظاهر القرآن، لبناء اسم المفعول منه. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ قال ابن جرير: أي محل نحره. وذلك دخول الحرم، والموضع الذي إذا صار إليه حلّ نحره، وكان رسول الله ﷺ ساق معه حين خرج إلى مكة في سفرته تلك، سبعين بدنة.

وفي الآية دليل على أن محل ذبح الهدي، الحرم.

﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ أي موجودون بمكة مع الكفار ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي بصفة الإيمان وهم بمكة، حبسهم المشركون بها عنكم، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم. ﴿أَن تَطَؤُوهُمْ﴾ أي تقتلوهم مع الكفار، لو أذن لكم في الفتح بدل الصلح. قال السمين: ﴿أَن تَطَؤُوهُمْ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من (رجَال ونساء) غلب الذكور، وأن يكون بدلاً من مفعول ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾. فالتقدير على الأول (ولولا وطء رجال ونساء غير معلومين). وتقدير الثاني (لم تعلموا وطأهم) والخبر محذوف تقديره (ولولا رجال ونساء موجودون، أو بالحضرة). انتهى.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾ أي إثم وغرامة. من (عرّه) إذا عراه ما يكرهه. وقوله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من الضمير المرفوع في ﴿تَطَؤُوهُمْ﴾ أي تطؤوهم غير عالمين بهم. وفي جواب ﴿لَوْلاَ﴾ أقوال:

أحدها – أنه محذوف لدلالة الكلام عليه. والمعنى ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهراني المشركين، وأنتم غير عارفين بهم، فيصيبكم بإهلاكهم

مكروه ومشقة، لما كف أيديكم عنهم، ولأذن لكم في دخول مكة مقاتليهم.

والثاني – أنه مذكور، وهو ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ وجواب (لو) هو المحذوف. فحذف من الأول لدلالة الثاني، ومن الثاني لدلالة الأول.

والثالث – أن قوله ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ جوابهما معاً، وهو بعيد إن أريد حقيقة ذلك.

وذكر الزمخشريّ قريباً من هذا فإنه قال: ويجوز أن يكون ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ كالتكرير لـ ﴿لَوْلَا رِجَالٌ مؤْمِنُونَ﴾ لمرجعهما لمعنى واحد، ويكون ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ هو الجواب. ومنع الشيخ رجوعهما لمعنى واحد، قال: لأن ما تعلق به الأول غير ما تعلق به الثاني – أفاده السمين –.

وأجاب الناصر بقوله: وإنما كان مرجعهما ههنا واحداً، وإن كانت (لولا) تدل على امتناع لوجود، و (لو) تدل على امتناع لامتناع. وبين هذين تناف ظاهر، لأن (لولا) ههنا دخل على وجود، و (لو) دخلت على قوله ﴿تَزَيَّلُواْ﴾ وهو راجع إلى عدم وجودهم. وامتناع عدم الوجود وجود. فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه. قال: وكان جدّي رحمه الله يختار هذا الوجه الثاني، ويسميه تطرية. وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام، وبعد عهد أوله، واحتيج إلى ردّ الآخر على الأول، فمرة يطري بلفظه، ومرة بلفظ آخر يؤدي مؤداه وقد تقدمت لهما أمثال.

تنبيه:

فسر ابن إسحاق (المعرة) بالدية، ذهاباً إلى أن دار الحرب لا تمنع من ذلك. وهو مذهب الشافعيّ. وذهب غيرهما إلى أنها تمنع من ذلك، ومنهم ابن جرير حيث قال: (المعرة) هي كفارة قتل الخطأ، وذلك عتق رقبة مؤمنة لمن أطاق ذلك، ومن لم يطق فصيام شهرين. قال: وإنما اخترت هذا القول، دون القول الذي قاله ابن اسحاق، لأن الله إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب – إذا لم يكن هاجر منها، ولم يكن قاتله علم إيمانه – الكفارةَ دون الدية فقال ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ لم يوجب على قاتله خطأ ديته، فلذلك قلنا: عنى بالمعرة في هذا الموضع الكفارة. انتهى.

﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف، كأنه قيل عقيبه: لكن كفها عنهم، ولم يأذن لكم في مقاتلتهم، ليدخلكم في رحمته الكاملة بحفظكم من المعرة. وقد جوز أن يكون ﴿مَن يَشَاءُ﴾ عبارة عمن رغب في الإسلام من المشركين، وعليه اقتصر ابن جرير، قال: أي ليدخل الله في

الإسلام من أهل مكة من يشاء، قبل أن تدخلوها. وناقش فيه أبو السعود بأن ما بعده من فرض التنزيل وترتيب التعذيب عليه، يأباه.

﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ أي لو تميز مشركو مكة من الرجال المؤمنين، والنساء المؤمنات، الذين لم تعلموهم منهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي بالقتل أو الأسر أو نوع آخر من العذاب الآجل.

تنبيه:

قال إلكيا الهرّاسي: في الآية دليل على أنه لا يجوز حرق سفينة الكفار، إذا كان فيها أسرى من المسلمين، وكذلك رمي الحصون إذا كانوا بها، والكفار إذا تترسوا بهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ قال ابن جرير: وذلك حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحمية، فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين رسول الله ﷺ والمشركين ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وأن يكتب فيه ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله ﷺ عامه ذلك. والعامل في الظرف إما (لعذبنا) أو (صدوكم) أو (اذكر) مقدراً، فيكون مفعولاً به. و (الحمية) الأنفة، وهي الاستكبار والاستنكاف، مصدر من (حمى من كذا) حمية.

وقوله تعالى ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على منويّ. أي: فهمَّ المسلمون أن يأبوا ذلك، ويقاتلوا عليه، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين. يعني: الوقار والتثبت، حتى صالحوهم على أن يعودوا من قابل، وعلى ما تقدم.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ أي اختارها لهم، فالإلزام مجاز عما ذكر من اختيارها لهم، وأمرهم بها.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ قال أبو السعود: أي متصفين بمزيد استحقاق لها. على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقاً. وقيل: أحق بها من الكفار. ﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي المستأهل لها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾. قال أبو السعود: أي فيعلم حق كل شيء، فيسوقه إلى مستحقه.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ**﴾.

قال ابن جرير: أي لقد صدق اللّه رسوله محمداً رؤياه التي أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت اللّه الحرام آمنين، لا يخافون أهل الشرك، مقصراً بعضهم رأسه، ومحلقاً بعضهم. ثم روي عن مجاهد أنه قال: أُرِيَ بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلقين، فقال أصحابه حين نحر بالحديبية: أين رؤيا محمد ﷺ؟

وعن ابن زيد قال: قال لهم النبيّ ﷺ: إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رؤوسكم مقصرين، فلما نزل بالحديبية، ولم يدخل ذلك العام، طعن المنافقون في ذلك فقالوا: أين رؤياه؟ فقال اللّه ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ...﴾ الآية، إني لم أُرِه يدخلها هذا العام، وليكونن ذلك. و ﴿الرُّءْيَا﴾ منصوب بنزع الخافض، أي صدقه في رؤياه. أي حقق صدقها عنده، كما هو عادة الأنبياء عليهم السلام، ولم يجعلها أضغاث أحلام. أو منصوب على أنه مفعول ثان، وهو ما قاله الكرمانيّ، وعبارته: (كذب) يتعدى إلى مفعولين، يقال: كذبني الحديث، وكذا (صدق) كما في الآية. وهو غريب لتعدي المثقل لواحد، والمخفف لمفعولين.

وقوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من الرؤيا. أي متلبسة بالحق، ليست من قبيل أضغاث الأحلام.

وقوله ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ جواب قسم محذوف. أي: واللّه! لتدخلن.

وقوله ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة، لتعليم العباد. أو للإشعار بأن

بعضهم لا يدخل، فهو في معنى: ليدخلنّه من شاء اللّه دخوله منكم. أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا، أو النبي ﷺ لأصحابه.

وقوله ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال مقدرة، لأن الدخول في حال الإحرام، لا في حال الحلق والتقصير. وفي الكلام تقدير، أو هو من نسبة ما للجزء إلى الكل. والمعنى: ملحقاً بعضكم، ومقصراً آخرون. والقرينة عليه: أنه لا يجتمع الحلق والتقصير، فلا بد من نسبة كل منهما لبعض منهم.

وثبت في الصحيح[1] أن رسول اللّه ﷺ قال: رحم اللّه المحلقين! قالوا: والمقصرين يا رسول اللّه؟ قال: رحم اللّه المحلقين؟ قالوا: والمقصرين يا رسول اللّه؟ قال: رحم اللّه المحلقين! قالوا: والمقصرين يا رسول اللّه! قال: والمقصرين!

وقوله تعالى ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة لقوله ﴿ءَامِنِينَ﴾ أو مؤسسة، لأن اسم الفاعل للحال والمضارع للاستقبال، فيكون أثبت لهم الأمن حال الدخول. ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، لا يخافون من أحد.

قال الحافظ ابن كثير: وهذا كان في عمرة القضاء، في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبيّ ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة، رجع إلى المدينة، فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها اللّه عليه. بعضها عنوة، وبعضها صلحاً، وهي إقليم عظيم، كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها، على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم، إلا الذين قدموا من الحبشة: جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعريّ وأصحابه رضي اللّه عنهم، ولم يغب منهم أحد. قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سماك بن خرشة، كما هو مقرر في موضعه. ثم رجع المدينة، فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع، خرج ﷺ إلى مكة معتمراً، هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، ساق معه الهدي. قيل: كان ستين بدنة. فلبى، وسار وأصحابه يلبون، قريباً من مرّ الظهران، بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول اللّه ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه، من وضع القتال عشر سنين، فذهبوا فأخبروا أهل مكة. فلما جاء رسول اللّه ﷺ فنزل بمر الظهران، حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسيّ والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار بالسيوف إلى مكة مغمدة في قربها، كما شارطهم

---

(١) أخرجه مسلم في: الحج، حديث رقم ٣١٨.

عليه. فلما كان في أثناء الطريق، بعثت قريش مكرز بن حفص فقال: يا محمد! ما عرفناك تنقض العهد! فقال ﷺ: وما ذاك؟ قال: دخلت علينا بالسلاح، القسيّ والرماح! فقال ﷺ: لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج؟ فقال: بهذا عرفناك، بالبرّ والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة، لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضي الله عنه، غيظاً وحنقاً. وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت، ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء، التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاريّ آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ، وهو يقول:

باسمِ الذي لا دينَ إلا دينُهْ ... باسمِ الذي محمد رسولُهْ
خلوا بني الكفار عن سبيلهْ ... اليومَ نضربكم على تأويلهْ
كما ضربناكم على تنْزيلَهْ ... ضرباً يُزيل الهامَ عن مقيلَهْ
ويُذهل الخليلَ عن خليلَهْ ... قد أنزل الرَّحمنُ في تنزيلهْ
في صحف تُتْلَى على رسولِهْ ... بأن خير القتل في سبيلَهْ

يا رب! إني مؤمن بقيلِهْ

وروى الإمام أحمد[1] من طريق أبي الطفيل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران في عمرته، بلغ أصحابَ رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول: ما يتباعثون من العَجَف؟ فقال أصحابه: لو انتحرنا، من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحَسَوْنا من مرقه، أصبحنا غداً حين ندخل على القوم، وبنا جَمَامَةٌ. قال ﷺ: لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لي من أزوادكم، فجمعوا له، وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تولوا، وحثا كل واحد منهم في جرابه. ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجْر فاضطبع ﷺ بردائه، ثم قال: لا يرى القوم فيكم غميزَة، فاستلم الركنَ، ثم دخَل حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما يرضون بالمشي إنهم لَيَنْقِزُونَ نَقْزَ الظباء؟ ففعل ذلك ثلاثة أطواف، فكانت سنّة.

قال أبو الطفيل: فأخبرني ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع.

(١) أخرجه في المسند ١ / ٣٠٥، والحديث رقم ٢٧٨٣.

وروى أحمد[1] من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يثرب، ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شراً، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر، فأطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أن يرمُلوا الأشواط الثلاثة، ليرى المشركون جَلَدَهُم. قال، فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين، حيث لا يراهم المشركون. وفي رواية: ولم يمنع النبيّ ﷺ أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

وفي ابن كثير زيادة من الأحاديث في هذا الباب، فليراجعها من أحب الزيادة.

وقوله تعالى ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ أي من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة، ودخولكم إليها، عامكم ذلك.

قال ابن جرير: وذلك علمه تعالى ذكره بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين لم يعلمهم المؤمنون، ولو دخلوها في ذلك العام لوطئوهم بالخيل والرَّجل، فأصابتهم منهم معرة بغير علم، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك. وليدخل في رحمته من يشاء ممن يريد أن يهديه. ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبيّ ﷺ ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ يعني الصلح الذي جرى بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش، أو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين، إلى أن يتيسر الفتح الموعود. وإلى الأول ذهب الزهريّ، قال: يعني صلح الحديبية. وما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة، وضعت الحرب وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً، فالتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلَّم أحد بالإسلام، يعقل شيئاً، إلا دخل فيه. فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر. ووافقه مجاهد وإلى الثاني ذهب ابن زيد.

قال ابن جرير: والصواب أن يعم فيقال: جعل الله من دون ذلك كليهما.

القول في تأويل قوله تعالى:

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ أي البيان الواضح ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي الإسلام.

---

(١) أخرجه في المسند ١/٣٩٥، والحديث رقم ٢٦٨٦

وقال المهايمي: ﴿ بِالْهُدَى ﴾ أي الدلائل القطعية ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ أي الاعتقادات الصائبة المطابقة لما هو الواقع أشد مطابقة.

وقال ابن كثير: أي بالعلم النافع، والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل. فالعلم الشرعيّ صحيح، والعمل الشرعيّ مقبول، فإخباراتها حق، وإنشاءاتها عدل. ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ أي ليعليه ﴿ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ قال ابن جرير: أي ليبطل به الملل كلها، حتى لا يكون دين سواه. وذلك حين ينزل عيسى ابن مريم، فيقتل الدجال، فحينئذ تبطل الأديان كلها، غير دين اللّه الذي بعث به محمداً ﷺ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها. انتهى.

وقال ابن تيمية: قد أظهره اللّه علماً وحجة وبياناً على كل دين، كما أظهره قوة ونصراً وتأييداً، وقد امتلأت الأرض منه ومن أمته في مشارق الأرض ومغاربها، وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله، كما زال ملك اليهود، وزال ملك من بعدهم عن خيار الأرض وأوسطها. انتهى.

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ أي على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح أو المغانم كائن. قال الحسن: شهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الدين كله.

قال ابن جرير: وهذا إعلام من اللّه تعالى نبيّه ﷺ، والذين كرهوا الصلح يوم الحديبية من أصحابه؛ أن اللّه فاتح عليهم مكة وغيرها من البلدان، مسلّيهم بذلك عما نالهم من الكآبة والحزن، بانصرافهم عن مكة قبل دخولها، وقبل طوافهم بالبيت.

القول في تأويل قوله تعالى:

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أي أصحابه ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لهم شدة وغلظة على الكفار المحاربين لهم، الصادّين عن سبيل اللّه، وعندهم

تَرَاحُم فيها بينهم، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لطائف:

الأولى – جوز في ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**﴾ أن يكونا مبتدأ وخبراً، وأن يكون ﴿**رَسُولُ اللَّهِ**﴾ صفة، أو عطف بيان، أو بدلاً، ﴿**وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ عطف عليه. وخبرهما ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ**﴾.

الثانية – قال الشهاب: قوله تعالى ﴿**رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ تكميل، لو لم يذكر لربما توهم أنهم لاعتيادهم الشدة على الكفار قد صار ذلك لهم سجية في كل حال، وعلى كل أحد. فلما قيل ﴿**رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ اندفع ذلك التوهم، فهو تكميل واحتراس، كما في الآية المتقدمة، فإنه لما قيل ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ ربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر، وأنهم موصوفون بالذل دائماً، وعند كل أحد، فدفع بقوله ﴿**أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ فهو كقوله:

حليمٌ إذا ما الحلمُ زَيَّنَ أهلَهُ ... على أنه عند العدوِّ مَهِيبُ

الثالثة – قال المهايميّ: تفيدالآية أن دين الحق قد ظهر في أصحابه صلوات اللّه عليه، إذ اعتدلت قوتهم الغضبية! بتبعية اعتدال المفكرة والشهوية، إذ هم أشداء على الكفار، لرسوخهم في صحة الاعتقاد، بحيث يغارون على من لم يصح اعتقاده، رحماء بينهم، لعدم ميلهم إلى الشهوات. هذا باعتبار الأخلاق، وأما باعتبار الأعمال، فأنت ﴿**تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً**﴾ قال ابن كثير: وصفهم بكثرة العمل، وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال. ووصفهم بالإخلاص فيها للّه عز وجل، والاحتساب عند اللّه تعالى جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل اللّه عز وجل، وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم! وهو أكبر من الأولى، كما قال جل وعلا ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] انتهى.

﴿**سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ**﴾ مبتدأ وخبر، أي علامتهم كائنة فيها. وقوله تعالى ﴿**مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ بيان للسيما، كأنه قيل: سيماهم التي هي أثر السجود. أو حال من المستكنّ في (وجوههم).

قال الشهاب: وهي على ما قبله خبر مبتدأ تقديره: هي من أثر السجود. انتهى.

وهل الوجوه مجاز عن الذوات، أو حقيقة؟ في معناها تأويلان للسلف، فعن ابن عباس ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ يعني السمت الحسن. وقال مجاهد وغير واحد، يعني الخشوع والتواضع. وقال منصور لمجاهد: ما كنت أراه إلاهذا الأثر في الوجه، فقال مجاهد، ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل، حسن وجهه بالنهار. وقد رفعه ابن ماجة. والصحيح أنه موقوف. وقال بعضهم: إن للحسنة لنوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان رضي اللّه عنه: ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها اللّه تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. وروى الطبرانيّ مرفوعاً: ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه اللّه تعالى رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر - وإسناده واهٍ، لأن فيه العزرميّ وهو متروك -.

وروى الإمام أحمد[1] عن أبي سعيد الخدريّ عن رسول اللّه ﷺ قال: لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائناً ما كان.

وأخرج أيضا[2] عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: إن الهدى الصالح، والسمت الصالح والاقتصاد، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة. ورواه أبو داود أيضاً.

والتأويل الثاني في الآية، ان ذلك آثار ترى في الوجه من ثرى الأرض، أو ندى الطهور. روي ذلك عن ابن جبير وعكرمة. وقد كان ذلك في العهد النبويّ، حيث لا فراش للمسجد إلا ترابه وحصباؤه.

وكل من المعنيين من (سيمَاهُمْ) رضي اللّه عنهم وأرضاهم.

وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ﴾ أي الوصف ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ أي صفتهم العجيبة فيها ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي فراخه أو سنبله أو نباته ﴿فَآزَرَهُ﴾ أي قوّاه ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي فغلظ الزرع واشتد. فالسين للمبالغة في الغلظ، أو صار من الدقة إلى الغلظ ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ أي استقام على قصبه. و (والسوق) جمع ساق ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أي يعجب هذا الزرعُ الذي استغلظ فاستوى على سوقه في تمامه، وحسن نباته، وبلوغه وانتهائه، الذين زرعوه. وقوله تعالى ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾

---

(١) أخرجه في المسند ٣/ ٢٨.

(٢) أخرجه في المسند ١/ ٢٩٦، والحديث رقم ٢٦٩٨.

تعليل لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وقوتهم، كأنه قيل: إنما قوّاهم وكثّرهم ليغيظ بهم الكفار.

لطائف:

الأولى: يجوز في قوله تعالى ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ وجهان:

أحدهما – أنه مبتدأ، وخبره ﴿كَزَرْعٍ﴾ فيوقف على قوله ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾ فهما مثلان، وإليه ذهب ابن عباس.

والثاني – أنه معطوف على ﴿مَثَلُهُمْ﴾ الأول، فيكون مثلاً واحداً في الكتابين، ويوقف حينئذ على ﴿فِي الإنجِيلِ﴾، وإليه نحا مجاهد والفرّاء، ويكون قوله ﴿كَزَرْعٍ﴾ في هذا فيه أوجه:

أحدهما – أنه خبر مبتدأ مضمر. أي مثلهم كزرع، فسر به المثل المذكور في الإنجيل.

الثاني – أنه حال من الضمير في ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي مماثلين زرعاً هذه صفته.

الثالث – أنه نعت مصدر محذوف، أي تمثيلاً كزرع – ذكره أبو البقاء –.

قال الزمخشريّ: ويجوز أن يكون ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة مبهمة أوضحت بقوله ﴿كَزَرْعٍ﴾ كقوله ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ﴾ [الحجر:٦٦]، – أفاده السمين –.

الثانية – قال السمين: الضمير المستتر في ﴿فَآزَرَهُ﴾ للزرع، والبارز للشطء. وعكس النسفيّ، فجعل المستتر للشط، والبارز للزرع. أي فقوي الشطء بكثافة الزرع وكثافته كثرة فروعه وأوراقه. قال الجمل: وما صنعه النسفي أنسب، فإن العادة أن الأصل يتقوّى بفروعه، فهي تعينه وتقوّيه.

الثالثة – قال السمين: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ حال. أي حال كونه معجباً، وهنا تمّ المثل.

الرابعة – قال الزمخشريّ: هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام، وترقّيه في الزيادة، إلى أن قوي واستحكم، لأن النبيّ ﷺ قام وحده، ثم قوّاه الله بمن آمن معه، كما يقوّي الطاقةَ الأولى من الزرع، ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع.

وهذا ما قاله البغويّ من أن (الزرع) محمد، و (الشطءَ) أصحابه والمؤمنون، فجعلا التمثيل للنبيّ ﷺ وأمته.

وأما القاضي فجعله مثالاً للصحابة فقط. وعبارته: وهو مثل ضربه اللّه تعالى للصحابة، قلّوا في بدء الإسلام، ثم كثروا واستحكموا، فترقّى أمرهم، بحيث أعجب الناس.

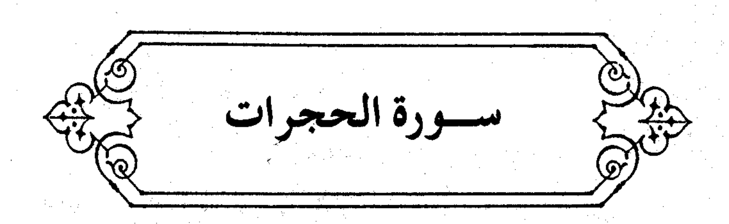
قال الشهاب: ولكل وجهة.

الخامسة - قال ابن كثير: من هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة اللّه عليه، في رواية عنه، تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي اللّه عنهم. قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة، فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك - انتهى كلام ابن كثير -.

ولا يخفاك أن هذا خلاف ما اتفق عليه المحققون من أهل السنة والجماعة من أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة، كما بسط في كتب العقائد، وأوضحه النوويّ في شرح (مقدمة مسلم)، وقبله الإمام الغزاليّ في كتابه (فيصل التفرقة). وقد كان من جملة البلاء في القرون الوسطى التسرع من الفقهاء بالتكفير والزندقة. وكم أريقت دماء في سبيل التعصب لذلك، كما يمر كثير منه بقارئ التاريخ. على أن كلمة الأصوليين اتفقت على أن المجتهد كيفما كان، مأجور غير مأزور، ناهيك بمسألة عدالتهم المتعددة أقوالها، حتى في أصغر كتاب في الأصول كمثل (جمع الجوامع). نعم، إن التطرف والغلوّ في المباحث ليس من شأن الحكماء المنصفين. وإذا اشتد البياض صار بَرَصاً.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي صدقوا اللّه ورسوله ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً﴾ أي عفواً عما مضى من ذنوبهم، وسيّء أعمالهم بحسنها. ﴿وَأَجْراً عَظِيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً، وهو الجنة.

بسم الله الرحمن الرحيم



ســـورة الحجرات

قال المهايميّ: سميت بها لدلالة آيتها على سلب إنسانية من لا يعظم رسول اللّه غاية التعظيم، ولا يحترمه غاية الاحترام. وهو من أعظم مقاصد القرآن.

وهي مدنية، وآيها ثمان عشرة.

وقد انفردت هذه السورة بآداب جليلة، أدّب اللّه بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به نبيّه ﷺ، من التوقير والتبجيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال ابن جرير: أي يا أيها الذين أقرّوا بوحدانية الله، ونبوّة نبيّه ﷺ، لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضيَ الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله، وأمر رسوله. محكيّ عن العرب: فلان يقدم بين يدي إمامه، بمعنى يعجل الأمر والنهي دونه. انتهى.

و﴿تُقَدِّمُواْ﴾ إما متعد حذف مفعوله، لأنه أريد به العموم، أو أنه نزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى المفعول، كما تقول: فلان يعطي ويمنع. أو هو لازم، فإن (قدم) يرد بمعنى (تقدم) كبيّن، فإنه متعد، ويكون لازماً بمعنى تبيّن.

وفي هذه الجملة تجوّزان:

أحدهما – في (بين اليدين)، فإن حقيقته ما بين العضوين، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال، قريباً منه بإطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما. فهو من المجاز المرسل، ثم استعيرت الجملة استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء، ومتابعة لمن يلزم متابعته، تصويراً لهجنته وشناعته، بصورةالمحسوس، كتقدم الخادم بين يدي سيده في مسيره، فنقلت العبارة الأولى، بما فيها من المجاز، إلى ما ذكر، على ما عرف في أمثاله – هذا محصل ما في (الكشاف) و(شروحه).

قال ابن كثير: معنى الآية: لا تسرعوا في الأشياء قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب حديث معاذ رضي الله عنه. قال له النبيّ ﷺ حين بعثه إلى اليمن: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله تعالى. قال ﷺ: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله ﷺ. قال ﷺ: فإن لم تجد؟ قال رضي الله عنه: أجتهد

رأيي ! فضرب في صدره وقال: الحمد للّه الذي وفق رسولَ رسولِ اللّه لما يرضي رسول اللّه. وقد رواه أحمد[1] وأبو داود[2] والترمذيّ[3] وابن ماجة. والغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما، لكان من باب التقديم بين يدي اللّه ورسوله. انتهى.

وقد جوز أن يكون المراد (بين يدي رسول اللّه) وذكر (اللّه) لبيان قوة اختصاصه به تعالى، ومنزلته منه، تمهيداً وتوطئة لما بعده. وقد أيد هذا، بأن مساق الكلام لإجلاله ﷺ.

تنبيه:

قال ابن جرير: بضم التاء من قوله ﴿لاَ تُقَدِّمُواْ﴾ قرأ قراءة الأمصار، وهي القراءة التي لا أستجيز القراءة بخلافها، لإجماع الحجة من القراء عليها. وقد حكى عن العرب: قدّمت في كذا وتقدمت في كذا. فعلى هذه اللغة لو كان قيل (لا تقدموا) بفتح التاء، كان جائزاً. انتهى. وبه قرأ يعقوب فيما نقل عنه.

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ أي في التقديم أو مخالفة الحكم. والأمر بالتقوى على أثر ما تقدم، بمنزلة قولك للمقارف بعض الرذائل: لا تفعل هذا، وتحفظ مما يلصق العار بك. فتنهاه أولاً عن عين ما قارفه، ثم تعمّ وتأمره بما لو امتثل أمرك فيه، لم يرتكب تلك الغفلة، وكل ما يضرب في طريقها، ويتعلق بسببها – أشار له الزمخشريّ –.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي فحقيق أن يُتّقى ويُراقب.

تنبيه:

في (الإكليل): قال إلكيا الهراسيّ: قيل نزلت في قوم ذبحوا قبل النبيّ ﷺ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح. وعموم الآية النهي عن التعجيل في الأمر والنهي، دونه. ويحتج بهذه الآية في اتباع الشرع في كل شيء. وربما احتج به نفاة القياس، وهو باطل منهم. ويحتج به في تقديم النص على القياس. انتهى.

---

(١) أخرجه في المسند ٥/ ٢٣٠.

(٢) أخرجه في: الأقضية، ١١– باب اجتهاد الرأي في القضاء حديث رقم ٣٥٩٢.

(٣) أخرجه في: الأحكام، ٣– باب حدثنا هناد، حديث رقم ١٣٢٧.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي: إذا نطق ونطقتم، فلتكن أصواتكم قاصرة عن الحدّ الذي يبلغه صوته، ليكون عالياً لكلامكم، لا أن تغمروا صوته بلغطكم، وتبلغوا أصواتكم إلى أسماع الحاضرين قبل صوته، فإن ذلك من سوء الأدب بمكان كبير **﴿وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾** أي بل تعمدوا في مخاطبته القول اللين، القريب من الهمس، الذي يضادّ الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم. وروي عن مجاهد تفسيره بندائه باسمه، أي لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً: يا محمد! يا محمد! بل يانبيّ الله! يا رسول الله! ونظر فيه شراح (الكشاف) بأن ذكر الجهر حينئذ لا يظهر له وجه، إذ الظاهر أن يقال: لا تجعلوا خطابه كخطاب بعضكم لبعض، كما مر في قوله **﴿لاَ تَجْعَلُواْ دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾** [النور:٦٣]. انتهى.

ولك أن تقول: إنما أفرغ هذا المعنى المرويّ عن مجاهد في قالب ذاك اللفظ الكريم جرياً على سنة التنزيل في إيثار أرق الألفاظ والجمل، وألطفها في ذلك، فإن أسلوبه فوق كل أسلوب وقد قال: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به **﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾** أي مخافة أن تحبط أعمالكم، برفع صوتكم فوق صوته، وجهركم له بالقول كجهركم لبعضكم **﴿وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾** أي لا تعلمون ولا تدرون بحبوطها.

تنبيه:

استدلت المعتزلة بالآية على أن الكبائر محبطة للأعمال، لأن المذكور في الآية كبيرة محبطة ولا فرق بينها وبين غيرها. ولما كان عند أهل السنة، المحبط للأعمال هو الكفر خاصة، تأولوا الآية بأنها للتغليظ والتخويف، إذ جعلت بمنزلة الكفر المحبط، أو هي للتعريض بالمنافقين المقاصدين بالجهر والرفع الاستهانة، فإن فعلهم محبط قطعاً.

وقال الناصر: المراد في الآية النهي عن رفع الصوت على الإطلاق. ومعلوم أن حكم النهي الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبيّ عليه الصلاة والسلام. والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق.

فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبيّ عليه الصلاة والسلام، سواء وجد هذا المعنى أوْ لا، حماية للذريعة، وحسماً للمادة. ثم لما كان هذا المنهيّ عنه – وهو رفع الصوت – منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً، وخوّف أن يقع فيما هو محبط للعمل، وهو البالغ حد الإيذاء، إذ لا دليل ظاهر يميزه. وإن كان، فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان. وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله ﴿**أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾. وإلا فلو كان الأمر على ما تعتقده المعتزلة، لم يكن لقوله ﴿**وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾ موقع. إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً، فيكون كفراً محبطاً قطعاً، وبين أن يكون غير مؤذ، فيكون كبيرة محبطة على رأيهم قطعاً. فعلى كلا حاليه، الإحباط به محقق، إذن فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور، مع أن الشعور ثابت مطلقاً – والله أعلم –.

ثم قال: وهذا التقرير الذي ذكرته يدور على مقدمتين، كلتاهما صحيحة:

إحداهما – أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه. فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الإجلال والإعظام.

المقدمة الأخرى – أن إيذاء النبيّ ﷺ كفر. وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا – يعني المالكية – وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً، ولا تقبل توبته، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر، والله الموفق. انتهى.

ولا يخفى أن الإنصاف هو الوقوف مع ما أوضحه النص وأبانه، فكل موضع نص فيه على الإحباط وجب قبوله بدون تأويل، وامتنع القياس عليه، لأنه مقام توعد وخسران، ولا مجال للرأي في مثل ذلك. هذا ما أعتقده وأراه. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ**﴾ أي يبالغون في خفضها ﴿**عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ قال ابن جرير: أي اصطفاها وأخلصها للتقوى يعني

لاتقائه بأداء طاعته، واجتناب معاصيه، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخلص جيدها، ويبطل خبثها ﴿لَهُم مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثواب جزيل، وهو الجنة.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ أي يدعونك ﴿مِن وَرَاءِ﴾ أي خارج ﴿الْحُجُرَاتِ﴾ أي عند كونك فيها، استعجالاً لخروجك إليهم، ولو بترك ما أنت فيه من الأشغال ﴿أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ إذ لا يفعله محتشم، ولا يفعل لمحتشم، فلا يراعون حرمة أنفسهم، ولا حرمتك، ونسب إلى الأكثر، لأنه قد يتبع عاقل جماعة الجهال، موافقة لهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ أي لأن خروجه باستعجالهم ربما يغضبه، فيفوتهم فوائد رؤيته وكلامه. وإن صبروا استفادوا فوائد كثيرة، مع اتصافهم بالصبر، ورعاية الحرمة لنبيهم وأنفسهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لمن تاب من معصية الله، بندائك كذلك، وراجع أمر الله فيه وفي غيره.

تنبيهات:

الأول – قال ابن كثير: قد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميميّ، فيما أورده غير واحد.

روى الإمام أحمد[1] عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس؛ أنه نادى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! يا محمد! (وفي رواية: يا رسول الله!) فلم يجبه. فقال: يا رسول الله! إن حمدي لزين، وإن ذمّي لشين، فقال: ذاك الله عز وجل.

وروى ابن إسحاق، في ذكر سنة تسع، وهي المسماة سنة الوفود؛ أن رسول الله ﷺ لما افتتح مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف، وبايعت، ضربت إليه وفود

(١) أخرجه في المسند ٣/٤٨٨.

العرب من كل وجه، فكان منهم وفد بني تميم. فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: أن اخرج إلينا يا محمد! فآذى ذلك رسولَ الله ﷺ من صياحهم، فخرج إليهم. ثم ساق ابن إسحاق نبأهم مطولاً ثم قال: وفيهم نزل من القرآن ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾.

الثاني - ﴿ الْحُجُرَاتِ ﴾ بضمتين، وبفتح الجيم، وبسكونها. وقرئ بهنّ جميعاً: جمع (حجرة). وهي الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها. فُعْلَة بمعنى مفعولة، كالغرفة والقبضة.

قال الزمخشريّ: والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ. وكانت لكل واحدة منهن حجرة. ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات، متطلبين له، فناداه بعض من وراء هذه، وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة، فنادوه من ورائها. وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها. ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ، ولمكان حرمته. والفعل - وإن كان مسنداً إلى جميعهم - فإنه يجوز أن يتولاّه بعضهم، وكان الباقون راضين، فكأنهم تولوه جميعاً.

الثالث - قال الزمخشريّ: ورود الآية على النمط الذي وردت عليه، فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله.

منها - مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به، بالسفه والجهل، لما أقدموا عليه.

ومنها - لفظ ﴿ الْحُجُرَاتِ ﴾ وإيقاعها، كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه.

ومنها - المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم.

ومنها - التعريف باللام دون الإضافة.

ومنها - أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات، تهويناً للخطب على رسول الله ﷺ، وتسلية له، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم، وسوء أدبهم، وهلم جراً... من أول السورة إلى آخر هذه الآية. فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله، متقدمة على الأمور كلها، من غير حصر ولا تقييد. ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر، كان الأول بساط للثاني، ووطاء لذكره. ثم

ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك، فغضوا أصواتهم، دلالة على عظيم موقعه عند الله. ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم، وهجنته أتم ، من الصياح برسول الله ﷺ، في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدراً، لينبه على فظاعة ما أجروا إليه، وجسروا عليه، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول، حتي خاطبه جلّة المهاجرين والأنصار بأخي السرار، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً. ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب، وتقتبس محاسن الآداب، كما يحكى عن أبي عبيد - ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى - أنه قال: ما دققت باباً على عالم قط، حتى يخرج في وقت خروجه. انتهى.

الرابع - قال ابن كثير: قال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ، كما كان يكره في حياته، لأنه محترم حيّاً، وفي قبره ﷺ. وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبيّ ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فحصبهما. ثم ناداهما فقال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. قال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً. انتهى.

الخامس - روى البخاريّ[1] عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بني تميم على النبيّ ﷺ فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: أمِّر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي! فقال عمر: ما أردت خلافك! فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما. فنزل في ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّه وَرَسُولِهِ..﴾ حتى انقضت الآية.

وفي رواية: فأنزل الله في ذلك ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُم...﴾ الآية.

قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه. وقد انفرد بهاتين الروايتين البخاريّ دون مسلم.

قال الحافظ ابن حجر: وقد استُشكل ذلك! قال ابن عطية: الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة الأعراب.

قال ابن حجر: قلت: لا يعارض ذلك هذا الحديث، فإن الذي يتعلق بقصة

---

(١) أخرجه في: التفسير، ٤٩- سورة الحجرات، ٢- باب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾، حديث ١٩٤٢.

الشيخين في تخالفهما في التأمير هو أول السورة ﴿لاَ تُقَدِّمُواْ﴾ ولكن لما اتصل بها قوله ﴿لاَ تَرْفَعُواْ﴾ تمسك عمر منها بخفض صوته. وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من بني تميم، والذين يختص بهم، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾. انتهى.

وتقدم لنا مراراً الجواب عن أمثاله، بان قولهم: نزلت الآية في كذا، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تتناوله الآية، لا أنه سبب لنزولها.

قال الإمام ابن تيمية: قولهم نزلت هذه الآية في كذا، يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية، وإن لم يكن السبب. كما تقول: عنى بهذه الآية كذا. انتهى.

وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النزول، فاحفظه، فإنه من المضنون به على غير أهله. ولو وقف عليه ابن عطية لما ضعف رواية البخاريّ، ولما تمحل ابن حجر لتفكيك الآيات بجعل بعضها لسبب. وبعضها لآخر، في قصة واحدة. وبالله التوفيق. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ﴾ أي: فاستظهروا صدقه من كذبه، بطريق آخر كراهة ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْماً بِجَهَالَةٍ﴾ أي قوماً براء مما قذفوا به بغية أذيتهم بجهالة لاستحقاقهم إياها، ثم يظهر لكم عدم استحقاقهم ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ أي فتندموا على إصابتكم إياهم بالجناية التي تصيبونهم بها، وحق المؤمن أن يحترز مما يخاف منه الندم في العواقب.

تنبيهات:

الأول – قال ابن كثير: ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق. وقد روي ذلك من طرق. ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد[1] في مسنده من رواية مالك

---

(١) أخرجه في المسند ٤ / ٢٧٩.

عن ابن المصطلق، وهو الحارث بن ضرار والد جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها.
قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثني أبي أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعيّ رضي الله عنه يقول: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه، وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة، فأقررت بها وقلت: يا رسول الله ! أرجع إلى قومي فادعوهم إلى الإسلام، وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، وأرسل إليّ يا رسول الله رسولاً إبّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبّان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول، فلم يأته، وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله، فدعا بسروات قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقّت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة، فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ. وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة. فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِقَ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن الحارث منعني الزكاة، وأراد قتلي. فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث. فأقبل الحارث بأصحابه، حتى إذا استقبل البعث، وفصل من المدينة، لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث! فلما غشيهم قال لهم: إلى من بُعثتم؟قالوا: إليك. قال: ولِمَ؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة، وأردت قتله! قال: لا، والذي بعث محمداً بالحق، ما رأيته بتة، ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: منعتَ الزكاة، وأردت قتل رسولي؟! قال: لا، والذي بعثك بالحق! ما رأيته بتة، ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسولُ رسولِ الله ﷺ! خشيت أن تكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله. قال: فنزلت الحجرات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ...﴾ إلى قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾.

وقال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم، فتلقوه بالصدقة، فرجع فقال: إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك (زاد قتادة: وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام) فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إليهم، وأمره أن يتثبّت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلاً، فبعث عيونه، فلما جاءوا أخبروا خالداً رضي الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم. فلما أصبحوا أتاهم خالد رضي الله عنه فرأى الذي يعجبه. فرجع إلى

رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال قتادة فكان رسول الله ﷺ يقول: «التثبُّت من الله، والعجلة من الشيطان». وكذا ذكر غير واحد من السلف، منهم ابن أبي ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل، وغيرهم في هذه الآية، أنها نزلت في الوليد بن عقبة - والله أعلم - انتهى.

قال ابن قتيبة في (المعارف): الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية ابن عبد شمس، وهو أخو عثمان لأمه، أروى بنت كريز. أسلم يوم فتح مكة، وبعثه رسول الله ﷺ مصدقا إلى بني المصطلق، فأتاه فقال: منعوني الصدقة! وكان كاذبا. فأنزل الله هذه الآية. وولاه عمر على صدقات بني تغلب، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، فصلى بأهلها صلاة الفجر، وهو سكران، أربعاً، وقال: أزيدكم؟! فشهدوا عليه بشرب الخمر عند عثمان، فعزله وحدَّه. ولم يزل بالمدينة حتى بويع عليّ، فخرج إلى الرقّة فنزلها، واعتزل علياً ومعاوية. ومات بناحية الرقّة.

الثاني - في (الإكليل): في الآية ردّ خبر الفاسق، واشتراط العدالة في المخبر، راوياً كان، أو شاهداً، أو مفتياً. ويستدل بالآية على قبول خبر الواحد العدل. قال ابن كثير: ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال، لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون، لأنا إنما أمرنا بالتثبُّت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال.

الثالث - في قوله تعالى ﴿**فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ فائدتان:

إحداهما - تقرير التحذير وتأكيده. ووجهه هو أنه تعالى لما قال ﴿**أَن تُصِيبُواْ قَوْماً بِجَهَالَةٍ**﴾ قال بعده: وليس ذلك مما لا يلتفت إليه، ولا يجوز للعاقل أن يقول: هب أني أصبت قوماً، فماذا عليّ؟ بل عليكم منه الهم الدائم، والحزن المقيم. ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه.

والثانية - مدح المؤمنين. أي لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها، بل تصبحون نادمين عليها - أفاده الرازيّ -.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾

﴿**وَاعْلَمُواْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ**﴾ قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره لأصحاب نبيّ

اللّه ﷺ: واعلموا أيها المؤمنون باللّه ورسوله أن فيكم رسول اللّه، فاتقوا اللّه أن تقولوا الباطل، وتفتروا الكذب، فإن اللّه يخبره أخباركم، ويعرفه أنباءكم، ويقوّمه على الصواب في أموره.

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ قال الطبريّ: أي لو كان رسول اللّه ﷺ يعمل في الأمور بآرائكم، ويقبل منكم ما تقولون له، فيطيعكم، لنالكم عنتٌ - يعني الشدة والمشقة - في كثير من الأمور، بطاعته إياكم، لو أطاعكم، لأنه كان يخطئ في أفعاله، كما لو قبل من الوليد بن عقبة قوله في بني المصطلق، أنهم قد ارتدوا ومنعوا الصدقة وجمعوا الجموع لغزو المسلمين، فغزاهم فقتل منهم، وأصاب من دمائهم وأموالهم، كان قد قتل وقتلتم من لا يحل له ولا لكم قتله، وأخذتم من المال ما لا يحل له ولكم أخذه من أموال قوم مسلمين، فنالكم من اللّه بذلك عنت. والعنت: المشقة أو الهلاك أو الإثم أو الفساد.

تنبيه:

(أنَّ) بما في حيزها سادة مسدَّ مفعولي ﴿اعْلَمُواْ﴾ باعتبار ما قيد به من الحال، وهو قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ..﴾ الخ، فإنه حال من الضمير المجرور في ﴿فِيكُمْ﴾ المستتر فيه. والمعنى: أنه فيكم كائناً على حالة يجب تغييرها، أو كائنين على حالة كذلك، وهي أنكم تودّون أن يتبعكم في كثير من الحوادث، ولو فعل ذلك لوقعتم في الجهل والهلاك. وفيه إيذان بأن بعضهم زين لرسول اللّه ﷺ أن يقع في بني المصطلق، وأنه لم يطع رأيهم هذا. ويجوز أن يكون ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ مستأنفاً. إلا أن الزمخشريّ منع هذا الاحتمال، قال: لأدائه إلى تنافر النظم، لأنه لو اعتبر ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ...﴾ الخ كلاماً برأسه، لم يأخذ الكلام بحجز بعض، لأنه لا فائدة حينئذ في قوله: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ إذا قطع عما بعده. وأجيب بجواز أن يقصد به التنبيه على جلالة محله ﷺ، وأنهم لجهلهم بمكانه مفرّطون فيما يجب له من التعظيم، وفي أن شأنهم أن يتبعوه، ولا يتبعوا آراءهم، حتى كأنهم جاهلون بأنه بين أظهرهم، فوضح جواز الاستئناف، والوقف على ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي فما أجدركم أن تطيعوا رسول اللّه وتأتمّوا به، فيقيكم اللّه بذلك من العنت فيما لو استتبعتم رأي رسول اللّه لرأيكم ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾ أي باللّه ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ يعني الكذب ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ أي مخالفة أمر رسول اللّه ﷺ، وتضييع ما أمر اللّه به.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي الموصوفون بمحبة الإيمان، وتزينه في قلوبهم، كراهتهم المعاصي ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي السالكون طريق الحق.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

﴿فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي إحساناً منه، ونعمة أنعمها عليكم. قال القاشانيّ: كان فضلاً بعنايته بهم في الأزل، المقتضية للهداية الروحانية الاستعدادية المستتبعة لهذه الكمالات في الأبد. ونعمة بتوفيقه إياهم للعمل بمقتضى تلك الهداية الأصلية، وإعانته بإفاضة الكمالات المناسبة لاستعداداتهم، حتى اكتسبوا ملكة العصمة الموجبة لكراهة المعصية. وهو تعليل لـ (حبّب) و (كرّه) وما بينهما اعتراض، أو نصب بفعل مضمر، أي جرى ذلك فضلاً، أو يبتغون فضلاً.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي ذو علم بالمحسن والمسيء، وحكمة في تدبير خلقه، وتصريفهم فيما شاء من قضائه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ﴾ أي تقاتلوا ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ قال ابن جرير: أي بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه، لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل.

﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَاعَلَى الأُخْرَى﴾ أي فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله، له وعليه، وتعدت ما جعل الله عدلاً بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما، ﴿فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي﴾ أي تعتدي وتأبى الإجابة إلى حكم الله ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه ﴿فَإِن فَاءَتْ﴾ أي رجعت الباغية، بعد قتالكم إياهم، إلى الرضا بحكم الله في كتابه ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ أي بالإنصاف بينهما، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلاً بين خلقه ﴿وَأَقْسِطُواْ﴾ أي اعدلوا في كل ما تأتون وتذرون. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي فيجازيهم أحسن الجزاء.

تنبيهات :

الأول - قال القاشانيّ: الاقتتال لا يكون إلا للميل إلى الدنيا، والركون إلى الهوى، والانجذاب إلى الجهة السفلية، والتوجه إلى المطالب الجزئية. والإصلاح إنما يكون من لزوم العدالة في النفس التي هي ظل المحبة، التي هي ظل الوحدة. فلذلك أمرالمؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما، على تقدير بغيهما. والقتال مع الباغية على تقدير بغي إحداهما، حتى ترجع. لكون الباغية مضادة للحق، دافعة له.

وقد روي أن هذه الآية نزلت في طائفتين من الأوس والخزرج اقتتلتا في بعض ما تنازعتا فيه بالنعال والأيدي، لا بالسيوف، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأتاهم فحجز بينهم وأصلح. روي ذلك من طريق عديدة، مما يقوي أن القتال الذي نزلت فيه كان حقيقياً.

ويروى عن الحسن أن الاقتتال بمعنى الخصومة، والقتال بمعنى الدفع مجازاً. قال - فيما رواه الطبريّ عنه -: كانت تكون الخصومة بين الحيين، فيدعوهم إلى الحكم، فيأبون أن يجيبوا، فأنزل الله ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ**﴾ إلى قوله ﴿**فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي**...﴾ الآية. يقول: ادفعوا إلى الحكم، فكان قتالهم الدفع. انتهى. ولا يخفى أن المادة قد تحمل على حقيقتها ومجازها فتتسع لهما. وقد قال اللغويون: ليس كل قتال قتلاً. وقد يفضي الخصام إلى القتل، فلا مانع أن يراد من الآية ما هو أعم، لتكون الفائدة أشمل - والله أعلم -.

الثاني - في (الإكليل): في الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغي، وقتال البغاة وهو شامل لأهل مكة كغيرهم، وأن من رجع منهم وأدبر لا يقاتل، لقوله ﴿**حَتَّى تَفِيءَ**﴾. انتهى.

وقد روىَ سعيد عن مروان قال: صرخ صارخ لعليّ يوم الجمل: لا يقتل مدبر ولا يذفف على جريح، ومن أغلق بابه فهو آمن ومن ألقى السلاح فهو آمن.

وقد اتفق الفقهاء على حرمة قتل مدبرهم وجريحهم، وأنه لا يغنم لهم مال، ولا تسبى لهم ذرية، لأنهم لم يكفروا ببغيهم ولا قتالهم. وعصمة الأموال تابعة لدينهم، ولذا يجب رد ذلك إليهم إن أخذ منهم. ولا يضمنوا ما أتلفوه حال الحرب من نفس أو مال. ومن قتل من أهل البغي غسل وكفن وصُلي عليه، فإن قتل العادل كان شهيداً، فلا يغسل ولا يصلى عليه، لأنه قتل في قتال أمره الله تعالى به، كشهيد معركة الكفار.

وإن أظهر قوم رأي الخوارج. مثل تكفير من ارتكب كبيرة، وترك الجماعة، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم، ولم يجتمعوا لحرب، لم يتعرّض لهم. وإن جنوا جناية وأتوا حداً، أقامه عليهم.

وإن اقتتلت طائفتان لعصبية، أو طلب رئاسة، فهما ظالمتان. لأن كل واحدة منهما باغية على الأخرى، وتضمن كل واحدة منهما ما أتلف على الأخرى.

هذه شذرة مما جاء في (الإقناع) و(شرحه) وتفصيله ثمة.

الثالث – قال في (شرح الإقناع) : في الآية فوائد : منها أنهم لم يخرجوا بالبغي عن الإيمان. وأنه أوجب قتالهم. وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه في قتالهم. وإجازة كل من منع حقّاً عليه. والأحاديث بذلك مشهورة: منها ما روى عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله (متفق عليه)[1]. وأجمع الصحابة على قتالهم، فإن أبا بكر قاتل مانعي الزكاة، وعلياً قاتل أهل الجمل، وأهل صفّين. انتهى.

وتدل الآية أيضاً على وجوب معاونة من بغى عليه، لقوله ﴿فَقَاتِلُوا۟﴾، وعلى وجوب تقديم النصح، لقوله ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، وعلى السعي في المصالحة، وذلك ظاهر.

الرابع – وجه الجمع في ﴿اقْتَتَلُوا۟﴾، مع أنه قد يقال: مقتضى الظاهر (اقتتلتا) هو الحمل على المعنى دون اللفظ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس. والنكتة في اعتبار المعنى أولاً. واللفظ ثانياً عكس المشهور في الاستعمال، ما قيل إنهم أولاً في حال القتال مختلطون مجتمعون، فلذا جمع أولاً ضميرهم، وفي حال الإصلاح متميزون متفارقون، فلذا ثنى الضمير ثانياً وسرُّ قَرْنِ الإصلاح الثاني بالعدل، دون الأول، لأن الثاني لوقوعه بعد المقاتلة مظنة للتحامل عليهم بالإساءة، أو لإيهام أنهم لما أحوجوهم للقتال استحقوا الحيف عليهم.

الخامس – (أقسط) الرباعيّ همزته للسلب. أي أزيلوا الجور، واعدلوا. بخلاف (قسط) الثلاثيّ، فمعناه جار. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ

---

(١) أخرجه البخاري في: الفتن، ٢– باب قول النبي ﷺ « سترون بعدي أموراً تنكرونها » حديث رقم ٢٥٤٧.

وأخرجه مسلم في: الإمارة، حديث ٤١ و ٤٢.

حَطَباً﴾ [الجن:١٥]، وهذا هو المشهور - خلافاً للزجاج - في جعلهما سواء - أفاده الكرخيّ -. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح، فإن من لوازم الإخوة أن يصطلحوا.

قال الشهاب: وتسمية المشاركة في الإيمان أُخوّة تشبيه بليغ، أو استعارة شبه المشاركة فيه بالمشاركة في أصل التوالد، لأن كلاًّ منهما أصل للبقاء، إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبديّ في الجنان.

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أي إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله، وحكم رسوله.

قال القاشانيّ: بيّن تعالى أن الإيمان الذي أقل مرتبته التوحيد والعمل، يقتضي الأخوة الحقيقية بين المؤمنين، للمناسبة الأصلية، والقرابة الفطرية، التي تزيد على القرابة الصورية، والنسبة الولادية، بما لا يقاس، لإقضائه المحبة القلبية، لا المحبة النفسانية، المسببة عن التناسب في اللحمة. فلا أقل من الإصلاح الذي هو من لوازم العدالة، وأحد خصالها، إذ لو لم يعدوا عن الفطرة، ولم يتكدروا بغواشي النشأة، لم يتقاتلوا، ولم يتخالفوا. فوجب على أهل الصفاء، بمقتضى الرحمة والرأفة والشفقة اللازمة للأخوة الحقيقية، الإصلاح بينهما، وإعادتهما إلى الصفاء. انتهى.

تنبيه:

وضع الظاهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين، للمبالغة في التقرير والتخصيص. وتخصيص الاثنين بالذكر دون الجمع، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان. فإذا لزمت المصالحة بين الأقل، كانت بين الأكثر ألزم، لأن الفساد في شقاق الجمع، أكثر منه في شقاق الاثنين - أفاده القاضي والزمخشريّ -.

وفي معنى الآية أحاديث كثيرة: كحديث[1] (المسلم أخو المسلم لا يظلمه

---

(١) أخرجه البخاري في: المظالم والغصب، ٣- باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يُسْلمه، حديث ١٢٠٢، عن ابن عمر.

ولا يسلمه). وحديث[١] (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه). وحديث[٢] (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر). وحديث[٣] (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وشبّك بين أصابعه ﷺ - وكلها في الصحاح-.

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي خافوا مخالفة حكمه، والإهمال فيه، ليرحمكم فيفصح عن سالف آثامكم، ويثيبك رضوانه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ﴾ أي لا يهزأ رجال من رجال، فيروا أنفسهم خيراً من المسخور منهم ﴿عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾ أي الساخرات.

قال أبو السعود: فإن مناط الخيرية في الفريقين، ليس ما يظهر للناس من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التي عليها يدور أمر السخرية غالباً. بل إنما هو الأمور الكامنة في القلوب، فلا يجترئ أحد على استحقار أحد، فلعله أجمع منه، لما نيط به من الخيرية عند الله تعالى، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى، والاستهانة بمن عظمه الله تعالى. ومن أهل التأويل من خص السخرية بما يقع من الغنيّ للفقير. وآخرون بما يعثر من أحد على زلة أو هفوة، فيسخر به من أجلها.

قال الطبريّ: والصواب أن يقال إن الله عَمَّ، بنهيه المؤمنين من أن يسخر بعضهم من بعض، جميعَ معاني السخرية. فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن، لا لفقره، ولا لذنب ركبه، ولا لغير ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في: الذكر، حيث رقم ٣٨، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، ٢٧- باب رحمة الناس والبهائم، حديث ٢٣٢٢، عن النعمان بن بشير.

(٣) أخرجه البخاري في: الصلاة، ٨٨- باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، حديث رقم ٣١٩، عن أبي موسى.

وقد عدّ الغزاليّ في (الإحياء) السخرية من آفات اللسان، وأوضح معناها بما لا مطلب وراءه فننقله هنا تتميماً للفائدة، قال رحمه اللّه.

الآفة الحادية عشرة – السخرية والاستهزاء: وهذا محرم مهما كان مؤذياً، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ...﴾ الآية. ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص، على وجه يُضحك منه. وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء. وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة، وفيه معنى الغيبة.

وقالت عائشة رضي اللّه عنها: حاكيت، فقال لي النبيّ ﷺ: واللّه ما أحب أني حاكيت إنساناً، ولي كذا وكذا.

وقال ابن عباس في قوله تعالى ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذاَ الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:٤٩]، إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة القهقهة بذلك

وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب الكبائر.

وقال معاذ بن جبل: قال النبيّ ﷺ: من عيّر أخاه بذنب قد تاب منه، لم يمت حتى يعمله.

وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير، والضحك عليه، والاستهانة به، والاستصغار له. وعليه نبه قوله تعالى: ﴿عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِنْهُمْ﴾. أي لا تستحقره استصغاراً، فلعله خير منك. وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به. فأما من جعل نفسه مسخرة، وربما فرح من أن يسخر به، كانت السخرية في حقه من جملة المزح. ومنه ما يذم وما يمدح. وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به، لما فيه من التحقير والتهاون، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة، كالضحك على حفظه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته، إذا كان قصيراً أو ناقصاً، لعيب من العيوب، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهيّ عنها. انتهى.

لطيفة:

قال أبو السعود: القوم مختص بالرجال، لأنهم القُوَّام على النساء (والأحسن المهمات) وهو في الأصل إما جمع قائم كصَوْم وزَوْر في جمع صائم وزائر. أو مصدر

نعت به فشاع في الجمع. وأما تعميمه للفريقين في مثل قوم عاد وقوم فرعون، فإما للتغليب، أو لأنهن توابع. واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية في المجامع. والتنكير إما للتعميم أوللقصد إلى نهي بعضهم عن سخرية بعض، لما أنها مما يجري بين بعض وبعض.

﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا يعيب بعضكم على بعض ولا يطعن.

قال الشهاب: ضمير ﴿ تَلْمِزُواْ ﴾ للجمع بتقدير مضاف فيه. و ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين، وهم المؤمنون، فجعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم، كما في قوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]، فأطلق الأنفس على الجنس استعارة. ففي اللفظ الكريم تجوّز، وتقدير مضاف. والنهي على هذا مخصوص بالمؤمنين، وهو مغاير لما قبله، وإن كان مخصوصاً بالمؤمنين أيضاً بحسب المفهوم، لتغاير الطعن والسخرية، فلا يقال إن الأول مغن عنه، إذ السخرية ذكره بما يكره على وجه مضحك بحضرته، وهذا ذكره بما يكره مطلقاً. أو هو تعميم بعد التخصيص، كما يعطف العام على الخاص، لإفادة الشمول. وقيل: إنه من عطف العلة على المعلول، أو اللمز مخصوص بما كان على وجه الخفية، كالإشارة. أو هو من عطف الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مبالغة. انتهى.

وقيل: معنى الآية: لا تفعلوا ما تلمزون به، فإن من فعل ما استحق به اللمز، فقد لمز نفسه.

قال الشهاب: فـ ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ على ظاهره والتجوّز في قوله ﴿ تَلْمِزُواْ ﴾. فهو مجاز ذكر فيه المسبّب، وأريد السبب. والمراد: لا ترتكبوا أمراً تعابون به. وضعف بأنه بعيد من السياق، وغير مناسب لقوله ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ ﴾، كما في (الكشف)، وكونه من التجوّز في الإسناد، إذ أسند فيه ما للمسبب إلى السّبب، تكلف ظاهر. وكذا كونه كالتعليل للنهي السابق، لا يدفع كونه مخالفاً للظاهر. وكذا كون المراد به لا تتسببوا في الطعن فيكم، بالطعن على غيركم، كما في الحديث[1] (من الكبائر أن يشتم الرجل والديه)، إذ فُسّر بأنه إذا شتم والدي غيره، شتم الغيرُ والديه أيضاً.

﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ ﴾ أي ولا تداعوا بالألقاب التي يكره النبزَ بها الملقب فقد

---

(١) أخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ١٤٦، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

روي أنه عنى بها قوم كانت لهم أسماء في الجاهلية، فلما أسلموا كانوا يغضبون من الدعاء بها رواه أحمد[1] وأبو داود. وفسره بعض السلف بقول الرجل للرجل: يا فاسق، يا منافق!، وبعض بتسمية الرجل بالكفر بعد الإسلام، وبالفسوق بعد التوبة. والآية – كما قال ابن جرير –: تشمل ذلك كله قال: لأن التنابز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة.

﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ﴾ قال الزمخشريّ: ﴿الاسْمُ﴾ ههنا بمعنى الذكر. من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم، كما يقال: طار ثناؤه وصيته. وحقيقته ما سما ذكره، وارتفع بين الناس. ألا ترى إلى قولهم: أشاد بذكره؟ كأنه قيل بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر، أن يذكروا بالفسق. وفي قوله: ﴿بَعْدَ الإيمَانِ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها – استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان ويحظره، كما تقول: بئس الشأن بعد الكبرة، الصبوةُ.

والثاني – أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يايهوديّ! يافاسق! فنهوا عنه، وقيل لهم: بئس الذكر، أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه. والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهي عن التنابز.

والثالث – أن يجعل من فسق غير مؤمن، كما تقول للمتحوّل عن التجارة إلى الفلاحة: بئست الحرفة، الفلاحة بعد التجارة. انتهى.

واختار ابن جرير الثالث، لا ذهاباً لرأي المعتزلة من أن الفاسق غير مؤمن، كما أنه غير كافر، فهو في منزلة بين المنزلتين؛ بل لأن السياق يقتضي ختم الكلام بالوعيد، فإن التقليب بما يكرهه الناس أمر مذموم لا يجتمع مع الإيمان، فإن شعار الجاهلية. وعبارته: يقول تعالى ذكره: ومن فعل ما نهينا عنه، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه، فسخر من المؤمنين، ولمز أخاه المؤمن، ونبزه بالألقاب، فهو فاسق ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ﴾ يقول: فلا تفعلوا فتستحقوا، إن فعلتموه، أن تسموا فساقاً، بئس الاسم الفسوق. وترك ذكر ما وصفنا من الكلام، اكتفاء بدلالة قوله ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ﴾ عليه. ثم ضعف القول الثاني وقال: وغير ذلك من التأويل أولى بالكلام، وذلك أن الله تقدم بالنهي عما تقدم النهي عنه في أول هذه الآية،

---

(١) أخرجه في المسند ٤ / ٢٦٠ .

فالذي هو أولى أن يختمها بالوعيد لمن تقدم على بغيه، أو بقبيح ركوبه ما ركب مما نهي عنه، لا أن يخبر عن قبح ما كان التائب أتاه من قبل توبته، إذ كانت الآية لم تفتتح بالخبر عن ركوبه ما كان ركب قبل التوبة من القبيح، فيختم آخرها بالوعيد عليه، أو بالقبيح. انتهى.

﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ أي من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه به من الألقاب، أو لمزه إياه، أو سخريته منه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها العقاب بركوبهم ما نهوا عنه.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ﴾ أي كونوا على جانب منه. وذلك بأن تظنوا بالناس سوءاً، فإن الظانّ غير محقق. وإبهام (الكثير) لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه، إذ لا داعية تدعو المؤمن للمشي وراءه، أو صرف الذهن فيه، بل من مقتضى الإيمان ظن المؤمنين بأنفسهم الحسن. قال تعالى: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُواْ هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]. نعم! من أظهر فسقه، وهتك ستره، فقد أباح عرضه للناس. ومنه ما روي: من ألقى جلباب الحياء، فلا غيبة له. ولذا قال الزمخشريّ: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة، وسبب ظاهر، كان حراماً واجب الاجتناب. وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد من الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظنُّ الفساد والخيانة به محرم، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريَب، والمجاهرة بالخبائث.

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ﴾ وهو ظن المؤمن بالمؤمن الشر، لا الخير ﴿إِثْمٌ﴾ أي مكسب للعقاب، لأن فيه ارتكاب ما نهي عنه.

قال حجة الإسلام الغزاليّ في (الإحياء) في بيان تحريم الغيبة بالقلب: اعلم أن سوء الظن حرام، مثل سوء القول. فكما يحرم عليك أن تحدّث غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تحدّث نفسك، وتسيء الظن بأخيك. قال: ولست

أعني به إلا عقد القلب، وحكمه على غيره بسوء الظن. فأما الخواطر وحديث النفس، فهو معفوّ عنه، بل الشك أيضاً معفوّ عنه. ولكن المنهيّ عنه أن يظن. والظن عبارة عما تركن إليه النفس، ويميل إليه القلب. فقد قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. قال: وسبب تحريمه أن أسرار القلوب، لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل. فعند ذلك لا يمكنك أن لا تعتقد ما علمته وشاهدته. وما لم تشاهده بعينك، ولم تسمعه بأذنك، ثم وقع في قلبك، فإنما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذّبه فإن أفسق الفساق. إلى أن قال: فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال، وهو بعينٍ مشاهدة، أو بينة عادلة. انتهى.

ولما كان من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، ذكر سبحانه النهي عنه، إثر سوء الظن لذلك، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُواْ﴾ قال ابن جرير: أي لا يتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذموا، لاعلى ما تعلمونه من سرائره.

يقال: تجسس الأمر إذا تطلبه، وبحث عنه، كتلمس. قال الشهاب: الجس (بالجيم) كاللمس، فيه معنى الطلب، لأن من يطلب الشيء يمسه ويجسه، فأريد به ما يلزمه. واستعمل التفعل للمبالغة فيه.

قال الغزاليّ: ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله. فيتوصل إلى الاطلاع، وهتك الستر، حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه، كان أسلم لقلبه ودينه.

وقد روي في معنى الآية أحاديث كثيرة. منها حديث[١] أن النبيّ ﷺ خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن، فقال: «يامعشر من آمن بلسانه، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه! لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه، ولو في جوف بيته».

وفي الصحيح[٢] عنه ﷺ: «لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

---

(١) أخرجه الترمذي في: البرّ والصلة، ٨٥- باب ما جاء في تعظيم المؤمن، عن ابن عمر.

(٢) أخرجه البخاري في: النكاح، ٤٥- باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، حديث رقم ٢١٢٥، عن أبي هريرة.

وروى أبو داود[١]؛ أن ابن مسعود رضي اللّه عنه أتى برجل، فقيل له: هذا فلان، تقطر لحيته خمراً! فقال: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به – والرجل سماه ابن أبي حاتم في روايته: الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وروى أبو داود[٢] عن معاوية قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم». فقال أبو الدرداء رضي اللّه عنه: كلمةٌ سمعها معاوية من رسول اللّه، نفعه اللّه بها.

وروى الإمام أحمد[٣] عن دجين، كاتب عقبة، قال: قلت لعقبة: إنا لنا جيراناً يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشُّرَط فيأخذونهم! قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم! قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دجين فقال: إني نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشُّرَط فتأخذهم! فقال له عقبة: ويحك! لا تفعل، فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيى موؤودة من قبرها»!.

وروى أبو داود[٤] عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم».

قال الأوزاعيّ: ويدخل في التجسس استماع قوم وهم له كارهون.

﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**﴾ أي لا يقل بعضكم في بعض بظهر الغيب، ما يكره المقول فيه ذلك، أن يقال له في وجهه. يقال: غابه واغتابه، كغاله واغتاله، إذا ذكره بسوء في غيبته. ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾؟ أي فلو عرض عليكم، نفرت عنه نفوسكم، وكرهتموه. فلذا ينبغي أن تكرهوا الغيبة. وفيه استعارة تمثيلية، مثَّل اغتياب الإنسان لآخر بأكل لحم الأخ ميتاً.

لطائف:

الأولى – قال الزمخشريّ: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ**﴾ الخ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه، وفيه مبالغات شتى: منها – الاستفهام الذي معناه التقرير (وهو يفيد المبالغة من حيث إنه لا يقع في كلام مسلم

---

(١) أخرجه أبو داود في: الأدب، ٣٧– باب في النهي عن التجسس، حديث رقم ٤٨٩٠.
(٢) أخرجه أبو داود في: الأدب، ٣٧– باب في النهي عن التجسس، حديث ٤٨٨٨.
(٣) أخرجه في المسند ٤ /١٤٧.
(٤) أخرجه في: الأدب، ٣٧– باب في النهي عن التجسس، حديث رقم ٤٨٨٩.

عند كل سامع، حقيقةً أو ادعاءً) ومنها – جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. ومنها – إسناد الفعل إلى (أحدكم) والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك.

ومنها – أن لم يقتصر تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعل الإنسان أخاً.

ومنها – أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ، حتى جعل ميتاً. انتهى.

وقال ابن الأثير في (المثل السائر) في بحث الكناية: فمن ذلك قوله تعالى ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ الخ فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً، ثم جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له، مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله. فأما جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان لحم إنسان آخر مثله، فشديد المناسبة جداً، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس، وتمزيق أعراضهم. وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة. وأما جعله كلحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها، آمران بتركها، والبعد عنها. ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهته. ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه. فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة. وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة، والشهوة لها، مع العلم بقبحها فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبهاً، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التي أشرنا إليها، وجدتها مناسبة لما قصدت له. انتهى.

الثانية – الفاء في قوله تعالى ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فصيحة في جواب شرط مقدّر. والمعنى: إن صح ذلك، أو عرض عليكم هذا، فقد كرهتموه، فما ذكر جواب للشرط، وهو ماض فيقدر معه (قد) ليصح دخول الفاء على الجواب الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان:١٩]، وضمير ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ للأكل، وقد جوز كونه للاغتياب المفهوم منه. والمعنى: فاكرهوه كراهيتكم لذلك الأكل. وعبر عنه بالماضي للمبالغة، فإذا أوّل بما ذكر يكون إنشائياً غير محتاج لتقدير (قد) – أفاده الشهاب –.

الثالثة – قال ابن الفَرَس: يستدل بالآية على أنه لا يجوز للمضطر أكل ميتة

الآدميّ لأنه ضرب به المثل في تحريم الغيبة، ولم يضرب بميتة سائر الحيوان. فدل على أنه في التحريم فوقها. ومن أراد استيفاء مباحث الغيبة فعليه (بالإحياء) للغزاليّ، فإنه جمع فأوعى.

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ أي خافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظن السوء والتجسس عما ستر والاغتياب وغير ذلك من المناهي. ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي يقبل توبة التائبين إليه، ويتكرم برحمته عن عقوبتهم بعد متابهم.

ثم نبه تعالى، بعد نهيه عن الغيبة واحتقار الناس بعضهم لبعض، على تساويهم في البشرية، كما قال ابن كثير، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ أي من آدم وحواء. أو من ماء ذكر من الرجال، وماء أنثى من النساء. أي: من أب وأم، فما منكم أحد إلا وهو يدلي بمثل ما يدلي به الآخر، سواء بسواء، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ﴾ قال ابن جرير: وجعلناكم متناسبين، فبعضكم يناسب بعضاً نسباً بعيداً، وبعضكم يناسب بعضاً نسباً قريباً. ليعرف بعضكم بعضاً في قرب القرابة منه وبعده، لا لفضيلة لكم في ذلك، وقربة تقربكم إلى الله، بل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي أشدكم اتقاء له وخشية بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتاً، ولا أكثركم عشيرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي بظواهركم وبواطنكم، وبالأتقى والأكرم، وغير ذلك، لا تخفى عليه خافية.

تنبيهات:

الأول - حكى الثعالبيّ في (فقه اللغة) في تدريج القبيلة من الكثرة إلى القلة عن ابن الكلبيّ عن أبيه: أن الشَّعب (بفتح الشين) أكبر من القبيلة، ثم القبيلة، ثم العِمارة، (بكسر العين) ثم البطن، ثم الفخذ. وعن غيره: الشعب، ثم القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العشيرة، ثم الذرية، ثم العترة، ثم الأسرة. انتهى.

وقال الشيخ ابن برّي: الصحيح في هذا ما رتبه الزبير بن بكار وهو: الشعب، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، قال أبو أسامة: هذه الطبقات على ترتيب خلق الإنسان، فالشعب أعظمها، مشتق من شعب الرأس، ثم القبيلة من قبيلة الرأس لاجتماعها، ثم العمارة وهي الصدر، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة وهي الساق. وزاد بعضهم العشيرة فقال:

اقصد الشّعب فهو أكثر حيّ عدداً في الحواء ثم القبيلهْ
ثم يتلوهما العمارة ثم الـ ـبَطْنُ والفخذُ بعدها والفصيلهْ
ثم من بعدها العشيرة لكن هي في جنب ما ذكرنا قليلهْ

فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصيّ بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة. وسميت (الشعوب) لأن القبائل تشعبت منها. و (الشعوب) جمع شعب، بفتح الشين.

قال أبو عبيد البكريّ في (شرح نوادر أبي علي القالي): كل الناس حكى الشعب في القبيلة بالفتح، وفي الجبل بالكسر، إلا بندار فإنه رواه عن أبي عبيدة بالعكس. نقله الزبيديّ في (تاج العروس).

الثاني – في الآية الاعتناء بالأنساب، وأنها شرعت للتعارف، وذم التفاخر بها، وأن التقيّ غير النسيب، يقدم على النسيب غير التقيّ، فيقدم الأورع في الإمامة على النسيب غيرهما.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال: سألت مالكاً عن نكاح الموالي العربية فقال: حلال، ثم تلا هذه الآية، فلم يشترط في الكفاءة الحرية – نقله في (الإكليل).

وقال ابن كثير: استدل بالآية، من ذهب إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين.

الثالث – أفاد قوله تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ حصر حكمة جعلهم شعوباً وقبائل فيه. أي إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً، فتصلوا الأرحام، وتبينوا الأنساب والتوارث، لا للتفاخر بالآباء والقبائل.

قال الشهاب: الحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر، والسكوت في معرض البيان.

وقال القاشانيّ: معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ لا كرامة بالنسب، لتساوي الكل في البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى. والامتياز بالشعوب والقبائل إنما يكون لأجل التعارف بالانتساب، لا للتفاخر، فإنه من الرذائل. والكرامة لا تكون إلا بالاجتناب عن الرذائل الذي هو أصل التقوى. ثم كلما كانت التقوى أزيد رتبة، كان صاحبها أكرم عند الله، وأجل قدراً. فالمتقي عن المناهي الشرعية، التي هي الذنوب، في عرف ظاهر الشرع، أكرم من الفاجر، وعن الرذائل الخلقية كالجهل والبخل والشره والحرص والجبن، أكرم من المجتنب عن المعاصي الموصوف بها. انتهى.

الرابع – روي في معنى الآية أحاديث كثيرة، منها ما رواه البخاريّ [١] عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أيّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس يوسف نبيّ الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم. قال: فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا».

وروى مسلم[٢] عنه أيضاً: قال رسول الله ﷺ: إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

وروى الإمام[٣] أحمد عن أبي ذر قال: إن النبيّ ﷺ قال له: انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود، إلا أن تفضله بتقوى الله.

وروى البزّار في مسنده عن حذيفة عن النبيّ ﷺ: «كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان».

وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر؛ أن النبيّ ﷺ قال في خطبته يوم فتح مكة: «أيها الناس! إن الله تعالى قد أذهب عنكم عَيْبَةَ الجاهلية وتعظمها بآبائها. فالناس رجلان: رجل برٌّ تقيّ كريم على الله تعالى، ورجل فاجر يُتَّقَى، هين على الله تعالى. إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى..﴾ الآية».

---

(١) أخرجه في: الانبياء، ٨– باب قول الله تعالى ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾، حديث رقم ١٥٨٧.
(٢) أخرجه مسلم في: البرّ والصلة والآداب. حديث رقم ٣٤. عن أبي هريرة.
(٣) أخرجه في المسند في ٥/ ١٥٨.

وبقيت أحاديث أخر ساقها ابن كثير، فانظرها.

وروى الطبريّ عن عطاء قال: قال ابن عباس: ثلاث آيات جحدهن الناس: الإذن كله وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وقال الناس: أكرمكم أعظمكم بيتاً. قال عطاء: نسيت الثالثة.

ولما كانت طليعة السورة في الحديث عن جفاة الأعراب، والإنكار على مساوئ أخلاقهم، ثم تأثرها من المناهي عن المنكرات التي تكثر فيهم، ما كانوا فيها هم المقصود أولاً وبالذات، ثم غيرهم ثانيا وبالعرض ختمها بتعريف أن من كان على شاكلتهم في ارتكاب تلك المناهي، فهو ممن لم يخامر فؤاده الإيمان، ثم بيان مَن المؤمن حقاً، ليفقهوا أن الأمر ليس كما يزعمون، فقال سبحانه وتعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ﴾ أي المحدث عنهم في أول السورة ﴿ءَامَنَّا﴾ أي بالله ورسوله، فنحن مؤمنون، زعماً أن التلفظ بمادة الإيمان هو عنوان كل مكرمة وإحسان. ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُواْ﴾ أي لستم مؤمنين، وإن أخبرتم عنه، لأن الإيمان قول وعمل. ﴿وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا﴾ أي انقدنا ودخلنا في السلم خوف السباء والقتل ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي لأنه لو حل الإيمان في القلوب لتأثر منه البدن، وظهر عليه مصداقه من الأعمال الصالحة، والبعد من ركوب المناهي، فإن لكل حق حقيقة، ولكل دعوى شاهد. فإن قيل: في قوله ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ بعد قوله ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُواْ﴾ شبه التكرار من غير استقلال بفائدة متجددة؟ والجواب: إن فائدة قوله ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ تكذيب دعواهم، وقوله ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه، كأنه قيل لهم: ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم، لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في ﴿قُولُواْ﴾. وما في ﴿لَمَّا﴾ من معنى التوقع، دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد، فلا تكرار. هذا ما أشار له الزمخشريّ، واختار كون الجملة حالاً، لا مستأنفة، إخباراً منه تعالى، فإنه غير مفيد لما ذكر.

تنبيهات:

الأول – قال في (الإكليل): استدل بالآية من لم ير الإيمان والإسلام مترادفين،

بل بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق، لأن الإسلام الانقياد للعمل ظاهراً، والإيمان تصديق القلب كما قال ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. انتهى.

وهذا الاستدلال في غاية الضعف. لأن ترادفهما شرعاً لا يمنع من إطلاقهما بمعناهما اللغويّ في بعض المواضع. وإبانة ذلك موكولة إلى القرائن، وهي جلية، كما هنا. وإلا فآية ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، أكبر مناد على اتحادهما. ومن اللطائف أن يقال في الإيمان والإسلام ماقالوه في الفقير والمسكين، إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. والإيمان والإسلام وأمثالهما ألفاظ شرعية محضة، ولم يطلقها الشرع إلا على القول والعمل، كما أوضح ذلك الإمام ابن حزم في (الفصل) فانظره.

الثاني – قال في (الإكليل): في الآية رد على الكرامية في قولهم إن الإيمان هو الإقرار باللسان، دون عقد القلب، وهو ظاهر. وقد استوفى الرد عليهم كغيرهم، الإمام ابن حزم في (الفصل)، فراجعه..

الثالث – قيل، مقتضى الظاهر أن يقول: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا. أو: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم. فعدل عنه إلى هذا النظم احترازاً من النهي عن القول بالإيمان والجزم بإسلامهم، وقد فقد شرط اعتباره شرعاً. وقيل: إنه من الاحتباك، وأصله: لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا، ولكن أسلمتم، فقولوا أسلمنا، فحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر. والأول أبلغ لأنهم ادعوا الإيمان فنفي عنهم، ثم استدرك عليه فقال: دعوا ادعاء الإيمان، وادّعوا الإسلام، فإنه الذي ينبغي أن يصدر عنكم على ما فيه، فنفى الإيمان، وأثبت لهم قول الإسلام دون الاتصاف به، وهو أبلغ مما ذكر من الاحتباك، مع سلامته من الحذف بلا قرينة – هذا ما في القاضي وحواشيه.

﴿وَإِن تُطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فتأتمروا لأوامرهما، وتنتهوا عما نهياكم عنه. والخطاب لهؤلاء الأعراب القائلين آمنا ﴿لاَ يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ أي لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئاً، ولا ينقصكم من ثوابها.

قال الزمخشريّ: يقال (ألته السلطان حقه أشد الألت) وهي لغة غطفان. ولغةُ أسد، وأهل الحجاز – لاته ليتاً – وحكى الأصمعيّ عن أم هشام السلولية أنها قالت: الحمد لله الذي لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات. وقرئ باللغتين ﴿لاَ يَلِتْكُمْ﴾ و(لا يألتكم). ونحوه في المعنى ﴿فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لمن أطاعه وتاب إليه من سالف ذنوبه، فأنيبوا إليه أيها الأعراب، وتوبوا من النفاق، واعقدوا قلوبكم على الإيمان، والعمل بمقتضياته، يغفر لكم ويرحمكم.

ثم بين تعالى الإيمان، وما به يكون المؤمن مؤمناً، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به من وحدانية اللّه ونبوّة نبيه، وألزموا نفوسهم طاعة اللّه، وطاعة رسوله، والعمل بما وجب عليهم من فرائض اللّه بغير شك في وجوب ذلك عليهم. ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جاهدوا المشركين بإنفاق أموالهم، وبذل مهجهم في جهادهم، على ما أمرهم اللّه به من جهادهم، وذلك سبيله، لتكون كلمة اللّه العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى – قاله ابن جرير: وقدَّمْنا مراراً أن قصر (سبيل اللّه) على غزو الكفار المعتدين، من باب قصر العام على أهم أفراده وأعلاها، وإلا فسبيل اللّه يعم العبادات والطاعات كلها، لأنها في سبيله وجهته.

قال الشهاب: وقدم الأموال، لحرص الإنسان عليها، فإن ماله شقيق روحه. و﴿جَاهَدُوا﴾ بمعنى: بذلوا الجهد. أو مفعوله مقدر، أي العدوّ أو النفس والهوى.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي الذين صدقوا في ادّعاء الإيمان، لظهور أثر الصدق على جوارحهم، وتصديق أفعالهم وأقوالهم. وفيه تعريض يكذب أولئك الأعراب في ادعائهم الإيمان وإفادة للحصر. أي: هم الصادقون، لا هؤلاء، أو إيمانهم إيمان صدق وجد.

تنبيهات:

الأول – قال في (الإكليل): في الآية دليل على أن الأعمال من الإيمان. وقدمنا أن هذا ما لا خلاف فيه بين السلف، وليراجع في ذلك ما بسطه ابن حزم رحمه اللّه في (الفِصَل).

الثاني – قال القاشانيّ: في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ..﴾ الآية إشارة إلى

الإيمان المعتبر الحقيقيّ، وهو اليقين الثابت في القلب المستقر الذي لا ارتياب معه، لا الذي يكون على سبيل الخطرات، فالمؤمنون هم الموقنون الذين غلبت ملكة اليقين قلوبهم على نفوسهم، ونورتها بأنوارها، فتأصلت فيها ملكة القلوب حتى تأثرت بها الجوارح، فلم يمكنها إلا الجري بحكمها، والتسخر لهيآتها، وذلك معنى قوله: ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بعد نفي الارتياب عنهم، لأن بذل المال والنفس في طريق الحق هو مقتضى اليقين الراسخ، وأثره في الظاهر. انتهى.

الثالث – قال في (الكشاف): فإن قلت: ما معنى (ثم) ههنا، وهي للتراخي. وعدمُ الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان، لأنه وصف فيه، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؟ قلت: الجواب على طريقين:

أحدهما – أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان، أو بعض المضلين، بعد ثلج الصدر، فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه. أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك، ثم يستمر على ذلك، راكباً رأسه، لا يطلب له مخرجاً. فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه الموبقات. ونظيره قوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ ﴾.

والثاني – أن الإيقان وزوال الريب، لما كان ملاك الإيمان، أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيهاً على مكانه. وعطف على الإيمان بكلمة التراخي، إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضاً جديداً. انتهى.

يعني: أنه إما لنفي الشك عنهم فيما بعد، فدل على أنهم كما لم يرتابوا أولاً لم تحدث لهم ريبة، فالتراخيّ زمانيّ لا رتبيّ على ما مرّ في قوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ ﴾. أو عطفه عليه عطف جبريل على الملائكة، تنبيهاً على أصالته في الإيمان، حتى كأنه شيء آخر. فثم دلالة على استمراره قديماً وحديثاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

﴿ **قُلْ** ﴾ أي لهؤلاء الأعراب القائلين بأفواههم ﴿ ءَامَنَّا ﴾. ﴿ **أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ** ﴾ أي أتخبرونه بقولكم ﴿ ءَامَنَّا ﴾، بطاعتكم إياه لتكونوا مع المؤمنين عنده، ولا تبالون بعلمه بما أنتم عليه، من التعليم، بمعنى الإعلام والإخبار، فلذا تعدى

للثاني بالباء. وقيل: تعدى بها لتضمين معنى الإحاطة أو الشعور. وفيه تجهيل لهم وتوبيخ. أي لأن قولهم ﴿ءَامَنَّا﴾ إن كان إخباراً للخلق فلا دليل على صدقه، وإن كان للحق تعالى فلا معنى له، لأنهم كيف يعلمونه، وهو العالم بكل شيء، كما قال ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال ابن جرير: هذا ما تقدم من الله إلى هؤلاء الأعراب بالنهي عن أن يكذبوا ويقولوا غير الذي هم عليه من دينهم. يقول: الله محيط بكل شيء عالم به، فاحذروا أن تقولوا خلاف مايعلم من ضمائركم، فينالكم عقوبته، فإنه لا يخفى عليه شيء.

ثم أشار إلى نوع آخر من جفائهم، مختوماً بتوعدهم، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾ أي انقادوا وكثّروا سواد أتباعك. ﴿قُلْ لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ﴾ أي بإسلامكم، إذ لا ثمرة منه إليّ ﴿مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في قولكم ﴿ءَامَنَّا﴾ لكن علم الله من قلوبكم أنكم كاذبون، لاطلاعه على الغيوب، كما قال:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال ابن جرير يقول تعالى ذكره: إن الله أيها الأعراب لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب، ومن الداخل منكم في ملة الإسلام رغبة فيه، ومن الداخل فيه رهبة من الرسول وجنده، فلا تعلّمونا دينكم وضمائر صدوركم، فإن الله لا يخفى عليه شيء في خبايا السموات والأرض.

تنبيهات:

الأول – روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يارسول الله! أسلمنا وقاتلتك العرب، ولم نقاتلك. فقال

رسول الله ﷺ: إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم - ونزلت هذه الآية -.

وقال ابن زيد: هذه الآيات نزلت في الأعراب. ولا يبعد أن يكون المحدث عنهم في آخر السورة من جفاة الأعراب، غير المعنيين أولَها، وإنما ضموا إليهم لاشتراكهم معهم في غلظة القول وخشونته، ويحتمل أن يكون النبأ لقبيلة واحدة - والله أعلم.

الثاني - في قوله تعالى ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية، ملاحظة المنة لله، والفضل في الهداية، والقيام بواجب شكرها، والاعتراف بها، كما قال النبيّ ﷺ للأنصار يوم حنين[1]: «يامعشر الأنصار! الم أجدكم ضلاّلاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بي. وكنتم عالة فاغناكم الله بي»؟ - كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أمنّ.

وما الطف قول أبي إسحاق الصابي في طليعة كتاب له، بعد الثناء على الله تعالى: وبعثُ إليهم رسلاً منهم يهدونهم إلى الصراط المستقيم، والفوز العظيم، ويعدلون بهم عن المسلك الذميم، والمورد الوخيم، فكان آخرهم في الدنيا عصراً، وأولهم يوم الدين ذكراً، وأرجحهم عند الله ميزاناً، وأوضحهم حجة وبرهاناً، وأبعدهم في الفضل غاية، وأبهرهم معجزة وآية، محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً، الذي اتخذه صفيّاً وحبيباً، وأرسله إلى عباده بشيراً ونذيراً، على حين ذهاب منهم مع الشيطان، وصدوف عن الرحمن، وتقطيع للأرحام، وسفك للدماء الحرام، واقتراف للجرائم، واستحلال للمآثم. أنوفهم في المعاصي حمية، ونفوسهم في غير ذات الله أبية، يدعون معه الشركاء، ويضيفون إليه الأكفاء، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً. فلم يزل ﷺ يقذف في أسماعهم فضائل الإيمان، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن، ويدعوهم إلى عبادة الله باللطف لمّا كان وحيداً، وبالعنف لمّا وجد أنصاراً وجنوداً. لا يرى للكفر أثراً إلا طمسه ومحاه، ولا رسماً إلاأزاله وعفّاه، ولا حجة مموّهة إلا كشفها ودحضها، ولا دعامة مرفوعة إلا حطها ووضعها، حتى ضرب الحق بجرانه، وصدع ببيانه، وسطع بمصباحه، ونصع بأوضاحه، واستنبط

---

(١) أخرجه البخاري في: المغازي، ٥٦- باب غزوة الطائف، حديث رقم ١٩٣١، عن عبد الله بن زيد ابن عاصم

اللّه هذه الأمة من حضيض النار، وعلاّها إلى ذروة الصلحاء والأبرار، واتصل حبلها بعد البتات، والتأم شملها بعد الشتات، واجتمعت بعد الفرقة، وتوادعت بعد الفتنة، فصلى اللّه عليه صلاة زاكية نامية، رائحة غادية، منجزة عدته، رافعة درجته.

الثالث – قال الرازيّ: هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق. وهي إما مع اللّه تعالى، أو مع الرسول ﷺ، أو مع غيرهما من أبناء الجنس. وهم على صنفين: لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين، وداخلين في رتبة الطاعة، أو خارجاً عنها، وهو الفاسق. والداخل في طائفتهم، السالك لطريقتهم، إما أن يكون حاضراً عندهم، أو غائباً عنهم، فهذه خمسة أقسام:

أحدها – يتعلق بجانب اللّه.

وثانيها – بجانب الرسول.

وثالثها – بجانب الفسّاق.

ورابعها – بالمؤمن الحاضر.

وخامسها – بالمؤمن الغائب.

فذكر اللّه تعالى في هذه السورة خمس مرات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأرشد في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة.

فقال أولاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وذكر الرسول كان لبيان طاعة اللّه، لأنها لا تعلم إلا بقول رسول اللّه.

وقال ثانياً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ لبيان وجوب احترام النبيّ ﷺ.

وقال ثالثاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم، وبيّن ذلك عند تفسير قوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ﴾.

وقال رابعاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ وقال ﴿وَلاَ تَنَابَزُواْ﴾ لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم، والإزراء بحالهم ومنصبهم.

وقال خامساً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وقال: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُواْ﴾ وقال: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ لبيان وجوب الاحتراز

عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته، وذكر ما لو كان حاضراً لتاذى. وهو في غاية الحسن من الترتيب.

فإن قيل: لِمَ لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة. الابتداء بالله ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم الفاسق؟.

نقول: قدم الله ما هو الأهم على ما دونه، فذكر جانب الله، ثم جانب الرسول، ثم ذكر ما يفضي إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق، والاعتماد عليه، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفاراً للصدور. وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذي المؤمن إلى حدٍّ يفضي إلى القتال. ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق، آية الاقتتال فقال ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾؟ انتهى.

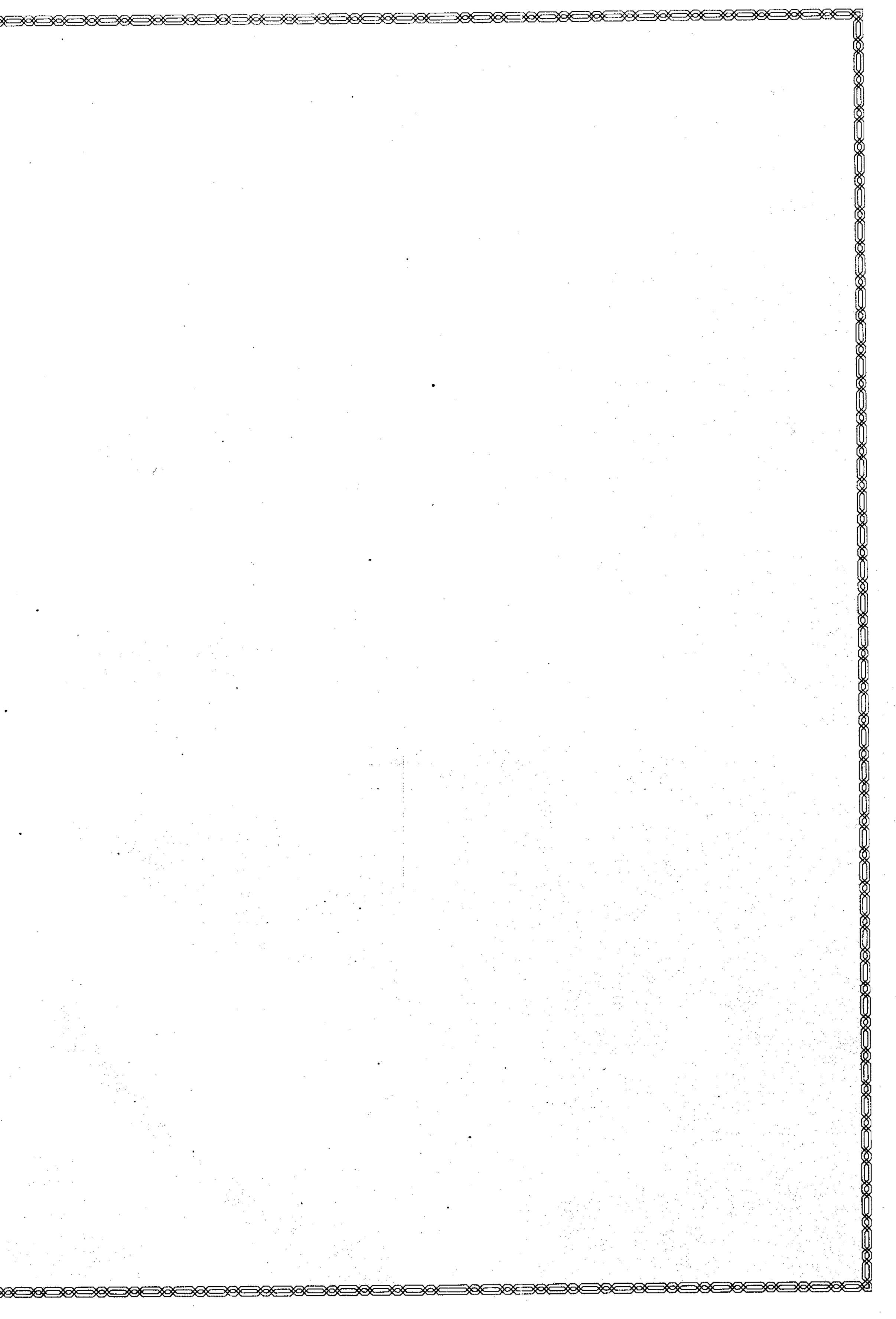
فهرس الجزء الثامن

من

كتاب تفسير القاسمي

المسمى

محاسن التاؤيل



فهرس الجزء الثامن

سورة الحجرات